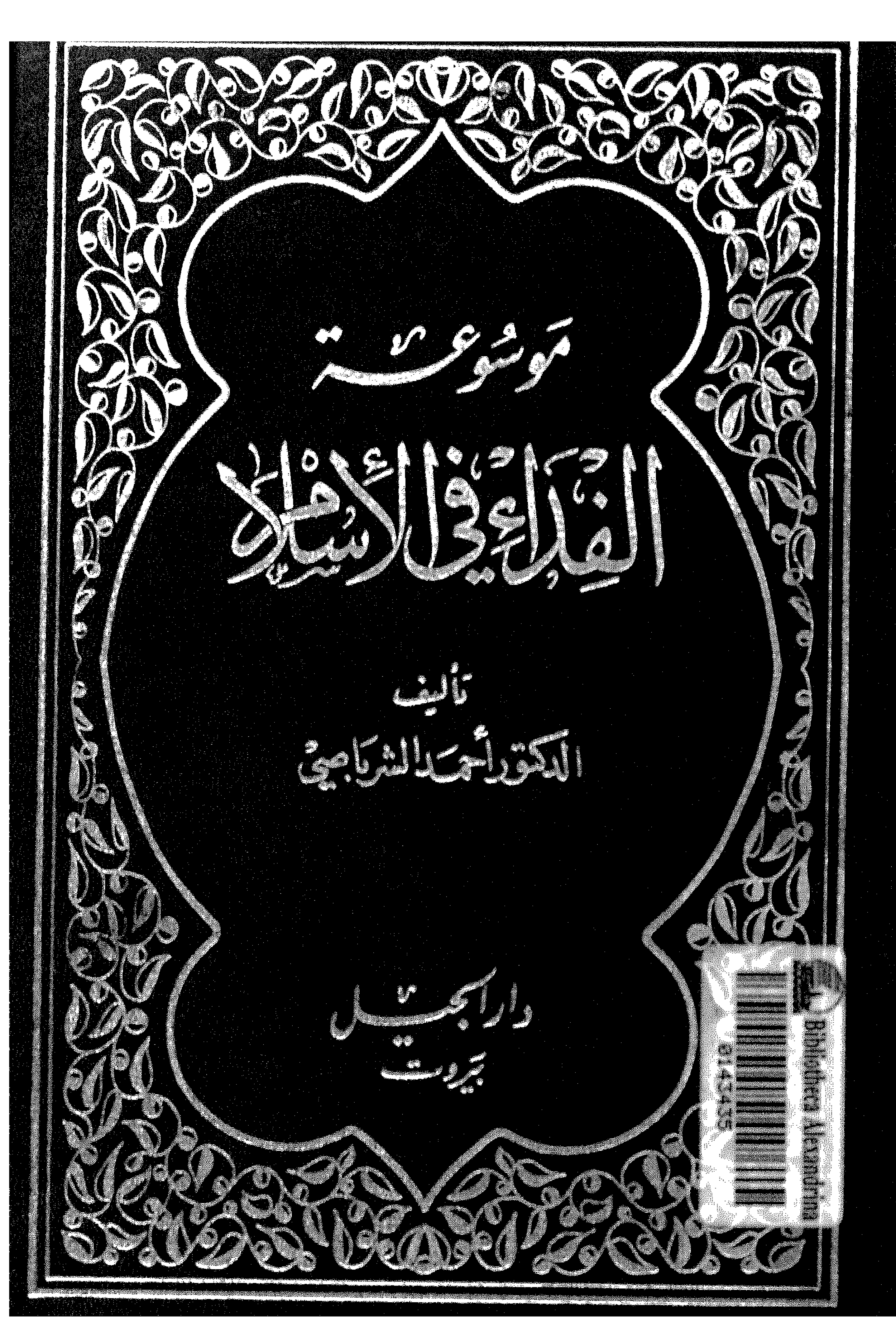

موسوعة
الفداء في الإسلام
تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي
دار الجيل
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
814345







موسوعة الفداء في الإسلام



موسوعة الفداء في الإسلام

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الجزء الثالث

دار الجيل
بيروت

١٩٨٣

إن الله اشترى

د. أحمد الشرباصي

الطبعة الأولى
دار الهلال
سبتمبر سنة ١٩٧٦

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على جميع أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان الى يوم الدين .

وأستفتح بالذي هو خير : «ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير» .

شعاع من نور القرآن

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم .

التائبون العابدون الحامدون السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين» .

(سورة التوبة)



تصدير

هذه سير محققة لمجموعة من النماذج البطولية التي صنعها رجال باعوا لله تبارك وتعالى نفوسهم وكل ما في أيديهم ، واشترى الله جلّ جلاله منهم هذه الأرواح والأموال فتقبل أعمالهم ، ورضي عنهم ، وأحسن لديه مآبهم ومآلهم ، بعد أن كتب لهم التوفيق حين كانوا يسعون بإيمانهم ونورهم بين الناس.

وإذا قلنا : «إن الله اشترى» ، فمعنى ذلك إن الله ذا الجلال وذا الكمال ، قد تفضل على عباده ، ووهبهم منه التعاقد معهم ، بأن يضمن لهم نعيم الجنة وخلوده ، لقاء أن يجاهدوا في سبيله ، وأن يبذلوا الأرواح والأموال من أجل إعزاز كلمته ، وهي كلمة الحق والعدل والخير.

والشراء المعهود بين الناس لا يجوز في حق الله تعالى ، لأن المشتري إنما يشتري شيئاً لا يملكه ، والله سبحانه مالك كل شيء. لكن الله تعالى ذكر ذلك لحسن التلطف في الدعوة الى الطاعة ، لأن المؤمن إذا جاهد في سبيل الله ، وأنفق ماله في سبيل الله ، استحق الجنة ثواباً لذلك ، فجعل القرآن هذا استبدالاً وشراء ، وإن كان الفضل لله وحده في الجانبين.

ولهذا قال الحسن : «اشترى أنفساً هو خلقها ، وأموالاً هو رزقها» !..

وأضاف قوله : «واسمعوا ، إنها والله بيعة رابحة ، وكفة راجحة ، بايع الله بها كل مؤمن ، والله ما على الأرض مؤمن إلا قد دخل في هذه البيعة» !..

وقد قال الصادق عليه الصلاة والسلام — كما روى الفخر الرازي في تفسيره — : «ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة ، فلا تبيعوها إلا بها».

* * *

إن الذكر الحكيم يقول : «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم : التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون ، الساجدون ، الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين».

أي أن الله تبارك وتعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، إذا بذلوها في سبيله : سبيل الحق والعدل والخير — اشترى ذلك بخير العوض وأغلى الثمن ، تفضلاً منه وكرماً ، مع أنه خالق تلك الأنفس وواهب تلك الأموال.

والثمن الغالي هو الجنة ، وأنعم به من ثمن . يقول الحسن البصري : «بايعهم والله فأغلى ثمنهم» . وهذا العقد قد ذكره الله في كتبه الثلاثة : التوراة المنزلة على موسى ، والانجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

ويا لها من صفقة سامية رابحة تستحق الاستبشار . والله خير من يفي بوعده : «ومن أوفى بعهده من الله»؟. فهو لا يخلف الميعاد.

وهؤلاء الذين تعاقد الله معهم ، واشترى منهم ، هم الذين يتوبون من الذنوب ، ويهجرون الفواحش ، والقائمون بعبادة ربهم في إخلاص واستقامة ، والذين يحمدون الله ، ويصومون له ، ويصلون ، ويقومون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويحفظون حدود الله ، ويتقيدون بتحليله وتحريمه ، وهؤلاء هم الذين يستحقون البشرى.

ولنتذكر أن كلاً من كلمتي : «اشترى» و«باع» تطلق بمعنى الأخرى ، لأن الأساس فيهما واحد ، وهو التبادل أو المعاوضة ، فأنت تشتري بنقودك سلعة ، فالسلعة مبيعة ومشتراة في وقت واحد ، والنقود قد بعتها بالسلعة فهي مبيعة ، والذي أعطاك السلعة قد اشترى بها النقود ، فالنقود مشتراة ومبيعة في وقت واحد.

والله جل جلاله يقول في سورة البقرة : «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد» فالمؤمن قد اشترى نفسه ، أي نجاها ، وهو في الوقت نفسه قد باعها لمولاه في مقابل الفوز بالنعيم الخالد في دار البقاء.

وقد روي أن هذه الآية نزلت في شأن صهب بن سنان الرومي[1] ، فإنه أقبل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يريد الهجرة من مكة الى المدينة ، فلاحقه نفر من المشركين ، فنزل عن راحلته ، وأخرج سهامه ، وتناول قوسه ، وقال لهم :

لقد علمتم أنني من أرماكم ، وأيم الله لا تصلون الي حتى أرمي بما في كنانتي ، ثم أضرب بسيفي ، ما بقي في يدي منه شيء ، ثم افعلوا ما شئتم !..

فقالوا : لا نتركك تذهب غنياً ، وقد جئتنا صعلوكاً فقيراً ، ولكن دلنا على مالك بمكة ، ونحن نخلي عنك.

وعاهدوه على ذلك ففعل.

فلما قدم على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، نزلت الآية الكريمة ، فقال له النبي : ربح البيع يا أبا يحيى. وتلا عليه الآية.

وقد ذكرت في كتابي : «بين الفداء والوفاء» عن هشام بن عامر الشهيد الحامل على الصف هذه العبارة.

---

(١) انظر تفاصيل بطولته في كتابي : «أبطال عقيدة وجهاد» من صفحة ٢٨١ الى صفحة ٢٩٦ ، طبعة سنة ١٩٧٢.

«اشترك هشام في معركة القسطنطينية عاصمة ديار الروم يومئذ، وهي اصطنبول، وكان سمك سورها واحداً وعشرين ذراعاً.

وتطلع هشام الى صف الأعداء الواقف في وجه المجاهدين المسلمين، وهم بحاجة الى اقتحامه وإحداث ثغرة فيه، فاندفع نحوه هشام بلا ارعواء ولا إبطاء، وقذف بنفسه على الصف، وأخذ يجاهد ويجالد، حتى أحدث فيه الثغرة المرجوة، ودفع ثمنها، وكان الثمن حياته، حيث نال نعمة الشهادة، ومضى الى ربه عظيماً كريماً، بعد أن أدى واجبه الجهادي خير الإداء، وفتح أمام رفاقه طريق الظفر والانتصار.

وخيل إلى بعض الناس أن هذا التصرف من هشام فيه مخالفة لأمر الله عز وجل، لأنه يقول في سورة البقرة: «وانفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة، واحسنوا إن الله يحب المحسنين».

وقال هذا البعض: يرحم الله هشام بن عامر، لقد ألقى بيده الى التهلكة.

وسمع هذا التعليق أبو هريرة رضي الله عنه فاستنكره وقال: «لا والله ما ألقى هشام بيده إلى التهلكة، ولكنه التمس قول الله تعالى: «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله، والله رءوف بالعباد»[1].

* * *

والحق تبارك وتعالى يحرض عباده المؤمنين على أن يسلكوا طريق البذل والتضحية والفداء، لكي يكونوا أهلاً لشراء الله أنفسهم وأموالهم بالجنة ونعيمها الدائم المقيم، فيقول في سورة النساء: «فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً».

---

(١) يمكنك أن تتابع حياة هشام بالتفصيل في كتابي: «بين الوفاء والفداء» من صفحة ١٩ الى صفحة ٢٩.

ومما يدخل في نطاق هذا التعاقد الإلهي الكريم ، البيعة الصادقة على الجهاد والثبات ، والحق جلّ علاه يقول في سورة الفتح : «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم ، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» . ويقول في السورة نفسها : «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً» .

أما بعد ، فهذا سادس كتاب يصدر لي — بفضل الله تعالى وعونه — في موسوعة رجال الفداء ، والحديث عن التضحية والوفاء . لقد سبقه أخوه خمسة له ، سبقه : «الفداء في الإسلام» ثم «فدائيون في تاريخ الإسلام» ثم : «أبطال عقيدة وجهاد» ، ثم : بين الوفاء والفداء» ، ثم : رجال صدقوا» .

ثم جاء هذا الكتاب : «إن الله اشترى» ليضيف لبنة الى البناء ، وما زالت النية معقودة على متابعة الخطوات ، والله من وراء القصد مرشد ومعين.

د. أحمد الشرباصي



أمير الرماة الشهيد

عبد الله بن جبير

من شمائل الفدائية المؤمنة : كمال الطاعة ، وتمام الاستجابة ، لأن الثبات في أداء الواجب الموكول إلى الانسان طريق الفلاح والتوفيق ، والقرآن الكريم يقول : «ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً» .

ويقول : «وإن تطيعوه تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين» .

ولقد أعطانا الإسلام العظيم درساً في ذلك ، يتجلى في غزوة أحد ، ويتمثل في موقف مجيد مشهود لصحابي جليل في هذه الغزوة ، وإن كان أكثرنا لا يلتفت كما ينبغي الى هذا الموقف النبيل.

فنحن نعرف أن غزوة أحد كانت اختباراً صارماً للمسلمين ، ودرساً بليغاً في تقويم المجاهدين. وكان من المظاهر البارزة في الغزوة حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تقسيم الجيش ، وتوزيع الجنود على أماكنهم ، حتى يكون كل مجاهد في موقعه المناسب له ، فيتخذ الأشداء الأقوياء ليكونوا في الطليعة ، وجعل المتوسطين من ورائهم ، وجعل ظهر الجيش محمياً بجبل أحد ، وجعل الرماة بالنبال والسهام فوق الجبل لحماية ظهر الجيش.

وقد أشار القرآن الكريم الى هذا التوزيع حين يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله : «وإذ غدوت من أهلك تبؤى المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم» .

وكان الرماة الواقفون على الجبل خمسين رامياً ، وقد اختار الرسول لقيامهم الصحابي الجليل عبد الله بن جبير بن النعمان بن أمية بن امرىء القيس بن ثعلبة بن عمرو بن عوف الأنصاري ، وهو من سابقي أهل المدينة الى الإسلام ، وكان ممن شهد بيعة العقبة الثالثة مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقد آخى النبي عقب الهجرة بينه وبين الحصين بن الحارث.

والحصين هو المجاهد البطل الذي شهد غزوة بدر وغيرها ، وهو شقيق البطل المجاهد الشهيد عبيدة بن الحارث ، وشقيق البطل المجاهد الطفيل بن الحارث.

وكان عبد الله بن جبير ماهراً في الرماية ، وحينما خرج ليجاهد في غزوة بدر خرج معه شقيقه خوات بن جبير ، ولكن جرحاً أصاب جسم خوات ، فمرض ، فردّه الرسول الى المدينة ، وعده كمن شهد الغزوة ، وقضى له بسهمه منها وأجره ، ونية المرء خير من عمله.

* * *

ثم جاءت غزوة أحد ، وخرج إليها عبد الله بن جبير فيمن خرج ، وعليه ثياب بيض ، كأنه قد أعدها إشارة الى صفاء نيته في الجهاد ، وصدق رغبته في الاستشهاد ، حتى يلقى ربه وهو في صفاء نفسي ونقاء ظاهري.

واختار الرسول ، عبد الله كما عرفنا قائداً وأميراً للرماة الخمسين ، ومنذ ذلك الوقت كسب ابن جبير ذلك اللقب المجيد ، لقب «أمير الرماة» الذي سيظل يوصف به في السيرة النبوية العطرة الى ما شاء الله ، وأوصى رسول الله هؤلاء الرماة أن يلزموا قمة الجبل ، لحماية ظهر المجاهدين ، ونهاهم عن ترك مكانهم ، مهما كانت النتيجة ، حتى يأمرهم بذلك.

وقال الرسول لعبد الله بن جبير : «انضح الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا ، واثبت مكانك ، إن كانت لنا أو علينا». ويروى أنه قال للرماة : «إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا ، حتى أرسل اليكم ، وإن رأيتمونا ظهرنا (تغلبنا) على

القوم وأوطأناهم . فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا » . وفي رواية أنه قال لهم : « الزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل في عسكرهم . فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تغيثونا ، ولا تدفعوا عنا ، وارشقوهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل ، أنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم ، اللهم اني أشهد عليكم » . وفي رواية أنه قال لابن جبير : « انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » . وقد يكون سبب تعدد الروايات هنا هو تكرر القول .

ودارت رحى الحرب . وأقبل المجاهدون لا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ، ودارت الدائرة على أعداء الله وأعداء رسوله والمؤمنين . وأخذ المشركون يسلمون أنفسهم للهلاك أو للفرار . وسيطر المسلمون على الميدان بما فيه من غنائم وأسلاب .

وخيل إلى الرماة أن الأمر قد انتهى . ولم يبق لمرابطتهم معنى ، فقال منهم من قال : قد هزم أعداء الله . فما لقعودنا ها هنا معنى

فسارع بتذكيرهم وتحذيرهم أمير الرماة عبد الله بن جبير ، وقال لهم : ألم يقل لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تبرحوا مكانكم وإن هزمناهم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا؟ أنسيتم ما قاله لكم رسول الله؟.

فأجاب أكثرهم : قد انهزموا ، ولم يرد رسولُ الله أن نبقى بعد أن أذلّ الله المشركين ، والله لنأتين الناس فلنصيبين من الغنيمة ! ! ...

* * *

واجتهد هؤلاء فكانوا مخطئين في اجتهادهم ، وسارعوا بالنزول من قمة الجبل الى ساحة الميدان ، وبقي عبد الله بن جبير مكانه ، وبقي معه نحو عشرة . جاء في (عيون الأثر) لابن سيد الناس : « وتكلم الرماة الذين على عينين[1] ، واختلفوا بينهم ،

---

(١) عينان : هضبة جبل أحد ، ويقال ليوم أحد : يوم عينين.

وثبت أميرهم عبد الله بن جبير في نفر يسير دون العشرة مكانه ، وقال : لا أجاوز أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بغنى ، ووعظ أصحابه وذكرهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : لم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ، قد انهزم المشركون ، فما مقامنا ههنا؟. فانطلقوا يتبعون العسكر ، وينتهبون معهم ، وخلوا الجبل » .

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهان الخطب ، وسهل الأمر ، ولكن مائتي فارس من المشركين على خيولهم قاموا بحركة تطويق للمسلمين ، بعد أن لاحظ قائد فرسان المشركين[1] خلو الجبل من رماته ، وسارع هؤلاء الفرسان لطعن المسلمين من خلفهم ، فكانت النكبة ، وكانت الكارثة ، وأصاب المسلمين ما أصابهم من ابتلاء الله تعالى وتأديبه .

ولكن أمير الرماة عبد الله بن جبير الصادق الطاعة لله ولرسوله ثبت في مكانه ، ولم يترك هؤلاء الفرسان يمرون دون مقاومة ، بل أقبل يصارعهم ويطاعنهم .

وبدأ أولاً يرميهم بالنبال ، وهم صاعدون نحوه من خلف الجبل ، حتى نفدت نباله ، واقتربوا منه ، فأخذ يطعن فيهم بالرمح حتى تكسر ، فاستلّ سيفه ، وأخذ يضرب به حتى تكسّر ، ثم أحاط به جمع منهم ، وأخذوا يسددون الى جسمه الضربات والطعنات ، حتى كثرت الجراح في بدنه من كل جهة ، وخرجت أمعاء بطنه من جوفه ، وسقط شهيداً .

ومات بطلاً ، وضرب في الطاعة مثلاً ، وذهب الى ربه كريماً ليقول له : في سبيلك يا رب ، وفي سبيل دينك ، لقيت مصرعي ، مؤثراً ما عندك على ما عند الناس ، وما عند الله خير للأبرار ...

* * *

---

(١) هو خالد بن الوليد ، وكان لم يسلم بعد.

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : إن الأحداث الأليمة في غزوة أحد تشغلنا غالباً عن الوقوف أمام بطولة عبد الله بن جبير ، مع أننا في أشد الحاجة الى تدبر مثل هذا الموقف الرائع ، لأن بطولة الفداء لا تؤتى ثمارها إلا إذا التزم المجاهد المؤمن بأن يحقق الغرض الموكول إليه ، أو يلقى ربه مجاهداً في سبيله : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً » .

وما أشد احتياجنا اليوم الى أمثال أمير الرماة عبد الله بن جبير رضوان الله تعالى عليه . ذلك المجاهد الكريم الصادق ، الذي أحب نبيه وقائده الصادق صلوات الله وسلامه عليه ، والتزم أمره ، وحرص على طاعته حتى آخر رمق في حياته العظيمة . فاستجاب في ذلك خيراً استجابة لقول الحق جلّ جلاله : «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» . وقوله تبارك وتعالى : «من يطع الرسول فقد أطاع الله» .

سلام عليه في الخالدين .

المجاهد المسارع إلى الاستجابة

عباد بن بشر الأنصاري

إذا أشرق نور الإيمان في صدر إنسان أقامه على طريق الحق ، وألزمه منطق الصدق ، وربطه ربطاً وثيقاً عميقاً بمبادىء الخير وتعاليم البرّ ، فإذا هو في قوله وعمله وتفكيره وتدبيره ، قد صار خاضعاً لروح العبودية الصادقة لربه ، لا ينحرف عن طريقه ، ولا يتنكر لحق من حقوقه ، بل يظلّ مهتدياً بهدي القرآن المجيد ، الذي يقول : « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ولقد كان في عهد الجاهلية أناس أخذوا الحياة كما أرادوا ، وأخذتهم الحياة كما أرادت ، فلما تجلى فضل الله العميم بظهور الإسلام العظيم ، هدى الله هؤلاء الى الطيب من القول ، وإلى صراط الحميد ، فاستقاموا على الطريق أمناء شرفاء أوفياء ، حتى مضوا الى الله بديع السموات والأرض ، ليلاقوا عنده ما أعده لهم من ثواب وجزاء : «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة : ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون ، نزلاً من غفور رحيم ، ومن أحسن قولاً ممن دعا الى الله وعمل صالحاً ، وقال : إنني من المسلمين» .

* * *

ومن هؤلاء : الصحابي الفاضل ، والمؤمن العادل ، والعابد المجاهد ، والشهيد

المجيد : أبو الربيع[1] عباد بن بشر بن وقش بن عبد الأشهل الخزرجي الأنصاري رضوان الله تعالى عليه ، وقد ولد قبل الهجرة بثلاثة وثلاثين عاماً.

وما كادت نسمات الاسلام تهب على المدينة المنورة حتى دخل عباد في دين الله ، فصار من السعداء ، وكان إسلامه على يد أول سفير في الاسلام ، بعثه الرسول عليه الصلاة والسلام الى المدينة ، وهو مصعب بن عمير رضي الله عنه.

وحين جاءت الهجرة أقبل من مكة ثلاثة من المهاجرين ، وهم : أبو حذيفة بن عتبة[2] ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وعتبة بن غزوان المازني ، ففتح لهم عباد بن بشر داره ، وقاسمهم ماله ، وآثرهم على نفسه ، لأنه كما ذكر القرآن من قوم «يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» ، وكان عبّاد تقياً متعبداً ، وقد ذكر صاحب «الاستيعاب» (ج٢ ص ٤٤٧) ، إن السيدة عائشة قالت : تهجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي ، فسمع صوت عباد بن بشر فقال : يا عائشة ، صوت عباد بن بشر هذا؟.
قلت : نعم.

قال : اللهم اغفر له.

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عباد وأبي حذيفة بن عتبة

وانطلق عباد مجاهداً مناضلاً ، لا يتخلف عن غزوة ولا مشهد ، منذ غزوة بدر حتى آخر المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وروت السيرة العطرة أنه كان يتولى حراسة رسول الله مع رفاق له حتى نزل قول الحق جل جلاله : «والله

---

(١) وقيل أيضاً : أبو بشر.

(٢) انظر الحديث المفصل عنه في كتابي : «أبطال عقيدة وجهاد» ص ١١٥ ــ ١٢٥.

يعصمك من الناس[1] ». كما كان عباد من أسرع المجاهدين استجابة لدعوة الرسول إذا نادى الى الحرب والجهاد، فما يكاد يسمع هتاف الرسول: «يا خيل الله اركبي»، حتى يكون في طليعة الراكبين والنافرين الى موطن التضحية والفداء، والبصراء يعلمون أن الحرب عمادها السرعة والمبادرة وخفة الحركة. ولذلك عبر القرآن الحكيم عن دعوتها عادة بكلمة النفير الدالة على سرعة الخروج، فقال: «انفروا خفافاً وثقالاً».

* * *

وكان عباد بن بشر أحد أربعة قاموا بعمل فدائي دقيق، هو القضاء على طاغية اليهود الأثيم كعب بن الأشرف اليهودي، الذي كان يحرض المشركين ضد المسلمين، ويقول لهم: أنتم أهدى من المسلمين سبيلاً، وكان يتطاول على أعراض المسلمين بالسب والقذف، ويسب الرسول سباً فاحشاً، فقال النبي للصحابة، من لي بكعب بن الأشرف فإنه يؤذي الله ورسوله والمؤمنين؟.

فسارع الى ذلك محمد بن مسلمة، وعباد بن بشر، وسعد بن سلامة، وعبد الرحمن بن جبر، قائلين: كلنا يا رسول الله نقتله. وحقق أهل الإقدام والفداء ما وعدوا، بفضل الله واهب التأييد والتوفيق.

وفي مصرع كعب بن الأشرف اليهودي، يقول بطلنا عباد بن بشر:

صرخت به فلم يعرض لصوتي ... ووافى طالعاً من رأس جدر
فعدت له فقال: من المنادى؟ ... فقلت: أخوك عباد بن بشر
وهـذي درعنا رهناً فخذها ... لشهر، إن وفى، أو نصف شهر
فقال: معاشر سغبوا وجاعوا ... وما عدموا الغنى من غير فقر
فـأقبـل نحونـا يهوى سريـعاً ... وقال لنا: لقد جئتم لأمر

(١) عيون الأثر لابن سيد الناس، ج٢ ص ٣١٧.

وفي إيماننا بيض حداد ... مدربة بها الكفار نفرى

فعانقه ابن مسلمة المردى ... بها الكفار كالليث الهزبر

وشدّ بسيفه صلتاً عليه ... فقطره أبو عيسى بن جبر

فكان الله سادسنا، فأبنا ... بأنعم نعمة، وأعز نصر

وجاء برأسه نفر كرام ... هو ناهيك من صدق وبر[1]

وكان عباد بجوار اتقانه الجهاد ومداومته عليه رجلاً أميناً في دينه ودنياه، ولذلك كان الرسول يختاره ليبعثه الى القبائل ليأخذ منها حق الله في المال وهو الزكاة، وجمع المال مخبار دقيق لذمم الرجال.

وقد عاد رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فجعل عباد بن بشر على مغانم «حنين»، وقد كانت كبيرة ضخمة، وهذا يفيد أن عباداً كان من الجنود الأوفياء الأمناء، الذين ثبتوا مع رسول الله يوم حنين، ذلك اليوم الشديد القاسي الذي هتف فيه الرسول عند الهول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، وتلفت عن يمينه وشماله قائلاً: يا معشر الأنصار، فإذا هم جميعاً يسارعون بتلبية النداء واستجابة الدعاء قائلين: لبيك يا رسول الله، نحن معك.

وكان بينهم المجاهد المسارع الى الاستجابة عباد بن بشر، وتنتهي الغزوة يوم حنين بانتصار المسلمين بعد الشدة، وكسبهم مغانم كثيرة، ورأى النبي لحكمة بليغة أن يوزع أكثرها على المهاجرين الفقراء، وعلى المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار، بل قال لهم قولته المباركة المشهورة: ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله الى رحالكم؟... فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، فبكوا وقالوا: رضينا برسول الله صلى الله عليه وسلم قسماً وحظاً.

---

(١) الاستيعاب على هامش الإصابة ج٢ ص ٤٤٦.

وقد روى عباد بن بشر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يا معشر الأنصار ، أنتم الشعار ، والناس الدثار ، فلا أوتين من قبلكم» .

* * *

وأقبلت غزوة تبوك ، في وقت شديد الحر قليل المتاع ، بعد أن أنزل الله تعالى قوله : «يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين». وخرج عباد الى تبوك في موكب الرسول عليه الصلاة والسلام ، حيث جعله النبي على حرسه ، فأعطى عباد بذلك دليلاً جديداً على وفائه وحسن بلائه ، ولذلك لم يكن عجيباً أن يقول الإمام السخاوي في حقه «وكان فيه بلاء وغناء[1] » ، بل كان جديراً بقول الصديقة عائشة : «ثلاثة من الأنصار ، لم يكن أحد يعتمد عليهم فضلاً ، كلهم من بني عبد الأشهل ، سعد بن معاذ ، وأسيد ابن حضير ، وعباد بن بشر»[2] .

ولحق الرسول بربه ، بعد أن بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وترك الناس على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، وتولى أبو بكر خلافة الناس ، وجاءت معركة اليمامة العصيبة[3] ، التي استشهد فيها الكثيرون من حملة القرآن ، وحفظة التنزيل ، وشهدها عباد بن بشر ، وكان من أبطالها ، ثم كان من شهدائها ، حيث لقي ربه فيها مجاهداً شهيداً مع أخيه في الاسلام ، ورفيقه في السلاح ، وزميله في الجهاد أبي حذيفة بن عتبة ، رضوان الله على الجميع .

---

(١) التحفة اللطيفة . ج٢ ص ٣٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، وقد روي عن عباد أنس بن مالك . وهذا يدل على علمه وفقهه .

(٣) كانت معركة اليمامة في السنة الثانية عشرة ، وكان عمر عباد عند استشهاده خمساً وأربعين سنة .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : المهم هو أن يعرف المسلم طريقه ، وأن يختار رفيقه ، فإذا اهتدى الى نعمة الايمان ، ووضع يده في يد الصالحين المصلحين ، عرف الطريق إلى عز الدنيا ونعيم العقبى ، ويد الله مع الجماعة ، ولن تجتمع أمة محمد على ضلالة ، والخير فيها بمشيئة الله الى قيام الساعة ، والله ولي العاملين.

* * *

مؤمنة وفت لدينها

رملة بنت أبي سفيان

اذا صدق إيمان الانسان احتمل في سبيل عقيدته المتاعب والأهوال ، دون سأم أو ملال. ولعل مصيبتنا الكبرى هي التخلخل المعيب في تديننا. وكأننا نكتفي بتسجيل ديننا في شهادة الميلاد ، أو فيا نختار من أسماء ، ولا نتذكر أن هذا الدين يطالبنا بالوفاء له والغيرة عليه ، والاحتمال في سبيله ، ولذلك ينبغي أن نشترك معا في استعراض صورة من صور الإيمان الصادق ، والاعتقاد الكريم ، لنرى كيف يصنع الايمان شتى الأعاجيب في نفوس الذين استجابوا لله وللرسول : «أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون».

وهذه الصورة تتجلى في سيرة احدى النساء اللواتي شاركن فضلاء الرجال شرف الايمان واليقين : «فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض».

* * *

انها السيدة الجليلة أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، وهو زعيم قريش وزعيم المشركين الى ما قبل فتح مكة ، ولكنها آمنت على الرغم من كفران أبيها حينئذ ، ولم يستطع أن يثنيها عن عزمها لتبقى مثله كافرة ، بل أظهرت استقلال شخصيتها ، وقوة ارادتها ، واسلمت وجهها لله رب العالمين.

(*) اسمها رملة ، وقيل هي هند ، والصحيح المشهور هو الأول ، وقاله الأكثرون (تهذيب الأسماء ج ٢ ص ٣٥٩).

وتزوجت عبيد الله بن جحش[1] الذي أسلم مثلها ، وحينما اشتد طغيان الكفر على جنود الرحمن ، خرجت أم حبيبة مهاجرة في سبيل الله تعالى إلى أرض الحبشة مع زوجها المسلم ، وهناك ولدت له بنتا اسمها «حبيبة» وبها كنيت[2] .

ومضت الأيام وأم حبيبة تحتمل — من أجل دينها وربها — متاعب الغربة والوحشة والبعد عن الأهل والوطن ، ثم شاءت الأقدار أن تجرى الشقوة الكبرى على زوجها عبيد الله ، فاذا هو يرتد عن الاسلام ، واذا هو يتنصر ، فيضل الضلال المبين ، بعد أن هداه الله سواء السبيل : «ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» .

وحاولت أم حبيبة المرأة المسلمة المغتربة الوحيدة المهجورة من الأهل والأقارب أن تثني زوجها عن ضلاله ، وأن تثبته على الايمان فما استطاعت . وتتحدث هي بنفسها فتقول : رأيت في المنام زوجي عبيد الله بن جحش بأسوأ صورة وأشوهها ، ففزعت ، فأصبحت فاذا به قد تنصر ، فأخبرته بالمنام ، فلم يحفل به ، وأكب على الخمر حتى مات .

ولقد حاول هذا المرتد التعيس بكل ما استطاع أن يحمل زوجته على ترك دينها ، وجعل يقول لها فيما يقول : يا أم حبيبة ، اني نظرت في الدين ، فلم أر دينا خيرا من النصرانية ، وكنت قد دنت بها ، ثم دخلت في دين محمد ، ثم رجعت الى النصرانية .

فأبت أم حبيبة كل الأباء ، ولسان حالها يقول : «ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة أنك أنت الوهاب» . وأراد أن يقيم معها فأبت

(١) هذا غير أخيه عبد الله بن جحش الصحابي الجليل شهيد يوم أحد.

(٢) الاستيعاب على الإصابة (ج ٤ ص ٤٢١).

وتركته ، ولذلك يقول التاريخ بالحرف الواحد : «وأبت أم حبيبة أن تتنصر ، وثبتها الله على الاسلام»[1] .

كان الله لهذه المرأة المسلمة المغتربة ، الوحيدة ، الصابرة . لقد تركت أم حبيبة أباها على كفره ، وأسلمت وجهها لله رب العالمين ، ضاربة بالتقليد الأعمى عرض الحائط ، ولقد تركت أم حبيبة وطنها مكة ، بعد أن لاقت ما لاقت في سبيل الله والاسلام ، وخرجت مهاجرة الى الحبشة في الهجرة الثانية ، لتصون هذا الاسلام ، وتعيش له ، وتعتز به ، وتحيا فيه .

ولكن ها هوذا الشقاء يلحق زوجها فيتنصر ، ويرتد عن الاسلام ، وتحاول بكل ما أوتيت أن تعيد اليه رشاده ، فلما يئست منه اعتزلته وفارقته ، وصارت غريبة وحيدة بلا رجل : فقدت الأهل والعشيرة ، وفقدت الوطن والبلد ، وفقدت الزوج والمسكن . فأين تولي وجهها ؟ وكيف تعالج أمرها ؟ فلتلق أمرها وزمامها بيد الله : «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيءٌ قدرا» .

وكان لا بد من نجدة ، وليس هناك نجدة أكرم ولا أعظم من نجدة تأتي من قبل رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقد سمع النبي بأمر أم حبيبة ، وعز عليه أن تلاقي كل ما لاقت في سبيل دينها وليس لها من ناصر ولا معين ، فقرر في نفسه أن يتزوجها ، ليصون حرمتها ، ويؤمن حياتها ، ولتنال العز الأكبر ، حين تصبح إحدى أمهات المؤمنين .

وكان الله أراد أن يثبت عزيمة أم حبيبة ، فرأت في نومها من يناديها قائلا لها : يا أم المؤمنين ، فهزتها الرؤيا ، وما كادت تنتهي عدتها حتى كان عندها من يعرض عليها زواجها من سيد الخلق أجمعين محمد النبي الأمين ، عليه أفضل الصلاة والسلام .

وأرسل النبي إلى النجاشي ملك الحبشة وكان مسلما ، يطلب إليه أن يزوجه أم

(١) الاستيعاب على الإصابة ج٤ ص ٢٩٨ .

حبيبة ، فأرسل النجاشي اليها جارية له اسمها «ابرهة» تقول لها : ان الملك يقول لك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كتب اليه ليزوجك له.

ففرحت أم حبيبة لأن هذا هو عز الدهر وغاية الفخر ، فقالت للجارية : بشرك الله بالخير ، ونزعت ما في يديها ورحليها من حلى . وأعطته للجارية فرحا وسرورا بما بشرتها به .

وأضافت الجارية : ويقول لك الملك : وكلي من يزوجك ، فوكلت عنها خالد ابن سعيد بن العاص لأنه ابن عم أبيها ، فكأنه عمها.

وجمع النجاشي لعقد العقد جمعا في طليعته جعفر بن أبي طالب والمهاجرون معه ، وقدم النجاشي أربعمائة دينار (اربعة آلاف درهما) مهرا لها نيابة عن الرسول صلى الله عليه وسلم. وخطب النجاشي وخطب خالد. ذكر الامام بن عبد البر في كتابه «الاستيعاب» ان النجاشي خطب فقال : «الحمد لله الملك القدوس السلام ، المؤمن المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر. أشهد أن لا اله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى بن مريم . صلى الله عليه وآله وسلم.

أما بعد ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب الى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان فأجبت الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد اصدقتها اربعمائة دينار » .

ثم سكب الدنانير أمام القوم.

وتكلم خالد بن سعيد . فقال :

«الحمد لله ، أحمده واستعينه ، وأشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدي ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون.

أما بعد ، فقد أجبت الى ما دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وزوجته أم حبيبة بت أبي سفيان ، فبارك الله لرسوله عليه السلام» .

ودفع النجاشي الدنانير الى خالد بن سعيد ، فقبضها[1] .

وصنع النجاشي لهم وليمة طعام ، ثم أرسل أم حبيبة الى الرسول معززة مكرمة ، ومعها شرحبيل بن حسنة رضوان الله عليه ، وكانت على أبواب الأربعين من عمرها ، وكان ذلك سنة ست أو سبع ، وهناك في المدينة انضمت أم حبيبة إلى تلك الكوكبة المشرقة من زوجات الرسول أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن .

* * *

وظلت أم حبيبة تجعل لدينها المكان الأول ، وتفضل عقيدتها على القرابة والعصبية ، ومما يدل على ذلك أن والدها أبا سفيان دخل عليها وهي زوجة للرسول في المدينة ، محاولا أن يستعين بها في مد عهد الحديبية ، بعد أن خان المشركون خيانتهم ، وأراد أبو سفيان أن يجلس على فراش النبي صلى الله عليه وسلم ، فطوته أم حبيبة ، وأبعدته عن أبيها ، فتعجب لذلك وسألها ، فقالت له : هذا فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت امرؤ نجس مشرك ، فلا يجوز لك أن تجلس عليه .

فما ملك أبو سفيان نفسه ، بل قال : لقد أصابك من بعدي شر يا ابنتي .

ووالله ما أصابها الا الخير ، فقد قال سيد الخلق : «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما» . ويقول : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه الا لله ، وأن يكره أن يعود الى الكفر كما يكره أن يقذف في النار ، وهكذا رأينا كيف يكون صدق الايمان والاعتزاز بالاسلام .

ولو كان النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال

فهلا سألنا أنفسنا عن مدى اعتزازنا بديننا ، وحرصنا على اسلامنا؟.. وهلا تدبرنا قول الحق جل جلاله : «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» : وهلا فكرنا في أن نعود الى صراط العزيز الحميد؟.

---

(١) كتاب الاستيعاب ج ٤ ص ٤٢٢ .

الشهيد الممزق الأشلاء

هشام بن العاص

اذا كان صغار النفوس عند طوائف من الناس يدعوهم الى أن يعيشوا عيشة البهائم والأنعام ، فهم لا يعنيهم من حياتهم الا أن يسبحوا في ملذاتهم ، ويغرقوا بين شهواتهم ، وهم يتهارشون تهارش الكلاب ، ويتناحرون تناحر الذئاب ، على المغنم الرخيص ، أو المطلب الخسيس ، فأن لله تعالى عبادا أوجدهم ليكونوا النماذج الحية للبشرية الفاضلة ، التي برأها مبدعها وسواها ، وسما بمكانتها فأعلاها ، فكانت مصداقا لقوله عز من قائل : «ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا» .

ونحن نتطلع الى سير هؤلاء الأماجد ، فاذا هم اصفياء في طبائعهم ، اطهار في سلوكهم ، مؤمنون بربهم ، مجاهدون في سبيله ، بلا غرض أو مرض أو عرض ، لا يشغلهم عن رسالتهم النبيلة شاغل ، ولا يحول بينهم وبين رضا ربهم حائل ، فقد آثروه على الأهل والولد ، وعلى السبد واللبد ، واخلصوا لله وجوههم ، فهم لا يريدون سواه ، ولا يتوجهون الى غير حماه ، وشعار كل منهم هو قول مولاه : «قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون» .

وهذا واحد منهم :

انه الصحابي الفاضل ، الخير الصالح ، المجاهد الطالب للشهادة : أبو مطيع [١] هشام بن العاص بن وائل بن هشام القرشي ، السهمي ، وأمه هي : أم حرملة بنت هشام بن المغيرة. وقد أسلم بمكة قديما ، واحتمل ما احتمله المسلمون من عنت الشرك وبغي الكفر ، حتى اضطر الى أن يهاجر الى أرض الحبشة مع الفوج الثاني من المهاجرين الغرباء.

وحينما أقبلت هجرة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الى المدينة سارع هشام بالعودة الى مكة ليكون من وراء المهاجر العظيم ، واتفق مع عمر بن الخطاب وعياش ابن أبي ربيعة على التلاقي عند مكان حددوه [٢] ليهاجروا معا ، ولكن عمر استطاع أن يهاجر ، أما رفيقاه فقد قبض عليهما جمع من المشركين وسجنوهما في مكة [٣] .

وظل هشام سنوات في سجنه ، يتحمل ما يلقاه من صنوف الأيذاء والتعذيب.

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يدعو لهشام السجين ، كما كان يدعو لأمثاله في قنوت الصلاة ، فيقول والمسلمون من ورائه يؤمنون على دعائه : «اللهم انج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم أشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف». واستجاب الله دعاء رسوله ، فنجا هؤلاء المعذبون في الأرض.

وتروي السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم لأصحابه : من لي بعياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص ؟.

---

(١) يروى أن كنيته كانت : أبا العاص ، فكناه الرسول صلى الله عليه وسلم : أبا مطيع .

(٢) اتفق الثلاثة على التلاقي عند «إضاءة بني غفار». والإضاءة أو الإضاة ـ تمد وتقصر ـ هي الغدير ، وإضاءة بني غفار كانت خارج مكة على بعد بضعة أميال منها (الدرر ص ٨٢).

(٣) يقول ابن عبد البر وهو يتحدث عن محاولة هشام الهجرة : ففطن لهشام قومه. فحبسوه عن الهجرة» (الدرر ص ٨٢).

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة الذي كان قد نجا من قبل : أنا لك يا رسول الله بهما. وذهب الى مكة مستخفيا ، واستطاع بلباقة وخفة أن يعرف مكان السجينين ، وتسلق عليهما الجدران ، وقطع قيودهما ، وحملهما على بعير له سرا ، وقدم بهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك بعد غزوة الخندق.

* * *

وواصل هشام بن العاص نضاله مع ركب النبوة وموكب الرسالة ، وشهد الكثير من المشاهد والمعارك ، وأرسله النبي قائدا لسرية في شهر رمضان قبل فتح مكة ، فصاحبه التوفيق.

ومن العجيب في أمر هشام أنه كان أخا من جهة الأب لعمرو بن العاص البطل الاسلامي المشهور ، وكان هشام أصغر سنا من عمرو ، ومع ذلك أسلم الصغير قبل الكبير ، فبادر هشام الى الاستضاءة بنور الله عز وجل الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة.

ورأينا كتيبة الايمان تنتظم هشاما قبل الهجرة بسنوات ، أما عمرو فتقاعس وتخلف لأمر يعلمه الله تعالى ، فلم يدخل في الاسلام الا في السنة السابعة أو الثامنة - بعد الهجرة [1] ، وربك يخلق ما يشاء ويختار ، فليست الأسبقية في الهداية والرشاد بالسن ، وانما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وكم من صغير لاحظته عناية ربه ففاق غيره ممن يكبرونه سناً أو لحماً وعظماً.

وكان عمرو لا ينكر فضل أخيه هشام ولا يطويه ، بل يتحدث عنه ويبديه ، ولقد حدثنا عمرو فيما حدث أنه شارك أخاه في احدى المعارك ، فأعان كل منهما أخاه على الاستعداد للمعركة ، ويقول عمرو : «ثم عرضنا انفسنا على الله ، وكلانا يسأل الله الشهادة ، فقبله الله وتركني ، وحرمتها ورزقها».

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ، ج٢ ص٣٠.

وكان عمرو يذكر أخاه بعد استشهاده من حين الى حين ، ويقول منوها بفضله واسبقيته : «أسلم قبلي واستشهد وبقيت».

واذا كان لعمرو بن العاص ما يؤخذ عليه ، أو ما يراجع فيه ، فان ذلك لا يلغي أنه كان علما من أعلام الاسلام ، وبطلا من أبطال المسلمين في الفتوح والمعارك. وقوله عن أخيه : «واستشهد وبقيت» قد نفهم منه أنه كان ينظر الى موطن الشهادة على أنه موطن تكريم وتمجيد من الله لعبده الشهيد ، ولقد روى الترمذي والنسائي والحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ابنا العاص مؤمنان : هشام بن العاص وعمرو بن العاص».

* * *

ولحق الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم بربه جل جلاله ، وظل هشام على مسيرته في النضال والكفاح ، ووثق أبو بكر رضي الله عنه بعقل هشام وحسن تدبيره ، فأرسله الى ملك الروم ليفاوضه في بعض الأمور ، فكان سفيرا موفقا للخليفة الأول ، ثم أقبلت معركة اجنادين التي وقعت في السنة الثالثة عشرة للهجرة ، واجنادين موضع في أرض فلسطين — أين الآن فلسطين يا جموع المسلمين ، ردها الله على العرب المؤمنين — وخرج هشام بن العاص ضمن المجاهدين فيها مع أخيه عمرو ، ودارت رحى الحرب بين كتيبة الايمان وجموع الشر والطغيان.

وأبلى هشام يومئذ بلاء حسنا ، وحينما رأى ضعفا عارضا لبعض المقاتلين ، سيطرت عليه الحماسة ، فاندفع نحو صفوف العدو وهو يهتف برفقائه في الايمان والسلاح قائلا : «يا معشر المسلمين ، أنا هشام بن العاص ، أمن الجنة تفرون؟».

وما زال يقاتل ويصاول وينازل ، حتى سقط شهيدا في أرض المعركة[1].

---

(١) يقول ابن كثير عن هشام : «وقتل بأجنادين ، وقيل باليرموك ، والأول أصح ، والله أعلم». البداية والنهاية ج٧ ص٣٥.

وشاء القدر أن تقع جثة البطل الشهيد في مضيق لا يعبره الا انسان بعد انسان ، واضطر فرسان الاسلام بسبب غليان المعركة أن يطئوا جسمه بخيولهم.

وكأن هذا اشتد على البعض فقال أخوه عمرو وكان من المجاهدين الثابتين في المعركة : «أيها الناس ، ان الله قد استشهده ، ورفع من روحه».

وانتظر عمرو حتى انتصر المسلمون ، وعزت يومئذ كلمة الاسلام ، ثم ذهب الى ساحة المعركة ، يبحث عن اشلاء أخيه : عن أعضاء المجاهد الشهيد المبعثر الأجزاء ، وأخذ يجمعها ويلمها ، ثم حملها وواراها التراب على حالتها ، ليجمعها الله بقدرته ، ويبعثها بسلطانه ، يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم.

بأمثال هذه الأشلاء التي تمزقت وتبعثرت من أجسام المناضلين الشهداء ، قام بناء الاسلام الضخم الذي عز وساد وقاد ، يوم كان له من يضحي في سبيله بكل عزيز ونفيس ، وحاضر الأمة من ماضيها ، فهل من سبيل الى عودة لهذا الماضي الجليل ؟.

أول شهيد من الأنصار

عمير بن الحمام

ان الخطوة الأولى في أي طريق جديد مجيد تكون لها قيمتها ومكانتها ، لأنها فتح وريادة ، وقدوة وأسوة ، وكلما كان الطريق الجديد المجيد محفوفا بالمخاطر أو الأهوال ، زادت الخطوة الأولى فيه قيمة ومكانة ، فاذا كانت هذه الخطوة الأولى تضحية بالنفس وبيعا للروح ، وتقبلا للموت في سبيل العقيدة والحق ، بلغ صاحبها القمة ، واستولى على الذروة ، لأنه يضرب بها مثلا رائعا في الوفاء والفداء : «والجود بالنفس أقصى غاية الجود».

ولقد حفظ لنا تاريخ الاسلام كثيرا من «الأوليات» التي تحدثنا عن خطوات فواتح لطرق خير ونصر ، فخديجة هي أول من أسلمت من النساء.

وأبو بكر هو أول من أسلم من الرجال.

وعلي هو أول من أسلم من الفتيان.

وسعد بن أبي وقاص هو أول من رمى بسهم في سبيل الله.

وعبيدة بن الحارث هو أول فدائي عقد له لواء في الاسلام... وهكذا.

ولقد تكون الخطوة الأولى غير لافتة للنظر عند حدوثها ، ولكن فتحها للباب الجديد ، واعطاءها القدوة البكر لمن وراءها ، تجعلها طيبة الخبر ، عظيمة الأثر ، موصولة الثمر ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال : «من سن سنة حسنة فله اجرها ، وأجر من عمل بها الى يوم القيامة».

وهذا صاحب «أولية» حميدة مجيدة في تاريخ الاسلام. انه الصحابي المجاهد، والمؤمن العابد، والشهيد الماجد: عمير بن الحمام بن الجموح بن زيد بن حرام بن كعب الأنصاري، من بني سلمة من الأنصار.

وقد كان من الذين سارعوا الى نداء الحق ودعوة الصدق، فدخل في دين الله عز وجل، فاستحق أن يكون من أولئك الذين مجد الله مسارعتهم وسبقهم، فقال فيهم: «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم».

وحينما تمت الهجرة من مكة الى المدينة، آخى رسول الله عليه صلوات الله وسلامه بين عمير بن الحمام وعبيدة ابن الحارث[1]، وعبيدة هو صاحب أول لواء عقده الرسول لأمير سرية تجاهد في سبيل الله.

ولقد أسلم في صدر الدعوة، قبل أن يدخل النبي دار الارقم بن أبي الأرقم، وكان له قدر ومنزلة عند الرسول[2]، وهكذا تلتقي الأبطال بالأبطال، وتقترن الرجال بالرجال، وتقع الصقور على الصقور، وتجتمع النسور بالنسور...

ومضت شهور وشهور على هذه المؤاخاة الكريمة العظيمة في الله عز وجل. وآن للمسلمين أن ينتصفوا ممن ظلموهم وهضموهم، وأخرجوهم من وطنهم وديارهم، واستولوا على أموالهم وعقارهم، فجاءت غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة، وسارع اليها الأخوان المؤمنان، والزميلان المتماثلان، والفدائيان الوفيان: عمير بن الحمام وعبيدة بن الحارث، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل المعركة يحث المسلمين على النضال، ويحرضهم على القتال، امتثالا لأمر ربه تبارك وتعالى الذي يقول له: «يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين، يا أيها النبي

(١) الدرر لابن عبد البر ص ٩٩.

(٢) اقرأ تفاصيل بطولته في كتابي «فدائيون في تاريخ الاسلام» ص ٧٠ — ٧٦.

حرض المؤمنين على القتال ... ». ويقول : « فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا واشد تنكيلا .

وقال النبي فيما قال لأصحابه : «والذي نفسي بيده لا يقاتلهم (يعني الأعداء) رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، الا أدخله الله الجنة». ومحتسبا : أي ناويا بعمله وجه الله وحده.

وفي حديث عمر : «أيها الناس ، احتسبوا أعمالكم فان من احتسب عمله كتب له أجر عمله وأجر حسبته»[1] ، وغير مدبر : أي غير فار أو منهزم ، ومنه قول القرآن الكريم : «يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ...» .

وسمع عمير بن الحمام ما قاله أصدق الأنام عليه الصلاة والسلام ، فقال معجبا : «بخ بخ». وهي كلمة تدل على التعجب ، ثم قال عمير : «أفما بيني وبين أن أدخل الجنة الا أن يقتلني هؤلاء»؟.

وكان يأكل من تمرات قليلة في يده ، فألقاها ، وأخذ سيفه وسارع الى الميدان يقاتل ، حتى قتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر.

وفي رواية أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال يومئذ : «قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض» .

فقال عمير : بخ بخ . وسمعه الرسول عليه الصلاة والسلام فقال له : لم تبخبخ ؟ (أي مم تتعجب ؟) .

فأجابه : لا والله يا رسول الله ، الا رجاء أن أكون من أهلها .

وكانت معه تمرات يأكلها فقال : والله أن بقيت حتى آكل تمراتي هذه أنها لحياة طويلة . وألقى التمرات ، وجرد سيفه من غمده ، ومضى يقاتل في سبيل الله وحده وهو يردد قوله :

---

(١) أنظر «فدائيون في تاريخ الاسلام» ص ٧٠.

ركضـــا إلى الله بــغير زاد الا التقــى وعـــمــل المعــاد
والصبر في الله على الجهـــاد وكــل زاد عــرضــة الــنـفـاد
غير التقى والبر والرشاد

وفي رواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض .

فقال عمير : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟

فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلامه : نعم .

فقال عمير : بخ بخ ! فقال الرسول : ما يحملك على قول : بخ بخ؟

قال : لا والله ، يا رسول الله ، الا رجاء أن أكون من اهلها .

قال : فانك من أهلها .

فأخرج عمير تمرات ، وأخذ يأكل منها ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه أنها لحياة طويلة .

وألقى التمرات ، وخرج الى حومة الوغى .

وصدق عمير وعده ، وأوفى عهده ، وظل يقاتل محتسبا قتاله لوجه الله ، غير ناظر الى شيئ من متاع الحياة ، مقبلا على موطن الاستشهاد ، غير مدبر عن ميدان الجهاد ، حتى لقي ربه كريما عظيما ، فكان أول شهيد يفوز بنعمة الشهادة من الأنصار[1] .

---

(١) قتله خالد بن الأعلم العقيلي ، ويقال أن أول قتيل من الأنصار حارثة بن سراقة (عيون الأثر ، ج ١ ص ٢٥٧) وانظر قصة حارثة في كتابي (فدائيون في تاريخ الإسلام ، ص ٢٨٣—٢٨٧) .

وكما فاز عمير بالشهادة في غزوة بدر فاز بها رفيقه في الجهاد ، وأخوه في الله : عبيدة بن الحارث[1] ، الذي قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أشهد أنك شهيد» . وهكذا يعيش الأخيار معا متصاحبين على الحق والصدق . و يمضون معا الى ربهم على طريق الوفاء والفداء ، ويبعثون يوم القيامة معا لينعموا برضا من الله ورضوان : «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين». رضوان الله عليهم أجمعين[2] .

يقول أمام البلغاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الأمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه : «انه ليس لأنفسكم ثمن الا الجنة فلا تبيعوها الا بها» . وهكذا فعل عمير بن الحمام ، فحينما تهيأ له موقف الشهادة بذل نفسه لربه ، لينال ثمنها عنده وهو الجنة ، وكأن الايمان بالحياة الباقية وبنعيم الله هو مفتاح الوفاء والفداء ، ولو آمن الأخلاف كما آمن الأسلاف ، لا قبلوا على حياض المنايا يشربون منها كئوس التضحية والاستشهاد ، لينالوا خير الجزاء من رب العباد : «وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرءوف رحيم».

---

(١) الطبقات لابن سعد ، ج٣ ص ١٠٨ القسم الثاني ، وانظر «فدائيون في تاريخ الإسلام» . ص ٧٥

(٢) تروي السيرة أنه ليس لعمير بن الحمام عقب أي ذرية (الطبقات ج٢ ص ١٠٨ القسم الثاني) .

المجاهد المحب للقيادة

عمرو بن العاص

الكمال لله وحده . وكل امرئ ما له نصيبه من العيب أو النقص ، وجل المنزه عن الأخطاء ، وما فينا من أحد الا ويؤخذ منه ويرد عليه ، وبين الخطأ والصواب يظل باب العودة بالتوبة والأنابة مفتوحا أمام العباد : «والذين اذا فعلوا فاحشة ، أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون» .

ونحن في أوقات تعبئة الهمم ، وأثارة العزائم ، نحتاج الى اظهار الحسنات وابراز المكارم ، أكثر من حاجتنا الى تعداد السيئات ، وذكر المآثم .

واذا كان هناك أناس يتلمسون العيوب لأهل الفضل ، ويطيرون بها فرحا ، ويرددون المثالب ، ويعكفون على المعايب ، ليزيدوا الطين بلة ، والتثبيط شراسة ، والطريق ظلاما أمام السائرين ، فان أهل الرشاد والصواب يعنيهم أولا أن يتابعوا الصفحات المشرقة من سير الاسلاف ، ويرددوا عنها الحديث ، ليبعثوا بها هامدا ، أو يحركوا بها جامدا ، تاركين ما صدر عن هؤلاء الأسلاف من زلل أو خطل الى رب الأرباب ، وصاحب الحساب جل جلاله ، والله من ورائهم محيط .

على هذا السنن الواضح نمضي في استعراض السلسلة المضيئة من أعلام رجالنا ، الذين كان لهم نصيبهم في ميدان البطولة والتضحية والفداء . فماذا يضيرنا لو تعرفنا الى الجوانب المضيئة المشرقة في سيرة عمرو البطل الفاتح ، والمقاتل الماهر ، والمجاهد المغرم بالقيادة ، وصاحب الفضل في تحرير أرض فلسطين من أيدي الروم؟ .

انه أبو عبد الله[1] عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي ، ولا ريب في أنه كان شديد العداوة للاسلام والمسلمين وهو في ظلمات الجاهلية ، وأنه تأخر عن دخول الاسلام حتى السنة السابعة للهجرة ، حيث أسلم عام خيبر ، بل قيل انه أسلم في صفر سنة ثمان قبل فتح مكة بستة أشهر ، ولكنه قدم على النبي طائعا مختارا ، مع خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة فأعلنوا اسلامهم ، واعتز بهم جميع المسلمين.

وبعد قليل علم الرسول أن قبيلة قضاعة تتهيأ للانقضاض على المدينة ، فأرسل عمرو بن العاص قائدا لكتيبة عددها ثلاثمائة مجاهد في غزوة ذات السلاسل[2] ، ورأى عمرو أن الأعداء كثيرون ، فاستنجد بالرسول ، فأمده بمائتي مجاهد ، فيهم أبو بكر وعمر وابو عبيدة من كبار المهاجرين ، وقد انتصر عمرو في هذه السرية على قضاعة ، وأبلى فيها بلاء حسنا ، وكانت هذه أول مرة تبدو فيها عبقريته العسكرية .

ويروى أن الرسول قال لعمرو عند بعثه وكأنه يختبره : يا عمرو ، أني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك.

فقال عمرو : أني لم أسلم رغبة في المال .

فقال رسول الله : نعم المال الصالح للرجل الصالح.

* * *

ومن عبقريته العسكرية في غزوة ذات السلاسل أنه بعد أن هزم أعداءه أراد رفاقه في السلاح ان يتوغلوا في أرض العدو فمنعهم . خشية أن يقعوا فريسة لكمائن تفاجئهم على الطريق، وأرادوا أن يشعلوا ناراً بالليل للتدفئة ــ وكان الجو بارداً ــ

---

(١) وقيل : أبو محمد ، ويقول النووي عن كلمة (العاص» أن الجمهور أجمع على كتابتها بالياء (العاصي) وهو الفصيح عند أهل العربية ، وتقع في كثير من كتب الحديث والفقه ــ أو أكثرها ــ بحذف الياء وهي لغة . (تهذيب الأسماء ج٢ ص ٣٠).

(٢) ذات السلاسل اسم لموضع فيه ماء بأرض جذام ، من مشارف الشام.

فنعهم مشددا في المنع ، لأنه خشي أن يلحظ الأعداء قلة عددهم فيكروا عليهم ، والحرب يقظة وانتباه وتقدير لكل احتمال.

وواصل رسول الله الانتفاع بطاقات عمرو بن العاص ، فأرسله واليا على عمان في ذي الحجة سنة ثمان للهجرة ، فكان سببا في اسلام الكثير من أهل عمان ، وظل واليا عليها حتى لحق الرسول بربه.

وهنا أقبل طوفان الردة ، فاختار أبو بكر عمرو بن العاص ليكون أحد القادة للجيوش المجاهدة ضد المرتدين ، ويروى أن عمرو بن العاص قال لأبي بكر حينما أراد الاستعانة به : «أما بعد فأني سهم من سهام الاسلام ، وأنت — بعد الله — الرامي بها ، والجامع لها».

وأظهر عمرو عبقريته في حروب الردة مع غيره من القواد ، حتى دفع الله بلاء هذه النكبة عن كاهل الاسلام ومجتمع المسلمين ، وهنا أرسله أبو بكر قائدا للجيش في الشام ، فجاهد قدر استطاعته.

ثم أقبل عمر بن الخطاب ، فواصل الانتفاع بعبقرية عمرو ، وكان للروم قائد مشهور هو ارطبون[1] وقد بلغ من ثقة عمر بعمرو بن العاص القائد أن قال قولته المشهورة : «قد رمينا أرطبون الروم ، بأرطبون العرب ، فانظروا عم تنفرج».

وكان عمرو عند ظن ابن الخطاب به فتغلب على ارطبون الروم وهزمه ، في معركة اجنادين سنة خمس عشرة للهجرة.

ثم أخذ عمرو بن العاص يحرر الكثير من بلاد فلسطين المحتلة بالروم ، فحرر غزة ، واللد ، ونابلس ، وبيت جيرين ، وبيت المقدس (القدس الآن).

ولذلك جعله عمر بن الخطاب واليا على فلسطين ، وظل عليها حتى شرح الله صدر الفاروق لفتح مصر باسم الاسلام ، فكان هذا الواجب الثقيل الجليل من

---

(١) يقال أصل اسمه «أريطيون» فنطقه العرب أرطبون.

نصيب البطل الفاتح عمرو بن العاص ، وبذلك استحق الولاية عليها[1] وعن طريق هذا الفتح من الله على أجدادنا في مصر بنعمة الاسلام ، وأكرم بها من نعمة يعرف قدرها أهل الايمان واليقين.

ولقد كان عمرو رجلا صاحب شجاعة أدبية ، كما كان صاحب شجاعة ميدانية ، ولعل ذلك هو الذي دعاه الى أن يخبرنا مثلا بأنه ظن حينما أمده الرسول في ذات السلاسل بمدد فيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة أن الرسول بهذا الامداد يفضله أو يقدمه على هؤلاء ، وذهب عمرو — كما يحدثنا عن نفسه — الى الرسول صلى الله عليه وسلم وجلس بين يديه وقال له : يا رسول الله ، من أحب الناس اليك ؟..

قال : عائشة.

فقال عمرو : إني لست أسألك عن أهلك يا رسول الله.

فقال النبي : فأبوها.

قال عمرو : ثم من ؟..

قال النبي : ثم عمر.

وجعل عمرو يسأل والرسول يجيب باسم شخص غير عمرو ، حتى عدد طائفة من الرجال.

فسكت عمرو وقال في نفسه : لا أعود أسأل عن هذا.

انها قوة الشخصية التي تدفع بعمرو الى أن يذكر مثل هذا للناس ليبقى في التاريخ.

---

(١) ظل عمرو بن العاص والياً على مصر حتى توفي عمر بن الخطاب ، وبقي والياً عليها أربع سنوات من عهد عثمان بن عفان ، ثم عزله عنها ، فاعتزل عمرو في فلسطين ، ثم أعاده معاوية الى ولاية مصر ، فظل فيها حتى توفي سنة ٤٣ هجرية.

وجاءت ساعة الرحيل ، ورقد عمرو على فراش الموت ، وأخذ يدعو ربه فيقول نادما راجياً : اللهم أمرتني فلم أأتمر ، ونهيتني فلم أنزجر ، ولست قويا فانتصر ، ولا بريئاً فاعتذر ، ولا مستكبرا بل مستغفرا ، لا اله الا أنت . فلم يزل يردها حتى مات[1] .

جاء في صحيح الامام مسلم :

عن ابن سماسة المهدي قال :

حضرنا عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وهو في سياقة الموت ، فبكى طويلا ، وحول وجهه الى الجدار ، فجعل ابنه يقول له :

يا أبتاه ، أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟..

أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا؟...

فأقبل بوجهه فقال :

ان أفضل ما نعد : شهادة ان لا اله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اني كنت على اطباق ثلاث .

لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مني ، ولا أحب الى أن أكون قد استمسكت منه فقتلته ، فلومت على تلك الحال لكنت من أهل النار .

فلما جعل الله الاسلام في قلبي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : أبسط يمينك فلأبايعك .

---

(١) هناك خلاف في وفاة عمرو . قيل سنة ٤٣ وقيل سنة ٤٢ وقيل سنة ٤٤ وقيل سنة ٥١ والأول أصح كما يقول النووي (تهذيب الأسماء ج٢ ص ٣٠) وكما يقول غيره من المؤرخين .

فبسط يمينه ، فقبضت يميني .

فقال : مالك يا عمرو؟..

قلت : أردت أن أشترط .

قال : تشترط ماذا؟..

قلت : أن يغفر لي .

قال : أما علمت أن الاسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟..

وما كان أحد أحب الي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أجل في عيني منه ، وما كنت أطيق أن املأ عيي منه ، اجلالا له ، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت ، لأني لم أكن أملأ عيني منه . ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة .

ثم وليت أشياء ما أدري ما حالي فيها .

فاذا أنامت فلا تصحبني نائحة ولا نار ، فاذا دفنتموني فسنوا على التراب سنا[1] ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ، ويقسم لحمها ، حتى استأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي[2] .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) سن الماء على وجهه : أي صبه ، ومعنى عبارة عمرو : ضعوا التراب على جسدي وضعاً سهلاً .

(٢) قال النووي في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» عن حديث عمرو بن العاص هذا : «وفي وفاته حديث مليح في كتاب الايمان من صحيح مسلم» ج ٢ ص ٣١ .

يأتي الحلو على المر فيمحوه : «أن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين» ، وقد بذل أسلافنا جهودهم ، وحفظوا عهودهم قدر طاقتهم ، فغفر الله لهم ما فرط منهم ، وضاعف أجرهم وثوابهم ، فليت الخلف يختط طريق السلف ، وما ذلك على الله بعزيز.

الناسك المجاهد

عبد الله بن عمرو بن العاص

إذا كان الله تبارك وتعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، فإنه أيضاً قد قال : « انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ، إن كنتم تعلمون » . وإذا كان رسول الله صلوات الله عليه وسلامه قد قال : « اتق الله حيثما كنت » ، فإنه أيضاً قد قال : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب » .

ولقد رسم لنا الرسول منهج المسلم الفاضل في هذه الحياة حين قال : « ليس خيركم من ترك دنياه لأخراه ، ولا من ترك أخراه لدنياه ، ولكن خيركم من عمل لهذه وتلك » . ثم ضرب الرسول القدوة في ذلك من نفسه فقال : « أنا أصوم وأفطر ، وأصلي وأنام ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

ونحن حين نتواصى بإقامة مجتمعنا على قاعدتي العلم والايمان ، ينبغي لنا أن نتذكر أن العلم يرمز الى القوة التي تجعل أبناء الإسلام يحيون في الدنيا أعزاء شرفاء سعداء ، وأن الإيمان يشير الى النور الإلهي الضابط لهذه القوة الموجه لها الى خيري الدنيا والآخرة ، وإن العلم حين يصفو ويعلو يفجر ينابيع اليقين في صدر الانسان ، ولذلك يقول الرحمن : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

وإعجاب الإنسان مستمر دائم بأولئك السابقين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين نجد الواحد منهم يذوب خشية وعبادة لربه في محرابه ،

كأنه لا شاغل له سوى التعبد والتهجد ، فإذا نادى المنادى : حي على الجهاد ، نقل محرابه الى الميدان ، وجاهد في سبيل ربه خير الجهاد ، ثم بذل جهوده هنا وهناك في مسالك الحياة وشعابها ، صالحاً مصلحاً ، راغباً أن يكون عند الله من المقبولين : «والسابقون السابقون ، أولئك المقربون في جنات النعيم» .

* * *

وهذا واحد من أولئك الكرام العظام :

إنه الصحابي الجليل ، الناسك المجاهد ، أبو محمد[١] عبد الله بن عمرو بن العاص[٢] ، الذي يصفه أبو نعيم في (الحلية) بقوله : «القوي الخاشع ، القارىء المتواضع ، صاحب الصيام والقيام عبد الله بن عمرو بن العاص. كان بالحقائق قائلاً : وعن الأباطيل مائلاً ، يعانق العمل ، ويفارق الجدل ، يطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ويطيب الكلام»[٣] .

ويقول عنه الذهبي : «كان ديناً صالحاً ، كثير العلم كبير القدر»[٤] . وأعطى عبد الله العلم حقه منذ بداية الطريق ، فتعلم وهو فتى في الجاهلية ، وكتب وقرأ كثيراً ، وأحسن اللغة السريانية ، وكان بجوار عنايته الفائقة بشأن القرآن الكريم يطلع على كتب الأديان الأخرى كالتوراة ليحيط بأمرها علماً ، وكان يأخذ الحكمة من أي وعاء خرجت .

---

(١) وقيل : أبو عبد الرحمن ، وقيل أبو نصير (بضم النون) .

(٢) وأمه هي : ريطة بنت منبه بن الحجاج . أسلمت . وقالوا : وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله . (تهذيب الأسماء ج ١ ص ٢٨١) .

(٣) حلية الأولياء ج ١ ص ٢٨٣ .

(٤) العبر ج ١ ص ٧٢ .

وقد سارع الى الدخول في دين الله بعد أن درسه وأيقن به ، وقد أسلم قبل إسلام أبيه عمرو بن العاص [١] . وكان يتابع نزول القرآن المجيد ، وكلما نزلت من آياته طائفة أو سورة سارع بكتابتها وتلاوتها وحفظها ، والعمل بها وتطبيق ما فيها ، فهو رجل عرف الدين وآمن به واستجاب له ، فليس أمامه حسب يقينه إلا أن يتلقى الأوامر وينفذها ، ويطبقها على وعي وبصيرة ، ليحسن الجمع بين العلم والعمل.

وبرغم أن عبد الله كان ماهرا في شئون الدنيا خبيراً بها ، أقبل على العبادة يتوسع فيها ويتوسع . فكان يقوم الليل إلا أقلّه ، ويختم القرآن كل أسبوع ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً ، ويحاول أن يفعل أكثر من ذلك ، معرضاً عن كثير من ألوان التمتع المباح ، ولذلك أشفق عليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ونصحه بالتخفيف والاعتدال ، وقال له فيما قال : «إن لبدنك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وان لضيفك عليك حقاً» . ولقد جاء في الطبقات لابن سعد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو : في كم تقرأ القرآن؟.

قال : في يوم وليلة .

فقال النبي له : أرقد وصل وارقد ، واقرأه في كل شهر .

فما زال عبد الله يناقض الرسول والرسول يناقضه حتى قال الرسول : اقرأه في سبع ليال .

ثم قال له النبي : كيف تصوم؟..

فأجاب عبد الله : أصوم ولا أفطر .

فقال النبي : صم وافطر ، وصم ثلاثة أيام من كل شهر .

---

(١) يقول ابن كثير عن عبد الله : «كان من خيار الصحابة وعلمائهم وعبادهم ، وكتب عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً . أسلم قبل أبيه ، ولم يكن أصغر من أبيه إلا باثنتي عشرة سنة ، وكان واسع العلم مجتهداً في العبادة عاقلاً» البداية والنهاية ج٨ ص ٢٦٣ .

فما زال يناقض النبي والنبي يناقضه ، حتى قال له النبي : صم أحب الصيام الى الله ، وهو صيام أخي داود : صم يوماً وافطر يوماً .

قال عبد الله : فلأن أكون قبلت رخصة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب الي من أن يكون لي حمر النعم حسبته[1] .

* * *

ومع هذا التوسع في التعبد والتهجد كان عبد الله بن عمرو حريصاً على أداء واجب الجهاد في سبيل الله ، كلما دعاه الداعي الى ذلك ، لأنه يعلم أن الجهاد فريضة قائمة باقية ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا» . وأن هذا الجهاد عند تحتمه ووجوبه هو رأس العبادات وأساس القربات .

ولذلك كان عبد الله يقضي ما يقضي من أيامه حليف تلاوته وعبادته وصلاته وقرباته ، فإذا أذن المؤذن داعياً الى صلاة الوفاء والفداء في الميدان ، لبى عبد الله وأجاب ، وبذلك شهد طائفة من الحروب والغزوات ، وكان يضرب بسيفين ، وكان يحمل راية أبيه في معركة اليرموك ، متقدماً الصفوف ، راغباً في نيل الشهادة ، وأبلى بلاء حسناً في معارك فتوح الشام... وفي معركة اليرموك الكبرى بوجه خاص .

وكان مع هذا يحذر أن يشترك في فتنة داخلية أو حرب أهلية بين المسلمين ، فقد أوصاه الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم بألا يضع سيفه على عنق مسلم أبداً ولكنه تعرض في هذا المجال لابتلاء عصيب ، أنقذه الله منه برحمته ، فقد حدث أن كان عبد الله وأبوه عند الرسول ، فقال الرسول لعبد الله : «أطع أباك» ، وحرص عبد الله على تنفيذ أمر الرسول في إطاعة أبيه ، ثم جاءت معركة صفين التي وقعت بين علي ومعاوية ، وكان والده عمرو بن العاص في صف معاوية ، وطلب عمرو من ابنه عبد الله أن يخرج معهم للقتال ، فرفض ذلك .

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٤ ص٧٠ القسم الثاني

فقال له : «أتذكر يا عبد الله آخر عهد عهده اليك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أخذ بيدك فوضعها في يدي ، وقال لك : «أطع أباك»؟ فإني أعزم عليك الآن أن تخرج معنا للقتال» . فاضطر عبد الله أن يخرج ، وهو ينوي عدم المشاركة في القتال ، وفي أول المعركة نال عمار بن ياسر الشهادة ، قتله أنصار معاوية ، فارتفع صوت عبد الله يذكر المسلمين بقول الرسول عن عمار وهم يبنون مسجد المدينة : «ويح أبن سمية ، تقتله الفئة الباغية» . وأيقن عبد الله أن قتلة عمار فئة باغية ، فسارع بالعودة الى محرابه ، محاذراً أن يناله وبال هذه الفتنة .

وصرف عبد الله جانباً كبيراً من همته في تحصيل العلم الديني ، فروى سبعمائة حديث عن الرسول جاءت في صحيح البخاري ومسلم . وقال : «حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل» . وكما اجتهد في العبادة والتلاوة أجتهد في العلم حتى كان أكثر الناس أخذاً للحديث والعلم من الرسول[1] .

وقال عنه أبو هريرة : «ما كان أحد أكثر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مني ، إلا عبد الله بن عمرو ، فإنه كان يكتب ولا أكتب[2] » . وكان عبد الله قد استأذن النبي في أن يكتب ما يسمعه منه فأذن له ، فكتب ما سمع في صحف كان يسميها «الصادقة» ، وكان يقول عنها : «هذه الصادقة فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بيني وبينه فيها أحد»[3] . ومن كلمات عبد الله البليغة قوله : «لخير أعمله اليوم أحب الي من مثليه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنا كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تهمنا الآخرة ولا تهمنا الدنيا ، وأنا اليوم مالت بنا الدنيا» .

هذا وقد ولاه معاوية «الكوفة» زمناً قصيراً ، ولما تولى ابنه يزيد الخلافة ، امتنع

(١) تهذيب الأسماء للنووي ج١ ص ٢٨٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) الطبقات لابن سعد ج ٤ ص٨ القسم الثاني .

عبد الله عن بيعته ، وانزوى منقطعا للعبادة ، وكفّ بصره في آخر حياته ، رضوان الله عليه .

ولقد لحق بربه تبارك وتعالى سنة خمس وستين للهجرة على الصحيح ، ويقول الذهبي في كتابه « العبر » عن سنة خمس وستين : « وفيها مات على الصحيح عبد الله ابن عمرو بن العاص السهمي »[1] . واختلفوا اختلافاً واسعاً في سنة وفاته ، كما اختلفوا في مكان وفاته أيضاً .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

هكذا عاش أصحاب النبي : كانوا أهل علم وعمل ، وأصحاب عبادة وسعي ، وحلفاء قوة وإيمان ، وأنصار مادة وروح ، فأقاموا مجتمعاً عاقلاً فاضلاً ، عزت فيه كلمة الله على الدوام ، فاعزهم ربهم بين سائر الأنام ، فهل من سبيل الى عودة لما كان عليه أولئك الأعلام ؟ .

---

(١) العبر ، ج ١ ص ٧٢ .

المجاهد ذو الرأي

الحباب بن المنذر الأنصاري

خلق الله تبارك وتعالى الانسان صاحب طاقة محدودة وأنفاس معدودة ، فهو لا يستطيع — ولو زعم — أن ينهض وحيداً منفرداً بكل ما يهوى أو يريد ، وهو لا يستطيع — وإن حاول — أن يحيط بكل شيء علماً ، أو يدعي أنه أوتي العصمة من الخطأ والزلل ، أو من السهو والنسيان ، وأمور الحياة كثيرة متعددة ، وأحداثها موصولة متجددة .

والعاقل اللبيب هو من أدرك هذه الحقيقة ، فلم ينفرد بنفسه ، ولم يستبد برأيه ، بل أضاف الى عقله عقول سواه ، ووضع يده في أيدي قومه وأهل حماه ، معيناً ومستعيناً ، وناصحاً ومنتصحاً ، وهادياً ومهتدياً .

والقرآن الكريم يقرر ذلك المنهاج الرشيد حين يقول : «والعصر ، ان الانسان لفي خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» وحين يقول : «وتعاونوا على البرّ والتقوى» .

والأثر الإسلامي الحكيم يقول : «ما ندم من استشار ، ولا خاب من استخار» .

وشوقي الحكيم يقول : «شورى ولو كانت من الحجاج خير من استبداد الفرد ولو كان عمر» .

وحافظ ابراهيم يقول :

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

ولذلك جعل الحق جل جلاله مبدأ «الشورى» قاعدة من قواعد الاسلام، وفريضة من عزائم الأحكام. فوصف القرآن الأمة المؤمنة بقوله: «وأمرهم شورى بينهم»، وأمر الله رسوله بالخضوع لمبدأ الشورى والأخذ به، التزاماً لأمر الله من جهة. وتعليماً للمسلمين كي يحرصوا على الشورى من جهة أخرى، فقال الله لرسوله: «وشاورهم في الأمر».

ولقد استجاب سيد الخلق وإمام الإنسانية محمد لهذا التوجيه الإلهي الحكيم، فكان بذلك وبغيره خير من استجابت له النفوس، والتقت على تأييده الهمم، لأنه أعطى الرجال من حوله مكانتهم، وصان حرمتهم، واستوعب فكرتهم، واستشارهم فقالوا كلمتهم، حتى هتف أحدهم يقول له مخلصاً: «يا رسول الله، والله إنا لا نقول لك كما قالت بنو اسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون، ولكنا نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون».

ولقد كان في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبطال صدقوه الرأي والمشورة والنصيحة: «والدين النصيحة» وكانت لأفكارهم وآرائهم نتائج وآثار أثمرت أطيب الثمرات في تاريخ الإسلام والمسلمين، ولم يكتفوا بالرأي يبدونه، ولا بالفكرة يستنبطونها، بل اندفعوا معه في مجالات الحق والصدق، ينفذون ما اتجه إليه رأيهم. واتفقت عليه كلمتهم، ويد الله مع الجماعة كما قال الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا واحد من أولئك الذين كانوا من أهل الوفاء والفداء، فجمعوا بين صفاء النفوس، ورجاحة العقول، وروعة التطبيق والإلتزام.

إنه الصحابي الجليل، المفكر المدبر، المستجيب المقدام، المقاتل المناضل: أبو عمرو الحباب بن المنذر بن الجموح بن زيد الأنصاري رضي الله عنه [1] وكان بليغاً ينظم الشعر، فشغله الإسلام والقرآن والجهاد عن الهيام مع الشعراء في أودية الخيال

(١) أمه هي: الشموس بنت حق.

والأوهام ، وكان في الجاهلية صاحب تفكير عميق ، فلما استضاء بنور الإيمان سخر طاقة تدبيره وتفكيره لخدمة الحق وأهله ، وصار يقال له « ذو الرأي» لكثرة ما يبدي من توجيه حميد ، وتفكير سديد.

وتروي السيرة انه حينما نزل الرسول في غزوة بدر على أقرب ماء من مياه بدر جهة المدينة ، جاءه الحباب ، وقال له : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزل أنزله الله ، فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟.

فقال الرسول : «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

فقال الحباب : يا رسول الله ، إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم (المشركين) فننزل ونعور ما وراءه من القلب (بضمتين جمع قليب وهو البئر) ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ، فنشرب ولا يشربون[1] . وأعجب الرسول برأي الحباب وأمر بتنفيذه ، ويروى أن جبريل نزل على النبي يقول له : الرأي ما أشار به الحباب بن المنذر.

فقال النبي : يا حباب أشرت بالرأي[2]

وفي معركة بني قريظة والنضير استشار النبي المسلمين ، فوقف الحباب وقال : يا رسول الله أرى أن ننزل بين القصور ، فنقطع خبر هؤلاء عن هؤلاء.

فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه[3] .

ولم يكن الحباب عقلية مفكرة مدبرة فحسب ، بل كان الى جوار ذلك مقاتلاً بطلاً مقداماً ، وكان يقول : «نحن أهل الحرب».

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٢/ ٤٤٠ والسيرة لابن كثير ٢/ ٤٠٢.

(٢) الطبقات لابن سعد ٣/ ١٠٩ القسم الثاني.

(٣) المرجع السابق.

ولا عجب فهو سلالة محاربين، وهو خال المنذر بن عمرو الساعدي أحد النقباء، وأحد الشهداء في بئر معونة، الذي قال عنه الرسول، «اعنق ليموت» أي اسرع لينال الشهادة[١].

ولقد كان الحباب يحمل لواء قومه الخزرج يوم غزوة بدر، ومعنى هذا أنه كان في طليعتهم[٢]. وكان الحباب من أوائل الذين اشتركوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة السويق بعد ثلاثة أشهر من غزوة بدر. وهي إحدى غزوات المقاومة الجريئة من المسلمين.

* * *

وفي غزوة أحد كان الحباب أيضاً يحمل لواء الخزرج. وكان هناك ثلاثة ألوية في الغزوة. وحينما تبدت شراسة المعركة ثبت الحباب الى جانب الرسول وبايعه على الموت[٣] ولم يقبل لنفسه أن يفر، ثم شهد معه غزوة الخندق، وهي غزوة الأحزاب التي قال عنها القرآن: «إذ جاءوكم من فوقكم. ومن أسفل منكم. وإذ زاغت الأبصار. وبلغت القلوب الحناجر. وتظنون بالله الظنون. هنالك ابتلي المؤمنون. وزلزلوا زلزالاً شديداً».

ثم شهد المشاهد كلها مع رسول الله عليه الصلاة والسلام[٤].

وفوق هذا كله كان الحباب بن المنذر راوية للحديث النبوي. وممن روي عنه أبو الطفيل. وهو آخر صحابة رسول الله[٥].

---

(١) تحدثت عن المنذر بن عمرو حديثاً مفصلاً في كتابي «فدائيون في تاريخ الإسلام» ص ١٠٥—١١٥.

(٢) كان عمره يوم بدر ثلاثاً وثلاثين سنة (أسد الغابة ١/ ٤٣١ طبعة التعاون).

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٣/ ١١٠ القسم الثاني.

(٤) المرجع السابق.

(٥) التحفة اللطيفة ج١ ص ٤٤٥.

وظل الحباب يبذل جهده ، ويصون عهده ، حتى توفي في عهد الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضوان الله تعالى عليه ، ولم يترك وراءه عقباً ولا ذرية ، ولكن ذكراه بقيت كريمة عاطرة باهرة ، تزين صدر التاريخ ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه ، وسلام عليه في الخالدين.

* * *

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام.

إن إنجاز الأعمال ، أو تحقيق الآمال ، يتطلب أمرين أساسيين : هما الرأي الصائب ، والعزيمة الماضية ، ولذلك قال الشاعر الأول :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني

وقال القائل الآخر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا

فليتنا نقبل على مجتمعنا المؤمن نعمره بالآراء الناضجة ، ونشد بيانه بالشجاعة والإقدام ، ففي ذلك فلاح الدنيا وسعادة الآخرة.

والله من وراء القصد يرشد ويعين.

عابد فلسطين المجاهد

تميم بن أوس الداري

ان اعجاب الباحث المتأمل لا ينقضي بشأن هذه الأمة المحمدية المؤمنة ، التي صنعها ربها ، وأدبها كتابها ، وهذبها نبيها ، وجعلها الاسلام نبراسا للعالمين.

فلو أن فردا من أبناء هذه الأمة برع في الشئون المادية وحدها ، لقلنا عنه : أنه انسان دنيا اغراه حب الحياة ، فأقبل عليها يعب منها بأوسع المكاييل ، ولو أن فردا منها توسع في العبادة والقنوت ، لقلنا : انه انسان آخرة أرتضى لنفسه أن يكون حليف مساجد ومحاريب ، ولو أن فردا منها سطع نجمه في القتال والحرب لقلنا أنه : انسان أوتي قوة وشجاعة ، فاندفع الى المعارك يرضي بها نزعته الى البطولة والفخر.

ولكن الذي يثير الاعجاب المستمر هو أن نرى أعلام هذه الأمة المحمدية المؤمنة كأن الله تعالى قد آتاهم ميزانا الهيا دقيقا ، وزنوا به مقومات شخصياتهم الاسلامية في تعادل وتكامل ، فهم رجال الدنيا ورجال الدين ، وهم أبطال الأولى وأبطال الآخرة ، وهم رهبان الليل وفرسان النهار ، وهم أهل المادة وأهل الروح.

وكأن كلا منهم قد أحسن الاستجابة لقول الحق عز من قائل. «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الارض ، ان الله لا يحب المفسدين». فهم الجادون المجتهدون في العمل والسعي والبناء والتعمير ، وهم القانتون المتهجدون في ساحات العبادات والقربات ، وعمل الصالحات وتقديم الطيبات ، وهم المعروفون ببطولاتهم وتضحياتهم فى ميادين القتال والنضال.

وكأنهم نذروا أنفسهم لاقامة حياة عاملة عاقلة ، عادلة ، فاضلة ، يتمثل في أهلها قول الحق جل جلاله : «وكذلك جعلناكم أمة وسطا». وقوله : «كنتم خير أمة أخرجت للناس».

وهذا واحد منهم : انه الصحابي الفاضل ، والمجاهد المناضل ، وعابد فلسطين المقاتل : أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة الداري[1] الذي كان في أول أمره نصرانيا من أتباع عيسى عليه السلام ، ثم شرح الله صدره للاسلام ، فدخل فيه سنة تسع للهجرة ، وكأنه استجاب لدعوة عيسى حين قال فيما قال : «ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد».

وكان يقال له في كنيته : «أبو رقية» لأن الله تعالى رزقه بنتا سماها «رقية» تيمنا باسم احدى بنات الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولم يولد لتميم سواها ، ومع ذلك رضي بها ، وكأنه تذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما بشروه باحدى بناته قال : «ريحانة أشمها ورزقها على الله».

وكان تميم راهب عصره ، وعابد أهل فلسطين ، كما يقول رواة السيرة ، وكان حافظا للقرآن ، مكثرا لتلاوته والتدبر فيه ، يختمه كل سبع ليال ، وربما قام الليلة من الليالي متهجدا حتى يصبح بآية من القرآن الكريم ، يرتلها ويتدبر في معانيها ومغازيها.

فقد روى أنه قام ذات ليلة حتى أصبح يقول الله تعالى في سورة الجاثية : «أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم؟ ساء ما يحكمون».

وقام ليلة أخرى ، ردد فيها آية حتى اصبح ، وهي قوله تعالى : «ان تعذبهم فانهم عبادك ، وأن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم».

---

(١) نسبة الى الدار بن هانىء من لخم ، وهو أحد أجداده ، وقيل في نسبه : الديري ، نسبة الى دير كان يتعبد فيه قبل الاسلام ، لأنه كان نصرانياً.

ومع هذا كان رجل دنيا ، يجيد السعي والعمل والكسب ، وجمع من وراء ذلك مالا طيبا أسهم به في وجوه كثيرة من الخيرات ، وأظهر في نفسه نعمة الله عليه ، فكانت له كما يقول التاريخ هيأة ولباس ، ولقد اشترى بعض الثياب بألف درهم ليصلي فيها ، مهتديا بقول الحق جل جلاله : «يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد» .

ولأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه يقول : «ان الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» ، وهذا بعض ما نفهمه من قول القرآن المجيد : «وأما بنعمة ربك فحدث» .

* * *

وكان تميم الداري مع هذا رجلا مجاهدا مناضلا ، شارك في غزوات للحق ضد الباطل ومعارك للايمان ضد الكفران ، واشترك معه في بعض هذه الغزوات أخوه «نعيم» الذي اسلم معه ، وكان تميم الداري يعني بأعداد سلاحه وأدوات قتاله ، حتى يكون على استعداد دائم للنفير الى الجهاد ، وكان يقوم بهذا الاعداد بنفسه

ولقد زار روح بن زنباع تميما الداري في بيته ، فوجده ينقي شعيرا لفرسه الذي يركبه في الجهاد ، وحوله أفراد من أهله ، فقال له روح : أما كان في هؤلاء من يكفيك هذا؟.

قال تميم : بلى ، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما من امرئ مسلم ينقي لفرسه شعيرا ، ثم يعلفه عليه الا كتب الله له بكل حبة حسنه»[1] .

واذا كان تميم قد قال هذا بالنسبة الى فرسه ، فمن الممكن أن يقال مثل ذلك عن آلات الجهاد المعاصرة ، كالطيارة والدبابة والمدرعة ، فليس هناك ما يمنعنا أن نفهم أن من صان دبابته مثلا ، وأشرف على تنظيفها واعدادها وامدادها بالنفط

---

(١) أخرجه الثلاثة .

(البنزين). كان له بكل قطرة من النفط حسنة، وانما يتقبل الله جل جلاله من المتقين المخلصين الصادقين.

وقد زار تميم «مصر» كنانة الله في أرضه، وشهد فتحها، وتلقى عنه الحديث كثير من أهل مصر، منهم علي بن رباح، وموسى بن نصير فاتح الأندلس وأكثر بلاد المغرب.

ولم يكتف تميم الداري بالجهاد على سطح الأرض اليابسة، بل جاهد في وسط المياه والأمواج، فركب البحر مناضلا مع البحرية الاسلامية الأولى، في عهد كانت فيه وسائل التنقل في البحر قليلة ضئيلة غير مأمونة، وقد روى تميم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أخبارا عن بعض رحلاته في البحر وروى الرسول هذه الأخبار عن تميم رضوان الله عليه.

ومنها قصة «الجساسة»:

في احدى رحلات تميم في البحر، رأى في جزيرة البحر «الجساسة» وهي دابة تتجسس الأخبار، وقد جاء خبر «الجساسة» في حديث صحيح رواه الامام مسلم، وقد روى تميم هذا الخبر لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ورواه عنه الرسول. وعد العلماء ذلك منقبة عظيمة لتميم، فهو الشخص الوحيد الذي روى عنه النبي صلوات الله وسلامه عليه. وفي صحيح مسلم: «أن رسول الله روى عن تميم قصة الجساسة، وهذه منقبة شريفة له لا يشاركه فيها غيره».

وفي صحيح مسلم عن عامر بن شراحيل أنه سأل فاطمة بنت قيس — وكانت من المهاجرات الأول — فقال:

حدثيني حديثا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا تسنديه الى أحد غيره.

فقالت: لئن شئت لأفعلن.

فقال لها: أجل حدثيني.

فقالت : نكحت ابن المغيرة ، وهو من خيار شباب قريش يومئذ ، فأصيب (بجراح) في أول الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما تأيمت (لأن ابن المغيرة طلقها) خطبني عبد الرحمن بن عوف ، في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وخطبني رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاه أسامة بن زيد ، وكنت قد حدثت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أحبني فليحب أسامة .

فلما كلمني رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : أمري بيدك ، فأنكحني من شئت . وأمرها الرسول بالانتقال الى الاقامة عند عبد الله بن أم مكتوم .

فلما انتهت عدتها سمعت نداء منادى النبي : «الصلاة جامعة» .

تقول : «فخرجت الى المسجد ، فصليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنت في صف النساء الذي يلي ظهر القوم» .

ولما انتهى الرسول من الصلاة جلس على المنبر وقال : ليلزم كل انسان مصلاه .

ثم قال : أتدرون لم جمعتكم ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا رهبة . ولكن جمعتكم لأن تميما الداري كان رجلا نصرانيا ، فجاء وبايع وأسلم ، وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال .

ثم قص النبي ما رآه تميم الداري مع رفاقه في جزيرة بالبحر ، وهو دابة غليظة الشعر غريبة الشكل تتكلم كأنها من جنس البشر ، فسألوها عن شأنها ، فدلتهم على رجل في دير ، عظيم الخلقة ، يداه موثقتان في عنقه بالأغلال .

قالوا له : ويلك ما أنت ؟

فقال : أخبروني من أنتم ؟

فقصوا خبرهم ، فقال : أخبروني عن نخل بيسان (مدينة بالاردن)

قالوا : عن أي شأنها تستخبرنا؟

قال : أسألكم عن نخلها هل يثمر؟

قالوا : نعم.

قال : أما أنه يوشك أن لا يثمر ، أخبروني عن بحيرة طبرية ، هل فيها ماء؟

قالوا : هي كثيرة الماء.

قال : أما أن ماءها يوشك أن يذهب...

ثم قال : أخبروني عن نبي الأميين ما فعل.

قالوا : قد خرج من مكة ، ونزل يثرب.

قال : أقاتله العرب؟

قالوا : نعم.

قال : كيف صنع بهم؟

قالوا : قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه.

قال : أما أن ذلك خير أن يطيعوه...

ومضى الرسول يقص بقية الخبر ، ويذكر المسيح الدجال ، ثم قال : «انه أعجبني حديث تميم ، انه وافق الذي كنت أحدثكم»...

وهكذا فاز تميم بمفخرة لم ينلها سواه ، وهي أن يروى عنه رسول الله ، وذلك تكريم أي تكريم ، ولا عجب في ذلك ، فتميم قد اسلم قياده لرسول الله ، منذ أقبل على نور الاسلام. ولقد روى التاريخ أن تميما قدم على الرسول لأول مرة فحياه بتحية الجاهلية ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : «ان تحيتنا السلام» فاستمع تميم واستجاب ، واعتدل واستقام.

وأحب تميم رسول الله ، وكان يهدي اليه لطائف الثمار ، وأهدى الى النبي ذات مرة زبيبا ، فوضعه الرسول بين يديه ، ودعا اليه أصحابه ، وقال : «كلوا ، فنعم الطعام الزبيب» .

ونال تميم تقدير الرسول وتكريمه فأقطعه بلدة «حيرون» التي يقول عنها ياقوت : ان حبرون اسم القرية التي فيها قبر ابراهيم عليه السلام بالبيت المقدس ، ثم غلب عليها اسم «الخليل» ويقال لها : «حبرى» .

ومن مآثر تميم أنه كان عميق الايمان ناصع العقيدة ، جاء في مسند الامام أحمد :

عن تميم الداري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر الا أدخله هذا الدين بعز عزيز ، أو بذل ذليل ، عزا يعز به الاسلام ، وذلا يذل به الكفر» .

فكان يقول : قد عرفت ذلك في أهل بيتي ، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ، ولقد أصاب منهم من كان كافرا الذل والصغار والجزية» .

* * *

وفوق هذه المآثر كلها كان تميم الداري رجلا فقيها راويا للحديث النبوي الشريف ، وقد أورد له الامامان البخاري ومسلم ثمانية عشر حديثا ، وتلقى الحديث عن تميم جماعة من أجلاء الصحابة حسبنا أن نتذكر منهم : عبد الله بن عباس وأنس بن مالك ، رضوان الله على الجميع ، ومن الأحاديث التي رواها تميم عن فم النبوة الطاهرة الحديث القائل : «الدين النصيحة» . ولذلك عاش تميم ناصحا لله ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم ... وفي آخر عهد الرسول طلب تميم من النبي أن يعهد اليه بقرية «عينون» القريبة من القدس في فلسطين ، وهي — كما في معجم البلدان — من قرى بيت المقدس (وقيل أقطعه النبي قرية حبرون) ليستخصبها مع أهله وأقاربه

المقيمين فيها ، فكتب النبي له كتابا بذلك ، وبذل تميم مع قومه جهودا كبيرة كريمة في تعمير القرية واستخصاب أرضها ، فكفى نفسه وأهله ، وزكى ثروته وماله ، وتصدق بالكثير لوجه الله تعالى ، وقد روى أنه أول من أشعل السراج في مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام[1] ومع ذلك لم ينقطع تميم عن الدعوة والارشاد الى سبيل الله ، فقد استأذن تميم الخليفة عمر في أن يعقد مجلسا يعظ فيه ، ويقص على الناس ما يذكرهم ويرشدهم ، وظل تميم على عمله للدنيا والدين ، وعلى رباطه استعدادا للجهاد في كل أوان ، حتى لحق بربه سنة أربعين للهجرة في فلسطين ، ودفن في قرية « بيت جبرين » من أرض فلسطين ردها الله على العرب والمسلمين .

* * *

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام : هكذا عاش أحد المجاهدين من تلاميذ رسول الله الذي قال فيما يرويه الامام أحمد : « من مات مرابطا مات شهيدا » . وقد عاش تميم مجاهدا ومات مرابطا ، فليس بكثير على فضل الله الواسع أن يثيبه ثواب الشهداء ، وليس بكثير على فضل الله الواسع أن يأخذ بنواصينا جميعا الى طريق الهدي والرشاد .

---

(١) قيل انه أول من أسرج المسجد النبوي في زمنه صلى الله عليه وسلم وقيل ان أول من أسرجه هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

المجاهد الشيخ

عمر المختار

ان حديث الفداء في الاسلام قد صار لحناً محبباً ، فقد دبت فينا الحياة الكريمة من جديد ، فأصبحنا نقارع أعداءنا يوما بعد يوم ، ونقض عليهم مضاجعهم ، وننال منهم ، والاحرار يقاتلون بلا يأس : « انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

وتاريخنا القديم والحديث يعلمنا ذلك ، فهذه مثلا هي ايطاليا الاستعمارية تقدم منذ نصف قرن على احتلال دولة عربية اسلامية شقيقة هي ليبيا ، فقام شعبها العربي المسلم يقاوم هذا الطغيان بكل ما استطاع ، مستمدا حوافز جهاده وكفاحه من تعاليم دينه ومبادئ شريعته ، محتملا في سبيل ذلك كل أنواع البلاء والعناء ، واذا كنا رأينا في فلسطين المحتلة مجرما شرسا عضوضا يسمى « موسى ديان » فقد كان له أخ ايطالي من قبل ظهر في ليبيا المحتلة حينئذ يسمى « الجنرال جرازياني » فملأ السجون بالليبيين ، وأنزل بهم صنوف العذاب ، وأنشأ محكمة سميت « بالمحكمة الطائرة » ، وهي من أقذر الوسائل الانتقامية التي لجأ اليها الاستعمار الغربي الدنيئ ، فهي محكمة عرفية سيارة كانت تتنقل بين البلاد بوساطة الطائرات ، وتعقد جلساتها في الميادين العامة ، وتتم محاكماتها بسرعة ، ثم تصدر أحكامها بالاعدام ، ومصادرة الأموال لأقل شبهة .

ولقد بلغ من فجر ايطاليا المحتلة حينئذ لليبيا أن أخذ مجرموها الشهيد الليبي الشيخ سيد الشرقاوي ومعه خمسة عشر شيخا ، وقتلوهم أفظع قتلة ، بأن اركبوهم الطائرات ، وألقوهم منها على ارتفاع أربعمائة متر على مشهد من أهليهم المستضعفين .

وكذلك جمعت ايطاليا على يد جرازياني كل مشايخ السنوسية وأئمة المساجد والفقهاء في سنة ١٩٣٠ وسجنتهم جميعا في مركز «بنينه» ، وهو بناء قديم لا سقف له ، وأذاقتهم فيه الجوع والعطش والعذاب ، ثم نقولهم الى سجون ايطاليا ، وبعد أن مكثوا هناك مدة أعادوهم الى بنينة ، حتى عملوا على افنائهم بالجوع والعطش وغيرهما .

* * *

ثم جاء شهيد الاسلام والعروبة ، وبطل طرابلس الخالد السيد عمر المختار ، ليضرب مثلا من أمثلة الفداء في الاسلام ، فقد ولد سنة ١٢٧٧ هـ — ١٨٦٠ م في «البطنان» ببرقة ، وتلقى علومه الدينية في جغبوب في زاوية السنوسية التي كانت مركز الدعوة الاسلامية ، التي قامت بها الحركة السنوسية في ليبيا .

وكان أساس تعليمه هو حفظ (القرآن الكريم) ، كما كانت العادة جارية بين المسلمين الى عهد قريب — هل يعرف أحدنا لماذا انقطعت هذه العادة المباركة ؟.

واشتغل عمر المختار بنشر الاسلام في ربوع ليبيا والسودان ، ثم دعته ظروف النضال الليبي الى أن يتزعم كتائب المجاهدين ضد الغزو الايطالي ، وظل يخرج من معركة الى معركة ، حتى روى التاريخ أنه اشترك في ٢٦٣ معركة ضد ايطاليا في مدة عشرين شهرا ، أي في أقل من عامين .

وكان المجاهد البطل الشهيد حريصا على تنفيذ تعاليم الاسلام نصاً وروحاً في جهاده ، ومن بينها اقامة صلاة الحرب أو صلاة القتال في الميدان ، وكان شعاره هو التكبير والتهليل ، وكم من شدائد تعرض لها عمر المختار ورفاقه ، وكم بذل هؤلاء الأشقاء وتعرضوا لألوان من التضحية والفداء ، وكم جاء أناس الى عمر المختار ينصحونه بالتسليم ، لأن القوتين غير متكافئتين ، والعدو متمكن متسلط قاهر ، فيرفض المختار ذلك ، ويصر على أن يقاوم حتى آخر رمق ، موقنا أن النصر اذا لم

يتحقق على يديه، فسيأتي من بعده من يحققه، ولولا ضحايا في أول الكفاح ووسطه، لما تمهد الطريق أمام النصر المبين والفتح الكبير.

* * *

وجاءت الساعة المشهودة التي ضرب فيها عمر المختار مثلا في الثبات والبطولة، حيث واجه أعداءه الغزاة، في معركة غير متكافئة فهو يحارب بسلاح يده وحصانه، وهم يحاربون بالطائرات والسيارات والمدافع والقنابل، وتكبكب الزبانية على المجاهد البطل، وصرعوا جواده، ووقع البطل على الأرض، ثم نهض ليواصل المقاومة، فتكاثروا عليه وأسروه، وهو في نحو الثمانين من عمره.

وحينما سألوه لم ينكر أنه حارب وجاهد، وقاوم الغزو الايطالي بكل ما استطاع.

قال له القاضي: هل أنت رئيس الثوار ضد ايطاليا؟

قال عمر المختار: نعم؟

قال القاضي: هل حاربت الدولة؟

أجاب: نعم.

قال القاضي: هل شهرت السلاح في وجه قوات الدولة؟

أجاب: نعم.

قال القاضي: هل اشتركت في القتال اشتراكا فعليا؟

أجاب: نعم.

قال القاضي: هل أمرت بقتل الجنود الذين كانوا يحرسون العمل في أثناء انشاء الطرق؟

أجاب: نعم.

قال القاضي: هل أمرت بالغزو واشتركت فيه؟

أجاب : نعم.

قال القاضي : هل أمرت بتحصيل العشور من الناس؟

أجاب : نعم.

وقال : ان وقوعي في الأسر لا يضعف مقاومة ليبيا للاستعمار ، ولتفعلوا بي ما تشاءون ، ولكن ما كنت في يوم من الأيام لأسلم لكم طوعا ، إنني قاتلت ايطاليا من أجل ديني ووطني ، وكنت أعلم أنني لن أستطيع طرد الأعداء من بلادنا ، ولكني كنت أقاتل ، لأن واجبي هو أن أجاهد ، وتركت النتيجة في يد القدر ، وكأنه كان يستحضر في ذهنه قول سلفه الكريم :

ولست أبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان في الله مصرعي

وجاء الطاغية «الجنرال جرازياني» ليلتقي عمر المختار متشفيا شامتا ، ودارت بين الاثنين المحاورة التالية :

قال جرازياني : لماذا قاتلت الحكومة الايطالية بهذه الشدة؟.

أجاب البطل الأسير : قاتلتها من أجل ديني ووطني.

قال جرازياني : هل كنت تظن أن في امكانك طردنا من برقة؟

أجاب البطل الأسير : لا ، فقد كان ذلك مستحيلا.

قال جرازياني : ماذا كنت تقصد اذن؟

أجاب البطل الأسير : كنت أقاتل وكفى ، تاركا النتيجة في يد القدر ... الخ.

وسيق البطل الأسير الى المحاكمة الصورية الهزيلة التي بدأوها في جوف الليل ، وكأنهم أرادوا أن يتخذوا من ظلامه وسواده قناعا يحاولون به ستر فضائحهم ومخازيهم ، وسرعان ما بلغوا الهدف الذي يريدونه ، وهو الحكم على عمر المختار بالاعدام شنقا ، وحينما سمع البطل الحكم لم يزد على قوله : «ان لله وانا إليه

راجعون» . وأقبل يوم التنفيذ وهو السادس عشر من سبتمبر ١٩٣١ م وتقدم عمر المختار الى حبل المشنقة شجاعا مطمئنا ، غير هياب ولا وجل ، وهو يردد الشهادتين : أشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وحركوا حبل المشنقة ليجهز على الشيخ الكبير المجاهد ، ولكن الحبل لم يحدث أثره المطلوب ، فأعادوا عملية الشنق مرة أخرى ، وكأنهم كانوا يؤكدون جريمتهم النكراء مرتين ، ليلعنهم القدر بها لعنتين :

قال شوقي :

دفعوا الى الجلاد أغلب ماجدا
يأسو الجراح ويطلق الأسراء
ويشاطر الأقران ذخر سلاحه
ويصف حول خوانه الأعداء
وتخيروا الحبل المهين منية
لليث يلفظ حوله الحوباء[1]
حرموا الممات على الصوارم والقنا
من كان يعطي الطعنة النجلاء

ولحق عمر المختار بربه ، فهل امتلأت ليبيا هما وغما ، أو حزنا ويأسا؟ . معاذ خلال الأحرار ، بل استمر المجاهدون في ليبيا على طريق النضال ، ومن وراء عمر المختار تسلم قيادة المجاهدين البطل الشهيد «يوسف بو رحيل» ، وتوالى الشهداء شهيدا وراء شهيد ، بلا يأس ولا قنوط .

فماذا كانت النتيجة ؟. تحقق النصر لهؤلاء الأوفياء ، ورحلت ايطاليا ، وانطوى علمها الأسود عن ليبيا ، وأرتفع علم الاستقلال على ربوع البلد المناضل الذي دفع

---

(١) الحوباء : الروح.

شعبه الثمن كريما وغاليا ، ومن طلب الحسناء لم يغلها المهر كما قال الأجداد ، ولم تصبح ليبيا دولة مستقلة ذات سيادة فقط ، بل صارت دولة تؤيد العمل البطولي العربي ، وتسند باقتدارها المادي دعائم الجهاد الموصول.

* * *

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام.

ان كتائب الفداء التي تقض مضاجع الصهيونيين الآن هنا وهناك وهنالك من واجبها أن تستضيئ على الدوام بأمثال عمر المختار ، ذلك الشهيد الذي آمن بأن شجرة الحرية لا تنبت ولا تنمو الا بالدماء ، وبأن طريق الفداء مفروش بالعرق والدم وثقيل الابتلاء ، ولذلك كان شوقي صادقا حين قال يخاطب روح عمر المختار :

خيرت فأخترت المبيت على الطوى
لم تبن جاها ، أو تلم ثراء
ان البطولة أن تموت من الظمأ
ليس البطولة أن تعب الماء
في ذمة الله الكريم ، وحفظه
جسد ببرقة وسد الصحراء

ومن رثاء خليل مطران لعمر المختار هذه الأبيات :

أبيت والسيف يعلو الرأس تسليما
وجدت بالروح جود الحر أن ضيما
تذكر العرب ، والأحداث منسية
ما كان — اذ ملكوا الدنيا — لهم خيما
ما الموت أن تك منجاة البلاد به

من غاصب وانتصاب الشعب مظلوما؟

هذا هو العيش والقسط العظيـم به

من خالد الفخر فوق العمر تقويما

ان الفداء لأعلى ما حمدت له

أخرى ، وان كان في أولاه مذموما

ومـا اعـتـدال زمـان لا يـقـومـه

بـنـوه بـالصبر والاقـدام تـقـويما

* * *

سلاماً سلاماً على البطل المسلم المناضل عمر المختار ، الذي يجب أن يكون قدوة للأخيار الأحرار في هذه الديار...

الشهيد المبادر

ثابت بن الدحداح الأنصاري

إن أكرم ما في المؤمن أمران : أولها المعدن النقي الصافي ، القائم على الفطرة الطاهرة ، والاستعداد الطيب ، ولذلك يقول الحق جل جلاله : «فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» .

ويقول سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم : «الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام ، اذا فقهوا» .

وثاني الأمرين هو المبادرة الى الخير ، والمسارعة بالاستجابة لصوت البر ، ولذلك يقول القرآن المجيد : «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم ، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ، وأنه اليه تحشرون» .

لقد كان من حول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه رجال استعدت نفوسهم للحق ، فلما جاءهم فرحوا به ، وحرصوا عليه ، واستجابوا له ، حتى تحدث عنهم القرآن المجيد بمثل قوله : «الذين استجابوا لله وللرسول ، من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس ، أن الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم ، فزادهم ايمانا ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل» .

ولقد كانت استجابتهم تظهر في مجالين أكثر من ظهورهما في غيرهما : المجال الأول هو مجال البذل لما في أيديهم ، تقربا الى الله ، وايثارا لما عنده ، والمجال الثاني

هو مجال التضحية بأرواحهم ، جهادا في سبيل الله ، وطمعا في نعمة الشهادة لوجه الله : «انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون».

* * *

وهذا واحد منهم : انه الصحابي الوفي ، الباذل التقي ، المجاهد الزكي ، أبو الدحداح ثابت بن الدحداح بن نعيم الانصاري[1] الذي كان جنديا مجهولا ، ولذلك اختلفوا في اسمه ونسبه اختلافا كثيراً ، حتى قال عنه الامام ابن عبد البر : «لا أقف على اسمه ، ولا على نسبه ، غير أنه من الأنصار حليف لهم».

وقد أسلم أبو الدحداح وحسن اسلامه ، وتجلت فيه الاستجابة المخلصة لما يأمر به ربه ، أو يدعو اليه رسوله ، ومن شواهد ذلك أن الله تبارك وتعالى أراد أن يعد أمته المؤمنة لحياة العزة والكرامة والحرية ، فدعاهم الى الجهاد ، وطالبهم من أجل ذلك بحسن الأعداد والاستعداد ، فقال لهم عز من قائل : «وقاتلوا في سبيل الله ، واعلموا أن الله سميع عليم ، من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له أضعافا كثيرة ، والله يقبض ويبسط ، واليه ترجعون».

وسمع أبو الدحداح لأول مرة هذا التوجيه الرباني الكريم ، فسارع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له : يا رسول الله ، أيريد الله تعالى منا القرض؟.

قال : نعم يا أبا الدحداح.

فقال : فداك أبي وأمي يا رسول الله ، ان الله يستقرضنا وهو غني عن القرض ؟

فقال النبي : نعم ، يريد أن يدخلكم الجنة به.

---

(١) قيل إن اسمه : أبو الدحداح عمرو بن الدحداح. وقيل : ابن الدحداحة. وكلمة الدحداح معناها : القصير الثمين.

قال أبو الدحداح : فاني أريد أن أقرض ربي قرضا يضمن لي به ولزوجتي ولصبيتي الجنة ؟

قال : نعم .

قال : فناولني يدك يا رسول الله .

فناوله يده ، فقال : ان لي حديقتين ، أحداهما بالسافلة ، والأخرى بالعالية ، والله لا أملك غيرهما ، قد جعلتهما قرضا لله تعالى .

فقال له الرسول : اجعل احداهما لله ، والأخرى دعها معيشة لك ولعيالك .

قال أبو الدحداح : فأشهدك يا رسول الله ، اني قد جعلت خيرهما لله تعالى ، وهو حائط فيه ستمائة نخلة .

فقال النبي : اذن يجزيك الله به الجنة .

وانطلق أبو الدحداح الى زوجته وهي مع صبيانها في الحديقة ، تدور حول النخل ، فبشرها وأنشد يقول :

هداك ربي واهب الرشاد
الى سبيل الخير والسداد
بيني من الحائط بالوداد
فقد مضى قرضا الى التناد
أقرضته الله على اعتمادي
بالطوع لا من ولا ارتداد
والبر لا شك فخير زاد
فارتحلي بالنفس وبالأولاد

ففرحت أم الدحداح ، وقالت : ربح بيعك ، بارك الله لك فيما اشتريت ، ثم أنشأت تجاوبه بقولها :

بشرك الله بخير وفـــــــــرح
مثلك أدى ما عليه ونصح
قد متع الله عيالي ومنح
بالعجوة السوداء، والزهو البلح
والعبد يسعى، وله ما قد كدح
طول الليالي، وعليه ما اجترح

وأقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما في أفواههم، وتنفض ما في أكمامهم حتى أفضت الى الحائط الآخر، فقد أصبح ذلك ملكا لله، لا حق لهم في شيئ منه..

* * *

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك: «كم من عذق رداح، ودار فياح، لأبي الدحداح»[1] والعذق النخلة، ورداح: ثقيلة. والفياح: الواسعة كما روى أنه قال: «كم من عذق معلق — أي مدلى أو مذلل — في الجنة لأبي الدحداح.

ويروى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال: «من تصدق بصدقة، فله مثلاها في الجنة».

فقال أبو الدحداح: يا رسول الله، ان لي حديقتين، ان تصدقت باحداهما فان لي مثليها في الجنة؟.

قال: نعم.

قال: وأم الدحداح معي؟

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ج٢ ص ٢٣٨.

قال : نعم .

قال : والصبية معي ؟

قال : نعم .

فتصدق باحدى حديقتيه ، ورجع فنادى على زوجته قائلا : يا أم الدحداح .

قالت : لبيك يا أبا الدحداح .

قال : اني جعلت حديقتي هذه صدقة ، واشتريت مثليها في الجنة ، وأنت معي ، والصبية معي .

قالت : بارك الله لك فيما شريت وفيما اشتريت .

ومضى أبو الدحداح في طريق الاسلام ، يستجيب له ويعتز به ، ويقدم من أجله كل ما يستطيع ، وأختار الله له أرفع الدرجات وأصدق القربات ، وهو بذل النفس في سبيل بارئها وخالقها ، فقد خرج أبو الدحداح مجاهدا يوم أحد ، ثم رأى الناس حينئذ وقد انتشروا وتبعثروا بسبب اشتداد الهول وشراسة القتال وهول المفاجأة ، واشيع بينهم أن الرسول قد قتل . فلم يفقده كل ذلك صوابه أو ثباته ، بل أقبل نحو الأعداء ، وهو يهتف بين اخوته في الله وزملائه في الجهاد ، ويقول : يا معشر الأنصار ، الي الي ، أنا ثابت بن الدحداح ، ان كان محمد قد قتل فان الله حي لا يموت ، فقاتلوا عن دينكم ، فان الله مظهركم وناصركم .

وكأن أبا الدحداح بهذه الكلمات قد جعله القدر صدى لهدي الرحمن وصوت القرآن الذي أقبل بعد ذلك يقول : «وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين» .

وتجمع حول أبي الدحداح عدد من الأنصار ، فجعل يهجم ويحمل معهم على

الكافرين ، ثم حملت عليهم كتيبة خشناء (أي كثيرة السلاح) فيها عمالقة المشركين يومئذ ، وأصابت أبا الدحداح طعنة قاتلة ، سقط بسببها صريعا شهيدا ، وقتل معه عدد من المهاجرين ، وكانوا آخر من استشهد في ذلك اليوم العصيب . وأقبل رسول الله عليه الصلاة والسلام فصلى على أبي الدحداح ودعا له ، ثم قال : «كم من عذق (نخلة) معلق — أو مدلى — في الجنة لأبي الدحداح»[1] .

واذا كان هناك من أهل الجهل أو الغفلة من ظن أن أبا الدحداح قد فقد الحياة ، فان ذلك باطل من القول وزور ، والله أصدق القائلين هو الذي يقرر الحق حين يقول : «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء ، ولكن لا تشعرون» .

ولقد تصور أحد شعراء الاسلام[2] ان شهيدا أطل من عالم الخلد على قوم يؤبنونه ويبكون عليه فقال لهم :

فيم احتشادكم هذا؟ لتأبيني
أنتم أحق بتأبين الورى دوني
فما الشهادة الا ميتة كرمت
عن ميتة الداء ، أو عن ميتة الهون
اني نزلت بدار الخلد في رغد
بين الخمائل فيها والرياحين
في جنة ما بها خوف ولا حزن
لولا رثاء لحال العرب يشجيني

---

(١) صحيح مسلم ج٢ ص ٦٦٤ ، وفي بعض الروايات أن أبا الدحداح شفي من جراحته ثم مات بسبب جرح عند رجوع النبي من غزوة الحديبية.

(٢) الشاعر علي أحمد باكثير.

قامت عليهم ذئاب البغي قاطبة
من ثعلبان ومن دب وتنين
فما انتظاركم والحق حقكم
يعدى عليه ليعطى للملاعين؟
لا تطلبوه احتكاما في مجامعهم
بل استردوه قسرا في الميادين
والمسلمون جميعا من ورائكم
بأندونيسيا وباكستان والصين
لا تندبوني فأني لم أمت ضرعا
فان علمتم على الذل فأبكوني
وان تريدوا لوجه الحق تكرمتي
فابغوا الشهادة للدنيا وللدين
فابن الوليد على اليرموك يرقبكم
وليث أيوب يرعاكم بحطين

* * *

سلاما سلاما على روح الشهيد المبادر ، المنفق في سبيل الله ، الباذل حياته لوجه الله ، الذي صدق مع الله عهده ، وأنجز في مرضاته وعده ، فاستحق أن يضاعف الله له الأجر والثواب مصداقا لقوله عز من قائل :

« مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » .

المجاهد ضجيع الرملة

عبادة بن الصامت الخزرجي

تعود كثير من الناس التفاخر والمباهاة بقليل أو كثير من متاع الحياة، فمنهم من يفخر بقوة جسمه، وصلابة عضلاته، وطول قامته، ووسامة شكله.

ومنهم من يفخر بكثرة ماله، وضخامة ثروته.

ومنهم من يفخر بأنه سليل الحسب والنسب.

ومنهم من يفخر بعظمة المنصب وعلو الرتبة...

إلى آخر ما هناك من مظاهر مادية تواضع الناس على احترامها وتبجيلها...

وقلَّ بين هؤلاء الناس أن يجعلوا فخرهم معقوداً بالنواحي العلمية أو الروحية أو الأخلاقية.

وليس كذلك هدى الإسلام، فإنه قد علم أتباعه أن المظاهر المادية والدنيوية عرض زائل، وظلّ حائل، وما أروع القرآن الكريم حين يقول: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً». وما أروع الرسول المصلح — صلى الله عليه وسلم — حين يقول: «ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى والعمل الصالح».

والعجيب أن الإسلام قد بدأ ظهوره في جزيرة العرب حينما كان التفاخر بالحسب والنسب، والجاه والنسب ظاهرة شائعة ذائعة مستحكمة، فما زال هذا الدين

العظيم بهؤلاء المتفاخرين المتناحرين، حتى جعلهم اخوة بعد التصدع والتمزق، وأمة واحدة بعد طول الخلاف والتفرق: «واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً».

وأصبح المسلمون يفخرون — إن فخروا — بسبقهم الى عمل الخير والبر، وضرب الأمثال في تقوى الله تبارك وتعالى، والاعتزاز بحماه، وتقديم الأعمال الصالحة: «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون».

وصار شعارهم قول قائلهم:

أبـي الإسلام لا أب لي سوا
إذا افـتـخـروا بـقـيس أو تميم

* * *

وهذا واحد من هؤلاء:

إنه الصحابي البدري الجليل، الموصوف بالعلم والورع، وحفظ القرآن والجهاد في سبيل الله: أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر الخزرجي المدني الأنصاري، ولد سنة ثمان وثلاثين قبل الهجرة، وأدرك الاسلام، ودخل فيه، وصار من سادات الصحابة، وكان رجلاً جليلاً، طويلاً، جسيماً، كما جاء في «تهذيب الأسماء» و«الإصابة»، ولكن عبادة لم يفخر بأمثال هذه الأشياء.

بل حق له أن يفخر بأنه حضر بيعات العقبات الثلاث: الأولى والثانية والثالثة، فكان أحد الستة الذين بايعوا بيعة العقبة الأولى، واحد الاثني عشر الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية، واحد السبعين الذين بايعوا بيعة العقبة الثالثة [1]، وكان أحد النقباء في ليلة العقبة على جماعة «القواقل»، وهم بنو سالم، وكان يقال لجدهم:

---

(١) كتاب الدرر لابن عبد البر، ص ٧١ و٧٢ و٧٥. والاستيعاب، ج ١، ص ٤٤٢.

«قوقل» ، لأنه كان إذا أتاه انسان يستجير به قال له : قوقل في هذا الجبل ، فقد آمنت ، أي أصعد فيه وأرتق دون أن تخاف شيئاً ، فأنت في جواري ، فسر حيث شئت !.

وشهد عبادة غزوات : بدر وأحد والخندق وبيعة الرضوان ، وسائر المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويا لها من أوسمة رفيعة ، توضع على صدره فتزينه وتشرفه.

ولعل عبادة يحق له أن يفخر فيطيل الفخر بأنه كان أحد الأنصار الأوفياء الذين آووا ونصروا ، وأثروا وضحوا ، ولعل أفضل وسام لعبادة هو أن نجد السيرة العطرة تقول عنه :

«وكان عبادة عقبياً نقيباً ، بدرياً انصارياً»[1] .

وكان عبادة نفسه يصرح ببعض ذلك فيقول : «إنا من النقباء الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة» ! !.. يقول ذلك كما روي في «الإصابة» متحدثاً بفضل الله عليه ، ونعمته اليه.

* * *

ولقد آخى سيدنا ورائدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، بين عبادة بن الصامت وأبي مرثد الغنوي ــ واسمه كناز بن الحصين بن يربوع ــ وكان أبو مرثد ترباً للبطل الشهيد حمزة بن عبد المطلب وحليفاً له ، وهاجر أبو مرثد مع ابنه مرثد الى المدينة ، وشهد ــ كما شهد عبادة ــ غزوات : بدر ، وأحد ، والخندق ، وسائر المشاهد مع رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وهكذا كانت هذه المؤاخاة النبوية باسم الاسلام جمعاً بين الاشباه والنظائر.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج٣ ص ٩٤ القسم الثاني.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

واختار النبي عبادة ليكون عاملاً على الصدقات ، فقد كان يلمح فيه الثقة والأمانة .

كما كان يقوم بتعليم القرآن الكريم لأهل « الصفة » المنقطعين للعبادة في المسجد النبوي بالمدينة .

وكان عبادة بن الصامت يجمع القرآن حفظاً في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومضى الرسول الأكرم الى ربه بعد أن بلَّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وظل عبادة ابن الصامت على العهد قائماً ، وللوعد حافظاً ، فهو يسير على هدى من ربه ، ونور من سنة نبيه .

وفي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرسل يزيد بن أبي سفيان الى عمر من الشام يقول :

يا أمير المؤمنين ، قد احتاج أهل الشام الى من يعلمهم القرآن ويفقههم .

فأرسل عمر بثلاثة أعلام من الرجال في هذا المجال ، هم : عبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، رضوان الله على الجميع .

* * *

ولكن عبادة بن الصامت كان أسود اللون... فهل عابه ذلك في شيء ؟!

لا والله رب العباد .

ونحن الآن نعيش في القرن العشرين الذي يسمونه قرن الحضارة والمدنية والنور ، ومع ذلك لا يزال الغربيون الذين يدعون أنهم أئمة هذه الحضارة ، يرتكبون من السيئات والمنكرات ما لا يمكن أن يدخل تحت المعنى الصحيح لكلمة « الحضارة » .

ولعل أقبح السيئات التي يأتيها أبناء الغرب في مختلف بقاع الأرض ، هي تلك

التفرقة اللونية والعنصرية التي يثيرون غبارها ويشعلون سعيرها بين البيض والسود ، لا لشيء إلا لأن الله جلت حكمته قد خلق بعض الناس ببشرة بيضاء ، وبعضهم ببشرة سوداء . .

ومن أجل هذا الاختلاف في اللون نجد البيض الذين يزعمون التمدن والتحضر والرقي يذيقون السود ألوان العذاب ، ويسيمونهم أنواع الاضطهاد ، مما لا يتفق مع دين إلهي ، ولا أخوة إنسانية ، ولا زمالة بشرية ، ولا عهد ننادي فيه بالعدالة والمساواة .

وهنا يشرق نور الإسلام زاهياً باهراً رائعاً ، يفيض بآيات الحكمة وينابيع الرحمة ، فإن الاسلام العظيم لا يقيم وزناً لاختلاف الألوان أو الأجناس أو الأنساب أو الأحساب ، بل جعل الناس أمة واحدة من ناحية القيمة الانسانية والمكانة البشرية ، وجعلهم سواسية كأسنان المشط في الاستواء ، فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لأسود على أبيض ، إلا بالتقوى .

وهذا عبادة بن الصامت ... أسود اللون ، ولكنه على الرغم من سواده ، نراه يعلو في مكانته ، ويرتفع في منزلته ، بفضل دينه وخلقه وعمله ، ولقد اشترك عبادة — مثلاً — في الفتح الاسلامي لمصر ، فكان نجمه — وهو الأسود اللون — متألقاً في هذا الفتح ، حتى قاد الوفد الاسلامي الذي توجه لمفاوضة «المقوقس» ، وفي هذه المفاوضة جرى حديث يتعلق بسواد عبادة يتضمن ما يستحق التأمل والتدبر .

في السنة العشرين للهجرة كتب عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ، ليتجه الى مصر ليفتحها باسم الاسلام ، بعد أن طال إلحاح عمرو على الخليفة ، ليأذن له في ذلك الفتح . ومضى عمرو في طريقه حريصاً على إتمام هذا الفتح بأسرع ما يمكن ، حتى بلغ مع الجيش حصن «بابليون» .

وهناك لقي مقاومة من الروم المحتلين، فاستعان بالخليفة فأمده، ثم استعان به فأمده بأربعة آلاف جندي، لهم أربعة قواد، كل قائد منهم يوزن بألف رجل، وهم: عبادة بن الصامت، والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود، ومسلمة بن مخلد، وقال الخليفة لعمرو: «واعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة»!.

وحدث أثناء الفتح أن كان عبادة بن الصامت يصلي وهو في ناحية من معسكر المسلمين، فهجم عليه جماعة من الروم، فسلم من الصلاة، ووثب على فرسه، وهاجمهم ففروا أمامه، فتبعهم، فجعلوا يلقون في طريقه بأمتعتهم ونفائسهم ليشغلوه بها، فما التفت اليها، وما زال يطاردهم حتى اعتصموا منه بالحصن، فعاد دون أن يلتقط شيئاً من أمتعتهم، ولما بلغ مكانه استأنف صلاته من جديد!!

وقوي ساعد المسلمين بالمدد، وخاف الذين في مصر العاقبة، فأرسلوا الى عمرو ابن العاص وفداً للمفاوضة، فعرض عليهم عمرو واحدة من ثلاث: إما أن يدخلوا في الاسلام فيكونوا أخوة للمسلمين: لهم مالهم، وعليهم ما عليهم، وإما أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، ولهم الأمان والدفاع عنهم بقوة المؤمنين: وإما القتال حتى تضع الحرب أوزارها، ويحكم الله بين الفريقين، والله خير الحاكمين!..

وعاد الوفد إلى المقوقس حاكم مصر، فسألهم: كيف رأيتم المسلمين؟..

قالوا: رأينا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة (طمع أو ولوع).

فأكد المقوقس لقومه أن أمثال هؤلاء لو أرادوا إزالة الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتالهم أحد، وأشار عليهم بالاستمرار في المقاومة للصلح، وأرسل المقوقس الى عمرو يطلب منه إرسال وفد من جهته للتفاوض معه، فأرسل عمرو الى المقوقس عشرة رجال من الجيش، وعلى رأسهم القائد الأسود، والبطل المسلم: عبادة بن الصامت. ووكل عمرو إلى عبادة أن يتكلم باسم الوفد، وأن يكون رئيساً له، كما أمره ألا يقبل من المقوقس إلا واحدة من الثلاث التي سبق ذكرها.

وتوجه الوفد الى المقوقس، وفي طليعته عبادة الصامت...

فلما رآه المقوقس هاب سواده وطول قامته — فقد كان طول عبادة عشرة أشبار بمقياس السابقين — فقال: نحواً عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني!!

فرد عليه الوفد بأجمعه قائلاً: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا، والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعاً الى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير — دوننا — بأمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله.

فتعجب المقوقس من ذلك كثيراً، وقال لهم يسألهم:

كيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟!.

فأجابوه بلغة الإسلام الحنيف الذي يسوي بين الناس، وإنما يعرف لهم أقدارهم بما يقدمونه من عمل وجهاد. قالوا: كلا، إنه — وإن كان أسود كما ترى — من أفضلنا موضعاً، وأفضلنا سابقة، وعقلاً ورأياً، وليس ينكر السواد فينا!!..

ولم يجد المقوقس مناصاً من التسليم والرضى بالأمر، فقال لعبادة: تقدم يا أسود، وكلمني برفق، فإنني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة!..

واحتمل عبادة ما في كلام الرجل من جفوة، فغرضه الذي جاء من أجله أهم بكثير من شخصه، فتقدم نحو المقوقس وقال له بثبات:

قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي، وأشد سواداً مني، وأفظع منظراً، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني، وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك — بحمد الله — ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً، وكذلك أصحابي.

وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله وإتباع رضوانه، وليس غزونا عدواً ممن

حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولا حاجة للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا ، وجعل ما غنمنا من ذلك جلالاً ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب ، أم كان لا يملك إلا درهماً ، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره . وشملة يلتحفها ، وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذي بيده ، ويبلغه ما كان في الدنيا ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء ، وإنما النعيم والرخاء في الآخرة .

بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا ، وعهد الينا أن لا تكون همة أحدنا في الدنيا الا ما يمسك جوعته ، ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضاء ربه ، وجهاد عدوه ! ! .

فلما سمع المقوقس منه ذلك ازداد هيبة له ورهبة منه ، فقال لمن حوله : هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هبت منظره ، وان قوله لأهيب عندي من منظره ! .

وبعد أن نوه المقوقس بقوة المسلمين وغلبتهم ، التفت الى عبادة بن الصامت ، وقال له :

أيها الرجل الصالح ، قد سمعت مقالتك ، وما ذكرت عنك وعن أصحابك ، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم الا بما ذكرت ، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه الا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها ، وقد توجه الينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده : قوم معروفون بالشدة والنجدة ، ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل ، وانا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم .

ثم عرض المقوقس على عبادة أن يأخذ لكل جندي من جيشه دينارين ، وللقائد عمرو مائة دينار ، وللخليفة ألف دينار ، على أن ينصرفوا .

وأجابه عبادة قائلا :

يا هذا ، لا تغرنك نفسك ولا أصحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم

وعددهم وكثرتهم ، وأنا لا نقوى عليهم ، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ، ولابالذي يكسرنا عما نحن فيه . ان كان ما قلتم حقا فذلك — والله — أرغب ما يكون في قتالهم ، واشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر لنا عند الله اذا قدمنا عليه ، وان قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوان الله وجنته ، وما من شيئ أقر لأعيننا ولا أحب الينا من ذلك .

وأنا منكم حينئذ على احدى الحسنيين : أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا ، وأنها لأحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا .

وان الله عز وجل قال لنا في كتابه : «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين» . وما منا رجل الا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة ، وألا يرده الى بلده ، ولا الى أرضه ، ولا الى أهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه وأهله وولده ، وانما همنا ما أمامنا .

وأما قولك : أنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا ، فنحن في أوسع السعة . لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه ، فانظر الذي تريده فبينه لنا ، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ، ولا نجيبك اليها ، الا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ، ولا تطمع نفسك في الباطل . بذلك أمرني الأمير ، وبه أمره أمير المؤمنين ، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبله الينا :

أما أجابتكم الى الاسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره ، وهو دين نبينا وأنبيائه ورسله وملائكته — صلوات الله عليهم — أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ، ورغب عنه حتى يدخل فيه ، فان فعل كان له مالنا ، وعليه ما علينا ، وكان أخانا في دين الاسلام .

فان قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة ، ورجعنا عن قتالكم ، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم . وان أبيتم الا الجزية فأدوا الينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، نعاملكم على شيئ نرضاه نحن وأنتم في كل عام أبدا ، ما بقينا

وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم ، أو عرض لكم في شيئ من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك عنكم ، اذ كنتم في ذمتنا ، وكان لكم به عهد علينا .

وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف ، حتى نموت عن آخرنا ، أو نصيب ما نريد منكم . هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به ، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره فانظروا لأنفسكم .

وبعد مفاوضات تم الصلح ، وفتحت مصر ـــ كنانة الله في أرضه ـــ أبوابها لأضواء الاسلام ، بعد أن تألق نجم القائد الأسود : عبادة بن الصامت في هذا الفتح ، وبعد أن أوقع الهيبة والرهبة في قلوب أعدائه .

* * *

وكان عبادة كما يصفه المؤرخون رجلا فاضلا خيرا .

وكانت له مفخرة أخرى علمية فقهية ، فقد كان من رواة الحديث النبوي الشريف ، حتى يقول عنه الامام ابن حجر : «وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا » . وقد روى عبادة عن رسول الله مائة وأحدا وثمانين حديثا ، اتفق البخاري ومسلم منها على ستة ، وانفرد البخاري بحديثين : ومسلم بآخرين .

وروى عنه من الصحابة : أنس ، وجابر ، وأبو أمامة ، وفضالة ، ورفاعه بن رافع ، ومحمود بن الربيع .

وروى عنه جمع من التابعين ، منهم أولاده : الوليد ، وعبد الله ، ودارد ، وغيرهم خلائق .

وكان معاوية ينقل الرواية عن عبادة ، ويقف عند المنبر يقول : «الحديث كما حدثني عبادة ، فاقتبسوا منه ، فهو أفقه مني»[1] ! .

---

(١) الاصابة ج٢ ص ٢٦٠.

وكان عبادة يراجع معاوية في أشياء ، مما يدل على قوته في دين الله ، وجرأته في الحق ، وحسن قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولم يقبل عبادة أن يشترك في الفتنة زمن معاوية ، بل كان ينهي معاوية عن الاستمرار في تلك الفتنة.

ويروى صاحب «العقد الفريد» الخبر التالي :

قالوا : لما قدم عمرو بن العاص على معاوية ، وقام معه في شأن علي ، بعد أن جعل له مصر طعمة ، قال له : ان بأرضك رجلا له شرف وأسم ، والله ان قام معك استهويت به قلوب الرجال ، وهو عبادة بن الصامت.

فأرسل اليه معاوية ، فلما أتاه وسع له بينه وبين عمرو بن العاص ، فجلس عبادة بينهما ، فحمد الله معاوية وأثنى عليه ، وذكر فضل عبادته وسابقته ، وذكر فضل عثمان بن عفان وما قاله ، وحضَّه على القيام معه.

فقال عبادة : قد سمعت ما قلت. أتدريان لم جلست بينكما في مكانكما؟

قالا : نعم ، لفضلك وسابقتك وشرفك !..

قال : لا والله ، ما جلست بينكما لذلك ، وما كنت لأجلس بينكما في مكانكما ، ولكن بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة تبوك ، إذ نظر إليكما تسيران وأنتما تتحدثان ، فالتفت الينا فقال : اذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما ، فانهما لا يجتمعان على خير أبدا. وأنا أنهاكما عن اجتماعكما ، فأما ما دعوتماني اليه من القيام معكما ، فان لكما عدوا هو أغلظ أعدائكما عليكما ، وأنا كامن من ورائكم في ذلك العدو ، ان اجتمعتم على شيئ دخلت فيه[1] .

وقد جاء في كتابي «غربة الاسلام» ان الامام أحمد ذكر في مسنده عن عبادة

(١) العقد الفريد ، ج٢ ص ١٥٢ طبعة الاستقامة.

ابن الصامت أنه قال لرجل من أصحابه : «يوشك أن طالت بك الحياة أن ترى الرجل قد قرأ القرآن على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فأعاده وأبداه ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، ونزل عند منازله ، لا يجوز فيكم الا كما يجوز الحمار الميت.

ومعنى يجوز : يسير ويروح ، والمعنى : ان منزلته تكون بينكم ضائعة.

* * *

ولقد أقام عبادة في «حمص» بالشام زمنا ، ثم لأمر يعلمه الله انتقل الى فلسطين ، واختار ان يقيم في مدينة الرملة من أرض فلسطين ، وهي مدينة عظيمة ، كان فيها رباط المسلمين ، وكان الصليبيون قد احتلوا هذه المدينة ، واستردها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

وقد تولى عبادة قضاء فلسطين ، ويقول الامام الأوزاعي ان عبادة هو أول من ولي قضاء فلسطين ، وكان معاوية قد خالفه في شيء أنكره عليه عبادة ، فأغلظ له معاوية في القول.

فقال له عبادة : لا أساكنك بأرض واحدة أبدا.

ورحل عبادة الى المدينة ، فقال له الخليفة عمر ما أقدمك ؟.

فقص عليه ما حدث.

فقال له عمر : أرجع الى مكانك ، فقبح الله أرضا لست فيها أنت ولا أمثالك !.

وكتب عمر الى معاوية يقول له : لا أمرة لك على عبادة[1].

* * *

---

(١) الاستيعاب ، ج٢ ص ٤٤٢.

وظل عبادة بن الصامت يعبد ربه ، ويجاهد في سبيله ، ويقيم في أرض فلسطين — ردها الله على العرب والمسلمين — حتى بلغ عمره اثنين وسبعين عاما ، وحينما أحس بدنو الموت ، دعا اليه ابنه «الوليد» ليوصيه ، فقال له :

«يا بني ، اتق الله ، واعلم أنك لن تتقى ، ولن تبلغ العلم ، حتى تؤمن بالله وحده ، والقدر خيره وشره ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان أول ما خلق الله القلم ، فقال له : أكتب.

فقال : يا رب ، وما أكتب؟.

قال : أكتب القدر.

فجرى القلم في تلك الساعة بما كان ، وما هو كائن الى الأبد[1] .

* * *

وفي عام أربعة وثلاثين للهجرة لحق بربه العالم القارئ المقرئ ، القائد الأسود : عبادة بن الصامت.

وكانت وفاته في مدينة «الرملة» من أرض فلسطين[2] .

وقيل : كانت وفاته في بيت المقدس (القدس) ، وقيل : في قبرص.

وقيل ان وفاته كانت سنة خمس وأربعين[3] .

سلام عليه في المجاهدين الخالدين.

---

(١) تفسير القرطبي ، ج١٨ ص ٢٢٥.

(٢) الطبقات الكبرى ، ج٣ ص ٩٤ القسم الثاني.

(٣) انظر في وفاته : العبر ج١ ص ٣٥. والاستيعاب ج٢ ص ٤٤٢ والاصابة ج٢ ص ٢٦٠.

المجاهد حامل التراب

عاصم بن عمرو التميمي

لعل أكبر عيب ابتلى به أبناء أمتنا في أوقات تفرقهم وتمزقهم هو حب الذات ، أو شهوة النفس ، وبهذا العيب الأثيم ضاعت عليهم مغانم ومكاسب ، ولحقت بهم نكبات ومصائب ، لأن رغبات النفوس متعارضة متناقضة ، ومتى تصادمت حطم بعضها بعضا ، ولا يمكن أن يتم بناء ، أو يستقر كيان ، اذا كان هذا يشرق وذاك يغرب ، أو كانت هناك يد تبني وأخرى تدمر ، ومن هنا قال القائل الحكيم :

متى يبلغ البنيان يوما تمامه
اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

ولقد تبلغ شهوة النفس بصاحبها المنحرف حدا يجعله يضحي بقومه وأمته في سبيل لذة رخيصة يمارسها ، أو جاه كاذب يحصل عليه ، مع أن الاسلام العظيم قد علم ابناءه أن يسحقوا رغبات نفوسهم أمام عزة دينهم ، وأن يحرقوا شهوات ذواتهم بنيران الغيرة على مصلحة أمتهم .

والقرآن الكريم يهتف : « قل : الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » . ويقول : « ألا لله الدين الخالص » .

ويقول سيد الخلق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : «من جاهد لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» .

ولقد تطلع بعض الصحابة الى شيء من الامارة ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : «أنا والله لا نولي على هذا العمل أحدا سأله ، ولا أحدا حرص عليه» .

ولقد كان المؤمنون الأوفياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ينسون أنفسهم وأهلهم وحياتهم في سبيل أرضاء ربهم ، واعلاء كلمة دينهم ، واعزاز شأن وطنهم ، وكانوا يقبلون القيام بأي عمل مهما قسا أو اشتد من أجل ما يسعون اليه ، وهو توطيد كلمة التوحيد ، والاصرار على توحيد الكلمة .

* * *

وهذا واحد منهم :

انه الصحابي الفارس ، الشاعر المجاهد ، البطل الفاتح : عاصم بن عمرو التميمي ، الذي ابلى في فتوح العراق ، وحروب فارس أحسن البلاء ، دون فخر أو مباهاة أو منّ ، ودون انحراف عن طريق الاخلاص لله والحق.

ولقد ذهب وفد من الجيش الاسلامي الى كسرى ملك الفرس للتفاوض معه وكان فيه بطلنا عاصم بن عمرو ، ولما سألهم كسرى عن شأنهم أجابه النعمان بن مقرن : «ان الله رحمنا فأرسل الينا رسولا يدلنا على الخير ، ويأمرنا به ، ويعرفنا الشر ، وينهانا عنه ، ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة».

وتجبر كسرى فأساء الحديث مع الوفد ، وقال لجنوده :

«أيتوني بوقر من تراب (أي حمل) فاحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من البلد» .

وسارع جنود كسرى باحضار كيس التراب ، وقال كسرى للوفد : من أشرفكم ؟.. فسكت القوم تواضعا ، ولكن عاصم بن عمرو قال بعد هنيهة : انا سيد هؤلاء ، فاحملوا التراب علي .

ولم يقل عاصم هذا تعاليا أو تعاظما ، بل لحكمة ، دقيقة عميقة ، فقد رأى عاصم في هذا العمل من كسرى فألا حسنا للمسلمين ، اذ اعتقد أن حمله التراب من أرض فارس رمز الى استيلاء المسلمين عليها عما قريب .

وسارع عاصم بالعودة مع رفاقه الى قائدهم سعد بن أبي وقاص وهو يهتف قائلا : بشروا الأمير بالظفر ، ظفرنا ان شاء الله تعالى ، أبشروا فقد — والله — أعطانا الله أقاليد[1] ملكهم .

واستجاب الله رجاء عاصم ، فلم يزل أمر المسلمين يعلو ويسمو ، وأمر الفرس يذل ويهون ، حتى أتم الله النصر لعباده ، وسيطر الاسلام على جميع فارس .

وحينما علم رستم قائد الفرس بما فعله كسرى (يزدجرد) مع عاصم تألم وتشاؤم ، وقال عن عاصم : « انه ليس بأحمق ، وليس هو بأشرفهم ، وانما أراد أن يفتدي قومه بنفسه ، ذهبوا والله بمفاتيح أرضنا » .

وحاول رستم أن يسترد التراب من عاصم ، ولكنه لم يدركه .

وقد اشترك عاصم بن عمرو التيمي في معركة القادسية التي قادها سعد بن أبي وقاص ، وكان يوصي الجنود بأن يرددوا قولهم : لا حول ولا قوة الا بالله ، ويرددوا قوله تبارك وتعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

وناضل عاصم حينئذ نضال المؤمن الموقن في تواضع وخشوع ، ولم لا يفعل وهذا هو الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يظل قلقا من أجل المعركة وهو في المدينة ، وكان يخرج كل يوم منها الى ناحية العراق ، يستنشق الأخبار ، ويستنبئ كل من لقيه من الركبان ، وذات يوم رأى عمر شخصا راكبا يلوح من بعد ، فاستقبله واستخبره عن المعركة ، فقال الراكب لعمر ، وهو لا يعرف انه عمر : لقد فتح الله على المسلمين بالقادسية ، وغنموا غنائم كثيرة . وظل الرجل يحدث عمر عن أخبار المعركة ، وعمر يمشي على قدميه بجوار الرجل وهو راكب ، فلما دخلا المدينة جعل

---

(١) الأقاليد : جمع اقليد ، وهو المفتاح . (النهاية) .

الناس يحيون عمر بامارة المؤمنين ، فعرف الرجل انه عمر ، فقال : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ، هلا أعلمتني أنك الخليفة ؟.

فقال عمر في تواضع وهدوء : لا حرج عليك يا أخي !

* * *

وجاءت معركة « المدائن » ، والمدائن مجموعة من المدن بناها الاكاسرة ، كل واحد منهم كان اذا ملك بنى مدينة بقرب التي قبلها ، وسمى الكل بالمدائن ، وقيل أنها كانت سبع مدائن .

وكان على الجيش الاسلامي أن يعبر نهر دجلة ، وهو يغيض بالماء والزبد والموج ، وكانت مهمة العبور قاسية ، لشدة التيار من ناحية ، وترصد الأعداء للعابرين من ناحية أخرى .

ونادى القائد : من يبدأ العبور ؟

وسارع عاصم بن عمرو بالاستجابة ، وتبعه مئات ، فجعله القائد أميرا عليهم .

واندفع عاصم ومن معه بخيولهم في الماء ، لا يخافون الغرق ، ولا يهابون ترصد الأعداء .

وبعد مشقة نجح العبور ، وشارك فيه الجيش كله بعد ذلك ، وبدأت المعركة ، وأطلت بشائر النصر ، وزادت الطمأنينة في نفوس الجنود . لأنهم كانوا يحسبون حسابا عنيفا لعملية العبور ، فحينما نجحت وثقوا بالفوز والغلبة ، ولم لا وهم مؤمنون بالله ، معتمدون عليه ، معتصمون بحبله ، لا تفرق بينهم ولا تمزق ، بل وحدة في الهدف ، ووحدة في الصف ! .

وكانت كتيبة عاصم بن عمرو التميمي هي أول كتيبة تدخل « المدائن » فاتحة منتصرة .

وقد أطلقت السيرة العطرة على هذه الكتيبة العاصمية اسم « كتيبة الأهوال » .

ومع كل هذا الجهد ، وهذا المجد ، لم يزدد عاصم بن عمرو الا تواضعا وخشوعا لله عز وجل.

* * *

ولعاصم بن عمرو نوادر ومواقف في الشجاعة والجرأة ، والاقبال على مواطن الأخطار والأهوال ، كما حدث في بعض المعارك ، حين توغل عاصم في صفوف الأعداء من الفرس ، حتى غاب عن عيون قومه ، وخافوا عليه مغبة ذلك ، ولكنه بعد حين عاد اليهم ، وقد أسر خباز ملك الفرس ، واستولى على كميات كبيرة من أطعمته الفاخرة .

يقول عن ذلك أبو الحسن المسعودي في كتابه «مروج الذهب» :

«... وحمى الوطيس. وخرج عاصم بن عمرو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب
مثل اللجين يتغشاه الذهب
أني امرؤ لا من يعنيه السبب
مثلي على مثلك يغريه العتب[١]

فبرز إليه عظيم من أساورتهم[٢] ، ثم أن الفارسي ولي ، واتبعه عاصم حتى لجأ الى صفوفهم. وعموه ، وغاص عاصم بينهم ، حتى أيس الناس منه ، ثم خرج من مجنبات القلب[٣] ، وقدامه بغل عليه صناديق موكبية بآلة حسنة ، فأتى به سعد بن

---

(١) اللبب : موضع القلادة من العنق ، واللجين : الفضة ، والعتب : الشدة .

(٢) الاساورة : جمع أسوار ، وهو قائد الفرس ، والجيد الرمي بالسهام ، والثابت على ظهر الفرس.

(٣) المجنبات : جمع مجنبة ، وهي المقدمة.

مالك ، وعلى البغل رجل عليه مقطعات ديباج ، وقلنسوة مذهبة ، واذا هو خباز الملك ، وفي الصناديق لطائف الملك من الأخبصة [١] والعسل المعقود ، فلما نظر اليه سعد قال :

انطلقوا الى أهل موقفه ، وقولوا : ان الأمير قد نفلكم [٢] هذا فكلوه ، ففعلوا [٣] .

* * *

سلاما سلاما على البطل المؤمن المخلص المجاهد : عاصم بن عمرو التميمي ، أحد الصحابة الأوفياء الذين أخلصوا لربهم دينهم ، وصدقوا مع رسول الله عهدهم ، ووحدوا صفهم ، ووحدوا هدفهم . ووحدوا غايتهم ، ووحدوا قبلتهم ، فاستحقوا النصر والأجر والذكر ، رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن واجب أتباع محمد عليه الصلاة والسلام أن يتذكروا دائما وأبدا أن أمر هذه الأمة لن يصلح في حاضرها الا بما صلح به في ماضيها : ايمان وعمل ، ووفاء وفداء ، واعتصام بحبل الله ولي الأولياء .

وليتذكروا أنه لا حياة لأمة تجعل بأسها بينها شديدا . وعدوها من حولها يحاول بكل ما استطاع أن يقدمها فريسة سهلة لطمعه وجشعه .

ولا حياة لأمة تستبد بها شهوات النفوس ورغبات الأهواء والذوات ، حتى تعميها عن واجبها المقدس ، وهو أن تكون يدا واحدة ، تحت لواء واحد : هو لواء الله الحق الذي يقول : «وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون» .

---

(١) الأخبصة : جمع خبيص ، والخبيص حلوى تصنع من التمر والسمن.

(٢) نفلكم هذا : وهبكم هذا.

(٢) مروج الذهب للمسعودي ، ج٢ ص ٣١٢ طبعة دار الأندلس ببيروت .

المجاهد باللسان والسنان

القعقاع بن عمرو التميمي

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : «المؤمن يجاهد بلسانه وسيفه». والجهاد باللسان لا يقتصر على حديث الحوار أو الجدال بين المؤمن وغيره ، أو حديث التحريض والحث والحض على الاقدام والثبات ، بل يشمل الجهاد باللسان تلك الصيحات المجلجلة التي يرسلها المجاهد في حومة الوغى ، وهو مقبل على عدوه ليزلزل أركانه ، ويقوض بنيانه ، ويوقد بها الحماسة والشجاعة في صدور من حوله من رفاق السلاح وزملاء المعركة.

ولذلك كانت «صيحة التكبير» شعار المجاهدين في الاسلام ، وما يكاد هؤلاء المناضلون المقدمون على المعركة يهتفون قائلين : الله أكبر ، حتى ينسوا دنياهم ، ويتذكروا ان الله أكبر من كل شيئ ، وأنه أهلٌ للتضحية في سبيله بكل شيئ ، لأنه واهب كل شيئ ، فهو واهب الفوز والنصر ، وهو ولي الثواب والأجر ، وهو خير الناصرين.

فليس أمام هؤلاء الا أن ينتصروا ليعزوا كلمة الله العادل في الأرض ، أو ينالوا الشهادة ليرتفع ذكرهم بين أهل السماء.

وأما الجهاد بالسيف فرمز الى استخدام كل عدة وعتاد في المعركة ، وتوفير كل وسيلة من وسائل الدفاع والهجوم في قهر الأعداء وتحقيق الانتصار ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم.

ولقد كان تلاميذ خاتم المرسلين محمد — عليه الصلاة والسلام — طرازا فريدا في الجهاد الصادق بالقلب والنية ، والجهاد باللسان والكلمة ، والجهاد بالسلاح والعتاد ، حتى استحقوا وصف ربهم لهم وهو أصدق القائلين : «كنتم خير أمة أخرجت للناس» .

وهذا واحد من هؤلاء :

انه الصحابي الجليل ، ذو الباع الطويل في القتال والنضال ، فارس اللسان ، وفارس السنان ، وبطل الميدان : القعقاع بن عمرو التميمي ، أحد فرسان العرب وأبطالهم في الجاهلية والاسلام ، والناس معادن — كما يقول الحديث الشريف — خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا .

ولقد سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعددت للجهاد؟

أجاب : طاعة الله ورسوله والخيل .

فقال له النبي : تلك الغاية .

وكان القعقاع شاعرا فحلا ، يرتفع صوته مرددا أناشيد البطولة وقصائد الرجولة ، ومن شعره :

يدفعون قعقاعا لكل كريهة
فيجيب قعقاع دعاء الهاتف

وكذلك قوله :

ولقد شهدت البرق برق تهامة
يهدى المناقب راكبا لعيار
في جند سيف الله سيف محمد
والسابقين لسنة الأحرار

ولكنه لم يكن قوالا دون أن يكون فعالا ، ولم يكن من أولئك الذين قيل فيهم : «أسود الكلام نعام الوغى».

بل كان من الأوفياء الشرفاء، الذين يصدقون أقوالهم بأعمالهم ، فهو يتغنى بالشجاعة والأقدام ، وهو يضرب القدوة في التضحية عند الالتحام ، ولذلك قال فيه الصديق أبو بكر رضي الله عنه :

«لا يهزم جيش فيه القعقاع بن عمرو» !

وكانت فيه ميزة محمودة ، هي أنه يصيح الصيحة وسط المعركة ، فيزلزل بها نفوس أعدائه ، ويبعث بها الثقة والشجاعة في صدور زملائه . وقد عرف أبو بكر أثر هذه الصيحة في توجيه المعركة فقال :

«صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل» !..

ولقد كان القعقاع — الشاعر صاحب الصيحة المزلزلة — أميرا من أمراء الثغور مع سيف الله خالد بن الوليد وحضر مع الامام علي — رضي الله عنه وكرم الله وجهه — موقعة «صفين» ، مناصرا للامام ، واثقا انه على الحق.

وشهد فتح دمشق ، وأكثر المعارك التي دارت بين المسلمين والفرس ، ويقول عنه ابن حجر : «وله في قتال الفرس بالقادسية وغيرها بلاء عظيم[١]».

وشهد معركة «اليرموك»[٢] في أرض الشام ، وجاهد في هذه المعركة جهاد الأبطال ، وهي المعركة التي استطاع فيها الجيش الاسلامي أن يطهر الشام من احتلال الروم ، حتى ان هرقل ملكهم ارتحل مع جنوده منهزما ، وهو يقول في لوعة وحزن :

---

(١) الاصابة ، ج٥ ص ٢٤٤ ، المطبعة الشرقية.

(٢) اليرموك واد بناحية الشام في طرف الغور ، يصب في نهر الأردن ، وراجع تفاصيل معركة اليرموك في كتابي : «فدائيون في تاريخ الإسلام» ص ٢٥٩ — ٢٦٧.

«سلام عليك يا سوريا سلاما لا لقاء بعده» !..

وشهد القعقاع بن عمرو موقعة «القادسية» التي كانت في المحرم سنة أربع عشر للهجرة[1].

وكانت من أعظم الوقائع الاسلامية خيرا للاسلام، وبركة على المسلمين.

ويروي التاريخ أن القعقاع بن عمرو خرج في معركة القادسية أمام الصف، ونادى في أعدائه:

هل من مبارز؟

فخرج اليه عظيم منهم، فسأله القعقاع: من أنت؟.

فأجاب: أنا بهمن بن جاذويه.

فتذكر القعقاع اعتداء «بهمن» هذا على المسلمين في معركة «يوم الجسر»، فهتف في غضب:

يا لثارات أبي عبيد وسليط وأصحابهما يوم الجسر[2] !

واندفع القعقاع نحوه كالصاعقة، فما تركه الا قتيلا مجندلا.

وكان أشد ما آذى المسلمين في معركة القادسية هي تلك الأفيال الضخمة الهائلة المصفحة بالحديد والزرد، والتي كانت تهجم على صفوف المسلمين بلا ارعواء.

وأراد القعقاع أن يستريح المسلمون من هول هذه الفيلة، فنادى بين المجاهدين بصيحته المعروفة قائلا: من يهب نفسه لله، من يهب نفسه للجنة؟.

---

(١) هناك خلاف بين المؤرخين في تحديد وقتها والقادسية بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً.

(٢) انظر كتابي: «بين الوفاء والفداء» ص ٣٠ــ٣٩ فهناك التفاصيل.

فسارع اليه جميع من المجاهدين ، وعاهدوا على أن يهاجموا الفيلة مترجلين ، وشرعوا السيوف في أيديهم ، وأقبلوا بلا خوف ولا تردد على كوكبة الأفيال ، فأخذوا يوجهون اليها ضرباتهم ، في خراطيمها وعيونها ومقاتلها .

فهاجت الأفيال وماجت ، وارتدت على أعقابها ، وأخذت تقلب أصحابها من فوق ظهورها ، وتطأ جنود الفرس وهي تعدو الى الخلف مذعورة مجنونة .

وكان من نتيجة ذلك أن لقي «رستم» قائد الفرس مصرعه ، وتبدد جيشه ، ونصر الله المؤمنين يومئذ نصراً مبيناً . ويروي التاريخ أن القعقاع بن عمرو اشترك مع أخيه «عاصم» يومئذ في قتل الفيل الأكبر . وظل القعقاع يقاتل ويتقدم ، حتى بلغ السرير المخصص لرستم قائد الفرس ، وبذلك كان القعقاع قدوة رائعة للمناضلين عن يمينه وشماله .

ولقد كتب الخليفة عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص يسأله : أي فارس كان أفرس في القادسية ؟ .

فرد عليه سعد يقول : اني لم أر مثل القعقاع بن عمرو ، حمل في يوم ثلاثين حملة ، يقتل في كل حملة بطلا ! .

وهكذا يكون الرجال ، ويكون الأبطال .

والقعقاع هو — كما جاء في الأصابة — الذي غنم في فتح المدائن ادراع كسرى ، وكان فيها درع لهرقل ، ودرع لخاقان ، ودرع للنعمان ، وسيفه ، وسيف كسرى .

ومع كل هذه الجهود لم يكن القعقاع طالب دنيا ، ولا متطلعا الى مال أو متاع ، وكان أعظم ما يفخر به هو ما وفقه الله اليه من صدق الجهاد في سبيله ، ولذلك كان أسمى ما يتزين به القعقاع أن يتقلد سيف هرقل ملك الروم ، وأن يلبس درع بهرام ملك الفرس ، وكان القعقاع قد حصل على السيف والدرع — كما عرفنا — من مغانم المعارك التي دارت بين المسلمين وأعدائهم .

ولقد سكن القعقاع مدينة الكوفة ، وتوفي رضوان الله عليه سنة أربعين للهجرة .

* * *

ان لدولة الايمان جنودا خالطت قلوبهم بشاشة اليقين ، ونور الثقة بالله جل جلاله ، فانطلقوا في رحاب الكون مؤدبين لأهل الطغيان[1] محررين لتراب الأوطان ، ضاربين خير المثل لبني الانسان ، في العدل والايمان ، فأعزهم ربهم بعزه ، وأيدهم بنصره .

وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم .

(١) من كلام القعقاع : «والقول الذي هو الحق أنه لا بد من إمرة تنظم الناس ، وتزع الظالم (أي تردعه) وتعز المظلوم» .

المجاهد القائد الشهيد

عقبة بن عامر الجهني

قد يبرع الانسان في ناحية من النواحي ، أو صفة من الصفات ، فيذكره الناس بها ، ويثنون عليها ، ولكنه يبقى مع هذا ضعيفاً في عدة جهات ، أو تنقصه جملة صفات .

وقد يبرع الانسان في أكثر من جهة ، ولكن رذيلة من الرذائل تسيطر عليه ، فتجحف به وتسيء إليه .

وأفاضل الناس هم الذين استطاعوا أن يحققوا لأنفسهم ما يمكن أن نسميه : « توازن الشخصية » .

والشخصية مجموعة صفات ومقومات ، إذا توافرت لصاحبها وتعادلت ، جعلته عظيماً محموداً عند الله وعند الناس ، إذ يشهدون فيه سلامة الحس ، وطهارة النفس ، ودقة الفهم ، وعمق العلم ، وصحة القول ، وحسن الفعل ، ولين الجانب مع الضعفاء ، وصرامة الشدة مع المجرمين والأعداء ، فهو يستحق أن يعد من أهل الصفاء والفداء ، الذين هداهم ربهم سواء سبيله ، وآتاهم من فضله وحكمته : « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا ألوا الألباب » .

وهذا واحد ممن توافر لهم توازن الشخصية ، فكان في الدين مؤمناً موقناً ، وكان في العلم كبيراً واسعاً ، وكان في العمل مجيداً محسناً ، وكان في الجهاد والنضال مثلاً في الوفاء والفداء.

إنه الصحابي الجليل، الفقيه الجامع للقرآن، المحدث الشاعر، القائد الشجاع، المجاهد الشهيد: أبو حماد عقبة بن عامر بن عيسى بن عمرو بن عدي بن رفاعة الجهني[1] رضي الله عنه.

وهو رجل تولى إمارة مصر سنوات، وعاش فيها، واستشهد بها، ودفن في ترابها. ولقد أسلم فتى يافعاً. فيروي مسلم في صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قدم المدينة، وكان عقبة يرعى الغنم، فلما سمع بقدوم النبي، ترك غنمه وذهب إليه، وقال له: بايعني. فبايعه عليه الصلاة والسلام[2].

ثم ظلّ عقبة بعد ذلك ما يقرب من ستين عاماً، يجاهد ويناضل، ويسعى في سبيل الله، وربط عقبة نفسه بخدمة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وكان يأخذ بزمام بغلته، ويقودها في الأسفار، وكان رديفاً لرسول الله، أي يركب خلفه، أو يتعاقب معه الركوب في بعض الأحيان.

ومن هنا استطاع عقبة أن يروي الكثير من الأحاديث عن الرسول. وهو يروي لنا مثلاً أنه كان ذات يوم آخذاً بزمام بغلة النبي في بعض غاب المدينة، فقال له النبي: يا عقبة، ألا تركب؟.. فخاف عقبة أن يكون عاصياً لله إذا رفض الركوب، فركب هنيهة مكان الرسول ثم نزل.

وهنا قال له الرسول عليه الصلاة والسلام: ألا أعلمك سورتين؟..

فقال: بلى يا رسول الله.

فعلمه سورة: قل أعوذ برب الفلق، وسورة: قل أعوذ برب الناس، وقال له اقرأهما كلما نمت وقمت[3].

---

(١) النجوم الزاهرة: ج١ ص ١٢٧.

(٢) المرجع السابق، وقد أخرج هذا الحديث. داود النسائي.

(٣) النجوم الزاهرة. ج١ ص ١٢٩.

ولقد روى النسائي عن عقبة بن عامر فقال :

أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو راكب ، فوضعت يدي على قدمه ، فقلت : اقرئني سورة هود ، اقرئني سورة يوسف.

فقال لي : «ولن تقرأ شيئاً أبلغ عند الله من : «قل أعوذ برب الفلق».

وعنه قال : بينما أنا أسير مع النبي صلى الله عليه وسلم بين الجحفة والأبواء ، إذ غشيتنا ريح مظلمة شديدة ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ : «أعوذ برب الفلق» و«أعوذ برب الناس» ، ويقول «يا عقبة تعوذ بهما فما تعوذ متعوذ بمثلهما».

وعن عقبة كذلك قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل.

قلت : ما أقول؟..

قال : «قل هو الله أحد. قل أعوذ برب الفلق. قل أعوذ برب الناس».

فقرأهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : «لم يتعوذ الناس بمثلهن ، أو : لا يتعوذ الناس بمثلهن».

وروى عقبة أيضاً عن النبي عليه الصلاة والسلام قوله : «عجب ربك من شاب ليست له صبوة».

ويبدو أن عقبة قد انتفع بهذا التوجيه المحمدي الكريم ، فكان مجاهداً شجاعاً ، فقيهاً شاعراً ، فصيحاً مفوّهاً ، قارئاً مقرئاً ، عالماً بالفرائض ، وكان أحد الذين جمعوا القرآن الكريم وحفظوه [1].

وبذلك توافرت له مقومات الشخصية الاسلامية المعتصمة بحبل الله عز وجل.

---

(١) البرهان للزركشي : ج ١ ص ٢٤٣ . والاتقان المسيوطي : ج ١ ص ٧٤ طبعة حجازي. والعبر للذهبي ج١ ص٦٢ طبعة الكويت.

وفي آخر مرة رأى فيها عقبة رسول الله روى عنه الحديث التالي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على قتلى أحد بعد ثماني سنين كالمودع للأحياء والأموات ، ثم طلع المنبر فقال : «إنني بين أيديكم فرط وأنا شهيد عليكم ، وإن موعدكم الحوض ، وإن لأنظر اليه من مقامي هذا ، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها».

قال عقبة : فكانت آخر نظرة نظرتها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

وكان عقبة بن عامر أحد الصحابة الذين اشتركوا في فتح مصر مع عمرو بن العاص ، وكان ذلك سنة ست وعشرين[2] ، في خلافة عمر بن الخطاب[3]. وشهد كذلك كثيراً من الفتوح والمعارك ، وكان هو الرائد الى عمر بفتح دمشق[4] ، ثم تولى الإمارة على مصر سنة أربع وأربعين للهجرة ، وظل في إمارتها أكثر من ثلاث سنوات.

وكان الذي ولاه على مصر هو معاوية بن أبي سفيان ، ثم عزله سراً دون أن يعلمه ، وولي مكانه مسلمة بن مخلد ، وفي الوقت نفسه كلف معاوية عقبة أن يخرج الى غزوة في البحر الأبيض المتوسط ، لفتح جزيرة رودس.

ولما علم عقبة بعد ذلك بعزله تعجب من تصرف معاوية وقال : ما أنصفنا معاوية ، عزلنا وغربنا؟..

وفي رواية أنه قال : اغربة وعزلاً؟..

---

(١) نفح الطيب ، ج٥ ص ٣٨٣ طبعة صادر ببيروت

(٢) وقيل سنة تسع وعشرين.

(٣) صبح الأعشى . ج٣ ص ٤١٩ . والنجوم الزاهرة : ج١ ص ١٢٧.

(٤) النجوم الزاهرة . ج١ ص ٤١٩.

ولكن ذلك لم يجعله يتقاعس عن الواجب ، أو يتأخر عن الجهاد ، أو يخاف ركوب البحر.

بل خرج في شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين ، متوجهاً الى الاسكندرية.

وهناك ركب البحر مع جنوده ، وتوجه الى جزيرة رودس لفتحها ، ومعه كثير من أهل مصر[1].

وكان عقبة أول من نشر الرايات على السفن[2].

وهكذا نرى أن أسلافنا الأماجد — منذ قرابة أربعة عشر قرناً — لم يجاهدوا حق الجهاد فوق اليابسة فقط ، أو في بيئتهم التي عرفوها وما حولها فحسب. بل انساحوا في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي إيمانهم كتاب الله عز وجلّ ، الذي «يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم».

وكما أحسنوا الجهاد في البر ، أحسنوا الجهاد في البحر ، مع أن القتال في البحر لم يكن معروفاً عندهم ، ولا مألوفاً لديهم ، ولكن إيمانهم بربهم ، وصدق توكلهم عليه ، وقوة اعتصامهم بحبله ، جعلهم يخوضون الغمرات ، ويقاومون اللجج والأمواج ، مرددين قول خالقهم في ثقة ويقين : «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

وقوله : «فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ، أن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

ومع أن عقبة بن عامر ظل عشرات من السنين يؤدي واجبه أداء حسناً في

---

(١) تاريخ الطبري ، ج٥ ص ٢٣١. والنجوم الزاهرة ، ج١ ص ١٢٧ و١٢٨.

(٢) النجوم الزاهرة ، ج١ ص ١٢٧.

ساحات الميادين ، وعند اشتداد المعارك ، كان متفقهاً في دينه ، خبيراً بصناعة الشعر وصياغة البيان. وفوق أنه جمع القرآن وحفظه ، فإنه كتب بيده نسخة من كتاب الله عز وجل ، وكتب في آخرها قوله : «وكتبه عقبة بن عامر بيده»؟..

وكان محدثاً حافظاً لكثير من الأحاديث النبوية الشريفة ، وروي عنه الحديث جماعة من الصحابة والتابعين منهم عبد الله بن عباس ، وأبو أمامة ، وجبير بن نفير ، وبعجة بن عبد الله الجهني ، وأبو ادريس الخولاني ، وخلق من أهل مصر ، وكان آخر من روى عنه بمصر أبو قبيل[1] .

ويحدثنا التاريخ بأن أهل مصر وحدهم رووا عنه مائة حديث ، وكان لهم في عقبة اعتقاد عظيم. وإلى جوار علمه وفقهه وتحديثه ، مع جهاده ونضاله وثباته ، كان متعبداً خاشع الصلاة ، ولعله قد أحسن الانتفاع بالحديث الذي حدثه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواه عنه ، حيث قال : «من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم صلى صلاة ، غير ساه ولا لاهٍ ، كفر عنه ما كان قبلها من سيئة».

وكذلك لا ننسى أن الرسول قد حدثه بحديثه الرائع الدالّ على تعظيم الله للشاب الطائع المستقيم ، وفيه يقول كما عرفنا : «عجب ربك من شاب ليست له صبوة» فاستقام على الطريق.

وفي سنة ثمان وخمسين من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام لقي عقبة ربه شهيداً مجيداً ودفن في ثرى مصر الطيب ، ويقول عنه المؤرخ ابن أياس «مات شهيداً ، ودفن بالقرافة الصغرى» والى جوار ضريحه مسجد يسمى «مسجد عقبة بن عامر». وهو مسجد يزار.

ويقول القلقشندي وهو يتحدث عن مصر : «وقد روي أنه دخلها من الصحابة رضوان الله عليهم ما يزيد على مائة رجل ، ودفن بقرافتها جماعة ، منهم فيما ذكره ابن

---

(١) النجوم الزاهرة ، ج١ ص ١٢٧.

عبد الحكم عن ابن لهيعة خمسة نفر، وهم عمرو بن العاص، وعبد الله بن حذافة، وأبو بصرة القفاري، وعقبة بن عامر الجهني، وعبد الله بن الحارث الزبيدي، وهو آخرهم موتاً»[1].

وينبغي أن نلاحظ أن هناك شخصاً اسمه أبو عمرو عقبة بن عامر، كان يحدث في خلافة عبد الملك بن مروان، ومات مقتولاً في النهروان، وهو من أصحاب علي رضي الله عنه. وهذا غير صاحبنا عقبة بن عامر الجهني الذي مات سنة ثمان وخمسين، في خلافة معاوية على الصحيح.

سلاماً سلاماً على المجاهد القائد الشهيد عقبة بن عامر الجهني.

---

(١) صبح الأعشى. ج٣ ص ٢٨١، ويقول صاحب النجوم الزاهرة عن قبر عقبة: «وليس في الجبانة قبر صحابي مقطوع به إلا قبر عقبة، فإنه زاره الخلف عن السلف» ج١ ص ١٢٩.

شهيد من الخليج

الجارود بشر بن عمرو العبدي

لا شك في أن المؤمن عن إرادة واختيار ، أفضل عند الله وعند الناس ممن آمن عن متابعة أو اضطرار ، ولا شك أن من استجاب عن يقين واعتقاد ، خير ممن استجاب تطلعاً الى الجاه أو الانتفاع بين العباد.

وشتان بين من دخلوا في دين الله خالصين مخلصين ، مستعدين لبذل الأموال ، وحمل الأثقال ، والصبر على الأهوال ، ومن دخلوا فيه وهم يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى.

وإذا كان عهد النبوة الزكي الطهور ، قد شهد بعض الضعفاء أو المنافقين ، فإن أسسه ودعائمه قد نهضت على هامات أبطال من أهل الوفاء والفداء ، أخلصوا لله دينهم ، وصدقوا معه عهدهم ، وثبتوا في مواطن العسرة والشدة ، ومزالق الفتنة والردة ، مع توافر المكانة والمتعة والجاه ، وكثرة المال وسعة الحياة.

وبمثل هذه المعادن الكريمة الثمينة تدوم المبادىء السامية ، وتسود المثل العليا ، وتبقى مكارم الأخلاق.

* * *

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه الصحابي الجليل : أبو المنذر[1] بشر بن عمرو بن المعلي العبدي ، المشهور بلقب الجارود وهو من منطقة الخليج العربي ، وكان سيد بني عبس[2] . وبيته بيت الشرف فيهم[3] .

وكسب الغنى والجاه في الجاهلية ، وقد لقبوه بالجارود بعد غارة قام بها على بني بكر بن وائل ، فظفر بهم واستأصلهم ، حتى قال العرب : لقد جردهم !..

وقال القائل :

فدسناهم بالخيل من كل جانب
كما جرد الجارود بكر بن وائل[4]

* * *

ولقد رحل الجارود سنة تسع للهجرة[5] من أقصى الخليج الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع جمع من قبيلة عبد القيس . وعلم رسول الله عليه الصلاة

---

(١) وقيل أيضاً : أبو غياث ، وقيل : أبو عتاب (انظر الاستيعاب على الاصابة ج ١ ص ٢٥٠).

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٢.

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، ج٥ ص ٢٣٦.

(٤) الاصابة ج ١ ص ٢١٨ . وقيل غير ذلك في سبب التسمية . انظر الطبقات لابن سعد ج٥ ص ٤٠٧.

(٥) وقيل سنة عشر انظر الاستيعاب على الاصابة ج ١ ص ٢٥١ . وشرح نهج البلاغة ج ٥ ص ٢٣٧.

والسلام بقدومهم قبل وصولهم ، ففرح بهم ، وقال لأصحابه : «سيطلع من هنا ركب هم خير أهل المشرق» .

ولما دنا الركب سارع إليه عمر ، وقال لهم : من القوم؟.

فأجابوا : من بني عبد القيس .

قال : فما أقدمكم هذه البلاد ، التجارة؟

قالوا : لا .

قال : أما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد ذكركم آنفاً فقال خيراً[1] .

وبلغ الركب مجلس النبوة ، فرحب الرسول صلى الله عليه وسلم بهم ، واستبشر لمجيئهم وقال لهم : مرحباً بالقوم غير خزايا ولا ندامى[2] » !

وعرض النبي صلوات الله عليه وسلامه على الجارود الاسلام ، وكان نصرانياً .

فذكر الجارود أن له ديناً ، فأوضح له خاتم النبيين ما في اعتقاده من خلل ، وانشرح صدر الجارود لدعوة الحق ، ولكنه قال يحاور النبي في صراحة : إني كنت على دين ، وإني تارك ديني لدينك ، أفتضمن لي ديني؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أنا ضامن لك أن قد هداك الله الى ما هو خير منه .

فعاد الجارود يقول متفهماً : إن لي ديناً : فلي أن تركت ديني ، ودخلت في دينك أن لا يعذبني الله؟.

أجاب النبي عليه الصلاة والسلام : نعم .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٤ ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ .

وهناك انطلق الجارود بلا تردد يعلن إسلامه.

فسرّ النبي، وفرح به، وقربه منه، وأدناه وأكرمه [1].

وكأن القدر أراد أن يعجل للجارود بالدرس الأول في الاختبار والابتلاء، إذ لم يجد دواب له ولا لقومه تحملهم الى ديارهم، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يعطيه ما يركبونه، فاعتذر اليه النبي قائلاً: ما عندي ما أحملك عليه.

فقال الجارود: يا رسول الله، إن بيني وبين بلادي ضوال، أفأركبها؟.

فأجابه الرسول في صرامة قائلاً: إنما هي حرق النار. فلا تقربها، وإياك وإياها [2].

ولم يضق الجارود بذلك، بل ودع رسول الله شاكراً، وعاد إلى بلاده صابراً، ودعا الى الله هادياً، وقام بتعاليم الاسلام مخلصاً، على الرغم من بعد الشقة بينه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى يقول ابن حجر: «كان الجارود حسن الاسلام صلباً في دينه» [3]

ويقول ابن عبد البر: «كان الجارود فاضلاً صلباً في ذات الله» [4].

وكان يردد أبياتاً تدل على ثباته ويقينه يقول فيها:

شهدت بأن الله حق، وسامحت
بنات فؤادي بالشهادة والنهض

---

(١) طبقات ابن سعد ج٥ ص ٤٠٨ وتاريخ الطبري ج٣ ص ١٣٦، والأغاني ج١٥ ص ٢٥٦. والاصابة ج١ ص ٢١٨.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٠١. وطبقات ابن سعد ج٥ ص ٤٠٨. وحرق بفتح الحاء والراء.

(٣) الاصابة ج١ ص ٢١٨.

(٤) الدرر لابن عبد البر ص ٢٧١.

فـأبـلـغ رسول الله عني رسالة
بأني حنيف حيث كنت من الأرض
فإن لم تكن داري بيثرب فيكم
فإني لكم عند الإقامة والخفض
وأجعـل نـفسي دون كـل ملمة
لكم جنة ، من دون عرضكم عرضي[1]

وتنقل الجارود — في الإقامة — بين البحرين والبصرة ، وهو قائم بأمر ربه ودينه ، مجاهد في سبيل الحق ، لا يشغله عن الله تعالى إتساع المال ، ولا علو الجاه ، ولا متاع الحياة ، حتى لحق الرسول عليه الصلاة والسلام بربه عز وجل ، ونجمت فتنة الردة عقب ذلك ، فكانت ابتلاء عصيباً للمجتمع الاسلامي الوليد.

وحينما رأى الجارود بعض من حوله قد ارتدوا أنكر ذلك عليهم ، ووقف بينهم فتشهد شهادة الحق ، ودعا الى الاسلام ، فقال فيما قال :

«أيها الناس

إني أشهد ألا لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأكفر من لم يشهد.

وقال :

رضينا بدين الله في كل حادث
وبـالله والـرحمـن نرضى به ربا

ويروى أنه قال أيضاً : «أيها الناس ، إن كان محمد قد مات ، فإن الله حي لا

---

(١) الاصابة ج١ ص ٢١٨.

يموت ، فاستمسكوا بدينكم ، ومن ذهب له في الفتنة دينار أو درهم أو بقرة أو شاة ، فعلى مثلاه »[1]

ورواية تاريخ الطبري في هذا المجال أوفى وأوسع ، قال عن الجارود :

فلما قدم على قومه دعاهم الى الإسلام فأجابوا كلهم ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات النبي صلى الله عليه وسلم.

فقالت عبد القيس : لو كان محمد نبياً لما مات. وارتدوا.

وبلغه ذلك فبعث فيهم فجمعهم ، ثم قام فخطبهم فقال :

يا معشر عبد القيس : إني سائلكم عن أمر فأخبروني به إن علمتموه ، ولا تجيبوني إن لم تعلموه.

قالوا : سل عما بدا لك.

قال : أتعلمون أنه كان لله أنبياء فيما مضى ؟.

قالوا : نعم.

قال : أتعلمونه أم ترونه ؟.

قالوا : لا بل نعلمه.

قال : فما فعلوا ؟.

قالوا : ماتوا.

قال : فإن محمداً صلى الله عليه وسلم مات كما ماتوا. وانا أشهد أن لا إله إلا

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج٥ ص ٢٣٨.

الله ، وإن محمداً عبده ورسوله . قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنت سيدنا وأفضلنا.

وثبتوا على إسلامهم »[1] .

* * *

وعلى الرغم من قصر المدة التي قضاها الجارود مع سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه فإنه قد روى عنه أحاديث منها قوله : «ضالة المؤمن حرق النار»[2] .

وقد روي عن كثيرين ، وروي عنه كثيرون من الصحابة وكبار التابعين[3] . وكأنه أراد أن يزين جاهه وغناه بزينة العلم والفقه والرواية ، ليزداد خيراً ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

وكان فوق هذا وذاك لا يخاف في الله لومة لائم ، وكان يطالب بالحق ، ويجهر بكلمة الصدق ، ويراجع عمر بن الخطاب بصراحة وصرامة ، ولذلك أعجب به عمر وقال عنه : «لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن هذا الأمر (يعني الخلافة) لا يكون إلا في قريش ، لما عدلت بالخلافة عن الجارود بن بشر بن المعلي ، ولا تخالجني في ذلك الأمور»[4] .

ويشاء الحكيم العليم أن يختم لعبده الجارود بخاتمة المخلصين الموقنين ، فإذا هو في السنة الحادية والعشرين للهجرة يقود جيشاً من جيوش الاسلام الى فارس في عهد

---

(١) تاريخ الطبري ج٣ ص ٣٠٢.

(٢) الاستيعاب على الاصابة ج١ ص ٢٥٢. وشرح نهج البلاغة ج٥ ص ٢٣٧.

(٣) الاستيعاب ج١ ص ٢٥٢.

(٤) شرح نهج البلاغة ج٥ ص ٢٣٧.

عمر. وهناك وفي موطن يقال له: «عقبة الطين» ظلّ الجارود يناضل ويقاتل، حتى نال نعمة الشهادة والموت في سبيل الله[1] غريباً بعيداً عن دياره.

ومنذ ذلك اليوم العظيم صارت هذه العقبة تسمى «عقبة الجارود» تخليدا لذكرى البطل المؤمن الذي ذهب في سبيل ربه شهيداً، فعطر بذلك سيرة الخليج وسيرة أهل الخليج.

وهناك أقوال أخرى في استشهاده، قيل إنه قتل بنهاوند مع النعمان بن مقرن[2]. وقيل إنه نال الشهادة سنة عشرين[3]، وقيل سنة سبع عشرة بمكان يقال له «طاوس».

رضوان الله تبارك وتعالى عليه.

---

(١) الاصابة ج١ ص ٢١٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

المجاهد المعطاء

عدي بن حاتم الطائي

ما أروع القرآن الكريم حين يقول: «كلا إن الانسان ليطغى، إن رآه استغنى»، فإن هذا القول بصورة ظاهرة انسانية شائعة خلال عصور التاريخ، فالإنسان الجاهل حينما يلمّ به الضعف في حسه ونفسه، أو أهله وماله، يذل ويخشع، ولكنه حينما تتوافر له القوة في الجسم، أو الكثرة في المال، أو الاتساع في المتاع، يستبد ويطغي، وينسى الهدى، ويتبع الهوى، ولا يزال كذلك سادراً في غلوائه، مسرفاً في عناده وكبريائه، حتى تهب عليه نفحة ارعواء واهتداء، فتدركه عناية ربه، فتدير مفتاح شخصيته الى جهة الخير، فيتدبر ويتذكر، فإذا البداية من ربه «الذي خلق فسوى»، وإذا النهاية الى ربه كذلك: «إن إلى ربك الرجعي»، وإذا هو بين بداية لا يستطيع لها تغييراً، ونهاية لا يملك فيها تأثيراً، فتنقشع غشاوة الغرور عن عينه، ويعود إسراف العناد الى تطامنه، ويبذل كل ما يستطيع للتكفير عما مضى، والاستعداد القوي للآخرة والعقبى.

ويصبح نموذجاً من نماذج الوفاء والفداء، بعد أن كان مثلاً في العناد والكبرياء.

ولذلك شهدنا مجموعة من أبناء الإسلام في عهد النبي عليه الصلاة والسلام أسرفوا في عداوة الاسلام ورسوله وأهله إسرافاً شديداً، ثم استضاءت قلوبهم بنور الاسلام، فناضلوا من أجله نضالاً حميداً مجيداً، مرددين قولهم: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

* * *

وهذا واحد من هؤلاء :

إنه الصحابي الجليل ، الفارس الأمير ، الجواد بالمال وبالنضال : أبو وهب — وأبو طريف — عدي بن حاتم الطائي ، المشهور بالجود والشرف ، ولا عجب ، فهو ابن حاتم الطائي الذي يضرب به المثل في الكرم والعطاء .

وكان عدي معظماً عند قومه وعند غيرهم ، وكان شاعراً مقوالاً حاضر الجواب ، ولكنه تأخر عن دخوله في الاسلام حيناً من الزمان ، وكان شديد الكراهية لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، وحينما سمع بأن جيش الاسلام قد دنا من منازل قومه ، ركب فرسه وفرّ هارباً الى الشام .

ووقعت أخته « سفانة » أسيرة عند المسلمين ، فأكرمها الرسول ، وعاملها معاملة نبيلة ، وحينما رجته أن يعفو عنها ويطلق سراحها ، استجاب لها .

وعادت « سفانة » الى أخيها ، فحثته على الذهاب الى هذا الرسول الكريم .

واستجاب عدي ، وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، في شهر شعبان من السنة التاسعة [1] فأسلم وحسن اسلامه ، وكان من قبل نصرانياً . وأكرم النبي وفادته ، وقال لأصحابه : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » .

وقصة إسلام عدي من أروع القصص الدالة على خبرة النبي بالنفوس ، وحسن علاجه لها ، حتى تعتدل وتستقيم ، وهي مذكورة مبسوطة في كتب السيرة والتاريخ .

جاء في « تاريخ الطبري » أن بنت حاتم وضعت بعد أسرها في حظيرة بباب المسجد كانت توضع فيها السبايا ، فمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن علي من الله عليك .

---

(١) يذكر الذهبي في كتابه « العبر » أن عدي بن حاتم أسلم سنة سبع (ج ١ ص ٧٤) .

قال : ومن وافدك؟.

قالت : عدي بن حاتم.

قال : الفار من الله ورسوله.

ومضى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، حتى إذا كان الغد مرّ بها ، فأشار إليها رجل من خلف النبي لتعاود سؤاله ، فأعادت قولها : يا رسول الله ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فامنن علي من الله عليك.

فقال : قد فعلت ، فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك به ثقة ، حتى يبلغك الى بلادك ، ثم آذنيني.

وقدم رهط من قومها ، فجاءت الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت : يا رسول الله ، قد قدم رهط من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ.

فكساها رسول الله ، وأهدى إليها ، وأعطاها نفقة ، فخرجت معهم حتى قدمت الشام.

هكذا تحدث الطبري عن موقف «سفانة» أخت عدي مع الرسول ، والأصفهاني في الأغاني يرويه هكذا :

حدث الإمام علي كرّم الله وجهه قال :

لما أتينا بسبايا طيء ، كانت في النساء جارية جميلة — وهي سفانة بنت حاتم — فلما رأيتها أعجبت بها ، فقلت : لأطلبنها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليجعلها من فيىء ، فلما تكلمت أنسيت جمالها لما سمعت من فصاحتها ، فقالت :

«يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلي عني ، فلا تشمت بي أحياء العرب ، فإني بنت سيد قومي ، كان أبي يفك العاني (الأسير) ويحمي الذمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط : أنا بنت حاتم طيء».

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا جارية ، هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، والله يحب مكارم الأخلاق »[1] .

ويواصل الطبري الحديث عما كان من شأن عدي بعد عودة أخيه فيقول :

قال عدي : فوالله إني لقاعد في أهلي ، إذ نظرت الى ظعينة[3] تصوب الي[3] تؤمنا . فقلت : ابنة حاتم !.

فإذا هي هي . فلما وقفت علي انسحلت[4] تقول : القاطع الظالم ! احتملت بأهلك وولدك ، وتركت بنية والدك وعورته !.

قلت : يا أخية ، لا تقولي إلا خيراً فوالله ما لي عذري ، لقد صنعت ما ذكرت .

ثم نزلت فأقامت عندي ، فقلت لها ــ وكانت امرأة حازمة ــ : ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) .

قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبياً فالسابق اليه له فضيلة ، وإن يكن ملكاً فلن تذل في عز اليمن وأنت أنت !.

قلت : والله إن هذا للرأي .

فخرجت حتى أقدم على رسول الله المدينة : فدخلت عليه وهو في مسجده ، فسلمت عليه .

---

(١) الأغاني . ج١٦ ص ٩٣ .

(٢) الظعينة : المرأة في الهودج .

(٣) تصوب إلى : تقصد .

(٤) انسحلت : أخذت في اللوم ومضت فيه بحدة .

فقال : من الرجل؟

فقلت : عدي بن حاتم.

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق بي الى بيته ، فوالله إنه لعامد بي ، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته ، فوقف لها طويلاً تكلمه في حاجتها.

فقلت في نفسي : والله ما هذا بملك.

ثم مضى رسول الله حتى دخل بيته ، فتناول وسادة من أدم[1] محشوة ليفاً ، فقذفها الي ، فقال لي : اجلس على هذه.

فقلت : لا ، بل أنت ، فاجلس عليها.

قال : لا ، بل أنت.

فجلست وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأرض.

قلت في نفسي : والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال : أيه يا عدي بن حاتم ! ألم تك ركوسياً؟[2].

قلت : بلى.

قال : ألم تكن تسير في قومك بالمرباع[3] ؟

قال : بلى.

قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك.

---

(١) أدم : جلد.

(٢) الركوسية : قوم لهم دين بين دين النصارى والصابئين.

(٣) تسير بالمرباع : أي تأخذ الربع من غنائم قومك ، لأنك رئيسهم.

قلت : أجل والله.

وعرفت أنه نبي مرسل يعلم ما يجهل.

ثم قال : لعلك يا عدي بن حاتم ، إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال يفيض فيهم ، حتى لا يوجد من يأخذه.

ولعلك إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها ، حتى تزور هذا البيت ، لا تخاف إلا الله.

ولعله إنما يمنعك من الدخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم. وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت.

قال عدي : فأسلمت.

فكان عدي يقول : مضت الثنتان ، وبقيت الثالثة : والله لتكونن. قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت ، ورأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف شيئاً ، حتى تحج هذا البيت ، وايم الله لتكونن الثالثة : ليفضن المال حتى لا يوجد من يأخذه[1].

ولم يقتصر اسلام عدي على هداية نفسه ، بل كان السبب في هداية قومه ، ولذلك يقول التاريخ عن عدي : أنه كان خير مولود في أرض ، وأعظمه بركة عليهم[2].

* * *

---

(١) انظر تاريخ الطبري ج٣ ص ١١٣. وانظر الروض الأنف ج٢ ص ٣٤٣. والسيرة النبوية لابن كثير ج٤ ص ١٢٣.

(٢) تاريخ الطبري ، ج٣ ص ٢٥٤.

وأخذ عدى بن حاتم يجاهد في سبيل الله بالمال والسلاح ، وسكن الكوفة في العراق ، ثم سكن بلدة قرقيسيا بالعراق أيضا [1] .

وبعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وامتناع بعض الناس عن دفع الزكاة ، جمع عدى زكاة قومه ، وأقبل بها على الخليفة ، وأكد له ثباته وثباتهم على الصراط المستقيم .

وفي عهد عمر اشترك عدى في فتوح العراق ، فحضر معركة القادسية ، وكان أمر قومه فيها [2] .

وحضر معركة مهران ، ومعركة الجسر ، ومعركة النخيلة ، ومعركة المدائن ، ومعركة جلولاء الوقيعة ، ومعركة نهاوند ، ومعركة تستر ، وغيرها .

وكان مع خالد بن الوليد حين سار الى الجهاد في الشام ، وشهد معه طائفة من الفتوح ، كما شهد عدى معارك الجمل ، وصفين ، والنهروان ، مع الامام علي رضي الله عنه ، وفقئت عينه يوم صفين [3] .

* * *

وكان عدى بن حاتم يحب الامام عليا ويجله ويدعو اليه ، ومن ذلك أن عديا وقف يخطب بين يدي الامام ، والناس من حوله ، فقال :

---

(١) قرقيسياء : وتستعمل كثيراً مقصورة (قرقيسيا) بلد على نهر الخابور ، وعندها مصب نهر الخابور في نهر الفرات ، وقد فتحها باسم الاسلام حبيب بن مسلمة (الفهري في السنة التاسعة عشرة ، وجهه لفتحها عياض بن غنم فاتح الجزيرة (معجم البلدان ج ٤ ص ٣٢٨) .

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص ٤٨٦.

(٣) تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٢١.

«أيها الناس ، انه والله لو غيره دعانا الى قتال أهل الصلاة ما أجبناه ، ولا وقع بأمر قط الا ومعه من الله برهان ، وفي يديه من الله سبب ، وانه وقف عن عثمان بشبهة ، وقاتل أهل الجمل على النكث ، وأهل الشام على البغي ، فانظروا في أموركم وأمره ، فان كان له عليكم فضل فليس لكم مثله ، فسلموا له ، والا فنازعوا عليه .

والله لئن كان الى العلم بالكتاب والسنة انه لأعلم الناس بهما . ولئن كان الى الاسلام انه لأخو نبي الله ، والرأس في الاسلام . ولئن كان الى الزهد والعبادة ، انه لأظهر الناس زهدا ، وأنهكهم عبادة . ولئن كان الى العقول والنحائز[1] انه لأشد الناس عقلا ، وأكرمهم نحيزة ، ولئن كان الى الشرف والنجدة ، أنه لأعظم الناس شرفاً ونجدة ، ولئن الى الرضا لقد رضي عنه المهاجرون والأنصار في شورى عمر رضي الله عنهم ، وبايعوه بعد عثمان ، ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشام ، فما الفضل الذي قربكم الى الهدي ، وما النقص الذي قربه الى الضلال ؟.

والله لو اجتمعتم جميعا على أمر واحد ، لأتاح الله له من يقاتل لأمر ماض وكتاب سابق[2] » .

* * *

ولقد استنفر عدى قومه ذات يوم للجهاد ، فكان مما ذكره لهم قوله :

« قد كنتم تقاتلون في الجاهلية على الدنيا ، فقاتلوا في الاسلام على الآخرة ، وأنا أدعوكم الى الدنيا والآخرة ، فأجيبوا قولي ، فانكم أعز العرب دارا ، ولكم فضل معاشكم وخيلكم ، فاجعلوا فضل المعاش للعيال ، وفضل الخيل للجهاد » .

ولم يكن عدى بن حاتم يدعو قومه الى الجهاد ويترك اسرته ، فلقد كان ابنه مثلا

(١) النحائز : جمع نحيزة ، وهي الطبيعة .

(٢) جمهرة خطب العرب ، ج١ ص ٢٠٢ .

يجاهد الى جواره ، واستشهد ذلك الابن في احدى المعارك الى جوار أبيه ، فلم يجزع لذلك عدى ولم يحزن ، بل تولى دفن ابنه صابرا محتسبا ، وهو يقول مخاطبا ولده الشهيد :

«الحمد لله الذي ابتلاني بيومك على حاجتي اليك»[1] .

وكان كبار المسلمين يعرفون لعدى صحة اسلامه وقوة ايمانه ، ومما يؤيد ذلك أنه جاء الى عمر في اناس من قومه ، فجعل عمر يعطى هذا وذاك وذلك ، ويعرض عن عدى فلا يعطيه شيئا .

فقال عدى : يا أمير المؤمنين. ألا تعرفني؟!.

فضحك عمر وقال : والله اني لأعرفك ، آمنت اذ كفروا ، وأقبلت اذ أدبروا ، ووفيت اذ غدروا ، وعرفت اذ أنكروا ، وان أول صدقة بيضت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجوه أصحابه ، صدقة طيئ ، جئت بها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم ذكر عمر لعدى انه أعطى هؤلاء لأعانتهم وتطلعهم .

فاستراح عدى وفرح ، وقال : فلا أبالي اذن .

* * *

ومع هذا الجهاد الموصول ، والنضال المستمر ، كان عدى بن حاتم رجلا متعبدا محافظا على الصلاة ، حتى قال: «ما دخل على وقت صلاة الا وأنا مشتاق اليها»[2] .

وهذا يذكرنا بقول الرسول الأكرم : «جعلت قرة عيني في الصلاة» .

---

(١) تاريخ الطبري ، ج٥ ص٨٨ .

(٢) تهذيب الأسماء ، ج١ ص ٣٢٧ .

كما كان راوية للحديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، روى عشرات الأحاديث .

وتلقى عنه الرواية كثيرون من الأكابر ، من أمثال قيس ابن حازم ، وسعيد بن جبير ، والشعبي ، وهمام بن الحارث ، وغيرهم .

وهكذا كان عدى بن حاتم الطائي يجمع بين الايمان العميق ، والعمل الصالح ، والجهاد الدائب ، والعلم الواسع ، والعبادة المخلصة .

وظل كذلك حتى بلغ عمره مائة وعشرين عاما ، مضى بعدها كريما الى ربه الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه .

روى النووي في «تهذيب الاسماء» ان عدى بن حاتم مات بالكوفة سنة ثمان وستين ، وقيل سنة تسع وستين بعد أن عاش أكثر من مائة سنة[1] .

ومن الغريب أن الذهبي في الجزء الأول من كتابه «العبر» ذكر أولا أن عدم بن حاتم قتل في موقعة صفين سنة سبع وثلاثين[2] .

ثم رجع بعد صفحات فقال انه توفي سنة سبع وستين . أو سنة ثمان وستين ، عن مائة وعشرين سنة بقرقيسيا[3] .

* * *

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .

يقول رائدكم الأول وقائدكم الأكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خيركم من طال عمره ، وحسن عمله ، وشركم من طال عمره وساء عمله» .

---

(١) المرجع السابق .

(٢) العبر ، ج ١ ص ٤١ .

(٣) تهذيب الأسماء ، ج ١ ص ٣٢٧ .

فليتنا نتبصر خطواتنا في حياتنا ، ومواقفنا من دنيانا ، فان كنا على حق ازددنا منه ، ودمنا عليه ، وان كنا على باطل بادرنا بتركه والتحرز منه ، وبذلك تصبح الحياة نعمة لا نقمة ، وسبحان من لو شاء لهدى الناس جميعا الى سواء السبيل .

الشهيد الزاهد

زهير بن قيس البلوي

ان التاريخ الصادق يحدثنا بأن ابناء الاسلام لم يحققوا الأعمال الجليلة التي حققوها الا في ظل الاتحاد، والاعتصام بحبل الله القوي المتين، وأنهم لم يخسروا ولم يتصدعوا الا في ظلمات الفرقة والشتات، والقرآن يؤكد هذه الحقيقة الواضحة حين يقول: «واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم، اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته اخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون»، وحين يقول: «وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وأصبروا ان الله مع الصابرين».

ولقد كان الوطن الاسلامي في العصور المزهرة يضم الكثير من الأقطار والأقاليم، ومع ذلك لا تفرقه فواصل، ولا تمزقه حدود أو حوائل، بل كان كالجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، وكأنه لو عطس عاطس من ابناء هذا الوطن في أقصى المشرق لشمته آخر في أقصى المغرب قائلا له: يرحمك الله.

وكان الواحد من أبناء الاسلام يولد في جهة من هذا الوطن، ثم يقيم في جهة ثانية، ثم يجاهد في جهة ثالثة، ثم يلقى الله تعالى في جهة رابعة، وهو لا يفرق بين جهة وجهة، فالكل أرض الله ووطن الاسلام، والجميع عباد الله، تحصنهم عقيدة التوحيد، ويقويهم توحيد الكلمة.

* * *

وهذا مثلا هو الصحابي المناضل : أبو شداد زهير بن قيس البلوى اليمنى المصري الليبي ، رضوان الله تبارك وتعالى عليه : انه من قبيلة «بلى» وهي قبيلة من قضاعة ، وقضاعة من اليمن ، فهو اذن يمنى الأصل ، ثم أقام في الحجاز زمنا حين أسلم ، وصاحب رسول الله ، فصار حجازيا أو مدينيا ، ثم اشترك في فتح مصر باسم الاسلام ، وأقام في مصر ، فصار مصريا ، ثم جاهد في ليبيا ، ونال الشهادة ، على أرضها ، وضمه ثراها ، فصار ليبيا ، وهو مع هذا كله عربي مسلم ، رأس ماله الأول كلمة : لا له الا الله ، محمد رسول الله. ومع أن زهيرا كان أحد الصحابة ، روى عن بعض التابعين ، فقد روى عن علقة بن رمشة.

ولقد كان زهير بن قيس البلوي من قادة الاسلام الشجعان ، وكان يمثل صورة المجاهد أو المرابط الذي لم تكن له غاية سوى اعلاء كلمة الدين ، ولا عجب فهو ابن الاسلام والايمان ، وهو خليفة عقبة بن نافع فاتح شمال افريقية ، الذي وقف على شاطئ المحيط فوق جواده ، وقال يناجي ربه : يا رب السماء والأرض ، وحقك ، اني لو أعلم وراء هذا المحيط أرضا يابسة ، لخضت اليها هذا الماء ، حتى أرفع اسمك العظيم في أقصى بقاع الأرض.

وبعد أن زامل زهير عقبة عدة سنوات في الجهاد ، ظل زهير بعد استشهاد عقبة نحو ثلاثة عشر عاما يجاهد ويناضل ، لا تغره دنيا ، ولا ينال منه ترف أو رفاهية ، بل ظل عابدا زاهدا.

ومتى زهد الانسان في متاع الحياة ، أصبح ربانيا موصول الأسباب بواهب القوي والقدر.

ويقول التاريخ : وحينما اشتد هجوم الروم على ليبيا ، اجتمع المسلمون الى مروان بن الحكم — سنة خمس وستين — وكان أميرا على الشام ، وسألوه أن يبعث جيشا الى شمال أفريقية ، لتخليص المسلمين من سلطان الأعداء ، وأن يعز فيها الاسلام ، كما كان في عهد البطل عقبة بن نافع.

فقال مروان : ومن للأمر مثل عقبة؟

فأجمعوا على اختيار زهير بن قيس البلوي ، وكان من رؤساء العابدين ، واشراف المجاهدين . فاستجاب زهير ، وسارع الى الجهاد ، وأرسلت اليه امدادات ضخمة من مصر[1] . وكانت لزهير مع الروم أعداء الاسلام مواقع ومعارك ، وخاصة بعد أن صار أميرا على « برقة » سنة تسع وستين ، وفي هذه السنة هاجم زهير جموع الروم المحتلين ، وانتصر عليهم ، وسقط قائدهم « كسيلة » صريعا .

وحينما شاهد زهير ما في البلاد من رفاهية أعرض عن ذلك كله وقال : « انما قدمت للجهاد ، ولم أقدم لحب الدنيا » .

ومضى يجاهد حتى بلغ القيروان ، وأقام فيها مدة ، وانتهز الروم فرصة غيابه عن برقة ، فأرسلوا اليها حملة بحرية ضخمة من صقلية ، وأعملوا فيها أيدي الفساد ، فسارع اليهم زهير ، مع نفر قليل من أصحابه ، وفي برقة ناضل زهير نضال الأبطال ، وتكاثر عليه الأعداء من كل جانب ، وهو يرفض الاستسلام ، برغم شراسة القتال .

وظل هكذا حتى ذاق نعمة الشهادة مع بقية زملائه ، لم ينج منهم سوى رجل واحد ، وكأن القدر قد أبقى هذا الرجل ليروى للأجيال ما كان لهؤلاء المؤمنين المناضلين من رجولة وبطولة ، ولا عجب فهم يؤمنون بقول الحق جل جلاله : « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا ، وهو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا أنا معكم متربصون » .

وكان استشهاد زهير بن قيس البلوي سنة ست وسبعين للهجرة ، ودفن في مدينة « درنة » بليبيا . ويقول ياقوت عن « درنة » في « معجم البلدان » : قتل فيها زهير ابن قيس البلوي ، وجماعة من المسلمين ، وقبورهم معروفة[2] .

---

(١) رياض النفوس ج١ ص٢٩ .

(٢) معجم البلدان ج٢ ص ٤٥٢ .

ولقد وقفت أمام قبره في رمضان سنة ١٣٩١ متذكرا معتبرا ، وشاهدت من حوله قبور جماعة من شهداء الصحابة الذين صدقوا وعدهم مع الله عز وجل ، فانساحوا في الأرض ، ينشرون الهدى والنور ، ويرفعون لواء الحق ، ويرددون شعار العدل ، فظلت ذكراهم على الدوام نفحا طيبا ، يشهد بأن لله تعالى عبادا اذا أرادوا أراد ، لأنهم لا يريدون الا ما فيه رضاه ، ولا يستضيئون بغير نوره وهداه : «ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور».

ويقول ابن كثير في «البداية والنهاية» عن شهادة زهير :

قتله الروم ببرقة ، وذلك أن الصريخ أتى الحاكم بمصر— وهو عبد العزيز بن مروان— ان الروم نزلوا ببرقة ، فأمره بالنهوض اليهم ، فساق زهير ، ومعه أربعون نفسا ، فوجد الروم ، فأراد أن يكف عن القتال ، حتى يلحقه العسكر ، فقالوا : يا أبا شداد ، أحمل بنا عليهم. فحملوا فقتلوا جميعا[1] .

* * *

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام.

يقول قائدكم ورائدكم ورسولكم : «من سره أن يكون أعز الناس فليتق الله ، ومن أراد أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يده» ، فهل آن لامة محمد صلى الله عليه وسلم أن تعود الى هديه ، ليعزها الله بعزه : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

---

(١) البداية والنهاية ج٩ ص١٧.

المجاهد المخلص

قيس بن المكشوح المرادى

انما عز الاسلام وانتصر في أول أمره لوجود المنهج السليم القويم ، الذي جاء به القرآن الكريم ، ولوجود القائد الحكيم الأمين الذي تمثل في الرسول العظيم عليه الصلاة والتسليم ، ولأخلاص الصفوة التي استجابت له وسارت معه من الصحابة الأكرمين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، ولرغبة هؤلاء فيما عند الله أكثر من حرصهم على ما بين أيديهم من زخرف الدنيا ومتاع الحياة ، ولاجتماع هؤلاء على كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة ، فلم تفرقهم الأهواء ، ولم تمزقهم الشهوات ، بل أخلصوا دينهم لله ، وصدقوا حبهم لرسول الله ، وباعوا أنفسهم في سبيل الله ، واتخذوا شعارهم قول الله جل جلاله ، «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» .

واذا كنا قد مررنا في سنواتنا العجاف بأسوأ مرحلة مرت علينا في تاريخنا الطويل الجليل ، فانه لا يليق بنا أن نسأم من أخذ العبرة عن ماضيينا وأسلافنا ، فنحن في ذلك ندرس تاريخا ، ونتعرف طريقا ، ونتفهم صوابا ، ونتجنب خطأ ، ونتلمس بابا يفتحه الله علينا بتوفيقه ، لنخرج مما نحن فيه الى ما ينبغي أن نكون عليه : «صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغته ، ونحن له عابدون» .

* * *

وهذا درس من تاريخنا يتمثل لنا في أحد أسلافنا، وهو الصحابي الجليل أبو شداد[١] قيس بن هبيرة بن هلال المرادي، وشهرته قيس بن المكشوح، لأن أباه هبيرة كوى على كشحه (أي جانبه)، وقد كان من الشجعان الأبطال الشعراء، وكان سيد قبيلة «بجيلة» وفارسها، وفارس مذحج[٢]، ولا عجب فهو ينتمي الى أصول كريمة عظيمة، فهو ابن أخت البطل المغوار الصحابي العالم عمرو بن معد يكرب[٣]، صاحب الغارات والغزوات المشهورة، والذي كان يقال له «فارس العرب جميعا».

وقد نال عمرو الشهادة عطشا يوم القادسية.

وكان قيس بن المكشوح أحد شجعان الاسلام وأبطال المسلمين، ومن أهل النجدة والنخوة فيهم.

وكانت له آثار صالحات في الفتوحات، في زمن عمر وعثمان في القادسية وغيرها[٤]، وسار الى العراق على مقدمة الجيش الذي قاده سعد بن أبي وقاص رضوان الله عليه، واشترك في فتح نهاوند سنة عشرين[٥].

وكان شعاره الاخلاص في العمل لوجه الله تعالى، حتى قال جابر بن عبد الله: «والله الذي لا اله الا هو، ما أطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع

---

(١) وقيل أيضاً: أبو حسان (العبر ج١ ص ٢٣٩).

(٢) الطبقات لابن سعد ج٥ ص ٣٨٣.

(٣) تهذيب الأسماء ج٢ ص ٦٤.

(٤) تهذيب الأسماء ج٢ ص ٦٤.

(٥) أو ١٩ أو ٢١.

الآخرة ، ولقد اتهمنا ثلاثة نفر ، فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم : طليحة بن خويلد ، وعمرو بن معد يكرب ، وقيس بن المكشوح»[1] .

وكان قيس يدرك تمام الادراك أن وحدة المجاهدين هي مفتاح النصر ، فاذا قامت الوحدة على الايمان وصدق الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد فقد تحقق الوعد وتم المراد .

ولذلك نسمع قيس بن المكشوح يقول لرفاقه في الجهاد ، وهم متجهون الى فتح فارس : «يا معشر العرب ، ان الله قد من عليكم بالاسلام ، وأكرمكم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فأصبحتم بنعمته اخوانا ، دعوتكم واحدة ، وأمركم واحد ، بعد اذ أنتم يعدو بعضكم على بعض عدو الأسد ، ويختطف بعضكم بعضا اختطاف الذئاب ، فانصروا الله ينصركم ، وتنجزوا من الله فتح فارس ، فان اخوانكم من أهل الشام قد أنجز الله لهم فتح الشام»[2] .

واستجاب الله جل جلاله لكتائب الاسلام المخلصة الموحدة ، ففتحت فارس ، وحملت جواهر كسرى التي لا مثيل لها الى الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فحينما رآها قال : «ان الذين أدوا هذا لأمناء» .

وكان علي رضي الله عنه حاضرا ، فقال لعمر : «يا أمير المؤمنين ، ان القوم رأوك عففت فعفوا ، ولو رتعت لرتعوا» .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ج٤ ص ١٩ .

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص ٥٥٤ .

وانتقل قيس بن المكشوح الى ميدان جهاد آخر ، فذهب الى اليمن ليقضي على فتنة المتنبئ الكذاب الأسود العنسي ، الذي كان يقال له «عبهلة ذو الخمار»[1] .

واستطاع قيس أن يقتل هذا الكذاب اللعين ، واشترك معه في ذلك الصحابي الصالح فيروز الديلمي ، الذي أثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

وظل المجاهد الجليل قيس بن المكشوح يتنقل من ميدان الى ميدان ، ومن اتقان الى اتقان ، ومن احسان الى احسان ، حتى أقبلت سنة سبع وثلاثين للهجرة ، وفي شهر صفر من هذه السنة كانت وقعة صفين المشهورة ، فخرج اليها قيس بن المكشوح ليجاهد فيها تحت لواء الأمام الغالب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويروي أن قبيلة «بجيلة» وهي قبيلة قيس قالت له : خذ رأيتنا.

فقال متواضعا : غيري خير لكم مني.

فقالوا جميعا : ما نريد غيرك.

فقال مصمما : والله لئن أعطيتمونيها لا أنتهي بكم دون صاحب الترس المذهب (يقصد زعيم الأعداء).

فقالوا جميعا : اصنع ما شئت.

وحمل البطل الراية ، وزحف المجاهد المخلص نحو اعدائه ، وقاتل قتالا شديدا ، غير مبق على الحياة أو طامع في متاعها ، واختار الله له خير الحسينيين ، فتكاثر عليه أعداؤه ، فقتلوه ، وسقط البطل في ساحة الجهاد شهيدا مجيدا ، وسارع عبد الله بن قلع الأحمسي فتناول الراية ، من يد الشهيد المجيد ، ورفعها ليواصل الرسالة ، وهو يقول عن قيس الشهيد :

---

(١) الطبقات لابن سعد ج٣ ص ٣٨٣.

(٢) الطبقات لابن سعد— ج٥ ص ٣٨٩ ، والغير ج١ ص٣٩.

لا يـبـعـد الله أبـا شداد
حـيث أجـاب دعوة المنـادى
وشد بـالسـيف على الأعـادي
نـعم الـفتى كـان لـدى الـطراد
وفي طـعـان الخيـل والجلاد[1]

* * *

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، هذا هو الطريق ، وهذه هي أسباب التوفيق . نريد خطة راشدة ماجدة ، نأخذها من كتاب الله خير الكتب ، ونريد قادة يستهدون على الدوام بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم خير قائد ، ونريد شعبا يتحقق له معنى الايمان بالله ، ونريد مجاهدين يخلصون النضال لوجه الله ، ويؤثرون ما عند الله على ما عند الناس ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٥ ووقعة صفين ص ٢٦٢ ، وانظر تهذيب الأسماء ج ٢ ص ٦٤ .

المجاهد بقية أهل بدر

جابر بن عتيك الأنصاري

يقول الله تبارك وتعالى: «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين»، والذكرى من الذكر، والذكر الحميد زينة المؤمنين، والذكريات الطيبة عطر الصالحين، والقائل الحكيم يقول:

دقات قلب المرء قائلة له
إن الحياة دقائق وثوان
فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها
فالذكر للانسان عمر ثان

وما أجمل الذكريات الجليلة النبيلة، حين يستعيدها الانسان القويم، فيجد فيها السلوى والعزاء، ويحسّ معها بالنشوة والرضا.

وإذا كان هناك من المجرمين والفاسقين من يحلو له أن يجتر ذكريات اللهو والعبث، أو ذكريات الفجور والشرور، فيستعيد مثلاً ذكرى غرام متحلّل، أو عربدة ماجنة، أو انحراف شائن، فإن عادة أهل التقوى والايمان أن يستعيدوا الذكريات الحميدة المجيدة التي كانوا فيها أهل وفاء، وجنود فداء، ليحمدوا الله على ما وفقهم اليه، وليزدادوا اذكاراً واعتباراً: «فذكر إن نفعت الذكرى، سيذكر من يخشى، ويتجنبها الأشقى، الذي يصلي النار الكبرى، ثم لا يموت فيها ولا يحيى».

ولقد كان المسلمون في صدر الاسلام يتذكرون لأنفسهم ولأخوانهم في الله تبارك وتعالى مواقف الوفاء ، ومواطن الفداء ، التي شهدوها وأسهموا فيها ، بتوفيق من الله وتأييده.

فهذا مثلاً من الأوائل السابقين في الاسلام ، وهذا ممن حضروا بيعة العقبة ، وهذا ممن شهدوا غزوة بدر ، وهذا ممن ثبتوا في غزوة أحد ، وهذا ممن بايعوا بيعة الرضوان ، وهذا ممن ثبتوا للجوع والبرد والخوف والهول يوم الأحزاب ، وهكذا : «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

وهذا صحابي جليل ، ومناضل نبيل ، يذكرنا بأروع الذكريات في تاريخ الجهاد الصابر المؤمن ، الذي أعز الله به كلمة الصدق ، ورفع به صوت الحق : «والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

انه أبو عبد الله[1] جابر[2] بن عتيك بن قيس بن الأسود بن مرة الأنصاري السلمي المدني ، أحد بني عمرو بن عوف ، وهو من كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وأمه هي جميلة بنت زيد بن صيفي بن عمرو الأنصارية ، أسلمت وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطبقات لأبن سعد ج ٣ ص ٣٧ وج ٨ ص ٢٤٠) ... وهو أيضا اخو بشر بن عتيك الصحابي (التحفة ج ١ ص ٣٩٨).

ولقد كان من سابقي الأنصار الى الاسلام ، وحين تمت الهجرة آخى رسول الله

---

(١) وقيل أبو الربيع ، ولكن ابن الأثير ، يقول : إن هذا وهم. انظر أسد الغابة ج ١ ص ٣٠٧.

(٢) بعض المصادر تسميه باسم «جابر» وبعضها تسميه باسم «جبر» ولكن التحريف كان السبب ، أو لعلهم كانوا ينادونه بالاسمين ، والعجيب أن بعض المصادر ترجمت له بالاسمين معاً. انظر التحفة اللطيفة للسخاوي ، ج ١ ص ٣٩٥ وص ٣٩٨ ، وأنظر أسد الغابة لابن الأثير ج ١ ص ٣٠٧ وص ٣١٦.

صلى الله عليه وسلم بين جابر وخباب بن الأرت[1] والأشباه تلاقي الأشباه ، والنسور تقع على النسور ، فخباب بن الأرت كما نعلم — أو كما ينبغي أن نعلم — هو المجاهد الصابر المحتسب ، والمناضل المخلص المعذب في سبيل الله ، الذي كان يقال له : «سدس الاسلام» لأنه سادس من أسلم ، وأذاقه المشركون ألوانا من العذاب ، وهاجر وصابر وشارك في الجهاد والنضال ، وكان يردد :

ولست أبالي حين أقتل مسلما
على أي جنب كان في الله مصرعي

ولما لحق خباب بربه قال فيه الامام علي ، رضي الله عنه وكرم وجهه : «يرحم الله خباب بن الأرت ، فلقد أسلم راغبا ، وهاجر طائعا ، وقنع بالكفاف (القليل) ، ورضي عن الله ، وعاش مجاهدا ، وابتلي في جسمه أحوالا»[2] .

* * *

ولنعد الى بطلنا جابر بن عتيك ، لنراه يشهد غزوات بدر وأحد والخندق ، والمشاهد كلها ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان حامل راية الانصار يوم فتح مكة ، وعبر عن ذلك بعض المصادر فقال : كانت معه راية بني معاوية بن مالك في غزوة الفتح .

وقد روى جابر الحديث ، وكان له من الأولاد عتيك وعبد الله وأم ثابت وأمهم هي هضبة بنت عمرو بن مالك بن سبيع .

ولقد امتد عمر جابر بن عتيك ، حتى جاوز السبعين ، وقيل أنه جاوز التسعين ، وجاهد ما جاهد ، وناضل ما ناضل ، واكتسب من الذكريات الحميدة ما اكتسب ، ومع ذلك لازم سكنى المدينة طيلة حياته ، واستمر مقيما بها الى حين

---

(١) الطبقات لابن سعد ج٣ ص ٣٨٠.

(٢) انظر تفاصيل بطولته في كتابي : (فدائيون في تاريخ الاسلام) ص ٢٣٧—٢٤٢.

وفاته ، وكأنه كان يرى سكناها أفضل من السكنى في أي مكان آخر من البلاد التي دخلها الاسلام أو فتحها المسلمون.

ولا عجب في ذلك ولا غرابة ، فالمدينة في الاسلام هي دار الهجرة ، ودار الايمان ، ودار الفتح ، ودار الأخيار ، ودار الأبرار ، وفيها استقر جدث سيد الأنام محمد عليه الصلاة والسلام ، وهي البلدة التي أعطاها الرسول حرمة ومكانة ، فقال : «اني حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة» وقال : «المدينة تنفي الناس (أي شرارهم) كما ينفي الكير خبث الحديد» . وقال (المدينة كالكير تنفي خبثها ويتصع (أي يصفو) طيبها» وقال : «ان الايمان ليأرز (أي يجتمع) الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها» وقال عنها : «من أحدث فيها أو آوى فيها محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» وقال : «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

وعمر الفاروق كان يدعو ربه فيقول : «اللهم أجعل موتى في بلد رسولك عليه الصلاة والسلام».

وهكذا عاش جابر في المدينة المنورة يعمل للاسلام ويعتز بالاسلام ، يستعيد فيها الذكريات الجليلة الجميلة ، التي مرت عليه وعلى أبناء الاسلام خلال عشرات من السنين وعشرات.

وكانت هناك ذكرى تبدو في طليعة هذه الذكريات ، وهي ذكرى تساير جابرا وتسامره ، وتغاديه وتراوحه ، فقد شهد غزوة بدر الكبرى ، أول لقاء في الاسلام — شهدها مع ما يزيد عن ثلاثمائة مجاهد مؤمن ، وها هي ذي الأيام والأعوام تمر على جابر ، وهو يفقد رفاق الجهاد وأصدقاء الميدان ، بطلا بعد بطل ، وواحدا بعد الآخر ، وهو باق على قيد الحياة ، حتى لم يبق من هؤلاء أحد ، وبقي آخر مجاهد من أهل بدر ، وهو جابر بن عتيك.

وكأنه كان يستعيد الذكريات ويقول لنفسه : أين زملائي؟ أين احبائي؟ أين الذين شاركتهم شرف الجهاد ، وتطلعت معهم الى نعمة الاستشهاد؟ أين فلان

وفلان وفلان؟. لقد رحلوا جميعا الى بارئ الأرض والسموات ، فما بقائي في هذه الدنيا؟. ومتى يكون اللقاء؟.

وكان جابر بن عتيك آخر أهل بدر موتا ، وحين لحق بربه تذكر الناس أهل بدر الذين قال لهم ربهم تبارك وتعالى : «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون» . والذين ذكر الرسول عنهم أنهم فئة ان هلكت فلن يوجد في الأرض من يعبد الله ، والذين قال فيهم : «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال لهم : «اعملوا ما شئتم فاني قد غفرت لكم» .

* * *

رضوان الله عز وجل على المجاهد بقية أهل بدر : جابر بن عتيك ، وسلام عليه في الخالدين .

فدائي من أبطال الهجرة

عبد الله بن أبي بكر الصديق

تمر علينا كل عام ذكرى الهجرة النبوية التي غيرت تاريخ البشرية ، وحولت مسيرة الانسان من اتجاه الى اتجاه ، وكانت في تاريخ الاسلام بداية القوة والغلبة والنصر ، فتجدد ذكريات عزيزة غالية .

وقد شارك في هذا العمل العظيم عدد كريم من المؤمنين ، منهم الشيخ الكهل ، والفتى الشاب ، والفتاة المؤمنة .

وقد ارتبطت الهجرة بأكثر من معنى من معاني الوفاء والفداء .

وها نحن أولا نلمح بين صانعيها ، والمشاركين فيها ، وجها من وجوه الذين عزموا فأقدموا ، وعاهدوا فصدقوا .

انه وجه المجاهد الشهيد ، أحد الشجعان العقلاء الصحابي بن الصحابي : عبد الله بن أبي بكر الصديق التيمي القرشي ، رضوان الله عليهما ، وهو الذي اسلم قديما ، وجاهد طويلا ، ومضى الى ربه شهيدا .

وأمه هي قتيلة بنت عبد العزي ، تزوجها أبو بكر قبل ظهور الاسلام ، وولدت له عبد الله وأسماء[1] ، ومن هذا نفهم بيسر أن عبد الله بن أبي بكر هو شقيق البطلة

(١) تاريخ الطبري ، ج٣ ص ٤٢٥ ، وقد ولدت له زوجته أم رومان : عائشة ، وعبد الرحمن ، وقد تزوج أم رومان قبل الاسلام أيضاً (المرجع السابق ص ٤٢٦).

الفدائية العظيمة اسماء بنت أبي بكر ، ذات النطاقين ، والدة البطل الشهيد عبد الله ابن الزبير، الذي قالت له محرضة على الجهاد حتى الاستشهاد ، دون مبالاة بتمثيل اعدائه به بعد موته : «يا بني ان الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها»[1] .

ولذلك تقول أكثر المراجع الاسلامية عن عبد الله أنه «شقيق اسماء»[2] .

وهكذا يشرف التاريخ عبد الله ، ويعطر سيرته ، بأنه شقيق اسماء التي خلدت على الأيام بجهادها وبطولتها .

ومن صنع الله العجيب في تاريخ الاسلام أنه رفع مكانة فريق من النساء حتى صارت النسبة اليهن مفخرة الرجال :

ولو كان النساء كمثل هذي
لفضلت النساء على الرجال

* * *

ولقد كان نصيب عبد الله بن أبي بكر من واجبات الهجرة ان يقوم بمهمة الاستطلاع لأخبار المشركين وجمعها ، وتعرف «رد الفعل» عندهم لاختفاء الرسول ، وخروجه سرا دون أن يعلم منهم أحد أين اتجه ، وتتبع تحركات المشركين وتدبيرهم لمحاولة منع الرسول من اتمام هجرته ، وهذه مهمة دقيقة صعبة حساسة ، فيها خطر ولها أثر ، وتحتاج الى يقظة وتنبه ، مع رزانة وثبات ، مع شجاعة وروح فدائية .

---

(١) انظر تفاصيل بطولتها في كتابي «فدائيون في تاريخ الاسلام» ص ١٦٩ الى صفحة ١٧٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٦٢ ، والاصابة ٢/ ٢٧٤ .

فكان عبد الله كل يوم من أيام الغار يحمل الطعام وأخبار المشركين الى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، اذ هما في الغار، وكان يبيت عندهما، ويخرج من السحر فيصبح مع المشركين متظاهراً بأنه لم يبرح داره في الليل(١) .

ولقد روى الامام البخاري في قصة الهجرة أن الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر قالت: «كان عبد الله بن أبي بكر يأتي النبي صلى الله عليه وسلم وأباه، وهما في الغار بزادهما، وبأخبار مكة اذا أمسى، وهو غلام شاب فطن، فكان يبيت عندهما، ويخرج مع السحر، فيصبح مع قريش»(٢) .

ويعبر الطبري في تاريخه عن ذلك بقوله: «وفي الليالي التي مكثا بالغار كان يأتيهما عبد الله بن أبي بكر حين يمسي بكل خبر بمكة، ثم يصبح بمكة»(٣) .

ويقول ابن الأثير في كتابه «النهاية» عن المهاجرين العظيمين: «ويبيت عندهما عبد الله ابن أبي بكر وهو شاب ثقف لقن»(٤) أي فهيم حسن التلقن لما يسمعه، وهكذا كان عبد الله منذ فتوته يجمع بين حسن الفهم ودقة الجمع للأخبار، وقام عبد الله بعمل آخر يتصل بالهجرة، وهو أنه خرج بأسرة أبي بكر، وصحبها الى المدينة (تاريخ الطبري ٢/ ٤٠٠).

ولقد كان عبد الله رجلا شاعرا، صاحب أدب ورقة، ومع ذلك كان عميق التفكير بعيد النظر، ومما يدل على ذلك أنه اشترى الحلة التي أرادوا أن يكفنوا فيها

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٦٢ والاصابة ٢/ ٢٧٤.

(٢) التحفة اللطيفة ٢/ ٣٧٧.

(٣) تاريخ الطبري ٢/ ٣٧٦.

(٤) النهاية ٤/ ٢٦٦.

النبي صلى الله عليه وسلم بتسعة دنانير ، ثم عاد فتنبه الى أنهم لم يكفنوا الرسول بها ، فزهد فيها وقال : « لو كان فيها خير لكفن فيها النبي صلى الله عليه وسلم »[١] .

ويروى عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بردي حبرة ، حتى مسا جلده ، ثم نزعها ، فأمسكها عبد الله بن أبي بكر ليكفن فيهما ، ثم قال : ما كنت لأمسك شيئا منع الله رسول منه ، فتصدق بهما »[٢] .

وهذا من عبد الله وعي دقيق عميق في فهم الاسلام ، فهو يحب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويريد ليتبرك بأثر من آثاره ، وهو الثوب الذي كان سيكفن فيه الرسول ، ولكنه يعود فيرى أن الله تبارك وتعالى قد صرف عن تكفين نبيه بتلك الثياب ، وذلك لحكمة يعلمها الله سبحانه ، ولذلك قال : « لو كان فيها خير لكفن فيها النبي صلى الله عليه وسلم » .

ولم يتكل عبد الله على أنه ابن أبي بكر الصديق ، ثاني اثنين اذ هما في الغار ، وأول من آمن من الرجال ، والذي بذل في سبيل الله ورسوله ما بذل ، والذي يوزن ايمانه بايمان هذه الأمة . وكذلك لم يتكل عبد الله على أنه شقيق البطلة العظيمة اسماء ذات النطاقين ، بل قام بواجبه في التعبد ، وفي الجهاد من أجل الاسلام ، فاشترك في غزوة فتح مكة ، وغزوة حنين ، وغزوة الطائف مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأصيب في هذه الغزوة بسهم احتمله ، ثم انتقض عليه بعد ذلك فمات بسببه[٣] . وعبر عنه المؤرخون بأنه مات شهيدا ، فقال السخاوي في كتابه « التحفة

---

(١) التحفة اللطيفة ٢/ ٣٧٨.

(٢) الاصابة ٢/ ٢٧٥.

(٣) الطبقات ٢/ ١١٤ القسم الأول.

اللطيفة» : «قال الزبير بن بكار : قتل (يعني عبد الله) يوم الطائف شهيدا ، أصابه سهم فماطله ، حتى مات بالمدينة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم[1] .

وغزوة الطائف كانت في شوال من السنة الثانية ، وتوفي عبد الله بسبب السهم الذي أصابه في شوال من السنة الحادية عشرة ، وهذا يعطينا حكما يتعلق بالجهاد والاستشهاد ، وهو أن من أصيب في معركة من المعارك بجرح أو طعنة ، ثم ظل مدة قصيرة أو طويلة ، ثم مات بسبب هذا الجرح ، فانه يكون معدودا من الشهداء ، اذ لا يشترط أن يلفظ الشهيد أنفاسه وهو في الميدان .

وكانت وفاة عبد الله بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعين يوما ، وصلى عليه أبوه ، ونزل في قبره ، كما نزل معه عمر بن الخطاب ، وطلحة بن عبد الله ، وعبد الرحمن بن أبي بكر . رضوان الله على الجميع .

---

(١) التحفة اللطيفة ٢/ ٣٧٧.

المجاهد الصادع بالقرآن

عبد الله بن مسعود

ان للاسلام العظيم موازين ترفع وتضع ، وهذه الموازين تعنى بالكيف قبل الكم ، وبالنوع قبل الحجم ، وبالمعنويات أكثر من عنايتها بالماديات ، فقد يكون الانسان قليل المال ، رقيق الحال ، ضئيل الجسم بين الرجال ، ومع ذلك يعلو في نظر الاسلام ويسمو ، حتى يكون علما من الأعلام ، لأنه آمن ايمان صادقا ، وجاهد جهادا كريما ، وآثر ما عند الله على ما عند الناس : « ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وهذا مثل على ذلك تقدمه مدرسة النبوة . انه الصحابي الجليل : أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود الهذلي(١) ، الذي كان من أسرة فقيرة رقيقة الحال ضعيفة المكانة ، لا تستطيع أن تدفع عن نفسها أذى المعتدين ولا بغي الظالمين ، وكان راعي غنم عند أحد المشركين المجرمين وهو عقبة بن أبي معيط .

ولكن الله أعز ابن مسعود بالاسلام ، فدخل في دعوته مبكرا حتى قال : « لقد رأيتني سادس ستة ما على الأرض مسلم غيرنا » . واحتمل نصيبه من المتاعب والمصاعب ، حتى هاجر الى الحبشة مرتين ، ثم هاجر الى المدينة ، وتحمل نصيبه في الجهاد والنضال ، فاشترك في غزوات : بدر ، واحد ، والخندق ، وبيعة الرضوان وسائر المشاهد ، واشترك ايضا في معركة اليرموك ، وهو الذي أجهز على الطاغية الأثيم أبي جهل في غزوة بدر .

(١) أمه هي أم عبد بن عبدود ، أسلمت وهاجرت ، فهو صحابي وأبن صحابية .

وعقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أراد أبو بكر تحصين المدينة ضد غارات المرتدين ، فوكل الى ابن مسعود حماية الجهات الضعيفة من المدينة ، فقام بذلك الواجب خير قيام ، وكان يحرص على الموت فتوهب له الحياة ، لحكمة يريدها الله ، وكان يردد قوله : «أشرف الموت موت الشهداء» .

وكان ابن مسعود عميق الحب والأخلاص لرسول الله عليه صلوات الله وسلامه ، طاهر القلب ، نقي الروح ، كأنه مخلوق من النور ، ولذلك كان الرسول يأذن له في الدخول الى بيته ، ويخلطه بنفسه ، ويقول له : «آذنك على أن ترفع الحجاب وتسمع سوادي (أي سري) حتى انهاك» . ولذلك قال أبو موسى الأشعري : «قدمت أنا وأخي من اليمن ، فكثنا حينا لا نرى ابن مسعود الا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزومه له» . .

ويا لها من مكانة سامية لا يفوز بها الا الأخيار الأبرار ، الذين يصدقون في الاخلاص لسيد الخلق ، ويستكملون الاهتداء به ، والاستضاءة بنوره ، ولذلك قيل لحذيفة : أخبرنا برجل قريب السمت والدل (أي الصورة والهيئة) والهدي من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما نعلم أحدا أقرب سمتا ودلا وهديا برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد ، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ان ابن أم عبد أقربهم الى الله وسيلة (رواه البخاري) .

ويقول النووي في «تهذيب الاسماء» عن ابن مسعود :

«كان من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم ، ومقدميهم في القرآن والفقه والفتوى ، وأصحاب الخلق ، وأصحاب الاتباع في العلم» .

وقد روى ابن مسعود ما يزيد عن ثمانمائة حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه جمع من كبار الصحابة والتابعين. وكان يتحرى في الأداء ، ويشدد في الرواية ، ويزجر أصحابه عن التهاون في ضبط الألفاظ .

* * *

ولكن ابن مسعود كان قصير القامة ، ضئيل الجسم ، دقيقَ الساقين ، حتى عجب بعض الناس من ذلك ، أو سخروا به ، فقال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه عن ساقيه الدقيقتين : « والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من جبل أحد » ، وشهد له الرسول بالجنة ، وزاده تكريما بقوله : « تمسكوا بعهد ابن أم عبد » . ولم يقل الرسول ذلك محسوبية أو استثناء أو ممالأة ، بل قاله تقديرا ، وتذكيرا بأن المرء ليس ببدنه وجسمه ، ولكنه بقلبه وعقله وفهمه ، وبدينه وايمانه .

ولقد كان لابن مسعود من هذه الجواهر الغوالي نصيب كبير ، فقد أسلم مبكرا ، ودعا مذكرا ، وجاهد مخلصا ، وكان أول من جهر بتلاوة القرآن في مكة ، فقد ذهب في أول الدعوة الى الكعبة ، ومن حولها أهل الشرك والبغي ، ورفع صوته بآيات من كلام ربه ، قيل انه قرأ جانبا من سورة الرحمن ، فسارع اليه المشركون يضربونه ويعذبونه ، ولكنه أحب هذا الضرب وهذا العذاب في سبيل الله ، ومضى على طريق الحق ، يتلقى الكلمات الالهية النورانية من فم الرسول ، ويرتلها بصوت جميل أخاذ ، حتى قال : « أخذت من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعا وسبعين سورة »[1] .

وكان يقول : « والذي لا اله غيره ، ما في كتاب الله سورة الا أنا أعلم حيث نزلت ، وما من آية الا أنا أعلم فيما أنزلت ، ولو أعلم أحدا هو أعلم بكتاب الله مني تبلغه الابل لركبت اليه » .

وفي الصحيحين ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لابن مسعود يوما : اقرأ على القرآن ، فعجب ابن مسعود وقال : أقرأه عليك ... وعليك أنزل؟... قال الرسول : اني أحب أن اسمعه من غيري .. وبدأ ابن مسعود يقرأ في سورة النساء ، حتى بلغ قول الحق جل جلاله : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على

---

(١) أنظر الطبقات لابن سعد ج٢ قسم٢ ص ١٠٤ ، وفي التحفة اللطيفة للسخاوي أن ابن مسعود تلقى من فم الرسول سبعين سورة ج٣ ص٤٨ .

هؤلاء شهيدا ، يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا».

وهنا قال الرسول : حسبك ، فسكت ابن مسعود.

ورفع بصره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا عيناه تذرفان بالدموع.

وقال الرسول بعد أن سمع قراءة ابن مسعود : «من سره أن يقرأ القرآن غضا (أي طربا ناضرا لم يتغير) ، كما أنزل ، فليقرأه قراءة ابن أم عبد».

وقال أيضا : «خذوا القرآن من أربعة : من عبد الله ، وسالم مولى أبي حذيفة ، ومعاذ ، وأبي بن كعب».

والى جانب هذا كان ابن مسعود اذا هدأت العيون بالليل يقوم متهجدا متعبدا ، فيكون له دوي كدوي النحل حتى يصبح[1].

وكان عبد الله يحفظ حرمة القرآن وآدابه ، وهو القائل كما ذكر الغزالي في «الأحياء» :

«ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله اذا الناس ينامون ، وبنهاره اذا الناس يفرطون ، وبحزنه اذا الناس يفرحون ، وببكائه اذا الناس يضحكون ، وبصمته اذا الناس يخوضون ، وبخضوعه اذا الناس يختالون»

وينبغي لحامل القرآن ان يكون مستكينا لينا ، ولا ينبغي أن يكون جافيا ولا مماريا ، ولا صياحا ، ولا صخابا ولا حديدا»[2].

ويا لها من عظة تحوي جلائل الآداب التي يتحلى بها الصفوة من أهل القرآن ،

---

(١) ولم يمنعه هذا أن يحرص على التعطر بالطيب الجميل ، حتى روي أن الناس كانوا يعرفون ابن مسعود إذا مرّ عليهم برائحته الطيبة ، وإن لم يروه.

(٢) الاحياء ج ١ ص ٢٦٠ طبعة بولاق.

وليت هذه العظة توضع أمام قراء القرآن المجيد، ليتخذوا منها نبراسا يضيئ لهم الطريق الى حمى الحق تبارك وتعالى.

* * *

وأخذت الأيام تمضي، وابن مسعود على طريق الحق يسير، فأخلص للرسول الاخلاص كله، ثم تابع اخلاصه لأبي بكر خليفة رسول الله، ثم تابع الاخلاص للخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وكان عمر يجل ابن مسعود وينوه بمكانته، ويردد قوله عنه: «كنيف (أي وعاء) مليئ علما».

ولقد أرسله عمر مع عمار بن ياسر الى الكوفة، ليكون عمار أميرا، ويكون ابن مسعود وزيرا ومعلما، وقائما على بيت المال، وكتب عمر الى أهل الكوفة يقول: «بعثت اليكم عمارا اميراً، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا، وهما من النجباء، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أهل بدر، فاقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي».

* * *

وكانت له كلمات روائع، ينبغي أن تروى وترددها الألسنة، وتعيها القلوب.

من كلماته: «انما هذه القلوب أوعية، فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بغيره».

ويقول: «والله الذي لا اله غيره ما يضر عبدا يصبح على الاسلام ويمسي عليه ما أصابه في الدنيا».

ومن كلماته: «الاقتصاد في السنة أفضل من الاجتهاد في البدعة».

ومن كلماته: «اني لامقت الرجل ان أراه فارغا، ليس في شيئ من عمل الدنيا، ولا من عمل الآخرة».

ومنها: «خير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وشر العمى عمى القلب،

وأعظم الخطايا الكذب ، وشر المكاسب الربا ، وشر المأكل مال اليتيم ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن يغفر يغفر الله له».

ومنها : «اذا كان الامام عادلا ، فله الأجر وعليك الشكر ، واذا كان جائرا ، فعليه الوزر وعليك الصبر»

ومنها : «من كان كلامه لا يوافق فعله فانما يوبخ نفسه».

وكان يقول : «حدث القوم ما حدجوك بأبصارهم».

ويقول : «اني لأحسب الرجل ينسى العلم بالخطيئة يعملها».

وكان بارعا في الافتاء اذا سئل.

سأله سائل : يا أبا عبد الرحمن ، ان لي جارا يربي (أي يقرض بالربا) وما يتورع عن شأن أصابه ، واني أعسر فاستسلفه (أحتاج فأقترض منه) ويدعوني فأجيبه؟

فقال له : كل ، فلك مهنئوه ، وعليه وزره[1] .

* * *

ومما يرفع قدر ابن مسعود ، ويزكي سيرته ، ان طائفة من الصحابة كانوا في مجلس الامام علي ، فقالوا :

يا أمير المؤمنين ، ما رأينا رجلا كان أحسن خلقا ، ولا أرفق تعليما ، ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعا ، من عبد الله بن مسعود.

فقال الامام : نشدتكم الله أهو صدق من قلوبكم؟

قالوا : نعم...

---

(١) عيون الأخبار ، ج١ ص ٣٤٢.

قال : «اللهم اني أشهدك ، اللهم اني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل ، لقد قرأ القرآن ، فأحل حلاله ، وحرم حرامه ، فقيه في الدين ، عالم بالسنة».

* * *

ولما كانت لكل بداية نهاية ، وكان مصير كل انسان الى الموت ، فقد مرض عبد الله بن مسعود في عهد عثمان بن عفان ، وذهب عثمان ليعوده ، فقال له : ما تشتكي ؟...

فأجاب ابن مسعود : ذنوبي !...

فقال عثمان : فما تشتهي ؟...

فأجابه : رحمة ربي...

فقال عثمان : ألا آمر لك بطبيب ؟..

فأجاب : الطبيب أمرضني...

فقال عثمان : ألا آمر لك بعطاء ؟...

فأجاب : لا حاجة لي فيه...

فقال عثمان : فيكون لبناتك ؟...

فأجاب ابن مسعود : أتخشى على بناتي الفقر ؟...

إني أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

«من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً»

ولا عجب أن يقف ابن مسعود هذا الموقف فهو القائل ضمن عظة له :

«خير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى».

وهو الذي كان يردد الدعاء بهذه الكلمات :

«اللهم إني أسألك إيماناً لا يبيد ، ونعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في أعلى جنة الخلد».

وتوفي ابن مسعود سنة اثنتين وثلاثين.

* * *

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام.

هكذا يكون أحرار الرجال وخيار الأبطال ، الذين استضاءوا بنور ربهم ، وآثروا ما عنده على ما عند الناس ، وصدقوا نبيهم ، وأخلصوا له فحرصوا على طريقته ومنهاجه ، وصانوا تراثه بقلوبهم وعقولهم وأيديهم ، وعلموا الدنيا أن موازين الله لا ترجح كفتها بثقل اللحم والشحم ، ولا بضخامة الطول والعرض ، وإنما ترجح بالايمان والعمل الصالح : «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولي الألباب».

المجاهد طويل العمر

أبو أمامة صدي بن عجلان الباهلي

ما أعجب شأن الانسان في هذه الحياة ، لقد يحرص على الدنيا فتفر منه وتعرض عنه ، ولقد يزهد فيها ويصد عنها ، فتقبل عليه ، وتتزين له ، ولقد يخشى الانسان الموت ويحذره ، فيأتيه الموت عاجلاً عن يمين أو شمال ، ولقد يرحب بالموت فيفر منه ويتأبى عليه.

ومن هذه العبرة العملية الواقعية التي تطالع البشرية في كثير من الأحيان وعديد من الجهات نفهم — بتوجيه الاسلام العظيم — أن هناك أمرين جعلهما الحق تبارك وتعالى مفتاح العزة والسيادة ، هما عدم الحرص على متاع الدنيا ، وعدم الخوف من الموت ، وأن هناك أمرين جعلهما طريق الذلة والصغار ، هما : حب الدنيا ، وكراهية الموت.

ولذلك قال سيد الخلق محمد صلوات الله وسلامه عليه :

«يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها».

قالوا : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟

قال : بل أنتم حينئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن.

قالوا : وما الوهن يا رسول الله؟

فقال : حب الدنيا ، وكراهية الموت.

ولو رجعنا الى السيرة العطرة لرسول الله وأصحابه لوجدناه قد ربي من حوله رجالاً أبطالاً ، زهدوا في متاع الحياة ، فتكاثر ذلك المتاع من حولهم وتزين لهم ، وأحبوا الموت في سبيل الله ، فأبقاهم ربهم طويلاً في دنياهم ، ليواصلوا مسيرتهم على طريق النضال والجهاد ، ثم يختم الله لهم بعد حين أو أحيان بخاتمة الوفاء والفداء : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلاً» .

* * *

وهذا واحد من هؤلاء ، يطول به العمر ويمتد أمامه الأجل ، حتى يتجاوز مائة سنة ، ليقدم في سبيل ربه ودينه وقومه ما يقدم من أعمال طيبات ، وباقيات صالحات ، فيكون له حميد الذكر وعظيم الأجر عند من لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

إنه الصحابي المجاهد والمؤمن العابد ، أبو إمامة صدي بن عجلان بن وهب الباهلي السهمي ، وسهم بطن من باهلة ، وباهلة هم بنو مالك بن أعصر ، نسبوا الى أمهم باهلة[١] .

وقد أسلم صدى وأحسن صحبته للرسول ، وأخلص جهاده لله ، وصدق في نضاله من أجل الإسلام ، فأعزه الرسول وأحبه ، حتى يروى أنه لما نزل قول الله تعالى : «لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم ، وأثابهم فتحاً قريباً» .

قال صدي للرسول كأنه يستبشر بفضل الله عز وجل : يا رسول الله ، إنا ممن بايعك تحت الشجرة .

---

(١) العقد الفريد ج٣ ص ٣٠٠ طبعة التجارية .

فردّ عليه قائلاً : أنت مني وأنا منك[1] .

فطار بها أبو أمامة فرحاً ، وكأنه قد حيزت له الدنيا بحذافيرها .

كما يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل الى الجهاد كتيبة كان فيها أبو إمامة صدي بن عجلان ، فأقبل صدي قبيل التوجه الى المعركة وقال للرسول :

— يا رسول الله ، ادع لي بالشهادة .

فقال الرسول : اللهم سلمهم وغنمهم[2] أي اكتب لهم السلامة والغنيمة ، وكأن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد دعا بذلك ليبقى أمثال هؤلاء الرجال الأبطال زمناً يكتبون فيه بجهودهم وجهادهم صحائف العزة والمجد .

وقد استجاب الله تعالى دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم ، فبقي أبو امامة في الحياة فوق المائة من السنين ، وكان عند ظن الرسول به ، فواصل النضال في مواقف التضحية والإقدام .

وشهد فيما شهد غزوة اليرموك مع عبادة بن الصامت[3] وجاهد مع الامام علي رضي الله عنه في غزوة صفين[4] ، وفي عهد الأمويين ذهب صدي الى أرض فلسطين — ردها الله على العرب والمسلمين — ليهاجم جمع الروم الذي اجتمع في « العربة » من أرض فلسطين . فقام أبو امامة بذلك وصاحبه التوفيق ، بفضل الله عز وجل .

* * *

---

(١) الاصابة ج٢ ص ١٧٥ .

(٢) الاصابة ج٢ ص ١٧٦ .

(٣) النهاية في غريب الحديث ج٥ ص ٢٠٨ .

(٤) أسد الغابة المجلد الثالث ص ١٦ طبعة دار الشعب .

وبجوار بطولة صدي في ميدان القتال والنضال كان بطلاً في الفقه والعلم ، فأكثر الرواية للحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى روي عنه مائتين وخمسين حديثاً ، وقد روي عن غيره من الصحابة.

وقد روى الحديث عن صدي كثير من الاعلام.

جاء في «تهذيب الأسماء واللغات» عن أبي امامة الباهلي :

روي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائتا حديث وخمسون حديثاً ، وروى البخاري له منها خمسة ، ومسلم ثلاثة ، روي عنه رجاء بن حيوة ، وخالد ابن معدان ، ومحمد بن زياد ، وسليمان بن حبيب ، وسليم بن عابر ، وشرحبيل بن مسلم ، وشداد أبو عمار ، وأبو سلام ممطور الحبشي ، والقاسم أبو عبد الرحمن الدمشقي ، وسالم بن أبي الجعد ، وأبو ادريس الخولاني ، وغيرهم[1] .

ومن الأحاديث التي رواها أبو امامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويجب علينا أن نتذكرها ونتدبرها ونديرها على ألسنتنا وقلوبنا وعقولنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام :

«لا يعذب الله قلباً وعى القرآن» أي عقله إيماناً به وعملاً بمقتضاه ، وتأثراً بمعناه ، وخضوعاً لإرشاده وهداه ، وأما من حفظ القرآن ، وضيع حدوده ، فإنه لا يكون واعياً له[2] ، وبذلك لا يستحق ذلك الوعد الإلهي العظيم الكريم : «لا يعذب الله قلباً وعى القرآن».

وتحدث صدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء أشد خوفاً على هذه الأمة من الكذب والعصبية ، إلا وإياكم

---

(١) أسد الغابة المجلد السادس ص ١٧ طبعة دار الشعب.

(٢) تاريخ الطبري ج٢ ص ٤٠١.

والكذب والعصبية ، إلا وأنه أمرنا أن نبلغكم ذلك عنه ، إلا قد فعلنا فابلغوا عنا ما أبلغناكم »[1] .

وكذلك روي عن الرسول قوله :

— اكفلوا لي بست أكفل لكم بالجنة : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا أؤتمن فلا يخن ، وإذا وعد فلا يخلف ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، واحفظوا فروجكم[2] .

* * *

وظلت الأيام تمر ، والأعوام تكر ، وانتقل أبو أمامة صدي بن عجلان الى الشام ، وسكن في مدينة حمص مرقد البطل الفاتح سيف الله المسلول ، خالد بن الوليد ، وظل صدي يجاهد ويناضل يميناً وشمالاً ، قريباً وبعيداً ، حتى جاءت سنة ست وثمانين للهجرة فقضى ربك أن يلقاه فيها عبده الصالح الفاضل ، المجاهد المناضل : أبو امامة صدي بن عجلان الباهلي.

وهناك في قرية من قرى حمص تسمى «كفر نفد» رقد البطل الذي تمنى الشهادة في شبابه فأبتها عليه الأقدار ، ليبقى مجاهداً مجالداً ، حتى يتجاوز المائة بست سنوات ، ليشيب شيبته الجليلة في الاسلام ، فتكون له خير وسام يوم لقاء الله عز وجل.

---

(١) الاعلام ج٣ ص ٢٩١.

(٢) تاريخ الطبري ج٣ ص ٤٠٦.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ج٢ ص ١٧٦.

إمام الفدائيين

سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم

إذا كانت جوانب القدوة والأسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرة غزيرة ، فمن اللائق بنا أن يشغلنا جانب التضحية والفداء في شخص الرسول سيد المجاهدين وإمام الفدائيين ، فإنه الذي قال له ربه :

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

وقال له :

« فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً » .

والرسول صلى الله عليه وسلم الذي جعله ربه سبب الرحمة ، ودليل النعمة ، هو الذي يقول :

« أنا نبي الملحمة » أي المعركة الشديدة ، ويقول :

« أنا رسول الملاحم » .

ويقول : « نصرت بالرعب » .

ويقول : « إنا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

ولله در أمير الشعراء أحمد شوقي إذ يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم مصوراً شجاعته فيقول :

وإذا غضبت فإنما هي غضبة
في الحق ، لا ضغن ولا بغضاء
الحرب في حق لديك شريعة
ومن السموم النافعات دواء
الخيل تأبى غير أحمد حامياً
وبها إذا ذكر اسمه خيلاء
شيخ الفوارس لو يعلمون مكانه
إن هيجت آسادها الهيجاء
وإذا تصدى للظبا فمهند
أو للرماح فصعدة سمراء
وإذا رمى عن قوسه فيمينه
قدر ، وما ترمي اليمين قضاء
من كل داعي الحق همة سيفه
فلسيفه في الراسيات مضاء[1]

* * *

وحينما جاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاده الطويل الكبير ، لم يجاهد لشهرة أو شهوة أو عصبية ، وإنما جاهد في سبيل الله ، ومن أجل الحق وحده ،

(١) ضغن : حقد ، والناقعات : القاتلات ، والظبا : جمع ظبة وهي حد السيف. والصعدة : القناة المستوية والرمح ، والراسيات : الجبال.

ولقد أكد أن حياته الشريفة وقف على رسالته ، يعيش لها ويفنى من أجلها ، ولا يقبل فيها مساومة أو مداهنة أو مهادنة ، فقال :

والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

وحمل روحه الطاهرة الزكية على كفه التقية النقية ، وخرج بها الى ساحات النضال ، يتقرب بها الى مولاه ، ويقول :

لولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل . . » .

ولقد مرّ وهو الرءوف الرحيم على جمع من المشركين ، وهو في طريقه الى عبادة ربه ، فغمزوه وسخروا منه مرة بعد أخرى وهو يحتمل ، ثم يحتمل ، فلما طفح الكيل ، وأسرفوا في إجرامهم ، أقبل عليهم ، وقال لهم مهدداً متوعداً :

أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح . ولما كانوا قوماً لا يستحون ، ولكنهم يخافون ، فقد هابوه من شدة ما رأوه في ملامحه من إصرار على التضحية والفداء ، حتى قالوا له :

انصرف يا أبا القاسم راشداً ، فوالله ما كنت جهولاً .

ثم يزداد إجرام الطغاة البغاة حتى يرتضوا لأنفسهم اللئيمة الوضيعة أن يتمالئوا جميعاً على قتله وهو فرد ، فيأمره مولاه سبحانه بالهجرة ، وفي طريقها يدخل مع صاحبه الغار ، ويتبعها الكفرة الفجرة حتى يبلغوا باب الغار ، وهنا يقول له صاحبه مشفقاً عليه :

— يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر الى موطىء قدميه لرآنا ، فتتجلى من الرسول روح الثقة بالله ، والإقبال عليه ، فيقول : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، يا أبا بكر ، لا تحزن إن الله معنا » .

ويخلد القرآن هذا الموقف أكرم تخليد فيقول في سورة التوبة :

« ألا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ، إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » .

* * *

وكان النبي المجاهد المسارع الى مواطن التضحية والفداء يتقدم الصفوف في الوغى ، ولا يرتضي لنفسه الاتقاء بها من خلفها ، وكأنه يريد أن يقول لأتباعه وجنوده : اتبعوني من ورائي وأنا أمامكم وفي طليعتكم ، ولا يقول لهم : تقدموا وأنا خلفكم أو من ورائكم ، فهو يبدأ بنفسه كما علمه ربه :

« قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » .

ولذلك قال الإمام علي يصور فدائية الرسول صلى الله عليه وسلم وأقدامه :

« كنا إذا حمى البأس (يعني شدة الحرب) اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه الى العدو ، ولقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ، وهو أقربنا الى العدو ، فكان يومئذ أشدنا بأساً » .

وفي غزوة أحد كان النبي يرى عدم الخروج ، والاكتفاء بموقف الدفاع داخل المدينة ، ولكن الأكثرية طالبت بالخروج فاستجاب لرأيها ، وارتدى ملابس القتال ، وخرج بلا تردد أو إبطاء ، وحينما أرادوا أن يغيروا رأيهم ، تجلى منه العزم الأكيد والتصميم الوطيد على المعركة ، وقال :

« ما كان لنبي إذا لبس لأمته (درعه أو سلاحه) أن يضعها حتى يقاتل ، ويحكم الله بينه وبين عدوه » .

ويمضي الى المعركة شجاعاً أبياً ، مستعداً للاستشهاد ، حتى يقول للرماة يومئذ :

«إن رأيتمونا تخطفنا الطير[1] فلا تبرحوا مكانكم هذا ، حتى أرسل اليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم فلا تبرحوا ، حتى أرسل إليكم».

وحينما وقع الاضطراب يوم أحد ، وبدأت حركة الفرار الخطيرة بسبب الوطأة الشديدة في المعركة لم يتزلزل الرسول ولم يتبلبل ، بل أخذ ينادي الفارين قائلاً :

«يا عباد الله ، من كر فله الجنة».

وبقي يجالد ويطاعن ، حتى تمزقت قوسه شظايا ، وما تقهقر ولا انكسر ، برغم الجراح التي أصابته ، والدماء التي سالت منه ، ويصور المقداد ذلك الموقف الرائع بقوله :

«فوالله الذي بعثه بالحق ، ما زلت قدمه شبراً واحداً ، وإنه لفي وجه العدو ، تفيء اليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق عنه مرة ، وهو قائم يرمي عن قوسه ، ويرمى بالحجر ، حتى انحازوا عنه».

وحينما انتهت المعركة ، وعاد النبي الى بيته ناول سيفه لابنته فاطمة قائلاً لها :

— اغسلي عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صدقني اليوم.

وفي غزوة الحديبية ، وحينما يحس النبي بتعنت المشركين وتطاولهم ، يقول :

— لا بد أن نناجز القوم.. ثم يقول :

«والله لأقاتلنهم على أمري حتى تنفرد سالفتي». (أي حتى تنقطع رقبتي).. والسالفة هي صفحة العنق ، وهما سالفتان ، من جانبين ، وكنى بانفرادها عن الموت ، لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت.

---

(١) أي نسقط قتلى وتأكل الطيور أجسامنا.

وقيل: أراد حتى يفرق بين رأسي وجسدي.

فهو مستعد للفداء على أروع ما يكون الفداء، وهو الموت يقطع الرقبة. وحينما حدثت المحنة القاسية في غزوة حنين التي يقول فيها القرآن المجيد في سورة التوبة:

«لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم، فلم تغن عنكم شيئاً، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت، ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم».

وانكسر الأتباع من حوله، ظل راسخاً كالطود، ثابتاً كالخلد، وجعل ينادي في طمأنينة المؤمن:

أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب، أيها الناس، هلموا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله.

وجعل يقول للعباس: يا عباس، اصرخ: يا معشر الأنصار، يا معشر أصحاب الشجرة... ويظل النداء يتردد، ويجلجل في ساعة الهول حتى يأتي الجواب من أنصار الحق وأتباع الايمان، قائلين: لبيك، لبيك، ويعود التماسك من جديد الى الكتائب المجاهدة في سبيل الله عز وجل.

إن القائد هو روح جنوده، وإن الرائد هو مصباح أتباعه، ولقد كان سيد الأنام محمد خير قائد، وأصدق رائد، فإذا أردنا أن ندخل الرضا على روحه الشريفة فلنتخذ منه في الجهاد قدوة وإماماً.


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دراسة عن :

موسوعة الفداء

«تأليف»

الدكتور أحمد الشرباصي

عرض ودراسة ونقد

للدكتور / سعد ظلام



أخرج لنا فضيلة الأستاذ الدكتور/ أحمد الشرباصي أسفارا ستة في موضوع واحد هو موضوع الفداء. وقبل أن نبحر مع هؤلاء الأصدقاء في رحلة التعرف يجمل بي أولا أن أقول كلمة لا بدّ منها ، ثم أجيب على تساؤلين هما.

ما قيمة هذه البحوث ، وما أهدافها وغاياتها؟

١ ـ كلمة لا بدّ منها.

جرى العرف وجرت العادة أن يقدم كاتب مشهور كاتبا مغمورا الى جمهور القراء فيتعرفوا به وبقلمه من خلال تقديمه له وتعريفه به ، فيقرأوا له ويتابعوه.

وأبادر فأنكر ذلك لأحفظ على نفسي شرفها من مهانة الاتهام وأحفظ عليها وقارها وجلالها من صحة الادعاء لأني لو لم أقله لبادر الناس الى قوله ، فليس مثلي بالذي يقدم مثل الدكتور/ الشرباصي الذي قدمته أعماله الفصاح ، وأحاديثه الروائع ، ومقالاته ودراساته البليغة وكتبه التي زادت عن الأربعين عددا ، وخطبه السحبانية التي تسحر الألباب ، وتستحوذ على الشعور والأفئدة ، وفتاواه ، وجولاته العريضة في أرض الله ، وأدبه ومسرحه ، ومحاضراته الجامعية الأصيلة وغير الجامعية التي طوقت العالم العربي والاسلامي ، وغير ذلك مما وعيناه في صبانا الباكر ، وما زلنا نعيه ، وما نزال نعلق به ونتأثره ، انما أنا مستفيد صغير أغرز يدي بغرزه ، أطلب منه زكاة كنزه ، وتلميذ في حضرة الأستاذ يتأدب بما كتب أو يكتب وما على التلميذ من بأس لو أنه قرأ ما كتب أستاذه فوعاه ، وما عليه من بأس أيضا لو أنه درسه ليستفيد ويفيد.

تلك مكانتي وذاك مكاني. وهذا ما أردته وقصدت اليه ، فلتكن كلماتي من هذا القبيل ولتحيل على هذا الوجه ، ولا يتجاوز بها أصلها الذي سيقت اليه. وأساسها الذي بنيت عليه.

٢ ـــ قيمة هذه البحوث

قيمة أي شيء رهن بالحاجة اليه ، وقيمة الكتاب بما بذل فيه من جهد وعناء ، وبما يسد من فراغ هائل في المكتبة والفكر ، لولا وجوده لبقي شاغرا ، فلا ينوب عنه غيره ، ولا يسدّ مسدّه .

وهذه المجموعة الغالية بهذا العدد الخصب من الكتب وبما حوت بين ضفافها من سيرة لمائة وأربعين مجاهدا ، وبطلا من أبطال العقيدة والاسلام على رأسهم امام المجاهدين سيدنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جديدة . فقد ارتحل الباحث الفاضل في بطون الأضابير وأمهات الكتب ، وتنقل في رحاب السنة الشريفة والتاريخ والسير ، وأرهق نفسه بين المصادر والذخائر النادرة يقلب من صفحاتها ويقطف . وظل يهذب وينقح ويضيف ويزيد ويعالج وينظم ، ويضفي عليها من عصارة روحه وفكره وفنه وأريحيته وشخصيته الدمثة جهدا مضاعفا حتى خرجت لنا على هذا المستوى الجميل الجليل .

والفداء موضوع جديد على المكتبة العربية ، ومعالجته على النحو الذي عالجه المؤلف جديد أيضا ذلك أنه لم يقدم لنا الوفاء دون تعريف يفسر فكرته ، ويوضح سماته ، ويحدد لنا صفات المجاهدين والأمة المجاهدة وخصائصها . ولم يعرضه مجردا عن الأمثلة التي تؤيد الدعوى وتدعم القضية وتؤكد بالبرهان ما ذهب اليه ، ولم تكن نماذجه موقوفة على نوع من الفداء دون نوع ، ولا لون دون لون بل اتسعت في رحابه لكل معطيات الفداء وكل صور العمل الفدائي وألوانه . ولم يقدّم لنا الباحث الكريم شخوصا دون روح فتكون كالتماثيل التي تقتنى ونعجب بجمالها فحسب . ولكنه قص علينا من سيرتها وشريط حياتها وساق لنا مواضع العظة والاعتبار فيها وتاريخها النضالي ، والمواقع التي خاضتها تفصيلاتها وخططها ووقائعها وصورها في كل ظروفها ، وخلع عليها أبراد الحياة وجعلها نماذج حية ، تحكي وتتحدث ، وتوجه وترود ، وتستحث ، وتحفز وتعايشنا في ظروفنا لنعايشها في ظروفها ، فتجد دفينا ما خلق ، وتقوى ما فتر وما وهن ، وتضع امامنا أفكارها العسكرية ، وتصوراتها للمعارك ، والأخطار التي نتجت عن القصور فيها .

وهذه النماذج المختارة لصفوة المجاهدين تمثل بمجموعها وسيرها ، واستقصاء تاريخ حياتها تمثل عبئا كبيرا ، وجهدا صادقا يستحق الشكر والثناء ، لأنها لم تقف على عصر دون عصر ولا فئة دون فئة أو طائفة دون طائفة ، أو بلد دون آخر بل كان من بينها الشهيد الذي لقي الله على الحق ، مخضبا من سيوف الأعداء ، أو متأثراً بما لاقى في سبيل الله ، وكان منها أولو الرأي من كل مجاهد بقلم شاعرا كان أو خطيبا أو اماما أو قارئا أو زاهدا ، وتوابا الى الله ، ومنها قواد خاضوا المعارك وخططوا لها واستبسلوا في تنفيذها ، فانتصروا وحققوا للاسلام أمجادا ، ومنها أبطال عرضوا أنفسهم للمخاطر وأبلوا في الاسلام بلاء حسنا تمكينا له حتى ان العُرْج والصبيان والنساء والعُميان لم يمنعهم الضعف الخِلْقي أن يجاهدوا في سبيل الله على أية صورة من صور الجهاد ، وبكل ما لديهم من قوة.

وهذه النماذج هي التي عبّدت طريق الاسلام ، ورصفته ومهدته ، وفرشته بالارواح والدماء الذكية لتعبر أضواؤه الزاحفة الى كل أفق ، وتعلو رايته الصاعدة فوق كل ربوة أو ثنية. وتصل الى كل البشر والناس في كل مكان.

ولم يسبق للمكتبة العربية أن حظيت بقصص الفداء وسير الفدائيين والمجاهدين بهذا القدر وعلى هذا النحو وذلك الاخراج وبتلك الروح وذاك العوض الشيق الجميل ، والمصور الأخاذ وقد قام عن الفكر العربي الاسلامي الدكتور/ أحمد الشرباصي بهذا الجهد وتحمل وحده هذه الوعكة وتلك المشقة بروحه الجسور ، وهمته العالية ، فاستحق منا ومن الفكر والمفكرين وجمهور القارئين الشكر والثناء.

ومجموعته تعتبر الموسوعة الفدائية الوحيدة في الفكر الاسلامي وتاريخه النضالي العريق والمرجع الوحيد فيه. واذا كان فكرنا العربي قد عيب عليه في فترة من فتراته أنه لم يساير تاريخنا النضالي وانتصارتنا على الصليبيين ، فلم نظفر بتسجيل واع فني أو تاريخي يتلاءم مع هذه الانتصارات العظيمة أو يرصدها ويسجلها ، ليحكي لنا أمجادنا وعظمة أجدادنا وبطولاتهم الرائعة التي بهرت العالم ، وهزته أو بعثرت أحلام الغرب على أرضنا هباء ، ومزقت جيوشه ، وأسرت ملوكه وردت عن الاسلام

عادية الغير وأطماعه ، لم تظفر برصد لكل ذلك ، أو تسجيل له يفي بمكانته وروعته وشموخه فيبقى فكرنا قاصرا من هذه الجهة.

وان كنا ونحن نقدم هذه الطلائع المجاهدة وفاء لتاريخنا فأنه ليحزننا أن تكون هذه السجلات نابعة من هزيمة ، وصادرة عن محنة.

ونرجو — وقد وعد الباحث الفاضل — أن يسجل انتصاراتنا ويكتب عن النماذج الفدائية لمعركة رمضان المظفرة ، ووعد الحر دين.

٣ — أهداف البحث وغاياته :

لعل الغاية التي تتغياها هذه المجموعة ، وتهدف اليها ولعل السبب الذي حدا بالباحث الكريم أن يكتب هذه الأعمال القيمة هي الارتحال من واقع أليم والثورة عليه الى واقع نرضاه ونحبه. والهجرة من واقع اليم الى عالم رحب خالد بأضوائه وعمقه ورشده وهدايته ، الرحلة من عالم النكسة بآلامه ومرارته الى عصر الجد والغلبة — عصر الاسلام الذهبي ، عصر القدوة والأسوة.

وهذا ما يسمى «بالعامل الحضاري» الذي يبعث في الأمة فكرة تجديد شباب مجتمعها بالرجوع الى عصره الذهبي أيام نقائه الأول.

والتذكير بالعامل الحضاري «يعني استعادة واحياء عصر الاسلام أيام نقائه الأول في محاولة لاستجلاء اساسياته وحوافزه ، وشحنته الموجبة ، وما عجّ به من قيم ومفاهيم وروحانية صافية ، وصدق القدوة والأسوة يقول الله تعالى «لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة» «قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه» (الممتحنة الآيتان ٦ ، ٤)

ويقول الرسول «أصحابي كالنجوم بأيّهم أقتديتم اهتديتم» «عليكم بسنتي وسنة المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ».

وأية أمة لها تاريخ ومجد وحضارة عندما يضيع الطريق من اقدامها ، وعندما

تتهاوى أيديها عن شعلة الحق والحياة واليقين، وعندما تجد نفسها ضائعة في متاهة السبل، هدفا لكواسر الطير والسباع وعندما تتحسس نواتها وتبحث عن نفسها في هذه المأسدة فلا أجدى لها الا أن تحاول في صدق وثراء معايشة أمجادها، لتعي اسباب ضعفها وسقوطها فيتقبس من أشعة الماضي الهادية ضياء المستقبل وأمل البقاء والاستمرار، وتستمد من جذوته الحيوية النابضة بروح الحياة، وهتاف البعث فتبحث عن نفسها وسط هذا المتاع، وما ضاع منها، لتعاود الامساك بالأزمة، والتشبث بالألق والنور والهداية وترمى من طريقها ما تعثر بها وتعثرت به، وتعدّل من مسارها وتصوغ نفسها وسلوكها من جديد على هدي منه، حتى تنهض وتسود.

هذه هي فكرة التذكير بالعامل الحضاري، وهي أجدى على كل أمة وشعب وملة لها تاريخ عريق وماض زاهر مشرق، ورسول كرسول الله كريم وصحب كصحبه الأوفياء الأبرار.

والتذكير بالعامل الحضاري في القرآن الكريم والسنة النبوية على وجوه منها القصص «فاقصص القصص لعلهم يتفكرون» (الأعراف الآية ١٧٦) «لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب» «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن» (يوسف الآيتان ١١١، ٣) ومنها المثل «وضربنا لكم الأمثال» (ابراهيم الآية ٤٥) «كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال» (الرعد الآية ١٧) «ولقد صرّفناه بينهم ليذكروا» (الفرقان الآية ٥٠) حتى ان الاسلام ليعتبر التدبر من صميم الاعتقاد.

ولقد وعت أمتنا هذا العامل في بداية عصرها الحديث أو وهي على أبوابه عند غزو الفرنسيين لمصر «فلم تكن حملة الفرنسيين على مصر هي التي حركت المصريين، ولم تكن الآراء التي جاء بها الفرنسيون هي التي حملتهم على التعبير عن ذاتهم، ولكن طبيعة الحملة واحداثها هي التي كشفت لهم عن ذاتهم ودفعتهم الى الحركة، فقد ذكرتهم الحملة بغارات الصليبيين على بلاد الاسلام، فانبعثت حميتهم

للاسلام ، ورأوا هزيمة المماليك وعجز العثمانيين عن الدفاع فقاموا بالأمر عنهم اذ لم يعد غيرهم يقوم به »[١] .

وفكرة تجديد شباب المجتمع الاسلامي بتجديد شباب الاسلام من خلال احياء عصره الذهبي أيام نقائه الأول كانت أثرا من آثار المسألة الشرقية التي تمخضت عن دور الحروب الصليبية وهو دور التفاهم بين دول الاستعمار على تركة الرجل المريض لأن الشرق العربي « انتصر على الغرب في تلك الحروب وردّ عادية الدول المغيرة » .

والرجوع الى احياء عصر الاسلام الذهبي كانت أثرا لشيوع النهضة في الشرق كله « فلما شاعت النهضة شاع معها الاسف بين المسلمين على ما أصابهم من الضعف والهزيمة بعد القوة والسيادة ثم شاع بينهم اليقين بأن لا موئل لهم ولا أمل في تجديد سلطانهم ومنعتهم الا بالرجوع الى الاسلام في أيامه الأولى أيام الجدّ والغلبة والفطرة السليمة من البدع والمحدثات وعوارض العصور الأخيرة ، وفضول الأعاجم والمقتدين بهم من المستعمرين والعرب المستعجمين »[٢] .

وقد رأى الباحث بحسه الديني الرهيف وشعوره المسلم الأسيان كداعية كبير للاسلام ، وامام من أئمته ما حلّ بالأمة العربية الاسلامية من نكسة مروعة وهزيمة ساحقة ، واحتلال لأراضيها وأسر المسجد الأقصى بكل معطياته الدينية والتاريخية المقدسة ، وذل عفر وجوه العرب والمسلمين في كل مكان فأراد أن يوقظ الأمة من سباتها ويعيد اليها صوابها الذي أطاشته الأحداث ، وتوازنها الذي أفقدته اياها الاهتزازة المروعة لكيانها فتوجه الى هذه الأعمال بواجب الداعية وشعور الامام ،

---

(١) رفاعة الطهطاوي للدكتور / حسين فوزي ص ٢٢ (أعلام العرب) وعزيز اباظة شاعرا للدكتور / سعد ظلام ج ١ ص ١٤ .

(٢) شعراء مصر في الجيل الماضي للعقاد ورفاعة الطهطاوي ص ٢٢ . ومقدمة العامل الديني في الشعر المصري الحديث / للمرحوم علي الجندي وتحت راية القرآن للرافعي ط ٢ الاستقامة ص ٢٩ .

وإحساس المسلم الجريح ليذكر الأمة بالعامل الحضاري ، يذكرها بألق الدين الذي بعدت عنه ، وبهديه الذي ألقت به في خضم الأحداث ، وعلى مفترق الطرق ، يذكرها بإمام المجاهدين والصفوة المختارة من صحابته وتابعيه الذين ركزوا لواء الدعوة في كبد الخانقين لأنهم تعرفوا على دور الدين والعقيدة ، فحرصوا عليه في نفوسهم نقيا متألقا حرص السجين على بقايا الزاد وعرفوا قيمة الجهاد في تثبيت أركان الدولة وسمعتها وبقاء شرفها ، فكانوا رهبان الليل وفرسان النهار.

رأى الباحث هذا كله ، رأى العين ، وأدرك أنه لا أمل في النصر إلا بالرجوع إلى الاسلام في أيّامه الأولى ونقائه الأول أيام الجد والغلبة فتوجه بهذه الأعمال الى ضمير الأمة تذكيرا وتبصيرا وترشيدا وهداية ، «وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» (الأنعام الآية ١٥٣) «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا» (النور الآية ٥٥) «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض» القصص الآيتان ٥ ، ٦)

ولأنه يعرف النموذج وأثره في القدوة والأسوة ذكر هذه النماذج من المدرسة المحمدية العسكرية وسوف يكون لها الأثر في مستقبل الأمة دون شك.

عرض للكتب الستة

الكتاب الأول «الفداء في الاسلام»

الجزء الأول من هذه المجموعة هو «الفداء في الاسلام» وقد ظهرت الطبعة الأولى منه في سلسلة «اقرأ» التي تصدر عن دار المعارف في عدد فبراير سنة ١٩٦٩ العدد رقم ٣١٤ ثم ظهرت الطبعة الثانية بنفس الرقم في سبتمبر سنة ١٩٧١ وهي التي اعتمدت عليها ويقع هذا الجزء فيما يقرب من مائتين وأربعين صحيفة من القطع الصغير.

ويربط المؤلف في فاتحته بين الكتاب وبين الظرف الذي ظهر فيه، فقد ظهر بعد النكسة بفترة ليست بالطويلة واذا كان الكتاب قد صادف أوانه فان المؤلف يرجو أن تتوثق صلته بمكانه وانسانه» واذا كان قدَرُ الله العادل قد ألقى علينا بالأمس درسا صارما من دروس الابتلاء بالنكبات وُعرّضنا لموقف عصيب من مواقف التمحيص بالشدائد، فإن العمل الفدائي المؤمن ظل همزة وصل مباركة بين ماضي الجهاد وآتيه»[1].

وكأنه يريد أن يشعل النفوس باليقين ويحفزها الى الثقة بالله والنفس، ويدفع الهمم الى الفداء يشحن سالب العزائم بتيار وامض موجب من الجهاد يحفز ويثير لدفع الخطر المحدق ويبصر الأمة بطريق الفداء كي لا تهن ولا تحزن ويذكرها بماضيها الزاهي الأغرّ حتى تطرد شبح الخوف وتقدم على التحرير بروح الفداء ونبضه «ولا

(١) مقدمة الطبعة الثانية من الفداء في الاسلام ص ٩.

تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون» (النساء الآية ١٠٤).

وقد أحس بشعور عميق بحاجة الأمة الى الاعتصام بحبل الله والاجتماع على روح الجهاد والالتقاء على بيعة صادقة مع الله حتى يؤيدها وينصرها وما النصر الا من عند الله.

وقد حدد المؤلف معنى الفداء «في اللغة واستعمالات مادته التي تدور حول جعل شيئ مكان شيئ حِمًى له، كأنه يحميه ومنه فكاك الأسير، والفدائيون بهذا المفهوم قوم يسوءهم ما نزل أو ينزل بوطنهم أو قومهم أو دينهم من ضيم أو احتلال أو اساءة فيبيعون أنفسهم لربهم في سبيل أن يغسلوا عار المهانة عن وطنهم وقومهم ومعتقداتهم.

وفي تأصيل لمعنى الفداء **يفرق المؤلف بين الفداء** وبين الفروسية، وبينه وبين الفتوة، وبينه أيضا وبين البذل، فالفروسية مجموعة من الآداب والأخلاق، أما الفدائية فتستلزم تلك المجموعة الأخلاقية، وتزيد عليها أن صاحبها يندفع حاملا روحه على راحته ليرد الذل عن أمته ويبيع نفسه رخيصة في سبيل غايته[1].

والفتوة أمانة ورحمة وعطاء، وتنزه عن الفحش واعتصام بالفضيلة والهدي... والبذل عطاء وصيانة الشيئ، وكأن الباذل يعرض نفسه من أجل ما اعتقد.

وقد يستعمل البذل والتضحية بمعنى الفداء، وكأن الفدائي يعطي روحه لتحقيق غايته وهو حين يضحي بروحه يتشبه بمن يذبح هذه الروح، ويجعلها ضحية وفداء، لأن التضحية مشتقة من الضحية أو الأضحية بمعنى الذبيحة بقصد ديني.

وفي رحابة عقلية يتسع مفهوم الفدائية عنده، فالجندي الذي يقذف بنفسه في أتون الحرب متوقعا الموت أكثر من توقعه للحياة، سواء نال الشهادة أم لم ينلها

---

(١) المصدر — ١٤ — ١٥.

فدائي ، والمنفق ماله في سبيل الحق والخير والنفع العام والدفاع عن الوطن فدائي ، والعالم الذي يندفع الى البحث العلمي معرِّضا نفسه للمخاطر غير مبال بها من أجل نفع البشرية وتقدّمها فدائيّ ، والمجاهر بالحق في وجه الطغيان فدائي ، والطبيب الذي يخالط المرضى لعلاجهم ، ويكافح معهم المرض وأعراضه فدائي .

ويتحدث عن دوافع العمل الفدائي . ويرى أنه يجب أن يكون صادرا عن العقيدة والايمان واليقين الصادق والنزعة الوطنية المخلصة . والغيرة على الحق والحرمات والحريات دون نفع شخصي ، أو متعة ذووية أو ابتغاء ذكرى أو شهرة .

واذا كان القرآن الكريم قد حث على العزة «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» وضمن لأصحابه الأجر والثواب ، فقد حذرنا في الوقت نفسه من أعمال فدائية لا تفيد بل تضرّ لأنها لم تصدر عن ايمان ولم تقصد الى حق «ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملئ الأرض ذهبا ولو افتدى به» (آل عمران الآية ٩١) .

والقرآن حين حذرنا من هذه الألوان الطائشة فرض علينا الجهاد لله «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين» (العنكبوت الآية ٦٩)

ويتحدث عن الفداء في القرآن ، وشرعية الجهاد فيه بصوره المتعددة فريضة واجبة «وجاهدوا في الله حق جهاده» (الحج الآية ٧٨) فالحرص على الموت من أجل الحياة مبدأ مشروع لصيانة الحياة والأحياء . وانطلقت آيات القرآن ترعى المجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله . ونُعدّ لهم المنزلة الحسنة والأجر العظيم الى حدٍّ جعل القرآن يصف المؤمنين بأنهم هم الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وتبشر الشهداء الذين باعوا أنفسهم لله بالجنة يُرزَقُون فيها بغير حساب .

وبقدر ما أكد القرآن على الجهاد والفداء أكد على صدق لقاء العدوّ والثبات عند الزحف ونهي عن الفرار ، وتولية الأدبار ما دام الموت غاية كل حيّ ، وما دام الأجل محدودا لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة (النساء الآية ٧٨) «قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين

كتب عليهم القتل الى مضاجعهم» (آل عمران الآية ١٥٤) «قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل» (الاحزاب الآية ١٦).

وتحدث عن المسيرة الفدائية في القرآن وحدد مراحلها وذكر أنها تبدأ منذ فجر الخليقة وعرض بعض النماذج الفدائية التي ذكرها القرآن، فتعرض لأبي الأنبياء إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في موقفين جليلين، الموقف الأول وهو يتحدى الطغيان العَقَدي في شجاعة وفدائية واصرار، وكيف استخف بهم وبعبادتهم وبما يعبدون. وراح يناقشهم «ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون؟» ولما لمح من اجابتهم التقليد الأعمى الذي ألغى العقول، وما هم وآباءهم بالضلال، ثم فكر وقدر وأقدم على عمل بطولي فحطَّم الأصنام إلاّ كبيرها، فقد علق في رقبته آلة التحطيم، وأزعج القوم ما حدث فأحضروه. «وقالوا حرّ قوة وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين» فواجه في شجاعة أمرهم ولم يعبأ بقرارهم. وكان الله معه، فسلب النار خصائصها من الإحراق، «قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرين. «الأنبياء الآيات ٦٨ — ٧٠) والموقف الثاني أجل وأروع حين أقدم على ذبح ابنه تلبية لنداء السماء، فخاطب ابنه يا بنيّ اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى»؟ وفي إجابة الراضي بقضاء الله يجيبه الابن «يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين».

وهم الأب واستعد الابن للتنفيذ والوفاء، فتجلت رحمة الله أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين، ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم» (الصافات الآيات ١٠٤ — ١٠٧).

وذكر قصّة السحرة مع فرعون وكيف أقدموا على عملهم الفدائي بتحديهم للطغيان في قصره لما رأوا آية الله. وآمنوا برب العالمين رب موسى وهارون، وأصروا على المبدأ وتبتوا عليه برغم التحديات العافية وتهديد فرعون لهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف وتصليبهم في جذوع النخل، فقابلوا التحدي بتحدٍّ أعظم منه وقالوا «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنّا بربِّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر

والله خير وأبقى » (طه الآيات ٧١ — ٧٣). وواجهوا الموقف بشجاعة وإصرار وتضرع وإنابة الى الله « قالوا إنا إلى ربنا منقلبون وما تنقم منا إلا أن آمنّا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرِغ علينا صبرا وتوفَّنا مسلمين » (الأعراف الآيتان ١٧٥ — ١٧٦) « إنا نطمع أن يغفرَ لنا ربّنا خطايانا أن كنا أولَ المؤمنين » ويذكر المؤلف أن القرآن أعطانا نماذج باهرة كثيرة للفداء منها قصة المؤمنين مع أصحاب الأخدود وقصة أبي بكر مع الرسول في الغار ، ومؤمن آل فرعون الذي جاهر بالحق حين همّ فرعون بقتل المؤمنين واستحياء نسائهم فقال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله » (غافر الآية ٢٨) !!!..

وقصة حبيب النجار حين جاء أنطاكية المرسلون الثلاثة فأساء أهلُ القرية استقبالهم وكذبوهم وهددوهم. ولما هموا بوسائل الاقتدار المادي انطلق حبيب يقف من هؤلاء المكذبين موقف المعارض الذي لا يهاب ولا يخاف ولا يبالي سطوة الطغيان وجبروته هاتفا في الملأ :

« يا قوم اتبعوا المرسلين. اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ومالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون. أأتخذ من دونه آلهة إن يردْني الرّحمنُ بضرّ لا تغنِ عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون اني اذا لفي ضلال مبين اني آمنت بكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » (يس الآيات ٢٠ — ٢٧).

كما تعرض الباحث أيضا لموقف الصحابة في بيعة الرضوان في الحديبية في موقف باهر لا ينساه التاريخ « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » الفتح الآية ١٨).

وتعرض أيضا للمسيرة الفدائية في تاريخ الاسلام والمسلمين وذكر أنها تبدأ قبل فجر البعثة فذكر قصة الذبيح عبد الله والد الرسول وذكر أن القرآن أعطانا نماذج عظيمة للذين سبقوا بمواقفهم البطولية الصادقة ، حين تعرضوا لضغوط اجتماعية وعقدية في مكة قبيل الهجرة وفي موقف علي وهو يفدي الرسول فينام مكانه ليلة

الهجرة معرضا نفسه للموت المحقق وفي موقف أبي بكر الصديق وهو يعرض نفسه للمخاطر فيسير أمام الرسول وحوله وخلفه ليلقى ما عساه أن يكون ، وفي موقف العصبة الفادية في بدر ، في قوله الكريم « ان الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم « لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » (الفتح الآيتان ١٠ — ١٨) وموقف أسماء بنت أبي بكر في الهجرة وفي تقديمها ابنها عبد الله للموت ، وذكر أن الفدائية تتمثل أصدق تمثيل في طائفة الخوارج رجالا ونساء وفي تاريخهم ومواقفهم ومواقعهم — وفي قصة استشهاد الامام الحسين رضي الله عنه وفي حملات القفز التي أعدها سيف الدولة الحمداني لتغير على الروم ، وفي جيش المطوّعة على عهد صلاح الدين [١] .

وحدد ملامح الفدائية [٢] وذكر ملامح العمل الفدائي ومقوماته التي لا بدّ منها ، مثل إباء الضيم ورفض الهزيمة ، والثقة بتقدير الأجل ، والحرص على الموت ، والاعتقاد بأن الشهادة باب الحياة الكريمة في الدنيا والآخرة ، والقدوة المثالية للتضحية والحاجة الى جميل الصبر فالشجاعة صبر ساعة ، كما يحتاج العمل الفدائي أيضا الى الصيانة والكتمان وانكار الذات واحياء الجندية المجهولة ، والعمل في صمت والمخاطرة السريعة ، والمخادعة ، وحماية ظهور الفدائيين وإمدادهم بما يلزمهم ورعاية أهليهم بخير ، فمن خلف غازيا في سبيل فقد غزا ومن جهز غازيا فقد غزا » .

وتحدث عن الرسول الكريم المعلم الأكبر لدروس الفداء ، وكيف أعطى بنفسه الأسوة الحسنة للجنود ، فكان يتقدم الصفوف ، ويتعرض لمواطن الخطر ، وكان أول من يضرب ، ويذكر ثباته في حنين ، واتقاء أصحابه به اذا اشتد وطيس

---

(١) المصدر من ص ٢٨ — ٢٩

(٢) المصدر من ص ٥٠ — ٦٠

الحرب، الى غير ذلك من الدروس العملية المستفادة من الرسول عليه الصلاة والسلام[1].

ثم استعرض المؤلف الحياة البطولية والنضالية والمواقف التي يؤنَس بها ويقتدى في حياة اثنين وعشرين نموذجا للفدائية الاسلامية، منهم عشرة شهداء كأبي جندل وأبي سلمه وسعد بن معاذ، وعبد الله بن رواحة، وثابت بن قيس وطلحة بن عبيد الله وأبي أيوب الأنصاري في صدر الاسلام وفؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزبير شهداء فلسطين سنة ١٩٣٠.

ومنهم المجاهد بقلم من أولي الرأي كبشير بن سعد الأنصاري وعبد الله أنيس وسالم مولي حذيقة وعز الدين القسام.

ويذكر أمرأة مجاهدة واحدة هي نسيبة بنت كعب.

ويستعرض نماذج سبعة للأبطال الفرسان، منهم أبو بصير قائد أول فرقة فدائية، وعبدالله بن جحش قائد أول سرية فدائية، وأمير السرايا زيد بن حارثة، والفدائي بطبعة محمد بن سلمة الأنصاري، والأسد الفارسي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم أجمعين.

هذا... والكتاب بطبعتيه كان وقورا يشعل النفوس، وزادا روحيا للمعركة، واتجاها لنبذ الضعف والثورة على الهزيمة.

---

(١) المصدر ص ٦١ — ٦٨

.

الكتاب الثاني : فدائيون في تاريخ الاسلام

هذا هو الكتاب الثاني من هذه المجموعة ، وقد صدر سنة ١٩٧٠ عن دار الرائد العربي ببيروت، وهو الكتاب الوحيد منها الذي صدر عن خارج مصر. وهو أكبرها حجماً ، إذ يقع فيما يقرب من ثلاثمائة وسبعين صحيفة من القطع الكبير، وضم بين دفتيه اثنين وخمسين— نموذجاً فدائياً.

ونلاحظ أن المؤلف في هذا الكتاب وفي غيره يعيش عصره ، وتشتعل أحناؤه بما يدور في وطنه ، وما يثقل كاهل أمنه ، ويضغط عليها من كوارث ونكبات ، فهو يستوحي روح الفداء ، وسيطرتها على هذه الفيالق وتلك النماذج ليمد بجذوتها شعلة الحياة لمصر وللأمة ، لتنهض من كبوتها وتقف ، وتناضل ، وتتطلع الى غد معطاء مضوع بأريج الحياة وعبير الحرية ، ويحس أن بعد الأمة والشعب والأجهزة المسئولة والسلطة عن الايمان بالله يبعدها عن الله وعن الجهاد وعن النصر. وبقدر بعدها يكون البعد عن مدد الله وعونه ، وبقدر قربها من الله يكون قربه منها وقربها من النصر ، «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» (آل عمران الآية ١٧٦) «أن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» (محمد ، الآية ٧) وعودها الله يلزمه عوده اليها «وإن تعودوا تعد» (الأنفال الآية ١٩) «وإن عدتم عدنا» (الإسراء الآية ٨) ويلزمها أن تغير من سلوكها المعوجّ «إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (الرعد الآية ١١).

«وأسمى ألوان الفداء ما كان ناهضاً على أساس الإيمان» «وأجدى الأمم بوعي دروس الفداء هي الأمة المؤمنة التي ورثت دعوة السماء وحملها ربها أمانة الجهاد».

ويربط المؤلف بين هذا الكتاب وسابقه في الفكرة «ولقد جرى هذا القلم منذ حين بحديث ذي شجون عن الفداء في الاسلام» وكان لهذا الحديث وقعه ونفعه

واليوم يعود ، هذا القلم ليزكي نفسه وصاحبه بحديث ذي شجون يعرض طائفة ماجدة من الفدائيين في تاريخ الاسلام »[1] وشعوره الأسيان لما حدث للأمة فسيطر عليه وهو يكتب ، واع لما حدث ، مذكر بما قد كان « إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين » (الأنبياء الآية ١٠٦).

ويلزمنا أن نتذكر على الدوام أن الابتلاء جزء من ضريبة التحرر والانتصار ، فلولا حسن الاحتمال من الرجال للشدائد والأهوال ما حرروا داراً ، ولا غسلوا عاراً ، ولا أخذوا — ثاراً . ولقد ظل أبناء الاسلام في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم سنوات طويلة ثقيلة ، — يذوقون فيها ألوان التعذيب الأليم. فما ضعفوا وما استكانوا ، بل رددوا دعاء المؤمنين الموقنين : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين [2].

وألح المؤلف الى أن سير هؤلاء الأبطال الذين ركز الحديث عنهم في هذا الكتاب يمكن أن تتناول في إسهاب ، لأنه أعطى عنها الملامح الأساسية لها ، ونوه بها لتكون مدداً وعوناً للباحثين[3] فسيرة كل بطل من أبطال الفداء في الاسلام الذين نقدمهم اليوم جديرة بأن تكون موضوع بحث منفرد في كتاب مستقل ، بل وفي كتب مفصلة ، ولكنها البلاغة في الايجاز ، حيث جهد المؤلف في جمعها كلها في هذا الكتاب [4] .

ويتحدث المؤلف في هذا الكتاب عن **شروط الجهاد الصادق** ، **وصفات المؤمن المجاهد والأمة المجاهدة**.

---

(١) تصدير الكتاب ص ٧

(٢) المصدر ص ٣٤٧

(٣) المصدر ص ٨.

(٤) غلاف الكتاب الخارجي

فالجهاد عنده لا يسمو ولا يعلو إلا إذا تنزه عن الغرض والعرض والمرض فكان خالصاً لوجه الله عز وجل ، ولذلك قال سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلم «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (البخاري).

وحينما يبلغ المجاهد هذه المرتبة النبيلة ينسى نفسه وحسه ، وينسى هواه ودنياه ، ولا يفكر إلا في عقيدته ، يريد دائماً أن يؤيدها ويوطدها ، ولا يقصد غير محبة الله تعالى يحرص دائماً على أن يرسخها ويؤكدها ، وبذلك يفوز المجاهد فوزاً عظيماً»[1] .

وما أروع المؤمن الفدائي حين يحسن الجمع بين الجهاد الصادق في سبيل الله وبين العبادة الخالصة لوجه الله ، والكسب الطيب الذي لا يخالطه ما يغضب الله»[2] .

ذلك إن الفداء هو قمة الجهاد ، والجهاد طريق النصر ، وقد صرح القرآن الكريم بذلك حين أخبرنا أن التباطؤ عن الجهاد حين لزومه يكون سبباً لعذاب الله تعالى وعقابه ونعمته ، مع ما يؤدي اليه من صفاء وهوان. فهو يقول في تعريض موجع. وتبكيت مؤلم : «يا أيها الذين ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ، ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير» (التوبة الآيتان ٢٨ و٢٩).

والقرآن يدعو عقب ذلك الى التغير العام والجهاد الشامل حتى يتحقق النصر فيقول : «انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» (التوبة الآية ٤١).

ولقد أدرك أبناء الايمان في صدر الإسلام هذا المعنى خير إدراك ، فاتخذوا

---

(١) المصدر ص ١٩

(٢) المصدر ص ٢٥

الجهاد حتى النصر طريقاً إلى العزة والكرامة ، فناضلوا هم وأبناؤهم ، وكل قادر فيهم ، طالبين — إحدى الحسنين إما أن يعيشوا أعزة أحراراً ، وإما أن يموتوا ، وينالوا الشهادة كراماً أطهاراً وما عند الله خير للأبرار »[1] .

وليست العبرة في الفداء بالكم العددي الهش ، ولكن بالكيف المستثمر ، والنوعية المنظمة « قد يحسب بعض الناس أن القلة تكون سبب الضعف والهوان أمام الكثرة ، وهذا حسبان — خاطىء يعتمد على ميزان غير رشيد ، لأنه يتأثر بالكم لا بالكيف ، وبالعدد لا بالنوع ، وبالمقدار لا بالجنس ، مع أن الله جل جلاله يقول « قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث » (المائدة الآية ١٠٠) .

ولقد انتصر أصحاب محمد وهم فئات معدودة على الألوف المؤلفة من لئام البشر ، لأن — أتباعه كانوا الطاهرين الذاكرين الشاكرين الصابرين الناصرين لعهد الله وميثاقه ، فأيدهم ربهم ومجّدهم « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[2] .

وبهذا الإيمان العميق المتغلغل في طوايا النفوس اوالأرواح ، المتمكن في حنايا القلوب والعقول تزلزلت أعمدة الكفر أمام كتاب الإيمان[3] وإذا توافر للانسان إيمان عميق وطيد بدعوة الحق وملة الصدق وعبادة مخلصة لرب السماوات والأرض ، وسعي في الحياة مشكور حميد ، وشجاعة مقدمة في مواطن الرجولة والبطولة . وثبات على المبدأ والعقيدة حتى الموت فقد ازدان بعناصر للشخصية المؤمنة تجعله أهلاً لبقاء الذكر وعظم الأجر ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً[4] .

---

(١) المصدر ص ٣٨ .

(٢) المصدر ص ٦٣

(٣) المصدر ص ٨٩

(٤) المصدر ص ٩٠

ولقد ربت لنا المدرسة المحمدية طلائع المجاهدين الفدائيين وينبغي لنا أن نتذكر أن الطلائع الفدائية التي تسبق الى تمهيد الطريق في الجهاد، وتبادر الى التعرض لمواطن الاستشهاد، يكون لها من الفضل ما لسواها، ويكون لجهودها تقدير خاص[1].

ولقد خلف سيد الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم رجالاً من بعده امتدت أياديهم الطاهرة في مناصرة الحق، ومقاومة الباطل، فلم يقبلوا الدنية في دينهم، ولم يسكتوا على ظلم، ولم يناموا على ضيم، بل غسلوا بزكيّ دمائهم آثار أعدائهم[2].

ومن شأن المؤمن أن يكون ابن وقته كما يقول الأثر الإسلامي الحكيم، وأن ينهض بكل ما يستطيعه من تبعة واجبة، ولا يدّخر وُسْعاً في الإسلام بأي جهد مهما كان قليلاً لبناء مجتمعه، وتحصين وطنه وصيانة دينه، فهو يصلح بقوله وعمله، ويشارك بماله واستقامة حاله، وهو يرعى عقيدته وجماعته باليقظة والحذر، والتدبر والنظر، والتأهب للخطر وتوقي الشرر والضرر، وبتلافي الجهود الفردية من كل نفس مؤمنة يعلو البنيان ويتوطد الكيان[3].

والمؤلف يرى أن الفداء والجهاد يحتاجان إلى إعداد الفرد دينياً وخلقياً حتى ينطلق إلى المعركة مسلحاً بأقوى الأسلحة ليدفع للجنة مهرها «ولا جدال في أن الاستشهاد قمة الجهاد وأن الشهادة هي زينة العبادة لأنها تضحية بالروح، والجود بالنفس أقصى غاية الجود كما قال القدماء وبلوغ هذه المرتبة يحتاج الى تربية دينية وخلقية واسعة المدى حتى يقوم المرء على بصيرة، ويضحي بنفسه في يقين».

«ولقد كان أتباع محمد صلى الله عليه وسلم في صدر الإسلام يتخرجون في مدرسته ويتدربون على منهجه وخطته، ويستقيمون في أقوالهم وأعمالهم، وعبادتهم على طريقته ثم يخلصون البذل والفداء لوجه الله تعالى ودعوته»[4].

---

(١) المصدر ص ٧٠

(٢) المصدر ص ٩٠

(٣) المصدر ص ٧٧

(٤) المصدر ص ٩٨

ويصل إلى كبد الحقيقة حينما يصور أن الناس في عصور الضعف والانحراف» لا يلتزمون الصراط ، بل نراهم يخلطون حقاً بباطل ويؤدون لله واجباً ويهملون واجبات»[١] .

وليس ذلك شأن المؤمن المجاهد ، فالمؤمن المجاهد من صفت نفسه وطهرت بذكر الله ، وعرف حقه وأدى واجبه تجاه الله والوطن «وضع نفسه وحسه تحت الطلب» لخدمة عقيدته ومبدئه ، فهو مستعد دائماً لحمل التبعات ومواجهة الأزمات «والمسلم كلما سمع هيعة ، طار إليها.

«والانسان حينما يوثق صلته بربه ويتمسك بكريم أسبابه ، ويعتصم بحبله وبابه ويبذل غاية جهده في نضاله يفجر الله به ينابيع الرضى والتوفيق ويهديه بفضله الى أقوم طريق»[٢] .

«وحينما تتعرض الأمة لمعركة مصيرية فاصلة ، وتصل مرحلة التعبئة الشاملة والزحف العام يصبح كل فرد في هذه الأمة مطالباً بأن يقوم بعمل من الأعمال التي تسهم في المعركة وتعاون على كسبها»[٣] .

ولأن الجهاد فريضة إسلامية على كل قادر كان واجباً على الرجال والنساء عند الزحف العام والاستنفار «ولكن هذا لا يعني أن الدين يمنع أحداً عن الجهاد بأي طريق أو أسلوب ما دام قادراً على خدمة **المعركة بأي وسيلة** ، **سواء كانت كلمة حافزة** ، **أم رأياً سديداً** ، أم معاونة أم حراسة ومراقبة ، أم امداداً بطعام أو شراب أو ذخيرة ، أم دفاعاً بأي مقدار من الدفاع»[٤] «وما كان للهوان والذل أن يجتمعا مع الإيمان أبداً»[٥] .

---

(١) المصدر ص ١٠٥

(٢) المصدر ص ١٤٩

(٣) المصدر ص ١١٦

(٤) المصدر ص ١٢٣

(٥) المصدر ص ١٤٦

ومعنى هذا أن المؤلف وهو يكتب ويخطب ويهدي ويرشد ويرود مجاهد بقلم ، وهو جهاد لا يقل عن الجهاد بالسيف ذلك أن «معنى الجهاد في منطق الاسلام يتسع وينفسح حتى يشمل الجهاد بالقلب عن طريق النية المخلصة في بذل ما يستطاع لوجه الله عز وجل والجهاد باللسان عن طريق الكلمة الصادقة بالحق ، الداعية الى الثبات والصبر ، والجهاد بالمال عن طريق البذل والإنفاق — والجهاد بالنفس عن طريق الإقدام إلى ساحة النضال»[1] .

وهو لا يقف عند حد جعل الجهاد باللسان والقلم عن طريق التبصير والترشيد باباً من أبواب الجهاد ، بل يضعه في مرتبة أسبق على الجهاد بالسيف ، لأن الظروف التي أحاطت بنكسة سنة ١٩٦٧ كانت من أهم أسبابها عدم إعطاء الشعب نصيباً وافراً من حرية التعبير عن إرادته ورغباته وأحلامه وأمانيه وكان القائم على الأمر محروماً هو الآخر من الكلمة الفاهمة الناصحة التي تبين له وجه الصواب وتهديه وترشده ، وكانت إرادة الشعب حبيسة والإرادة مغلولة والحرية مقيدة ، والكلمة الواعية الرشيدة مكمة والقلم والفم الحر مبعدين عن مجال التوعية والترشيد والتبصير ، وأصبح الشعب فاقد الوعي بالمسئولية . لأنه فاقد الوعي بالحرية . وكان التسلط والفراغ وعدم الثقة بين الشعب والسلطة أسباباً كافية لما حدث .

من هنا يؤكد الباحث على هذه النقطة ، ليدفع القلوب والألسنة والأقلام لتعاود النطق وتسترد مكانتها السامية المقدسة في الإرشاد والتوجيه واليقظة ليكون الوعي والثقة ، وتنطلق الأفكار والآراء من عقالها تدعم الحياة ، فتنبض الحياة بالصدق والحرية اللذين لا بد منهما للشعب الذي يواجه خطر الاحتلال .

«والجهاد يبدأ بالنية الطيبة ، ويمتد الى موقف التضحية بالنفس في الميدان . فمن المستطاع لكل منا قوياً كان أو ضعيفاً ، رجلاً كان أو امرأة ، شاباً كان أم كهلاً ، أن يسهم بلون من ألوان الجهاد فهناك جهاد القلب ، وهناك جهاد اللسان ، وهناك

---

(١) المصدر ص ١٥.

جهاد المال وهناك جهاد التعليم والتقويم ، وهناك جهاد الميدان ، والله ولي المؤمنين العاملين»[1] .

صفات المؤمن المجاهد

ويضع الباحث للمجاهد المؤمن مجموعة من الصفات لا بد أن تتوافر فيه ، وتجعله أهلاً للنهوض بالتبعات ، متمكناً من أداء الواجبات . جديراً بحماية الحرمات ، وصيانة المقدسات.

ومن هذه الصفات أن يكون قوياً في بدنه وعقله «قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطةً في العلم والجسم «البقرة الآية ٢٤٧» وإذا كان المجاهد محتاجاً الى قوة الحس وقوة النفس فلا شك أن قوة الروح أقوى وأبقى وأزكى وأعلى من قوة البدن أو قوة المادة[2] ، وأن يكون عميق الايمان سريع الاستجابة للحق ، ولذلك يقول الله تعالى لعباده : «يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم (الأنفال الآية ٢٤) وأن يكون سمح النفس مبسوط اليد بالكرم والجود والإنفاق في كل مكرمة . ولذلك يقول القرآن الكريم «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» (آل عمران ٩٢) وأن يكون شجاعاً مقداماً يتخذ الجهاد سبيلاً أمامه إحدى الحسنيين»[3] وأن يعرف طريق بيع النفس لخالقها وبارئها في مقابل أن تكون له الجنة ، فيقدم المؤمن حياته لربه رخيصة كريمة[4] وأن يعشق الموت في سبيل الله»[5] وأن يقوم بما وكل إليه على وجه حَسَن وإن كان صغيراً»[6] والبيئة والقدوة

---

(١) المصدر ص ١٦٣ .

(٢) المصدر ص ٢٩٩ .

(٣) المصدر ص ١٦٤

(٤) المصدر ص ٢٣٢

(٥) المصدر ص ٢٣٣

(٦) المصدر ص ٢٤٣

الحسنة لها أثرها البالغ في نفس المجاهد، مثلما نلحظه في موقف (ذات النطاقين) أسماء بنت أبي بكر مع ابنها عبد الله بن الزبير. فقد ورثت أسماء عن أبيها الصرامة في الحق، فهو الذي واجه مَانِعِي الزكاة مواجهة حازمة صارمة «والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه» وهو الذي واجه المرتدين مواجهة حاسمة صادقة، وورثت أروع معاني الفدائية مع رسول الله في الهجرة وغيرها، كما ورثت عنه الحصافة والعقل والتصرف الشجاع، لما رأته منه في سقيفة بني ساعدة.

كل ذلك رأته من أبيها وورثته عنه، وكان له أثره في نفسها دون شك. فكانت في الهجرة على مستوى العمل الفدائي الناجح. كما عوّدت ابنها عبد الله أن يعيش كريماً وأن يموت فداء الحق، وها هو يستشيرها في أمره وقد تربّص الأعداء به، واشتد الموقف وقال: يا أماه: خَذَلَني الناس، ولم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة. والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فقالت له: إن كنت تعلم أنك على حقٍّ وإليه تدعو. فامض إليه، فقد قتل عليه أصحابك، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت. أهلكت نفسك وأهلكت من قُتِلَ معك. وإن قلت: كنتُ على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار. ولا أهل الدين، وكم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن». وكان ما كان من أمره فَقُتِل وصُلبَ على مقربة منها، فما جَزِعَتْ ولا ضَعُفَتْ بل كانت تمر عليه، وهو مصلوب فتقول في شمم وألم: أما آن لهذا الفارس أن يترجَّل؟

هكذا يكون أثر البيئة والقدوة الحسنة، والتوجيه الرشيد في تربية النماذج الفدائية الحقة [1] «وأعلى وجوه الفداء قدراً، وأكثرها خيراً وأثراً هو أن يكون قائد المجاهدين أحرصهم على روح البذل والفداء، حتى يعطي القدوة من نفسه، فإذا الدين من ورائه يسارعون الى مواطن التضحية بلا تردد ولا إبطاء» [2].

---

(١) مراجع ص ١٦٩ وما بعدها

(٢) المصدر ص ١٧٩

وهكذا يكون السير[١] عماده ايمان يقترن بعرفان، وجهاد قمته الاستشهاد، ووفاء يقترن بفداء وإيثار لما عند الله على ما في الحياة» ما عندكم ينفذ وما عند الله باق، ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون».

«وإلّا إن لله عباداً إذا أرادوا أراد، وإنما يريد الله ما يريدون، لأنهم أسلموا أنفسهم لله، وأخلصوا دينهم لله، ونذروا حياتهم في سبيل الله، وعملوا كل ما أوجب الله، وانتهوا عن محارم الله، فوافقت إرادتهم إرادة الله، لأن مشيئتهم خضعت لمشيئة الله، ولأن إرادتهم زلت لإرادة الله، فأصبحوا إذا أرادوا فقد أراد الله»[٢].

بهذا الإيمان العميق المتغلغل في طوايا النفوس والأرواح، المتمكن من خفايا القلوب والعقول، تزلزلت أعمدة الكفران أمام كتائب الإيمان. وبهذه النزعة الفدائية المسيطرة على منابت الحواس، المصرفة للجوارح والأنفاس، تمكن أهل اليقين من صيانة عقائدهم وأوطانهم، وما النصر إلا من عند الله العزيز[٣] الحكيم.

صفات الأمة المجاهدة:

الأمم الأفراد إذا ما وهت عزيمة الفرد خارت قواه، واستولى عليه الضعف الذي يسلمه إلى اليأس، فلا يثبت في معركة ولا يصمد في موقعة، ولا ينال النصر ولا يتشبث به.

إنما المناضل بحق ذلك الذي لا يستسلم للهزيمة، بل ينفضها عنه نفض كابوس مخيف، ويقوم على المعركة بنفس راضية مشرقة، وروح مبتسمة.

---

(١) المصدر ص ٢٨٧

(٢) المصدر ص ٦٩

(٣) المصدر ص ٨٩

«ولقد أصبح من الحقائق المسلمة أن المقاتل الذي يخرج إلى الميدان دون يقين أو إيمان لا يصلح للإقدام أو الثبات ، بل هو عرضة دائماً للاستجابة إلى دواعي الانهزام أو الاستسلام أو الفرار»[١] .

ويقارن الباحث الفاضل في لمحة زكية بين ما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من استدعاء المقاتلين إلى الميدان وتسابقهم إلى الجهاد ، وحرصهم على حضوره ، لدرجة أن الرسول كان يعمد في بعض الأحيان إلى ردّ فريق ممن يحرصون على مواطن الاستشهاد. يقارن بين هذا وبين ما عليه الحال الآن. والمقارنة باطلة.

فالروح القوية والإيمان ، وسرعة الاستجابة من لوازم الأمة المجاهدة. «وروح الفداء هي الصفة الأساسية اللازمة للأمة المجاهدة ، حينما تبتليها الأقدار بغدر المعتدين ، وتطالبها بأن تنفض عن كيانها ودينها غبار الذلّ وهوان الاستسلام»[٢] .

ومن صفات الأمة المجاهدة أن يكون عند كل فرد في الأمة إحساس بروح الجهاد وإسهام فيه بطريق مباشر أو غير مباشر. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق»[٣] .

ومن صفاتها أيضاً : «أن يكون جهاد الأمة قائماً على الإيمان العميق بأن كلمة الله — وهي كلمة الحق والعزة والقوة والعدل — فوق كل شيء»[٤] وأن تعلم بنيها أن حب الوطن من الإيمان ، وأن الاخراج من الوطن جريمة كبرى لا يسكت عليها غيور ، ولا يرضى به كريم»[٥] يقول الله تعالى : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب

---

(١) المصدر ص ٩
(٢) المصدر ص ٦
(٣) المصدر ص ١٨٩
(٤) المصدر ص ١٨٩
(٥) المصدر ص ٢٧٥

المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون» (الممتحنة — الآيتان ٨ و٩).

«وأبناء الوطن الأبرار الأخيار لا ينقطعون عن خدمته أبداً، فإن كان وطنهم في عهد سلام وأمان دأبوا على توطيده وتأييده، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.. وإن صار هذا الوطن إلى حالة حرب أو خطر بأن احتُلّت أرضه أو ديست حرماتُه، أو أُهينت مقدساتُه، انقلب هؤلاء الأبناء إلى أسود ضراغم، ونسور كواسر، لا ينامون على ضيم، ولا يرضون بذُلّ، يسارعون إلى الدفاع عن الحمى. وكل منهم يؤدي ما يستطيع، فمن كان صالحاً لحومة الوغى بادر إليها. ولم يتقاعس عنها، ومن صلح للإعداد والإمداد لم يقصر في ذلك ومن صلح للإنتاج من أجل المعركة في زراعة أو صناعة أو تجارة أو تدريب لم ينم ولم يفرط.

وهكذا نجد الأمة فريقين — أما الفريق الأول منهما فهم خلاصة أبنائها الذين يسارعون إلى ميدان العزة والشرف، يحملون السلاح بيد، والروح باليد الأخرى، ويواجهون الأعداء لردعهم وصدعهم.

والفريق الآخر هم بقية الشعب أو الأمة. الذين يتحتم عليهم أن يكونوا على مستوى التبعة والواجب في اجتماعهم وانفرادهم، فيصبحوا درعاً لهؤلاء المقاتلين، حتى يتهيأ خلف الميدان كل ما تحتاج إليه المعركة من أسباب النصر والنجاح»[1].

فالجهاد كما يرى الباحث — لا يرتبط بالحرب بل يكون قبلها بالاستعداد لها، ويبقى بعدها لإزالة آثارها. والأمة المجاهدة لا بد أن تكون يقظة واعية: «ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة» (النساء — ١٠٢) وفي هذه الكلمات الإلهية الربانية الوجيزة المعجزة أعطى الله سبحانه المؤمنين

(١) المصدر ص ٢٧٦

أبلغ درس في اليقظة والحذر والانتباه ، حتى لا يؤخذوا على غرة ، أو على مفاجأة . والحرب خدعة كما يقول سيد الأنام محمد صلى الله عليه وسلم .. وليت الأمة المؤمنة المجاهدة تتخذ لها شعاراً خالداً من هذه الكلمات الإلهية الجليلة ، حتى يكونوا دائماً وأبداً على أهبة الإعداد والاستعداد . وعلى يقظة كاملة تامة شاملة ، لأن ربهم جل جلاله يؤكد عليهم أمره بالانتباه . والسهر للعدو . فيقول : يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم[1] (النساء — ٧١) .

والأمة المجاهدة أيضاً يلزمها الصدق في القول والعمل ، والثبات في النضال ، وألا يكون قولها مخالفاً لعملها : يا أيها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (الصف ٢ —٣) وأن تلتزم بالمصحف إقبالاً وقراءة وحكماً فأسلافنا الكرام الذين ارتفعت هاماتهم في ميادين القتال يطلبون النصر ، ممزوجاً بالعزة ، أو الشهادة مقرونة بنعيم الله الدائم ، وبهذا أعطوا الدليل على صدق القائلين في وصفهم ، إنهم رهبان الليل وفرسان النهار .

وإنما يصلح أمر هذه الأمة في حاضرها بما يصلح في أولها ، سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً[2] .

ويلزم الأمة المجاهدة أيضاً أن تتذكر على الدوام أن الابتلاء جزء من ضريبة التحرر والانتصار فلولا حسن الاحتمال من الرجال للشدائد والأهوال ما حرروا داراً ، ولا غسلوا عاراً ولا أخذوا ثاراً »[3] .

هكذا أوضح لنا الجهاد الصادق وأعطانا شروطه وأعطانا أيضاً صفات المؤمن المجاهد وصفات الأمة المجاهدة . بهذا التفصيل الدقيق والتوضيح البليغ . والبيان الباهر ، كل هذا وهو يحدثنا عن النماذج الفدائية ، ويروي قصص حياتها ، ويسرد وقائعها . ويبين مواطن العبرة فيها .

---

(١) المصدر ص ٣٤
(٢) المصدر ص ٣٣٢
(٣) المصدر ص ٣٤٧

وهذا ذكاء وإلماح وفطنة ما بعدها فطنة ، فما ندري أساق هذا القصص من أجل أن يعطينا هذه المفاهيم ، أم قصد إلى هذه المفاهيم مغلفة في ثوب قصص لتكون أوقع وأعمق ، أم حاول أن يتحدث عنها حديثاً غائماً لا يؤخذ عليه ، ولا يؤاخذ به ، أم تراه قصد الى ذلك جميعاً ؟

وقد سبق أن قلنا أن هذا الكتاب أكبر هذه المجموعة حجماً ، وأنه يضم في أحنائه سير اثنين وخمسين من الطلائع الفدائية .

ونلاحظ أنه في هذا الكتاب ترجم لخمسة وعشرين شهيداً ، كما نلاحظ أيضاً أنه أكثر فيه من الترجمة للمجاهدين بالقلم أو المجاهدين باللسان ، فقد بلغوا فيه اثني عشر مجاهداً ، منهم الشعراء مثل كعب بن مالك — وخوّات بن جبير ، والقراء كسعيد بن عبيد الأنصاري ، والمنذر بن عمرو الساعدي والزهاد كإبراهيم بن أدهم وعبد الله بن المبارك ، وأويس القرني ، وعقبة بن سعيد .

ومن هؤلاء الاثنين والخمسين الصبي كرافع بن خديج ، والأعرج كعبد الرحمن ابن عوف وعمرو بن الجموح ، والنساء كأسماء بنت أبي بكر وأسماء بنت عميس ، والمصلوب كخبيب بن عدي والمعذب كخباب بن الأرت ، والصابر على الأذى كعثمان بن مظعون ، والشهيد المدفون بأغلاله والشهيد المدفون بلا صلاة ، ومنهم المهاجرون كالشهيد سلمة بن هشام المخزومي وصاحب الهجرات الثلاث أبو موسى الأشعري والشهيد عروة بن مسعود الثقفي ، ومنهم المجاهد طوال حياته كأبي طلحة الأنصاري ، والمجاهد المعنق ليموت كالمنذر بن عمرو الساعدي ، والمناضل الدائم الجهاد كالبراء بن عازب ، وعاشق الموت في سبيل الله كالبراء بن مالك الأنصاري ، ومنهم المكفوف كعمرو بن أم مكتوم ومنهم اليتيم كسمرة بن جندب ، ومنهم الأخوة كعوف ومعاذ ومعوذ بن عفراء .

نماذج فدائية من كل قطاعات الشعب ، أدت واجبها نحو الله وكلمته ورفعت راية الله في الخافقين ، من بينها الأعرج والصبي والمكفوف والمرأة ومن عذب وصلب ، ومن عشق الموت ومن دفين بأغلاله ، ومن دفن بلا صلاة ، ومنهم

المجاهدون باللسان قُرَّاء وشعراء ، وزهاداً وأئمة وفقهاء وكتاباً ، لم يتردد أي منهم عن تلبية داعي الله ، فانطلقوا يفدون الاسلام بكل مرتخص وغال . وكانوا قدوة لنا وأسوة .

* * *

الكتاب الثالث : أبطال عقيدة وجهاد

هذا هو الكتاب الثالث من هذه المجموعة. وقد قام بطبعه مجمع البحوث الاسلامية في «سلسلة البحوث الاسلامية» في (شوال سنة ١٣٩٢ هـ — نوفمبر سنة ١٩٧٢ م).

وهو الكتاب القريب العهد بمعركة رمضان سنة ١٣٩٣ هـ — أكتوبر سنة ١٩٧٣ م. فقد صدر قبلها بعام تقريبا، وعنوانه «أبطال عقيدة وجهلا»، عنوان حماسيّ مثير، يدفع المجاهدين عن الحق إلى خوض غمار المعارك، وينقلهم الى جوّها.

وأول ما نلاحظه على هذا الكتاب مقدمته العجلة كأن الكاتب يدع فيها الكتاب ليقدم نفسه بنفسه. بصوت العقيدة، وصوت الجهاد، ويبرر وجوده بقوله «ولا شك أننا أمة أراد لها قدر الاختبار والابتلاء أن يصيبها طعنات، خلفت من ورائها جراحات، ولن تلتئم هذه الجراح. ويستعيد جسم الأمة حصانته ومناعته، إلا إذا تغذى هذا الجزء بزاد أصيل نبيل من قيم الخير، وأمثلة البطولة ونماذج الجهاد ومواقف الفداء[1] **ونلاحظ على هذه المجموعة كلها عموما** وعلى هذا الكتاب خصوصا أن المؤلف يشعر بمرارة الهزيمة ويتألم له. ويود أن تنتقل الأمة كلها إلى جوّ المعركة وألا يرفع شعار غير شعارها» واذا كانت هناك شعارات ترفع وتردد، وللشعارات مالها فإن الكاتب الكريم بروح العالم ومسئوليته في التوصية والتوعية كداعية وموجه ومرشد قرر أن يلتزم بشعار الجهاد، وأن يرفع رايته، فظل بعد النكسة الأليمة يحدث الجموع التي يؤمها في صلاة الجمعة في مساجد مصر، عن أعلام التضحية والفداء في تاريخ الاسلام.

---

(١) التصدير ص ٩، ١٠

كما التزم قراءة «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة «الآية» «يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم «الآيات» التزم بها في ركعتي الجمعة.

ذلك أنه رأى أن يربط الناس على الجهاد وآياته، ويظل يذكرهم بالمجاهدين ومواقفهم، حتى يظلوا واعين للموقف. ذاكرين لما حلَّ بهم.

وفي الآيات التي يكرر قراءتها عبر وعظات، وفيها بلاغ لقوم يعقلون، فهي تحدثنا عن الصفقة الرابحة التي يعقدها الله تبارك وتعالى مع المخلصين من عباده، وهذه الصفقة هي أن يظلوا على العهد مجاهدين حتى ينتصروا أو يستشهدوا، ولهم في مقابل ذلك جنة عرضها السموات والأرض، وفيها إرشاد إلى طريق التجارة مع الله، وإرضاء عما يكون لهؤلاء المتصفين بهذه الصفات، وتأكيد البشر والخير لمن آمن واهتدى، وفي عطف وصدق ينصح أمة محمد» لا تقنطوا.. ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون» لا تيأسوا: «انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون»؟

واصلوا العمل «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون».

أخلصوا الجهاد لله «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين» (١)
هكذا يخلص العالم لدينه ووطنه الإخلاص كله، ويظل يؤدي واجبه نحوهما صباح مساء مذكرا وموجها. ويلتزم بالنصح والتوجيه في كل ما يقوم به وما يؤديه من عمل، وفي كل مكان من أرض مصر الطيبة الطاهرة، ويردد كل ما يبقى جوّ المعركة ويهيئ الشعب لها حتى لا ينسوا ولا ينسيهم الزمن، فيضيع الحق والأرض والمقدسات.

وتطالعنا صفحات الكتاب الأولى بأن حياة المؤمن كلها جهاد على أي وضع من أوضاعها، وفي أي صورة من صورها، فهي إما جهاد بالنفس، أو جهاد للشيطان، أو جهاد للعدو أو جهاد من أجل الدين، أو جهاد من أجل الدنيا،

---

(١) المصدر من ص ٣٢٥– ٣٣٥ تحت عنوان شعار تضحية وفداء.

وهي جهاد قبل المعركة بالاعداد والاستعداد . لأن الله تبارك وتعالى يقول « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، « الأنفال — الآية ٦٠ » .

وجهاد في انتظار المعركة باليقظة والحذر والانتباه ، ولذلك يقول الله جل شأنه في سورة النساء «يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم» (الآية ٧١) وبالتأهب للانطلاق عند أول بادرة الى الالتحام فقد قال تعالى في السورة نفسها « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم والّذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميله واحدة « الآية ١٠١ » ويقول الرسول «خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كما سمع هيعة طار اليها » وفراسة المؤمن لأنه ينظر بنور الله صادقة ، ونظرته فاحصة فهو يُعد الأمة للجهاد ، وهذا قَدَرُ مصر التي يقول الرسول عن شعبها « هم في رباط الى يوم القيامة » ويبين لهم أن حياة المؤمن كلها جهاد في كل صورها وأوضاعها ، ويؤكد على التأهب والحذر واليقظة ، والحذر ، والانتباه والتأهب للانطلاق عند أول بادرة للالتحام ، كانت السمة الأساسية لحالة الترقب والتربص والاستعداد التي كانت تعيشها كتائبنا المظفرة وقيادتنا الرشيدة إستعدادا للمعركة التي ما كان يتصور الجميع أننا سنخوضها بهذه البسالة ، وقد أدركت فراسة القلب المؤمن هذه الخطوة قبل أن تكون ، ووعت هذه الأحداث قبل أن تقع ومهدت لها بهذه الأعمال الدافعة وتلك الكلمات المتوثبة فكانت اليقظة وكان التأهب للانطلاق عند أول بادرة للالتحام .

وقد عرض الكاتب الكبير في هذا الكتاب حياة اثنين وعشرين مجاهدا ، من بينهم أربعة عشر شهيداً ، ومن هؤلاء المجاهدين .

١ — أبو ثمامة المجاهد الذي ثبت على ايمانه بعد أن ارتد جميع قومه من بني حنيفة واتبعوا مسليمة الكذاب ، ونَفَرَ من شركهم ، فارتحل مجاهدا مع العلاء الحضرمي إلى البحرين وظل مجاهدا إلى أن نال نعمة الشهادة في عهد أبي بكر رضي الله عنه ، حين اجتمع بنوقيس بن ثعلبة عليه فقتلوه .

٢ — ومنهم عياش بن ربيعة الذي هاجر الى المدينة بعد اشتداد إيذاء قريش

للمسلمين فغضبت أمه ، وأقسمت ألا يظلّها ظل ، فعرضت نفسها للشمس والريح ، ليرجع ولتثنيه عن عزمه ، وأراد البر بأمه فرجع وبينما هو في الطريق احتال أخوه الحارث وأبو جهل فارتقاه وحبساه بمكة ، وكان الرسول يدعو له في صلاته ، وقد استطاع بمعاونة الوليد بن المغيرة أن يخرج من السجن ، وعاد الى المدينة وربط نفسه على الجهاد ، وأرسله الرسول الى بني عبد كلال باليمن فأدى واجبه على خير وجه وظل عياش يجاهد حتى استشهد في معركة اليرموك.

٣ــ ومنهم خلاد بن سويد الأنصاري شهيد التآمر اليهودي ، فقد كان من السابقين إلى الإسلام وأخذ على نفسه العهد أن يقاتل ويجاهد في سبيل الله ، فحضر بدرا وأُحُداً والخندق ، وكان يدرك أن عدوّ الاسلام الأكبر هو اليهود. وكأن اليهود أدركوا خطره فتآمروا عليه بالخيانة والغدر. وبينما كان هو في طريقه إلى غزوة بني قريظة ألقت عليه « بنانة » أو « تباته » زوجة الحكم القرظي بتدبير مع زوجها ، ألقت عليه حجر الرحى فأصابته إصابةً قاتلةً ، فكان له بدعاء الرسول أجر شهيدَيْن.

٤ــ ومنهم أبو دسمة وحشي « بن حرب الحبشي » ، ذلك العبد الذي كان يحنّ الى الحرية وتهيأت أمامه الفرصة ، حينما جاءه سيّده جبير بن مطعم بن عدي قبيل غزوة أحد وقال له : يا وحشيّ أخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة بن عبد المطلب بعمى طعيمة بن عديّ فأنت حر عتيق وكان سيدنا الحمزة قد قتل طعيمة في بدر وظلت بنت طعيمة تغري وحشيا ، فخرج إلى أحد متخفيا ، وحمل حربته الأثيمة ، وتربص لحمزة وطعنه بها طعنة نالت منه فخرّ شهيدا ، وكان حزن الرسول على عمه شديدا.

وتمضي السنون وتضيق الارض بما رحبت على وحشيّ ويهديه الله إلى الإسلام ويأمره الرسول بالجهاد ، وعاهد ربه أن يكفر عن خطيئته بحسن الجهاد والبلاء ، وظل يجاهد حتى جاءت معركة « اليمامة » فخرج اليها مع المسلمين ، وظل وحشيّ يتابع مسيلمة حتى تمكن منه فقتله ، وشهد وحشيّ بعد ذلك معركة اليرموك وجاهد فيها وأقام في « حمص » ومات في خلافة عثمان رضي الله عنه.

٥ــ ومنهم أبو ذؤيب الهذلي الشاعر المتقدم في الشعر، ولقد تأخر الزمن بإسلامه حتى وفاة رسول الله، وقرر سكني المدينة مستقرّ رسول الله، وكأنما خلق خلقا جديدا وشارك في الجهاد زمن أبي بكر، وامتحنته الأقدار في بنيه الستة، فتصبر صبرا جميلا واحتمل، فرثاهم باروع الشعر وأبلغه، وكانت ثقلةً له من البكاء الى العمل، وخير العمل الجهاد، فخرج مجاهدا الى افريقية وظل يجاهد الروم حتى نال نعمة الشهادة.

والمؤلف يُهيب بالأمة حين يقدم هذه النماذج وتلك الأمثلة الفدائية البطلة، يهيب بها أن تعي دورها في التحرير «وإذا كان أهلونا يشغلوننا في كثير من الأحيان عن ديون مستحقة في رقابنا لخالقنا وعقيدتنا، فقد شهد صدر الاسلام رجالا باعوا لله والاسلام كل ما بأيديهم، وضحوا في سبيل عقيدتهم بكل غال ونفيس، وبذلوا من أجل دعوتهم المال والأهل والدم والروح[1].

وهو يسوق هذه النماذج ليدفع القلوب الى الحماس، والاشتعال باليقين، والتأثير بالقدوة وفي أسف وتألم شديدين. يقول: لو أن هذه المواقف البطولية التي وقفها أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام قصص خيالية صورها أديب أو قصاص لأثرت في نفوس ذوي المشاعر والأحاسيس فكيف وهي حقائق ثابتة شهدها الزمان ووعاها التاريخ[2] «إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

وأخوف ما يخافه على أمته أن تنسى ما حلّ بها «ولقد صور أحد شعرائنا وطننا الحزين المنكوب فقال عنه منذ عشرات السنين: كل شيءٌ فيه ينسى بعد حين» ويبدو أن داء النسيان ما زال مسيطرا على كثير منا متحكما فيهم، حتى فيما لا يجوز نسيانه بحال من الأحوال، ولذلك يوجد فينا من كاد ينسي أننا أمة مغلوبة، وأن

---

(١) المصدر ص ٢٨

(٢) المصدر ص ٢٨

جوانب غالية من وطننا مغصوبة ، وكدنا ننسى أن فلسطين قد ابتلعها الصهاينة المجرمون الآثمون ، وأنهم احتلوا القدس أولى القبيلتين وأنهم أحرقوا المسجد الأقصى ثالث الحرمين ، وأنهم هتكوا الأعراض ، وبقروا بطون الحوامل ، وقتلوا الأطفال وشردوا الرجال ، وكأننا بطول المدة ومضي الزمن قد نسينا ما حدث ، أو قد أَلِفْنَا ما وقع ، ومضى كثير منا في دروب الحياة يخطون ويسيرون يجللهم الذل والعار ، ويهددهم الفناء والدمار ، وأعداؤنا اليوم هم أعداؤنا بالأمس البعيد ، وهم أعداؤنا منذ أشرق نور الاسلام ، هم قتلة الأنبياء ، اليهود الأخسة اللئام «لتجدنّ أشدّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا» (المائدة الآية ٨٢) وهم الذين ناصبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العداء وتربصوا به وبأتباعه الدوائر ، وصدوا الناس عن دعوة الحق وافتروا عليها أوقح الافتراء ، وتآمروا ضدّ المسلمين وحاربوهم في خسة ودناءة ، وكانوا كما قال الله عنهم لعباده المؤمنين... لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون» .

فليتنا نستيقظ ونتنبه وليتنا نتذكر ونعتبر ، وليتنا نمسي ونصبح ، ولا شاغل لنا سوى تحرير دارنا ، وغسل عارنا ، وأخذ ثأرنا ، وليتنا على الدوام نستمد العبرة والعظة من هدي ربنا ، وسيرة نبينا ، وجهاد اسلافنا ، «إن في ذلك لعبرة لأولي الألباب [(١)] » .

ويربط الباحث الكبير بين تآمر يهود بني قريظة بالأمس البعيد على قتل خلاد بن سويد وبين تآمرهم اليوم ، ويتمنى أن يحل بهم اليوم ما حل بهم بالأمس ، وأن يمكننا الله منهم كما مكننا منهم من قبل ، فقد نزلوا على رأي سعد بن معاذ الذي حكم بأن يقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم وتقسم أموالهم .

وإنه ليسيئه كثيرا ويحزنه كثيرا أيضاً التشدق بالحرب دون أن يكون لذلك أثره ،

---

(١) المصدر ص ٣٩ — ٤١

والقول الكثير دون أن يكون له ما يؤيده من عمل او فعل «لعلّ الدواء الدوي العصي الذي أصيبت به الأمة المسكينة المنكوبة العديدة الأدواء، الممزقة الأشلاء، هو أنها تقول كثيراً، ولا تعمل إلا قليلا وأنها قد ترغي وتزبد، وتهدد وتتوعد، ثم لا يكون منها وراء ذلك تصديق، أو تأييد لما توسعت فيه من ادعاء أو تهديد»[1].

وكأنه يعرض بالمسئولين عن النكسة، وما اعتمدوا عليه من ضجيج مفتعل، وتوعد أجوف وبالكثرة ما هددوا وتوعدوا، ثم تمخض الجبل فولد فأرا، واذا هم في الحرب وليس لهم يدان، والصبر والثبات واحتمال الأذى من خلق المؤمنين ولكن بشرط الا يفضي الصبر الى النسيان «ولقد احتمل أسلافنا في صدر الإسلام ما احتملوه، وقاتلوا أو قُتلوا فأعز الله لهم دينهم وأعلى شأن دنياهم والله ذو الفضل العظيم»[2] «أَحَسِبَ الناس أن يُتْرَكوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفْتَنُون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلَمَنَّ اللهُ الذين صدقوا أو ليعلَمَنَّ الكاذبين» (العنكبوت ــ الآيتان ٢، ٣).

وحينما تصفو النية لعمل الخير تتهيأ الأسباب من رب الأرباب فاذا العسير يسير واذا البعيد قريب... وحينما تصدق الرغبة في الجهاد تفتح أبواب الفوز والنصر «إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»[3] (غافر ــ الآية ٥).

ولقد أتى على مصر حين من الدهر بَعُدت فيه عن الله وكتابه فكان من نصيبها ما كان، فاذا عادت اليه عاد إليها ونصرها..

ولقد يقضي الانسان من حياته وقتا قليلا أو طويلا وهو محروم من صحة العقيدة وقوتها فاذا ألوان من المطامع والمنافع تستبد به، وتسيطر عليه، وتبعثر طاقاته وخطواته ذات اليمين وذات الشمال، حتى إذا أضاء صدره بنور الايمان الراسخ،

---

(١) المصدر ص ١٥٥

(٢) المصدر ص (٢)

(٣) المصدر ص ٣٥

أقبل على حمى ربه ومولاه فلا يعرف طريقا سواه ويصبح الإنسان بإيمانه مستعداً لبذل كل شيئ في سبيل من أعطى كل شيئ وهو الله جل جلاله.. إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين (هود ١١٤) «فكم من أناس ضلوا عن سواء السبيل، وأوغلوا في الشرّ إيغالاً بعيدا ثم أفاقوا لأنفسهم فاستيقظت ضمائرهم في صدورهم، وتنبهت عوامل الخير في مشاعرهم فوقفوا وقفة الحزم والعزم يغربلون الماضي، ويستعرضون الحاضر، ويهيئون للمستقبل فأدركتهم عناية الله جل جلاله فاذا هم على الصراط المستقيم بعد طول ضلال، واذا هم من أهل الفوز والفلاح، بعد أن كانوا من أهل الخسار والوبال[1].

فالكاتب يربط بين الفساد العقائدي والبعد عن الدين وسيطرة الأهواء والمذاهب الملحدة والسماح بتداول عملة شريرة، والتحالف مع القوى المادية وترك القوى الروحية وإهمالها وضعف الوازع الديني، والضمير والخلق، يربط بين هذا كله وبين النكسة، ويرسم للأمة طريق الفوز فلا بدّ من تحوّل أساسيّ خطير في مسيرتها تتغير معه حياتها كلّها تغيرا جوهريا، تغيرا تحسّ فيه بالنقلة الى الله «فهذه النقلة واجب كل مسلم في كل وقت من مراحل حياته، لا بد للمسلم من النقلة الى الله تعالى بتصحيح الاعتقاد ولا بد له من النقلة الى الله تعالى بالأعداد وحسن الاستعداد، ولا بدّ له من النقلة إلى الله تعالى بالإخلاص في خدمة البلاد، ولا بد له من النقلة إلى الله تعالى بطيب المعاملة للعباد، ولا بدّ له من النقلة إلى الله تعالى بالجهاد، ولا بدّ له من النقلة الى الله تعالى بالموت والاستشهاد ولا بد للنقلة الى الله تعالى من زاد وعتاد «وتزودا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب»[2] (البقرة ١٩٧).

ولا بد أيضا لإدراك النصر والفوز من جميع الأمة كلها على قلب رجل واحد

---

(١) المصدر ص ٢٢١

(٢) المصدر ص ٢٣٥

«إن شعار الأمة المؤمنة هو صدق الاعتقاد ودوام الاتحاد ، واتصال الجهاد حتى النصر والاستشهاد فهذه الأمة الماجدة الراشدة المهتدية بهدي ربها وكتابها السائرة على طريق نبيها ، تعرف منهجها وتوطد دائم علمها وإيمانها وتستجيب بهدي قرآنها «قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينا قِيَماً ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين «الأنعام ١٦١»

وهي تحرص على اجتماعها ووحدتها لأن خالقها جل جلاله جعل أفرادها ابناء أسرة واحدة «إنما المؤمنون إخوة» الحجرات آية ١٠ «وطالبهم بألا يعرفوا طريق التفرق والتمزق» واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا (البقرة ١٠٣)

والعقيدة والايمان والعلم دعائم أساسية للنصر فلنثبت في القلوب عقيدتنا ، ولنعرف في جلاء ووضوح خطتنا وطريقتنا ، ولنحصن بالإيمان والعلم أركان دولتنا ، ولنصن بالنفائس والنفوس وحدتنا ، ولنعد لتحقيق الحرية والعزة والكرامة عدتنا ولنجعل النصر أو الشهادة غايتنا ، ولنمض في طريق النضال باذلين جهدنا وطاقتنا «وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين[1] النحل ٩».

ولا بد من استحضار الوازع الديني في كل نفس «فالمجاهد الذي راقب ربه وخاف ذنبه وحاسب نفسه وسارع الى ما يرضي بارئه قد حفظه البارئ المصور وحقق له هداه وزانه برضاه إن لله في صدر المؤمن الصادق شعلة قدسية نستطيع أن نسميها «الوازع الديني» ونستطيع أن نسميها «الضمير الحي» ونستطيع أن نسميها المراقبة لله عز وجل ، ومهما كان اسمها فإنها شعلة إلهية في صدر المؤمن لا يتم اخلاصه إلا بها في مواطن التضحية والفداء[2].

ولا بد لكل مواطن من أن يقوم بواجبه ويؤدي دوره كمواطن لبلده عليه حقوق.

---

(١) المصدر ص ٢٥٣

(٢) المصدر ص ٣٠٨

ولتعلم الأمة أن الحرص على الموت يهبها الحياة، ولقد ذم القرآن اليهود فقال «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» (البقرة الآية ٩٦) أما المسلم الذي بايع ربه واشترى الجنة فشعاره الصادق، وهتافه الحق، وعقيدته التي يلقي الله عليها» قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) (التوبة الآية ١)

ولا ينبغي أن ينسينا كرّ الغداة ومرّ العشيّ أن ملاك الأمر في حياة الأمة وعزتها هو استشعار روح الجهاد والفداء والاعتصام الدائم بحبل الله خالق الأرض. والسماء «هكذا شخص الباحث الفاضل الدكتور الشرباصي الأدواء التي أودت بالأمة الى الهزيمة ثم وضع العلاج الناجع لها حتى تنهض من كبوتها وتعاود مسيرتها وتعانق فجر الحرية والحياة وتنفض عن جبينها غبار الذل وعفار المهانة وهو في كل تشخيصه البليغ ووضعه العلاج مرتبط بنماذجه الفدائية الخالدة.

وقبل أن نترك هذا الكتاب نود أن نشير الى ملاحظة جديرة بالاهتمام هي أن المؤلف قد أرجع أسباب الهزيمة الى البعد عن الله وكتابه، والتهاون في واجبات الدين وأخلاقياته وسلوكه وقيمه وشعائره.

وقرر أن لا أمل في الفوز والنصر إلا بالعودة إلى الله، والاتجاه اليه، والمعايشة الحقيقية الواعية للدين والكتاب، والعقيدة والإيمان والعلم، والوحدة التي تجمع الشتات وتوحد الكلمة، واستحضار الوازع الديني الذي يحرك النفوس نحو الهدف، وقيام كل مؤمن بواجبه والحرص على الموت، وعدم نسيان ما حدث واستشعار روح الجهاد، والاعتصام الدائم بحبل الله، نلاحظ أنه قد ربط هذا بين النماذج الفدائية التي ساقها فهناك المجاهد المؤمن الثابت الشهيد تمامه بن أثال الحنفي، والمجاهد التائب وحشي وصاحب الأجر خلاد بن سويد، والشاعر المنيب أبو سفيان بن الحارث والشهيد الثابت الحارث بن الصمة وهناك أيضا المجاهد الذي يمحو زلته بالشهادة كأبي حذيفة بن عتبة القرشي والشهيد الذي لا حساب عليه عكاشة بن محصن الأسدي والشهيد غير الكاسد جليبيب الأنصاري، والشهيد الجابر لتقصيره الحارث ابن هشام والمجاهد الهادي المهدي جرير بن عبد الله البجلي والشهيد الذي جاء به

الاسلام عمرو بن ثابت بن وقش الأشهلي والمجاهد الموصول الجهاد صهيب بن سنان الرومي والمجاهد صاحب النفس اللوامة أبو خيثمة الأنصاري.

فالنماذج التي اختارها في هذا الكتاب يتفق معظمها في صفات التوبة والإنابة والثبات ، واللوم ومحو الذلة والأجر ، وتتفق مع السياق الفكري الذي قصد اليه ، فاذا كان هناك بُعدٌ عن الله قربنا من الهزيمة فالعودة اليه سبحانه تقربنا منه وتقربنا من النصر وهناك مواقف كثيرة لنماذج كانت أشد بعداً عن الله فلما هداها الله ، وقربت منه ، صاغها صياغة جديدة ، وجعل من عودتها وهدايتها نقلة اليه وكأنها حياة جديدة وفتح لها معه صفحة جديدة واستحقت كل اسباب الخلود والمجد فعودوا إلى الله يَعُدِ الله اليكم ويعد اليكم النصر الذي فاتكم بالبعد عنه.

الكتاب الرابع : بين الوفاء والفداء

لفضيلة الدكتور أحمد الشرباصي

صدر هذا الكتاب عن دار الهلال العدد التاسع عشر بعد المائتين في صفر سنة ألف وخمس وتسعين وثلاثمائة — الموافق مارس سنة ألف وخمس وسبعين وتسعمائة. وعدد صفحاته سبعون ومائة صفحة. وقد ضم في دفتيه عشرين نموذجاً من النماذج الفدائية البطلة.

وقد سبق أن عرف المؤلف الفداء في كتابيه الأولين. وكل ما يتصل به ، وذكر جملة من نماذجه الحية وقد حاول هنا أن يبين الصلة بين الوفاء والفداء ، «فهناك بين الوفاء والفداء خيط رقيق وثيق عميق — يربط هذين المعنيين الجليلين أوثق رباط.

فالوفاء كلمة جليلة المدلول ، فيها معنى التزام الطريق ، والحفظ للعهد ، والثبات على الاعتقاد.

والفداء كلمة ثقيلة التبعات ، لأن مفهوم الفداء هو التضحية بكل غال ونفيس حتى الحياة في سبيل التوفية بالعهد ، والصدق في الوعد.

وحسب الوفاء شرفاً وتمجيداً أن الله تبارك وتعالى جعله صفة من صفاته ، «ومن أوفى بعهده من الله» (التوبة — ١١١) وأثنى على خليله ابراهيم فقال : «وابراهيم الذي وفى» (النجم — ٣٧) ووعد بالثواب عليه «ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً» (الفتح — ١٠) «فالصلة بين الوفاء وبين الفداء قوية عميقة متلازمة تلازم المبدأ بالتطبيق ، والفكرة بالتخطيط والتنفيذ لها ، فالوفاء أحد المثل العليا التي تدين بها الإنسانية المؤمنة النبيلة والفداء هو التطبيق الحي ، والتصديق العملي لذلك المثل الرفيع ، والأمة التي تنشد الحياة الشريفة والبقاء الكريم بحاجة

دائمة الى عنصري الوفاء والفداء ، ليكون الوفاء تاج قيمها ومبادئها وليكون الفداء سنتها وشعارها.

وأمتنا الماضية في مسيرتها نحو استرداد مكانتها. واستيفاء كرامتها محتاجة أكثر من غيرها الى هاتين الفضيلتين مع إحكام الربط بينهما ، ليكون أحدهما اعتقاداً ، والآخر استعداداً فيثمر ذلك الالتحام ثمرته ، من حياة أفضل ، ومسيرة أكرم ، وإذا كانت مقتضيات حياتنا النضالية الحاضرة المستمرة تتطلب ذلك وتلح فيه ، فإن من فضل الله علينا أن مواريثنا الروحية والتاريخية ، تنطوي على أمثلة رائعة لحسن الجمع بين الوفاء والفداء»[1].

ونلاحظ أن هذا الكتاب صدر بعد حرب رمضان المظفرة ، ولذلك نحس بخوف الكاتب الكريم على الأمة أن تنزلق الى محنة أخرى لو أنها تخلت عن الجانب الروحي والقيم الروحية والرشد والحق ، فهو يحاول دائماً أن يذكرها بأن تظل مستعدة لاسترداد مكانتها واستيفاء كرامتها ولا يكون ذلك إلا بالوفاء والفداء ، فالكتاب توأم مع الواقع ، وصادف ميقاته ، ووفى بغرضه وأدى مهمة التذكير والتوجيه والتوعية ـــ ووافق حاجته في نفس الأمة وضميرها ، فهو يوصيها بإعداد المقاتل ، وشحذ عزيمته وربطه بالله.

والباحث يربط بين سر المجاهد وعلنه. فالجهر بعقيدة التوحيد ترجمان لما في القلب من إيمان وطيد ، والاستقامة على الطريق تطبيق بصير لما آمن به الانسان في قلبه. وترجم عنه بلسانه ، ولهذا أوجز رسول الله صلى الله عليه وسلم النصيحة لمن جاء يطلبها فقال له : «يا رسول الله قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك ، فأجابه الرسول : قل آمنت بالله ثم استقم» ... ومن هنا قال أئمتنا : إن الإيمان ينهض على ثلاث دعائم ، هي الاعتقاد بالجنان ، والإقرار باللسان ، والأداء للأركان ، ... وهذا التطبيق يبدأ في منطق الدين بالأساس الأول ، وهو المحافظة على أداء الشعائر والعبادات ، ثم يقترن ذلك بحسن المعاملة مع الناس في مختلف الحالات»[2].

---

(١) ٨ ، ٩ التصدير. (٢) المصدر ص ١٠ ، ١١

ثم يقرن ذلك بوعي المجاهد لدوره — وثباته على الحق ، وملازمته للجهاد ، والتفاني في سبيل المبدأ الحق ، ويؤكد على الشجاعة التي تعد عند أهل الوفاء والفداء زكاة للقلب المؤمن الموقن» [1] .

ويرى أن الأمة تمر عليها أوقات عصيبة رهيبة تحتاج فيها الى أفراد أفذاذ من أبنائها يهبهم الله قوة الحس ، وسمو النفس ، وصدق الايمان واليقين ، وروح الإقدام وروعة الاقتحام — فيقومون بأعمال بطولية — أو كما يعبر أبناء العصر بأعمال فدائية ، يردون بها على أمتهم كرامتها وسمعتها... وما أشد حاجتنا الآن إلى الاهتداء والاقتداء بمدرسة محمد صلى الله عليه وسلم التي خرجت الكثير ممن باعوا أنفسهم لله ربهم ، وبادروا إلى مصارعهم في مواطن الحق لا يريدون عرضاً ولا طمعاً ولا متاعاً ، ولا يحسبون حساب الحياة والموت ، بل يريدون فقط ابتغاء وجه الله العلي الكبير» [2] .

والباحث كمصري كمسلم وإمام واعٍ لدوره الريادي فهو يشعل القلوب بالحماس ، ويملؤها باليقين والإيمان ، ويعرضُ عليها ظروف الأمة وأحوالها السابقة ، وما فعله أبناؤها وما بذلوا وما قدموا ، من أجل عقيدتهم التي اعتقدوا ، ووطنهم الذي إليه ينتسبون.

وها هو ذا التاريخ يعيد نفسه ، وتمر الأمة بظروف كتلك الظروف التي مرت بها سابقاً ، وهي تتطلب من أبنائها أن يكونوا على مستوى المسئولية من الوفاء والفداء ، فينطلقون لتحريرها وينهضون لاستخلاصها ، ويهبون لحمايتها ، باذلين مانحين ، بائعين أنفسهم لله في أشرف معارك الحياة والحق والتاريخ.

«وحين تجتاز الأمة مرحلة من تاريخ نضالها مع أعدائها الذين يتربصون بها الدوائر عن يمين وشمال تتطلب الكثير من ألوان القوة والاستعداد ، ومن بين هذه الألوان القدوة الطيبة الرائعة [3] .

---

(١) المصدر ص ٨٣

(٢) المصدر ص ١٩

(٣) المصدر ص ٧٤

«إنها نغمة من نغمات تاريخنا العظيم المليء بمواطن القدوة، ومواقف الأسوة، فما أجدرنا أن نستلهم من ماضينا لحاضرنا، وأن نمضي على طريق سلفنا، فنؤمن كما آمنوا، ونصدق كما صدقوا، ونجاهد كما جاهدوا، لنفوز كما فازوا، إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»[1] (ق — ٣٧).

وهو يعتقد أن من أهم أسباب النكسة التي حدثت التفريط في جنب الله، والتقصير المتعمد في الجانب الروحي والعقدي على مستوى الدولة والسلطة والشعب والأفراد، وذلك أننا اعتمدنا على ما لدينا من قوة مادية هائلة، وتناسينا مدد الله، الذي يمدّ به حزبه وحماة دينه، فتخلفنا عن الله، فتخلف عنا وعده الذي وعد، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً» (النور — ٥٥) ولم ننصر الله فتخلف عنا نصره «ولينصرن الله من ينصره».

فالحياة عقيدة وجهاد، وهي بلا عقيدة ضرب من المتاع الرخيص، وهي بلا جهاد تافهة ذليلة وهما لا يليقان ولا يجملان بمن استخلفه الله في أرضه، «وعقيدة الإيمان بالله جل جلاله تعلم صاحبها الجندية المجهولة الموصولة»[2].

وقد أحس الباحث بذلك ووعاه، وأدركه واهتدى إليه، وهو لا يهوِّل مما وقع، ولا يستخف به ولكنه يرى أن المقدمات تسلم إلى النتائج، والله يقول: «وإن عدتم عدنا» (وإن تعودوا نعد) «وقد يكون الوقوع في الخطأ خطأً مقسوماً للإنسان، وظاهرة تصحب حياته لنسيانه وضعفه، والإسلام العظيم يعترف بهذا ويقرره، ولكنه في الوقت نفسه يدعو الانسان المخطيء الى النهوض من العثرة، والإفادة من التجربة والخبرة، والمسارعة الى نور الفكرة بعد زوال السكرة، فحث الاسلام الانسان على الشعور بالذنب، والندم على ارتكابه، والمبادرة الى تركه مع إخلاص

---

(١) المصدر ص ٨٢

(٢) المصدر ص ١٤٦

التوبة والاستغفار منه ، والقرآن المجيد ــ مع استنكاره الخطأ ــ يحمد أولئك الذين يشعرون بالتقصير ويحاولون التكفير ، لأنهم يدللون بذلك على يقظة ضمائرهم ، وقوة الوازع الديني عندهم ، وعدم إصرارهم على الخطأ والإثم»[1] .

وبروح الأب وضمير الداعية نراه لا يؤيس المذنب من جليل العفو ، ولا يقنطه من كريم الصفح ، بل يفتح له باب الندم والتوبة على مصراعيه ، ليدخل فيه من أي باب شاء ، حتى يكون اللقاء الأبدي الخالد بين عفو الله الرحيب الرحيم ، وصفحه ورحمته الواسعين «ورحمة الله قريب من المحسنين» .

وفي لمحة زكية نابضة يربط بين ما حدث للرسول وصحبه من اليهود ، وبين ما حل بنا منهم ، منبهاً الى غدر اليهود وخياناتهم «وأخس ما في أعدائنا من أهل الشرك والكفر ، البغي والغدر والخيانة مع المكر السيء الوضيع ، والاحتيال الحقير المهين ، الذي لا يقيم أي وزن للوعد «أو العهد أو الشرف أو مكارم الأخلاق» .

«وهذه الرذائل المسفة المؤسف كانت في أعدائنا بالأمس ، وهي في أعدائنا اليوم ، وستصاحبهم في الغد... ولقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته وأتباعه ما لقوا من غدر المشركين ولؤم اليهود . ولكن الله جل جلاله زان هؤلاء الأتباع الأخيار بفضيلتي الوفاء والفداء فجعلهم يصرون على الحق ، ويثبتون على كلمة الصدق»[2] .

«وما أعجب ما صنعه الاسلام العظيم بالأوائل من المسلمين ، لكأنما قد خلقهم ربهم خلقاً جديداً ، بعد أن طهر حواسهم ، وزكى نفوسهم ، وقوم عقولهم ، وعدل ميولهم ، وأقامهم على الصراط المستقيم ، كانوا صرعى آثام ورذائل ، فحلاهم بالمكارم والفضائل ، وكانوا يطلبون اللذة عن طريق الجنس والخمر ، فسما بهم الى متعة الايمان وروعة اليقين . وكانوا يقاتلون على أتفه الأسباب ، فأبدلهم بذلك شرف

---

(١) المصدر ص ٤٠

(٢) المصدر ص ٤٧

الجهاد في سبيل رب الأرباب ، وبذلك صاروا خير أمة أخرجت للناس... وبذلك علموا أبناء الحياة كيف يترفعون عن سفاسف الأمور وحقائرها ، وكيف يقيمون بالمعالي والمحامد تحت ظلال القرآن الحكيم»[1].

وفي تبصر ووعي يلمح الباحث الى أن أسباب النكسة انعدام القدوة فالنماذج والأمثلة من القواد لم يكن لها حضور في المعركة ، بل زجت بأبناء الشعب ، وبقيت بعيدة غارقة في تخبطها ولذائذها.

«ومن أكبر عيوب الجبابرة من السلاطين والملوك خلال عصور التاريخ ، أنهم يستغلون مناصبهم ونفوذهم لمصالحهم وصالح أولادهم ، فهم يضنون بهؤلاء الأقارب عن مظان الخطر والتضحية ، وهم يقذفون في الوقت نفسه بالكثير من الناس الى مواطن الهلاك والدمار ، وهم يخصون أنفسهم وأولادهم وأهلهم بالنعيم والتدليل ، ويحرمون غيرهم حقوقهم ، ويكلفونهم فوق ما يطيقون ، ونحن نؤمن بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو إمامنا ومرشدنا وقائدنا ، فهل كان كهؤلاء؟ معاذ الله»[2].

«ومن أسباب النكسة أن الأمة قد نسيت أهم صفاتها كأمة مؤمنة وأهم هذه الصفات وتلك المقومات أن تتجلى في الأمة روح الفروسية القائمة على الهمة والعزيمة ، واليقظة والاستعداد وعدم التردد في مواطن الإقدام ، والترفع عن الدنايا والآثام ، والثبات على المبدأ والاعتزاز بالإيمان ، ولقد كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم تجلت فيها الفروسية المؤمنة الراشدة وكان من حول الرسول مجموعة من الفرسان الميامين الذين أحاطوا به ، ورافعوا عنه ، وسبقوا غيرهم في استجابة ندائه كلما جدّ الجدّ ، وحانت ساعة الكفاح»[3].

---

(١) المصدر ص ٦٤

(٢) المصدر ص ٥٢

(٣) المصدر ص ١٢٦

«وما زالت مدرسة النبوة الطاهرة، العامرة الباهرة، تعطينا نماذج من أولئك السابقين الموقنين، الذين آمنوا بربهم، واعتزوا بعقيدتهم، وأخلصوا لوجه الله خطواتهم، فساحوا في جنبات الله يعلون كلمة الله حيثما استطاعوا، ويتحملون آلام الهجرة والاغتراب، وشظف العيش، ويفضلون موت الشهادة، في ثغر بعيد من ثغور الاسلام، على أن يموتوا فوق فراشهم، وبين أهليهم وذويهم.. «أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون»[1] (البقرة— ٧٧)

ومن أسباب النكسة تجاهل أفراد الأمة للنماذج الحية، والأمثلة البطولية في تاريخ نضالنا المشرف، ذلك التجاهل الذي جعل ذاكرتها تفقد روعة الماضي ووفاءه، ونماذجه الوفية الفادية، «ونحن بحاجة الى الاستكثار من حوافز النضال والكفاح، وأمثلة الوفاء والفداء ونماذج التضحية والجهاد ولقد كان رسول الله إماماً أي إمام في هذا الباب، فهو المبرز السباق الى مواطن الجهاد حتى النصر أو الاستشهاد، وهو القائل، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولوددت أن أُقْتَلَ في سبيل الله، ثم أحيا فأُقْتَلَ، ثم أحيا فأُقتَل»[2].

وهو الذي كرّم المجاهدين، ورفع شأنهم، وصان حرمتهم، حتى قال فيما يرويه ابن حجر عن أبي موسى.

«اتقوا أذى المجاهدين، فإن الله يغضب لهم، كما يغضب للرسل، ويستجيب دعاءهم كما يستجيب دعاء الرسل. ولم يقتصر جهاد الرسول على ذاته، بل كان من حوله هؤلاء الطاهرون المخلصون من آل بيته الكريم. ولقد كان الرسول يقول: «جعل رزقي تحت رمحي» والنفس تفهم من هذا الحديث الكريم معنى ترجو أن يكون صواباً من الله، وإلا فالخطأ منها ومن الشيطان، إن الحق لا بدّ له من قوة تحرسه وتصونه والا ضاع تحت جبروت الباطل..»[3].

---

(١) المصدر ص ١٣٣

(٢) المصدر ص ١٥٢

(٣) المصدر ص ١٦٧

هذه هي مهمة الداعية الواعي الحصيف، مهمته أن يشخص الداء تشخيصاً دقيقاً، ويضع له العلاج الحاسم، والدواء الناجع الشافي، فإذا كانت أدركت الأمة سنة من النوم، أو غفلة أفقدتها وعيها بدور القوة الروحية، فاطمأنت إلى قوتها المادية، وركنت إليها، فلم تكن قد ركنت إلى ركن شديد، ونسيت في دوامة غفلتها أن سياحة الأمة هي الجهاد، وهو يذكرها لتعود الى الله والى الجهاد ويضع أمامها أسباب هزيمتها ويجعل منها دروساً مفيدة، ويأخذ بزمامها في معايشة صادقة لتعايش هدى الرسول والنماذج الوفية الفادية من حوله، حتى تشعل القلوب بالحماس، وتعي رسالتها، وتمتلىء بجذوة اليقين، وأن تعي دور الرسول في القدوة والتوجيه، فتحاكيه وتأنس وتقتدي به فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح.

الكتاب الخامس : رجال صدقوا

لفضيلة الدكتور أحمد الشرباصي

صدر هذا الكتاب عن دار الهلال في عددها رقم ٢٩٧ الصادر في شعبان سنة ألف وثلاثمائة وست وتسعين الموافق سبتمبر سنة ألف وتسعمائة وخمس وسبعين : سلسلة كتاب الهلال «ويقع في مائة وثمان وسبعين صحيفة من القطع الصغير، وقد قدم فيه الدكتور الشرباصي ثلاثة وعشرين نموذجا من الصادقين الأوفياء لعهد الله وبيعته.

وقد حدد المؤلف في تصديره للكتاب معنى الصدق، ومادته التي تدور حول القوة في الشيء قولا أو عملا، والصدق بمعناه الواسع تطابق المظهر والمخبر، والقرآن يضفي على الصدق جلالا وجمالا، فيطلقها على كل معنى طيب حسن، والله ورسوله موصوفان بالصدق، «ومن أصدق من الله حديثا» (النساء ــ ٨٧) «وصدق الله ورسوله» «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزي الله الصادقين بصدقهم» (الأحزاب الآيات ٢٢ ــ ٢٤).

والصدق «هو أقوى سبب يحتاج اليه أهل الجهاد والكفاح ــ ولذلك طالب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يحرص على تبين الصدق فيمن يريدون الجهاد معه فقال تعالى : «عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين[1] » (التوبة ــ ٤٣).

(١) المصدر من صفحة ٨ ــ ١٠

واذا كنا محتاجين إلى الصدق في أقوالنا وأخبارنا فإننا أشد احتياجا الى الصدق في أعمالنا. وفي وجوه نضالنا، إننا محتاجون الصدق في النية، وصدق في العزم، وصدق في الوعد، وصدق في الوفاء، وصدق في الفداء».

والصدق فيه المصارحة بالحقيقة، والمصارحة في معناها المساندة والدعم، مصارحة من القادة للشعب بما حدث وأسبابه، حتى تكون من الشعب مساندة حقيقية ودعم صادق للموقف، لا أن يعيش الشعب وقد سترت عنه كل الحقائق، وعميت عليه وجوه الرأي، واستبد المسئولون بتصريف كل أموره، وعليه وحده تبعة ما صيروه اليه، وما تسببوا فيه.

ويؤكد على الجانب الروحي الذي يساند الجانب المادي ويدعمه ويقويه، فالجانب المادي وحده بما فيه من قوة حسية وكثرة في المال والجاه والتسلط والتحكم لا يستطيع أن يثبت حكم للحاكم فقد يكون الانسان عظيما في قومه كثيرا في ماله، واسعا في جاهه، يستطيع أن يأمر وينهي، وأن يعطي ويأخذ، وأن يتسلط ويتحكم، ثم يكون مع ذلك بلا عقيدة تهديه، أو ايمان يزينه ويُعليه، فيظل جاهه ماديا محدودا، وتظل مكانته عرضةً للزوال أو الاختلال، ولكن اذا أوتي مع جاه السلطة أو المال نور الايمان وقوة اليقين فقد فاز بنعيمي الدنيا والعقبى، ووصل أسباب مجده المادي بمجد آخر روحي، يضمن له جمال المسعى في حياته، وخلود الذكر بعد وفاته وصدق القائل: «ما أحسن الدين والدنيا اذا اجتمعا»[1].

فهل كان الباحث في هذه الفقرة المركزة يشير الى ما كانت عليه أحوال السلطة في أيام الهزيمة، وكان يأمل أن يدعم هذا الحكم بالعقيدة الهادية، حتى يثبت أمام هزات الرياح، ويضمن لنفسه البقاء والثبات ويكون للمسئول عنه أجران في الدنيا والآخرة.

ويرى أن بقاء الحالة النفسية قوية له أثره البالغ في تحقيق النصر النهائي، ففي

---

(١) المصدر ص ١١

صدر الاسلام كان الشعار، «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» (آل عمران ١٣٩) وما زال الشعار باقيا فهل له اليوم من أنصار».

ويود ألا يضيرها ما حلّ بها «ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون...» (النساء — ١٠٤)

واذا كانت الفجوة التي حدثت بين الأمة وبين دينها عطلت أجهزة الحرارة والحركة ومنعت الشحنة الإيمانية الموجبة التي تدفع وتحفز وتثير، فان العَوْزَ أحمد، والأمساك بشعلة الايمان يعيد للأجهزة المعطلة حركتها، «فما أجمل العودة الى الحق ولو بعد طول الإعراض عنه، وما أحسن الاهتداء الى الصواب ولو بعد امتداد الحبال من الانسان في الضلال والخسران»[1].

«ولقد يكون الانسان سادرا في غلوائه غارقا في شهواته وأهوائه، ثم يتدبر ويتبصر، فاذا نور الحق يسطع أمامه، ويضيئ أيامه، فيعتدل بعد انحراف، ويستقيم بعد اعتساف واذا هو بعد أن كان أسيراً لشهواته، يصبح طالبا لما عند الله وحده طامعا لديه في تجارة لن تبور، وما عند الله خير للأبرار»[2] «ويا لروعة ما يصنعه الاسلام العظيم بالنفوس الداخلة فيه، المؤمنة به، لكأنه ينشئها بفضل الله انشاء، أو يعيد بناءها من جديد، فهو بعقيدة التوحيد — يطلقها من أوهام الشرك، وضلال الكفر، ويحررها من ذل الخضوع لغير الخالق الرازق، البادئ المصور»[3].

إنه يرى أن الايمان الذي تركناه، والايمان وحده هو الذي سيعيد سفينتنا الجانحة للغرق الى مرفأ العز والامان، انه يصوغ النفوس صياغة جديدة، يمسح عنها هوان النكسة ومذلة الضعف، ويبعد بها عن عبادة الهوى، ومشايعة الملاحدة، ومبايعتهم ومتابعتهم، ذلك لأن الايمان اطلاق للنفس من أوهام الشرك، وضلال الكفر

---

(١) المصدر ص ٧١

(٢) المصدر ص ٧٨

(٣) المصدر ص ١٣٢

وضبابه ، وتحرير لها من الخضوع لأية قوة غير الله تحاول السيطرة والضغط عليها واحتواءها .

«ومما يجب أن نتواصى به أن نوقن كل اليقين أنه لا نصر إلا بايمان ، ولا إيمان إلا بعقيدة ولا عقيدة إلا بدين ، والله تعالى قد وضع بين أيدينا خير دين» [1] .

«والحياة طرق ومسالك ، وشعاب ومناكب ، وكما يحتاج السائر في الظلام الى نور وضياء ، يحتاج الإنسان في حياته وتصرفاته إلى نور وضياء ، واذا كان النور الحسي يصلح لكشف الأشياء المادية فان الانسان في عقيدته وعبادته ، ومبادئه وأفكاره يلزمه بجواز نور الحس نور العقل والنفس ، حيث يجمع بين البصر والبصيرة ، أو بين النظرة والفكرة» [2] . وهو لا يقدم لنا النماذج بلا هدف ، أو يقدمها بلا غاية ، وانما الغاية والهدف مرتبطان باتجاهين أساسيين اتجاه القدوة الذي يكشف لنا كشفا واعيا تاريخنا وامجاده الهادية ، ومثله الفادية الصادقة ، فيكون التأسي وحسن الاقتداء ، واتجاه الى الوقع الذي حدث وحل بالأمة لتتحرك وتنفض غبار المهانة عن جبينها ، وترفع كلمة الله عالية في الآفاق ، «هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره على الدين كله» (التوبة ٣٢).

«وحينما نسترجع ذكرى من ذكريات أمتنا الخالدة الماجدة بفضل ربها ونعمة دينها ، ينبغي أن يكون لنا من وراء ذلك الاسترجاع عظة وعبرة ، فنفقه دروس الماضي لنستفيد منها في الحاضر ، ونلحظ وجوه الموافقة أو المخالفة بيننا وبين آبائنا وأجدادنا ،لتقوي جانب الموافقة الطيبة المثمرة ،وتقاوم جانب المخالفة السيئة المردية ، وبذلك نسير على النهج القويم العظيم الذي سلكه الأخيار الأبرار من أسلافنا ، فعاشوا في عزة الاسلام ، ونور الإيمان ، ومضوا الى ربهم كراما عظاما ، «نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا انك على كل شيء قدير» (التحريم— الآية ٨) [3]

(١) المصدر ص ٢٥٧
(٢) المصدر ص ١٦٤
(٣) المصدر في ٥٦

ويذكر لنا معركتي «حطين» و«اليمامة» وغيرها من المعارك الكثيرة الظافرة والخالدة في التاريخ الاسلامي حتى نتصفحها تصحفا رشيدا ، يضع أمامنا كل ظروفها وملابساتها وأساليبها وخططها والتكتيك الحربي ، لنختار منها بعد دراسة ما يتوافق وطبيعة معركتنا الشرسة مع العدو.

واذا كانت المعركة لا بد فيها من تلاقي القائد مع الجنود ، على هدف واحد فلا بد أن يكون الصدق محور هذا التلاقي ، وأن يكون الحق هدفه.

ومن حقائق التاريخ الواضحة ، وشواهده اللائحة ، أن القائد لا بدَّ له من جنود مخلصين والحاكم لا بد له من بطانة صادقة وأتباع صادقين حتى يثق فيهم ، ويتحرك بهم ، ويعتمد عليهم. «وما أشد حاجة القائد الى الأنصار من حوله يؤيدون ويستجيبون له ، ويصدقونه النصيحة والتأييد ويوجهونه ويسددونه فان سيد البشرية محمدا صلى الله عليه وسلم قد قال ما بعث الله من نبيّ ، ولا استخلف من خليفة الا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، فالمعصوم من عصم الله تعالى[1] ».

فهل كان الباحث الفاضل الدكتور الشرباصي يشير في هذه اللمحة البارعة الى الواقع الذي كانت تحياه مصر قبل ثورة التصحيح؟ لا أدري على وجه القطع ، وان كنت لا أمنع ذلك ولا أستبعدْ!!!.

---

(١) المصدر ص ١٢٦

الكتاب السادس : «ان الله اشترى»

للدكتور أحمد الشرباصي

صدر هذا الكتاب عن دار الهلال في سلسلة «كتاب الهلال» العدد ٣٠٩ ، الصادر في رمضان سنة ١٣٩٦ هـ (سبتمبر سنة ١٩٧٦م) بمناسبة الذكرى الثالثة لحرب رمضان المجيدة.

ويقع الكتاب في مائة وثمان وسبعين صحيفة من القطع الصغير، ويضم أربعة وعشرين نموذجا من النماذج المجاهدة الخالدة.

والانطباع الهام الذي نلاحظه على هذه النماذج أنها شملت أسماء كثيرة من الأقاليم وقد اختارها الباحث لتمثل تلك الأقاليم المجاهدة ، فاختارها من فلسطين وليبيا والخليج وبالطبع الجزيرة العربية ، واختارها من صفات مختلفة وأصناف متنوعة من الناس منهم العابد والزاهد والقائد. والرامي ، وذو الرأي ، وحامل التراب والمجاهد باللسان والسنان ، والمجاهد والمعطاء والصادع بالقرآن ، والشهيد المبادر ، والمسارع الى الاستجابة ، وغيرها.

نوعيات مختلفة من الأمثلة الفدائية شملت أقاليم كثيرة ، وأوصافا كثيرة ، وحظيت فلسطين منها بنصيب لا بأس به.

ويذكر الباحث الأستاذ الدكتور الشرباصي في تصديره قوله : هذه سيرة محققة لمجموعة من النماذج البطولية التي صنعها رجال باعوا الله تبارك وتعالى نفوسهم ، وكل ما في أيديهم ، واشترى الله جل جلاله منهم هذه الأرواح والأموال ، فتقبل اعمالهم ، ورضي عنهم وأحسن لديه ما لهم ، بعد أن كتب لهم التوفيق حين كانوا يسعون بإيمانهم ونورهم بين الناس.

واذا قلنا : «أن الله اشترى» فمعنى ذلك أن الله ذا الجلال والكمال ، قد تفضل على عباده ، ووهبهم منة التعاقد معه ، بأن يضمن لهم نعيم الجنة وخلوده ، لقاء أن يجاهدوا في سبيله ، وأن يبذلوا الأرواح والأموال من أجل إعزاز كلمته ، وهي كلمة الحق والعدل والخير[1] .

والثمن الغالي هو الجنة ، وأنعم به من ثمن ، وهؤلاء الذين تعاقد الله معهم هم التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله «وبشر المؤمنين» (التوبة ١١٢٠).

ويذكر سبب نزول الآية ، وفيمن نزلت ، ثم يذكر بعد ذلك أن الحق تبارك وتعالى يحرض عباده والمؤمنين على أن يسلكوا طريق البذل والتضحية والفداء ، لكي يكونوا أهلا لشراء الله أنفسهم وأموالهم بالجنة ، ونعيمها الدائم المقيم ، ويقول في سورة النساء : «فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما» (الآية ٧٤).

ويقرر أن مما يدخل في نطاق هذا التعاقد الالهي الكريم البيعة الصادقة على الجهاد والثبات ، والحق جل علاه ، يقول في سورة الفتح : «إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما» (الفتح ــ ١٠).

ثم يقول : هذا سادس كتاب يصدر بفضل الله تعالى وعونه في موسوعة «رجال الفداء ، والحديث عن التضحية والوفاء ، لقد سبق إخوة خمسة له ... ثم جاء هذا الكتاب . ليضيف لبنة الى البناء ، وما زالت النية معقودة على متابعة الخطوات»[2] .

---

(١) المصدر في ٧

(٢) المصدر ص ١٢

ومن شمائل الفدائية المؤمنة كما يقول الباحث كمال الطاعة ، وتمام الاستجابة ، لأن الثبات في أداء الواجب الموكول الى الانسان طريق الفلاح والتوفيق »[١] .

« والذي يثير الإعجاب المستمر هو أن نرى أعلام هذه الأمة المحمدية المؤمنة ، كأن الله تعالى قد أتاهم ميزانا إلهيا دقيقا ، وزَنوا به مقومات شخصياتهم الاسلامية ، في تعادل كامل ، فهم رجال الدنيا ، ورجال الدين وهم رهبان الليل وفرسان النهار ، وهم أصل المادة والروح »[٢] .

ويطلعنا على بعض النماذج الحية للبشرية الفاضلة التي بدأها مبدعها وسواها ، وسما بمكانتها فأعلاها « ونحن نتطلع الى سير هؤلاء الأماجد ، فإذا هم أصفياء في طبائعهم ، أطهار في سلوكهم ، مؤمنون بربهم ، مجاهدون في سبيله ، بلا غرض أو مرض أو عرض ، لا يشغلهم عن رسالتهم النبيلة شاغل ، ولا يحول بينهم وبين رضاء ربهم حائل ، فقد آثروه على الأهل والولد وعلى السبَّد واللبد ، وأخلصوا لله وجوههم ، فهم لا يريد سواه ، ولا يتوجهون الى غير حماه ، وشعار كل منهم هو قول مولاه : « قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون »[٣] .

وبأمثال هذه النماذج قام بناء الإسلام الضخم الذي عز وساد وقاد ، يوم كان له من يضحي في سبيله بكل غال ونفيس ، وحاضر الأمة من ماضيها ، فهل من سبيل الى عودة الماضي الجليل؟ وهلا سألنا أنفسنا عن مدى اعتزازنا بديننا وحرصنا على إسلامنا؟ ، « وهلا تدبرنا قول الحق جل جلاله : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين « وهلا فكرنا في أن نعود الى صراط العزيز الحميد؟ »[٤] .

---

(١) المصدر ص ١٣

(٢) المصدر ص ٦٢

(٣) المصدر ص ٣١

(٤) المصدر ص ٣٠

واختيار الشرباصي لهذه النماذج اختيار موفق ، فهذه النماذج لها نكهة نفاذة ، اذ يحدثنا الكتاب عن أمير الرماة في « أحد » عبد الله بن جبير الذي دافع عن رسول الله دفاعا مستميتا مستبسلا حتى لقي الله شهيدا ، وعن الشهيد الممزق الأشلاء هشام بن العاصي الذي حبسته قريش عن الهجرة مع عمر بن الخطاب ، وظل سنوات في سجنه حتى احتال خالد بن الوليد لفكه ، وفي معركة « اجنادين » بفلسطين أبلى بلاء حسنا ، حتى سقط شهيدا فوق معبر ، فتمزقت أشلاؤه .

ويعطينا مثالا صادقا للفدائية الحقة في عباد بن بشر الذي كان أحد أبطال أربعة كلفهم الرسول بمهمة فدائية رقيقة هي القضاء على كعب بن الأشرف اليهودي ، الذي كان يحرض المشركين ضد المسلمين ، وكان يتطاول على أعراض المسلمين بالسب الفاحش ، ونفذ الرجال المهمة بنجاح ، وظل البطل ينتقل من معركة الى معركة ، ومن مهمة الى مهمة ، حتى لقي الله شهيدا .

ويعطينا أمثلة أُخَر لاعتزاز المسلم بدينه في أم المؤمنين « رملة بنت أبي سفيان » وفي أولية عمير بن الحمام ، كأول شهيد من الأنصار في بدر الذي استكثر أن يعيش حتى يأكل تمرات كانت في يده وقال : لئن عشت آكل تمراتي هذه إنها إذن لحياة طويلة « وفي المجاهد المحب للقيادة عمرو بن العاصي وعبقريته العسكرية في غزوة ذات السلاسل ، وحروب الردة ، وأجنادين وفتح مصر ، وفي ابنه عبد الله الصحابي الجليل الناسك الزاهد ، ومن المجاهد ذي الرأي الحباب بن المنذر الصحابي المفكر المدبر المستجيب المقدام الذي أشار على الرسول في بدر أن ينزل بجيشه أو في ماء من المشركين ويطم الآبار الأخرى ، فيشرب المسلمون ولا يشرب الأعداء ، وعمل الرسول بمشورته ، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ، حتى مات في عهد عمر بن الخطاب .

ويذكر المجاهد تميما الداري عابد فلسطين الذي شارك في غزوات للحق ضد الباطل في البر والبحر ، والذي كان ينقي الشعير لفرسه ابتغاء مرضاة الله ، ولم ينقطع عن الدعوة والارشاد الى سبيل الله ، وظل يعقد مجلساً يعظ فيه الناس حتى توفي ودفن في قرية « جبرين » من أرض فلسطين .

ويذكر «عبادة بن الصامت» أحد قواد فتح مصر— والذي جاهد في الله حق جهاده حتى مات، ودفن بالرملة، أو بيت المقدس من فلسطين.

ويذكر الشهيد المبارز ثابت الدحداح الأنصاري، شهيد أحد، والصحابي الفارسي الشاعر المجاهد البطل الفاتح عاصم بن عمرو التميمي الذي ابلى في فتوح العراق فارس بلاء حسنا، والذي كان أحد أعضاء الوفد أمام كسرى، وكان أول من عبر نهر دجلة في معركة «المدائن» مع ما في ذلك من أخطار، وكان مع أول كتيبة دخلتها فاتحة منتصرة.

ويذكر القعقاع بن عمرو التميمي المجاهد باللسان والسنان، الذي كان يقول فيه أبو بكر رضي الله عنه: «لا يهزم جيش فيه القعقاع بن عمرو» وقال فيه أيضا: «صوت القعقاع في الجيش خير من ألف رجل، وقد شهد القعقاغ فتح دمشق، وشهد اليرموك، وأبلى في القادسية بلاء حسنا، وحين كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص يسأله: «أي— فارس كان أفرس في القادسية؟ رد سعد بقوله: «إني لم أر مثل القعقاع بن عمرو، حمل في يوم ثلاثين حملة يقتل في كل حملة بطلا».

ويذكر عقبة بن عامر أحد الصحابة الذين اشتركوا في فتح مصر مع عمرو بن العاصي، وشهد كثيرا من الفتوح والمعارك، وكان الذي أشار بفتح دمشق، وأول من نشر الرايات على السفن وركب البحر مع الجنود بفتح جزيرة «رودس» ولقي ربه شهيدا، ودفن بمصر.

ويذكر شهيدا من الخليج هو الجارور بن عمرو العبدي الذي شارك في فتح فارس، وقتل في «عقبة الطين» غريباً بعيدا عن دياره.

ويذكر عدّي بن حاتم «الطائي، وزهير بن قيس البلوي أحد قادة الفتح الاسلامي الذي شارك في فتح مصر، وليبيا، وزامل عقبة بن نافع عدة سنوات في الجهاد، وظل بعد استشهاده ثلاثة عشر عاما يجاهد ويناضل، وكان قائد الجيش الذي جرده مروان بن الحكم لتأديب الروم لهجومهم على ليبيا وقد هزمهم زهير،

ومضى يجاهد حتى بلغ القيروان ، وانتهز الروم فرصة غيابه عن برقة ، فارسلوا اليها حملة بحرية ضخمة من صقلية ، وأعملوا فيها أيدي الفساد ، فسارع زهير مع نفر قليل من أصحابه ، وفي برقة ناضل زهير وتكاثر الأعداء عليه من كل جانب ، وهو يرفض الاستسلام حتى ذاق نعمة الشهادة ودفن « بدرنة » بليبيا.

ويذكر شيخ المجاهدين الليبيين في العصر الحديث «عمر المختار» الذي ناضل ضد الاحتلال الايطالي من أجل دينه ووطنه حتى أقلق المحتل ، وما أن ظفر به حتى أنشأ له « محكمة طائرة » فمثل أمامها رابط الجأش ، وقابل الحكم بالاعدام بنفس ثابتة ولقي ربه صابر محتسبا » .

وغير هؤلاء كثيرون ، ممن رصفوا طريق الفتح ، وعبدوا سبل الدعوة ، ورفعوا لواء الله في كل مكان ، وفوق كل ربوة أو ثنية مشركة ، وأخضعوا لكلمة الله رقاب الشرك والمشركين في شتى بقاع الأرض.

وهناك ملاحظة جديرة بالاهتمام نود تسجيلها ، وهي أنه بدأ الحديث في الكتاب الأول « الفداء في الاسلام » عن رسول الله ، ثم ختم الحديث في الكتاب السادس « ان الله اشترى » بالحديث عن رسول الله ، وكأن الفداء أوله رسول الله وآخره رسول الله.

منهج الباحث

المنهج هو الذي سار عليه الباحث الأستاذ الدكتور أحمد الشرباصي في هذه الموسوعة الفدائية منهج تكاملي أي أنه تاريخي فني تحليلي، أما التاريخ فهو مرتبط به ارتباطاً تمليه طبيعة الموضوع وظروفه، فهو يختار هذه النماذج من حقل التاريخ، وأضابيره، ومن السنة النبوية والقرآن الكريم والسير، وأمهات الكتب، وكان من الطبيعي، والموضوع تاريخي أن يتصل بالمنهج التاريخي اتصالاً وثيقاً، في تأصيل وبراعة وتوثيق، وفهرسة وتنظير وتنسيق، فهو قد تدخل في الاختيار ليتجاوب مع واقع الأمة المسلمة المعاصر.

ولكنه مع استغراقه في موجات التاريخ المتلاحقة، ودهاليزه ومنحنياته لم ينس الموضوع الذي اتجه اليه، والغرض الذي قصد، فاتجه الى عبر التاريخ يحللها، ويعللها، ويعطيها من ذات نفسه وخلاصة روحه نبض الروح، وهتاف الحياة.

ولقد قسم هذه الموسوعة الى ست حلقات، كل حلقة منها تسلم الى الحلقة الأخرى في ترتيب وتناسق، ووئام وتعانق، وسلسلة الحلقات متصلة مترابطة، لم تنفصم عراها فخصص **الحلقة الأولى** للحديث عن «الفداء في الاسلام» فحدد معناه، ومفهومه، وتحدث عن ألوانه وأنواعه وعن المسيرة الفدائية في التاريخ والقرآن، وضرب الأمثلة لها، وشرحها، ووصل الى العبرة والعظة ومواطن الاعتبار في تحليل وشرح وتعليل، ثم قدم بعض الأمثلة التي توضح العمل الفدائي وتبين المقصود به وأهدافه ومراميه.

ولقد كان هذا الكتاب أشبه بالفرشة التي تسبق الحديث، والتمهيد للأعمال كلها.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكان **الكتاب الثاني** «فدائيون في التاريخ» يعطي صوراً كثيرة ، وأنماطاً للفداء تجليه وتوضحه وتثبت دعائمه في النفوس ، حتى يكون للفداء ونماذجه ومعطياته واقع حي يحرك فينا الغيرة على القيم والحق ، والحرمات والحريات ، دون نفع شخصي ، أو متعة ذووية ، وأسمى ألوان الفداء ما كان ناهضاً على أساس الايمان.

ووضح لنا مواصفات الأمة المجاهدة ، وصفات المؤمن المجاهد ، وشروط الجهاد الصادق. لنتعرَّف على الفدائيين الأحقَّاء بهذه الصفة ، والفدائية الحقة التي نصح إطلاقها في صحة وقصد ، والواقعة موقعها ، وليكون جهادنا صادقاً ، ويعي الجندي المجاهد ، وتعي الأمة المجاهدة شروطها ومواصفاتها.

والكتاب الثالث : «أبطال عقيدة وجهاد» أعطى الشعار «التضحية والفداء» ووضع الأمة كلها في جهاد ، وأعدّها وهيأها له ، ذلك أن حياة المؤمن كلها جهاد على أي وضع من أوضاعها ، جهاد للنفس والشيطان والعدو ، وجهاد من أجل الدين والدنيا ، وجهاد قبل المعركة وبعدها بالإعداد والاستعداد ، ودعاها لليقظة والوعي والتأهب للانطلاق عند أول بادرة للالتحام والاقتحام ، ونوه بالكتمان ودوره في المفاجأة التي هي عنصر النجاح ، ونعى على المسئولين تشدقهم بالحرب دون أن يكون لذلك أثره وخطره ، وذلك هو الداء العصي الذي أُصيبت به الأمة المسكينة.

ثم ذكر أسباب الفوز : فالجهاد لا يكون بالبعد عن الله ، فالبعد عنه بعد عن الركن الشديد ، بعد عن النصر ، لأنه سبحانه هو الواهب له ، وما النصر إلا من عند الله.

ولا بدّ للأمة لكي تفوز من تحول أساسي خطير في مسيرتها ، «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» ولا بد من جمع الأمة العربية كلها والمسلمين جميعاً على كلمة واحدة ، ولا بد من الثبات على العقيدة القوية ، واستحضار الوازع الديني في كل نفس ، والتذكر الدائم لما حل بالأمة من نكسة مروعة ، فالنسيان وسيلة

الضياع ، وأسلوب المهانة ، ولا بد لكل فرد من أن يقوم بواجبه ويؤدي كل جندي المهام التي وكلت اليه ، وأن يحرص على الموت لتوهب له الحياة .

وفي الكتاب الرابع « بين الوفاء والفداء » قوّى الثقة والصلة بين الوفاء والفداء ، وأكد عليها ، لأن الأمة الماضية في مسيرتها لاسترداد الكرامة لا بد لها منهما معاً .

وقد أحس الباحث ، وأحسسنا معه بالخوف المضاعف على مستقبل الأمة بعد انتصارها في معارك رمضان المظفرة ، لأن المحافظة على الانتصار أشق من الانتصار ذاته .

ولهذا الخوف نراه يؤكد على بقاء الاستعداد والشحنة الروحية ، والتطبيق البصير للإيمان الماثل في القلب ، ويقرن بوعى المجاهد لدوره ، وثباته على الحق وملازمته للجهاد ، فحين تجتاز الأمة مرحلة خطيرة من تاريخها النضالي تتطلب الكثير من ألوان القوة والاستعداد ، ومن أهم هذه الألوان القدوة الطيبة الرائعة .

ثم حدّد أسباب النكسة من البعد عن الله والتفريط في جانبه ، وتجاهل النماذج المشرفة لبطولاتها ، وروح الفروسية ، فلا بد من القرب القريب من الله ، وتأدية واجباته ، فالإسلام يصوغ معتنقيه صياغة جديدة ، ومعايشته البطولات الخالدة للسابقين الأولين ، وأخذ الحذر من خيانة العدوّ وغدره .

وهو في الكتاب الخامس : « رجال صدقوا » يحدد معنى الصدق ، ويرى أننا في حاجة اليه في النية والعزم ، والوعد والوفاء والفداء ، ويؤكد على الجانب الروحي ، وبقاء الحالة النفسية عالية مرتفعة ، وهي تحتاج وتتأكد بالايمان ، إذ هو وحده الذي سيعيد إلينا توازننا النفسي إزاء الأحداث والصدق يقتضي المصارحة بكل شيء ، حتى يتفهم كل فرد دوره ، ويعرف واجبه ، وحتى تقوى الصلة بين الشعب والقيادة ، وبين القيادة والجنود والحملة الصادقة في قصد رائع لرد العدو ، وكسر شوكته .

وفي الكتاب السادس : « أن الله اشترى » يطلعنا على نماذج من البطولات

صاغها رجال باعوا لله نفوسهم وكل ما يملكون في سبيل أن تبقى راية الله، وكلمة الله عالية خفاقة.

وحدد معنى البيعة والشراء. ومن هو الشاري؟ ومن هم البائعون؟ وسبب نزول الآية وفيمن نزلت؟ وكيف أن الله يحرض المؤمنين على القتال فوزاً بالأجر؟ وذكر أن مما يدخل في نطاق هذا التعاقد الإلهي البيعة الصادقة على الجهاد والثبات، بقدر ما توعد الله على الفرار عند الزحف.

ويذكر انه يثير الإعجاب أن أعلام هذه الأمة وازنوا مقومات شخصياتهم في تعادل كامل بين المادة والروح فهم أصفياء أطهار، مؤمنون بربهم مجاهدون في سبيله بلا غرض أو مرض أو عرض.

وذكر الدكتور الشرباصي نماذجه البطولية التي تحدد قصده وتوضح مراده.

وكل هذا من خلال عرضه النماذج، وهو في صميم الموضوع وأصوله، وشرح وقائعه في تحليل وتعليل.

وقد عرض لنا في هذه المجموعة من الكتب سير مائة وأربعين من أروع المجاهدين وأصدقهم وأصلبهم، وأعظمهم في نفس الوقت، منهم خمسة وستون شهيداً، وثلاثة وعشرون من أولي الرأي وأرباب القلم وواحد وثلاثون من القواد والفرسان، وخمس نساء.

وهو عدد ليس بالقليل، يحتاج الى كد خاطر، وإعمال ذهن، وتعب ومشقة، ومراجعة وفحص وتدقيق وكل هذا من أسباب الشكر والتقدير للعمل وللباحث الكريم.

وقد ظهرت هذه الكتب على النحو التالي، الكتاب الأول وحده في سلسلة «اقرأ» دار المعارف، والثاني صدر عن دار الرائد العربي بلبنان، والثالث عن مجمع البحوث الاسلامية، والثلاثة الأخيرة صادرة عن دار الهلال في سلسلة كتاب الهلال على فترات متعاقبة.

الباحث

وقد استغرق الباحث في هذا العمل قرابة الثمانية أعوام ، بدأت قبل ظهور أول طبعة من كتابه الأول في فبراير سنة ١٩٦٩ وحتى آخر هذه المجموعة ظهوراً وهو كتاب «إن الله اشترى» الذي ظهر في رمضان ، سنة ١٣٩٦ (سبتمبر سنة ١٩٧٦) . وهو وقت طويل ، وجهد مشكور يُذكَر فيُشكَر للمؤلف ، الذي أعطى للمكتبة العربية في سخاء ، وأضاف إليها إضافة الثري المعطاء.

والمؤلف متعدد الموهبة فهو أديب ومحدث وشاعر وخطيب ، ومحاضر ، وكاتب وداعية وأستاذ جامعي وقد أفاده كل ذلك في أعماله تلك ، وظهر تأصيله في البحث والتحقيق والتمحيص ، والمراجعة ، واستعراض الآراء ، وبحثها ، وتصحيح الصحيح وتخطئة المخطيء بالدليل والحجة والبرهان.

وأفاده عمله كأستاذ جامعي في بحوثه ، فقد بقيت هذه الأنماط وتلك النماذج البطلة في بطون الكتب حتى اتجه اليها الباحث بفكره وذهنه وتخصصه ، وفتش في ذخائرها ، واستعرضها في بذخ وثراء على النحو الذي رأيناه.

ونراه يعرض الآراء في كل موقف ، ويعددها في كل معرض ، ويبين صوابها ، ويصوبه ويعرض خاطئها ويخطِّئه ، ونراه يصحح بعض الأخطاء.

وسوف نعطي بعض الأمثلة على ذلك تاركين للقرّاء استقصاءها وتتبعها ، وهي كثيرة.

أولاً : يذكر في «ان الله اشترى» عقبة بن عامر الجهني القائد الشهيد ، ثم يقول في نهاية الترجمة : «وينبغي أن نلاحظ أن هناك شخصاً اسمه أبو عمرو بن عامر كان يحدث في خلافة عبد الملك بن مروان ومات مقتولاً في «النهروان ، وهو من أصحاب

علي رضي الله عنه ، وهذا غير صاحبنا عقبة بن عامر الجهني الذي مات سنة ثمان وخمسين في خلافة معاوية على الصحيح[1] .

ثانياً : وفي كتاب «رجال صدقوا» يذكر وهو يتحدث عن قطرى بن الفجارة نقلاً عن الطبري أنه توفي سنة سبع وسبعين وقيل سنة ثمان وسبعين ، وقيل ان سفيان ابن الأبرز الكلبي توجه اليه فقاتله حتى قتل في المعركة بالرّي أو طبرستان ، وجاء في كتاب «العبر» للذهبي أنه قتل سنة تسع وسبعين وهذا هو الأرجح .

ثم يذكر أنه قد وقع خطأ في كتاب «تاج العروس» في مادة «فجأ» طبعة الكويت حيث جاء فيه أن قطرياً مات سنه تسع وسبعين ومائة ، وهذا خطأ ، فليصحح[2] .

أرأيت الرسوخ العلمي ، كيف يكون ، وكيف ينطق الانسان ، فيوثق عن ثقة ، ويخطىء عن ثقة ، ويصوب عن بينة ، ويستعرض عن بينة .

ثالثاً : في «أن الله اشترى» ذكر أن عدي بن حاتم الطائي توفي بالكوفة سنة ثمان وستين ، وقيل سنة تسع وستين بعد أن عاش أكثر من مائة سنة (رواية النواوي) ثم يذكر أن من الغريب أن الذهبي في الجزء الأول من كتابه «العبر» ذكر أولاً أن عدي ابن حاتم قتل في موقعة «صفين» سنة سبع وثلاثين ، ثم رجع بعد صفحات فقال : انه توفي سنة سبع وستين[3] .

ونكتني بهذا القدر من الأمثلة ، وننتقل الى إفادته من عمله كداعية وكمفكر اسلامي كبير وكواعظ أسير سابق ، وخطيب وموجه ومربّ .

وقد أفاد من عمله كداعية ورائد اسلامي ، فنراه قبل أن ينتهي من الحديث عن

---

(١) المصدر ص ١١٩

(٢) المصدر ص ١٥٠

(٣) المصدر ص ١٣٦

النموذج وبعد أن يعرض قصته نراه يعمد كثيراً الى التوجيه والتبصير والتوعية بالهدف، فيقول لازمته المشهورة :

«يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام» ويكررها كثيراً، ويبصر بالغاية، ويؤكد على الهدف من القصة ويرشد بمكانتها في الاعتبار، وقد كثر ذلك في عمله الأخير «ان الله اشترى» حتى أصبح طابعه الخاص ولازمة من لوازم هذا الكتاب.

وقد نرى الشرباصي يذكر في حديثه عن هشام بن العاصي الذي استشهد بأجنادين مثلاً وهي موضع بفلسطين، نراه يلفتنا في توجيه مؤلم وتذكير رشيد، فيقول : «أين هي الآن فلسطين يا جموع المسلمين، ردّها الله على العرب والمسلمين».

وهذا التذييل يعطينا انطباع الداعية، وتبصير المرشد، ولفتة الموجه، ورعاية المربي، الى ما تحمله القصة من سيرة وبطولة، وما تتغياه من هدف ومرمى، وإرشادات، ترمز اليه من معان وأبعاد، مع ربط كل ذلك بمتطلبات حياتنا المعاصرة، وواقعنا النضالي، وكأن هذه النماذج أمثلة يضربها ليؤكد قضية، ويذكر بهدف، ويبصر بغاية.

ثم لا ننسى أنه كان يعد هذه النماذج ليلقيها في خطب الجمعة، وهذا هدف ديني أيضاً، ويربط بين المثال وهدفه، والعبرة منه، وكأنه يوظفه لغاية.

ونرى روح الداعية تسيطر عليه وتتلبس به وهو يقص القصة أو يوجه الفكرة توجيهاً رشيداً، فيذكر مثلاً أن روح ابن زنباع زار تميماً الداري في بيته فوجده ينقي شعيراً لفرسه الذي يركبه في الجهاد، وحوله أفراد من أهله، فقال له روح : أما كان في هؤلاء من يكفيك هذا؟ فقال تميم : بلى.. ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «ما من أمريء مسلم ينقي لفرسه شعيراً ثم يعلفه عليه إلا كتب الله له بكل حبة حسنة».

يذكر هذا ثم يقول : وإذا كان تميم قد قال هذا بالنسبة الى فرسه، فمن الممكن

أن يقال ذلك عن آلات الجهاد المعاصرة ، كالطيارة والدبابة والمدرعة ، فليس هناك ما يمنعنا أن نفهم أن من صان دبابته مثلاً ، وأشرف على تنظيفها واعدادها ، وإمدادها بالنفط كان له بكل قطرة من النفط حسنة ، وإنما يتقبل الله جل جلاله من المتقين المخلصين الصادقين[1] .

وحفظه للقرآن ، وتمكنه منه جعله يستشهد به في براعة وتمكن مما جعل العمل أرخل في القوة ، وأحج فيه الحرارة والتوهج ، وأشاع في الأسلوب : القوة والأسر والجمال والحيوية والنشاط ، وقربه من السنة الشريفة واطلاعه الموسوعي ، وقربه من المؤلفات التراثية ، وذكاؤه وحصافته وصبره وجلده ، كل ذلك جعله يبحث وينقب في اقتدار ووعي ، فعصر رحيقها ، وقبس وبوّب وفهرس ونظم ، وأعطى انطباعه وذوقه وحسه ، وخلاصة أفكاره وفنه وجعله ينفق من ثمار اطلاعه وبحوثه ، ومن خزانة أفكاره ، ومنجم علمه في سعة وسخاء وثراء .

فنراه يجمع بين معارفه المتنوعة ما يكون منه صورة كاملة ناضجة نابضة للنموذج ، حتى يعرضه عرضاً وافياً واعياً ، وكأن معارفه الكثيرة المتشابكة المنظمة مساقط ضوئية تحيط بالصورة من جميع جوانبها ، وبروح الأديب وذوقه يعرض علينا هذه الأعمال ، وتلك النماذج الحية المتوهجة لأسلافنا في عرض جيد أنيق واع لكل ظروف الشخصية ووقائعها ، وأسلوب جميل ، وديباجة لا تكون إلا للشرباصي وله وحده .

ولو أن غيره عرضها لم نجد لها تلك الاستجابة الشهية ، في نفوسنا ، ذلك ، لأنه اقتبس النماذج الفدائية من التاريخ ، وحركها من سيطرته الآسرة ، وأضفى عليها من روحه نبض الحركة ، وعرضها في عبارات بلورية شفافة وصدق ينقلك إلى جوها ، ويجعلك تراها وتحسها وأحياناً تشمها ، فتراها وكأنه استعارها من الخلود ، وخلع عليها أبراد الحياة ، وجعلها تعايشك وجعلك تعايشها وتعايش الواقع المعاصر ، فنقله

---

(١) ان الله اشترى ص ٦٥

اليها أو نقلها اليه بدقائقها وتفصيلاتها، وحياتها النموذجية وروحها المتوثبة وحماسها وإيمانها وروحانيتها وعبيرها لتذكيه وعياً وحساً، وإدراكاً وشعوراً، ليعاود معها عملية البعث، واستنهاض الهمم والعزائم، ليتحمل مسئولياته ومهامه الجسام.

ملاحظات :

إلا أننا مع هذا العمل وضخامته، لا يمنع أن نلاحظ بعض الملاحظات، وأغلبها شكلي يعود الى أخطاء مطبعية ومثال ذلك :

أولاً — كما جاء في ذكرى عدي بن حاتم الطائي نقلاً عن الذهبي أنه «عدم بن حاتم»[1].

ثانياً — وكما جاء في قوله ان الله قد تفضل على عباده، ووهبهم منة التعاقد معهم، وصحته[2] «معه»

ثالثاً — ويهمنا هنا أن نذكر أيضاً أن المؤلف لو راعى التقسيم الزمني في النماذج أو النوعي لكان أقرب الى الإفادة، لأن الضبط والترتيب مقيدان للباحث وهما لا يكونان إلا من خلال التقسيم والتبويب اللذين يعطيان استنتاجاً حاسماً، ولو راعى القرابة مراعاة كاملة لكان أجدى، ولكنا نراه يجعل بين أبناء العاصي هشام وعمرو وعبد الله بن عمرو يضع بينهم رجلاً آخر هو عمير بن الجموح.

ولو جمع النساء في قرن لكان أفيد وأقوم، ولو أنه قصد الى أبطال أو شهداء كل موقعة فصنفهم معاً كان أنفع للباحث، وإن كان ذلك قد يمنع تتابع الموضوع وثراءه.

---

(١) «ان الله اشترى» ص ١٣٦

(٢) المصدر ص ٧

ونأمل وقد وعد الباحث أن يتابع الحديث أن يكتب لنا مُسجِّلاً بطولات معارك رمضان المظفرة ويقولون متى هو قال عسى أن يكون قريباً.

وإلى لقاء سريع مع ما وعد الدكتور الشرباصي به وإنا له لمنتظرون، أمد الله في عمره وقلمه، وشفاه وعافاه.

والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير.

دكتور
سعد عبد المقصود ظلام
جامعة الأزهر — كلية اللغة العربية
القاهرة



أمين الأمة

أبُو عبيدة بن الجَراح

تأليف

الدكتور أحمد الشِربَاصي

الرائد العام لجمعيات الشبان المسلمين



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

من القرآن الكريم

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ وٱلّذينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً، سِيمَاهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ، ذَٰلِكَ مثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ، ومَثَلُهُمْ في ٱلإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ، وَعَدَ ٱللهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وأَجْراً عَظِيماً».

(سورة الفتح)



شَهادَة من الرسول

روت كُتبُ السنة النبوية المطهَّرة عن حُذيفة بن اليمان أن جماعةً من أشراف نَجران — إحدى بلاد اليمن — قَدِموا سنة تسع للهجرة على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا له :

يا رسولَ الله، ابعث إلينا رجلا أميناً.

فقال : «لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حقَّ أمين حقَّ أمين» !. فتطلع الناس لهذا الشرف، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح !...



بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد اللهَ تبارك وتعالى على نعَمِه وآلائه ، ونصلي ونسلم على رسله وأنبيائه ، وعلى خاتمهم محمد وآله وصحبه وأتباعه ، ونسأله التوفيق في القول والعمل ، فهو الذي بقدرته وجلاله تتمّ الصالحات .

هذه دراسة لحياة البطل الإسلامي الكبير ، والصحابي الجليل : أبي عبيدة ، حاولت فيها أن أرسم بالقلم صورة لشخصه وأخلاقه وجهوده ، لتكون غذاءً روحياً للقارئ المؤمن ، ومثلا عالياً للدارس المنصف .

ولعل فيها مع ذلك قدوة وأسوة للموقنين ، وعظة للمعتبرين ، وصلة بين السابقين واللاحقين :

« إن أريد إلا الإصلاحَ ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

أحمد الشرباصي

الرائد العام لجمعيات الشبان المسلمين



تمهيد

جاء رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام إلى العالم الحائر المضطرب، مجيءَ المنقذِ من الحيرة، الهادي من الضلال، في يمينه القرآنُ المجيد الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، فترك محمد بذلك أخلدَ الآثار في الإنسانية، مما لم يتطاول إليه، أو مما لم يقدر عليه زعيمٌ أو مصلح، وشتانَ بين معتز برأيه وعبقريته ومجهوده، وبين رسول صَنَعَه الله على عينه، وأيدته قوةُ السماء، وعصمه الله القوي القدير.

ولما استجاب محمد لداعي ربه، ولحق بالرفيق الأعلى، لم تنقطع الآثارُ الروحية والدينية التي أثرها في الإنسانية بدين ربِّه الكريم، وبهديه العظيم، وسنته المطهَّرة، بل ازدادت سيرتُه وتاريخه بسبب ذلك التماعاً وارتفاعاً، فعكفت العقولُ والأقلامُ والألسنة، تكتب عن محمد وعن دين محمد، وعن سنة محمد، وظهرت في ذلك آلافُ الأسفار والكتب، ولا تزال تظهر لها أمثال وأمثال.

ولقد كان محمد صلواتُ الله وسلامه عليه رسولا نبيلا، ومصلحاً جليلا، لم تظهر عليه، ولا في تصرف من تصرفاته، ولا في حركة من حركاته، سمةٌ من سِمَات الأثَرة، أو علامة من علامات حب الذات، بل لقد تعب حيث استراح غيره، وجاع حين شبع سواه، وكان يرى نفسه مسئولا عن تخريج أتْباعِهِ أبطالا في كل ميدان من ميادين الحق والشرف والمجد، فلم يكن كالكثرة الغالبة من زعماء الدنيا وعشاقِ المناصب، الذين يحاولون بكل جهد ووسيلة أن يمتلكوا أسبابَ السيطرة والسلطان، فإذا بلغوا ما أرادوا، بطريق مشروع أو غير مشروع، جمعوا أزمَّةَ المجد والتصرف والشهرة في أيديهمُ، فكلّ منهم يحرص بما أوتي من حيلة وبراعة أن يكون هو وحده النجمَ الساطع وغيره نَكِرات، وأن يكون هو العملاق وغيره الأقزام، وأن يكون هو الممدوح المُثنى عليه بكلِّ لسان، وأن يكتفوا هم بالسماع والاستحسان.

نعم لم يكن رحمةُ الإنسانية وهادي البشرية محمدٌ كذلك، بل كان لا يميز نفسَه بشيءٍ، ولا يستأثر دون صحابته بشيءٍ، وكان فيهم كأحدهم، وكان حريصاً على تخريجهم أبطالا كبارا، ليكونوا نعمَ الخلفاء من بعده، فيحملوا شَريعتَه وهديَه إلى الناس، حتى يظل الوعدُ الإلهي بحفظ الذكر، وبقاءِ الدعوة، قائماً متحققاً صادقاً.

ولذلك كان صلوات الله وسلامه عليه يهيئ لأغلب صحابته، بل لجميع صحابته — حسب طاقته وإمكانه — الظروفَ والمناسبات التي يظهرون فيها، ويُبدون خلالَها ما كمن في أشخاصهم من هبات وعبقريات، وإذا ما تجلى في أحدهم شيءٌ من ذلك فرح به وهش له، وأثنى عليه، ورجا منه المزيد، وما كان يمنعه عن ذلك الإظهار، وذلك التكريم، صغرُ السن، أو قلةَ المكانة، أو تواضع النسب، أو ضآلة الحسب، وصدق القرآن المجيد حيث يقول فيه:

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ».

ومن هنا تخرج في مدرسة محمد العظمى كثير من القواد والعظماء، والعلماء والفقهاء، والزهاد والأتقياء، والمصلحين والحكماء، حتى صدق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يوم قال: «أصحابي كالنجوم، بأيِّهم اقتديتُم اهتديتم».

وكأن رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام كان يريد أن يجعل مبادئَ دينه، وقواعد هديه، وتعاليم سننه، حقائقَ ماثلةً في أناس وأشخاص، فيكون ذلك التطبيق مع تلك التربية العملية أفضلَ بكثير من تسطير السطور، وتقييد النصوص، مهما كانت هذه النصوصُ عظيمة ساميةً، منطوية على أجمل مقاصدِ الخير والحق والفضيلة.

ولقد قيل لداعية إسلامي كبير، كان يكثر من دروس التهذيب وخطب التأديب، في بلاغة وتأثير، دون أن يكتب مؤلَّفا: لماذا نراك تقول خُطَباً، ولا نراكَ

تؤلِّف كتبا؟... فقال ذلك الداعية الحكيم : إنني أريد أن أكوِّن رجالا ، ولا أريد أن أسطِّر أقوالا.

وكأني بهذا الداعية الألمعي قد استهدى في ذلك بهدي محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كانت الخصيصة الواضحة في المنهاج الموضوع لمدرسة النبوة هي العناية بتطبيق النصوص والمبادئ ، أكثرَ من تكرير هذه النصوص وتلك المبادئ ، وإنه لسهل عليك أن تحفظ الكثير من الحكم وبليغ الأقوال ، ولكن الذي يحتاج إلى مجهود هو أن تحوِّل تلك الأقوالَ إلى أعمال.

وإنك لتستعرض قوائمَ الذين تربَّوا في مدرسة محمد وتخرَّجوا فيها ، فإذا جموع وجموع ، كل فرد منها قد نبغ وسبق ، وترك في التاريخ صفحاتٍ عاطرة ، تتردد فيها الأبصار فتستضيء بها البصائر ، وعلى الرغم من كل هذا النبوغ وذلك السبق ، فقد ظلت شخصية محمد صلوات الله وسلامه عليه بسيرته وسنته بدرا ساطعا وسطَ هذه الهالة من الكواكب والنجوم.

وزاد ذلك البدرَ سطوعا ، أن الكاتبين والخاطبين داروا حولَ الشخصية المحمدية ، فأبدءوا في القول عنها وأعادوا[1] ، واتخذوها مادةً باقية دائمة للكتابة والخطابة ، وهذا جميل ومقبول ، وكذلك من الجميل والمقبول أن ينعطفوا أحياناً عن الحديث في الرسول إلى الحديث في خلفائه الراشدين الأربعة رضوان الله عليهم أجمعين ، لأنهم هم الذين ورثوا تبعاتِ الرسالة ، وحفظوا الأمانةَ من بعده ، وكانوا متبعين لا مبتدعين.

---

(١) ابدا الشيء مثل بدأ : فعله ابتداء. في أساس البلاغة للزمخشري «وأبدأ في الأمر وأعاد ، والله المبدئ المعيد ، وفلان ما يبدئ وما يعيد : اذا لم يكن له حيلة ، قال عبيد :

أقفر من أهله عبيد ... فاليوم لا يبدي ولا يعيد

وفيه أيضا : «ورأيت فلانا ما يبدئ وما يعيد ، وما يتكلم ببادئة ولا عائدة».

ولكنه من الخير بجوار هذا الحديث الفياض المعاد عن الرسول وخلفائه أن نتحدث عن أعلام الصحابة الآخرين ، ففيهم من كان يصلح للخلافة لو جاءها أو جاءته ، وفيهم آيات من آيات الله في عباده ، تتجلى منها العظمة والبطولةُ ومكارمُ الأخلاق .

وإذا لم نتحدث عن هؤلاء فسينساهم الأخلاف ، وسنجحد بتطاول الأمَد ما كان لهم من فضل وأثر ، وسنُوهم غيرَ الواقفين على التاريخ الإسلامي أن المدرسة المحمدية لم يكن فيها إلا زعيمها وأربعة طلاب نجباء ، هم الأربعة الخلفاء ، وأن هذه المدرسة قد عَقُمت بعد هؤلاء الأربعة فلم تلد بعدهم عظيما ، ولم تخرِّج عبقريا ، مع أنها خرَّجت من القادة الأئمة عشراتٍ وعشرات وعشرات .

ومن هؤلاء الأئمة القادة ، الذين نود أن نصحبهم في حياتهم ، وندرسهم في مواقفهم اللامعة ، ونقدِّم من أقوالهم وأعمالهم نماذجَ يُستَهْدَى بها ويستضاء ، البطلُ الإسلامي الكبير أبو عبيدة عامر بن الجراح رضوان الله تعالى عليه .

من هو أبو عبيدة؟

هو المسلم الجليل، والمؤمن المِقْدام، والصحابي الكبير، والعربي القُحُّ، عامر ابن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر بن مالك بن النضر... الخ.

ووالدته هي أُميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العُزّى بن عامر بن عميرة؛ وقد كان من نعمة الله على أمه هذه أنها عاشت حتى أدركت الإسلام، ووفّقها ربُّها للدخول فيه، وهي أيضاً تلتقي من جهة أمها مع ابنها عامر في النسب عند الحارث ابن فهر.

وقال محمد بن سعد— فيما يرويه ابن عساكر—: «في الطبقة الأولى من بني فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة— وهم آخر بطون قريش— أبو عبيدة بن الجراح».

وكُنْيَتُه هي «أبو عبيدة»، وقد اشتهرت هذه الكنيةُ، وغلبت اسمَه الأصلي وهو «عامر»، حتى أصبح الكثيرون لا يعرفونه، أو لا يذكرونه باسمه، بل بكنيته، كما أنه أصبح لا يُنسب إلى أبيه بأن يقال: أبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح.. إلخ؛ بل يُنسب إلى جَدِّه والد أبيه، فيقال: أبو عبيدة بن الجراح؛ ومثلُ هذا يحدث كثيراً في نسب الكبراء والعظماء...

ولقبه هو: «أمين هذه الأمة»... وقد أطلق عليه هذا اللقبَ نبيُّنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، فكساه بذلك حلةً من الثناء لا تبلى مفاخرُهَا، وطوَّق جيدَه بوسام دونَه الأوسمة، وكيف لا وقد نعته بأنه أمينُ الأمة الناجية الوسطى، الشاهدة على الناس يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والأمانة هنا جاعُ محامد وملتقى مفاخر، والواصف هو الصادق المصدوق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!...

ولعله يمر علينا حديثٌ آخر عن هذا اللقب فيما نستقبله من هذه الدراسة...

أبو عبيدة في الجاهلية

لم تنبسط صفحاتُ التاريخ في العهد الجاهلي للحديث عن أبي عبيدة ، فقد كان العهد عهدَ جاهلية وأمية وتشتت وضياع ، كما أن أبا عبيدة لم يكتب اسمَهُ في سجل الخالدين إلا بنعمة الإسلام ، والجهاد الصادق المظفَّر لإعلاء كلمة ربِّ العالمين... ولن يضير أبا عبيدة شيءٌ من هذا ، فأغلبُ الذين التمعت أسماؤهم في صدر الإسلام قد ضنَّ عليهم التاريخُ في العهد الجاهلي ببسط القول والحديث.

وبرغم هذا فالتاريخ يحدِّثنا بأن ابا عبيدة كان جليلا في أثناء الجاهلية في ناديه ، مهيباً في قومه ، مستشاراً لديهم ، مشهوراً بحسن الرأي والدهاء ، حتى قيل في ذلك : «داهيتا قريش أبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح»...

ولعله لا يقصد من الدهاء هنا ما تعارف الناس عليه أخيراً في معنى الدهاء ، من أنه الاحتيال وبراعة المداورة والمحاورة ، بل يُقصد به التفكير الصائب ، والنظر البعيد ، والرأي السديد.

ومن هنا اجتمع أبو بكر مع أبي عبيدة في قولتهم السائرة السابقة ، مع اختلاف طبيعة أبي بكر الهادئة الذاكرة عن طبيعة أبي عبيدة المجاهدة الثائرة... وهذه القولة تدل على مكانة ملحوظة لأبي عبيدة رضي الله عنه إذ يكتني أن تقرنه مع أبي بكر في سبَبَ ، وأبو بكر رضوان الله عليه هو من هو في جاهليته وإسلامه.. فكيف والقولة تجمع بينهما في صفة تدل على تهيؤ صاحبها من أول الأمر ليكون شيئاً مذكوراً في هذه الحياة؟!.

وسمو مكانة أبي عبيدة في الجاهلية مع علو رتبته في الإسلام ، من أسطع الدلائل على صدق الرسول صلوات الله وسلامه عليه يوم قال : «الناس معادن ، خيارُهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

وإذا انطوى المرء على مواهبَ وقوى ملحوظة في الجسم أو العقل أو الروح ، فإنه يكون صاحب تأثير واسع فيمن حوله بوساطة تلك المواهب ، وإذا كان تأثيره بها سيئاً وخطيراً ؛ من سوء التوجيه ، أو قلة التعليم ، أو ضلال البيئة ، فما يحتاج هذا الشخص إلا الى تحويل اتجاهه برفق وحكمة من شطر الضلال إلى شطر الاستقامة ، فإذا هو قوةٌ خيِّرةٌ ظاهرة ، كما كان قوةً شريرةً ظاهرة ، وفي ذلك ما فيه من الإشارة الى وجوب البراعة في حسن توجيه القوى الى الخير ، وجميل التأتي لهداية الفحول من الرجال إلى شرعة الحق والبر ، حتى يتسعَ الانتفاعُ بهم في ميدان الرحمن.

* * *

ولم يشأ التاريخ المأثور عن الجاهلية أن يحدِّثنا عن العام الذي وُلد فيه أبو عبيدة... وأين كان القوم الغارقون في شن الغارات وشفاء الحزازات من الاهتمام بتسجيل سنوات الميلاد؟!.

إلا أننا نستطيع أن نستنتج على وجه التقريب السنةَ التي وُلد فيها أبو عبيدة ، فقد ذكرت كتبُ السيرة أن أبا عبيدة قد شهد غزوة بدر وهو ابن إحدى وأربعين سنة ، وغزوة بدر كانت في السنة الثانية بعد الهجرة ، فيكون أبو عبيدة قد وُلد في العام التاسع والثلاثين قبل هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه من مكة إلى المدينة ، وإذا تذكرنا أن الرسول قضى قبل الهجرة ثلاثة عشر عاماً بعد بعثته في مكة استطعنا أن نقول بتعبير آخر : إن أبا عبيدة قد وُلد في العام السادس والعشرين قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام...

سبق أبي عبيدة إلى الإسلام

«والسابقون السابقون، أولئك المقرَّبون»... لقد ظهر نورُ الإسلام ليهديَ الحيارى إلى سواء السبيل، فغشّى الكثيرون أبصارَهم بحُجُب العناد والمكابرة والكفران، وتردد البعض في مفترق الطرق فأخذتهم غواشي الريب والشك، وسارعت «ثُلَّةٌ من الأولين» إلى ضوء الله المبين، فأذعنوا للدعوة، واستجابوا لها، واستضاءوا بها، وكان لهؤلاء شأن أي شأن عند الله وعند رسوله، وقد لاقَوْا من البُشرَيات والتكريم من الرسول ما هو كِفَاءُ أقدامهم وإسراعهم إلى الدخول في الدين الجديد، وهو لا يزال يتلمس المنافذ إلى القلوب في خِفية وحذر...

من هؤلاء السابقين أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي لم يكتف بإسلامه وصدق معاونته للرسول، بل كان يدعو إلى الإسلام سرّاً في أناة وحكمة، وكان يُقبل على أُناس يتخيرهم بأعينهم، ويناجيهم حول الإسلام حتى يقنعهم بأحقيته وجماله، فيدخلون فيه طائعين مختارين.

ورُوي أن أبا بكر توسم في أبي عبيدة بن الجراح ذكاءَ قلبٍ وصفاءَ فطرة، فحدَّثه عن الإسلام، فسرعانَ ما شرحَ الله صدرَه له، وأزال عن بصيرته حجابَ الشك والريبة، واستجاب لتوجيهِ الصدِّيق، وانطلق مع نفرٍ من كرام العرب فيهم أبو سَلَمة بن عبد الأسد، وعبيدةُ بن الحارث بن المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعاد عليهم شرحَ الإسلام، وحببهم فيه، فأسلم هؤلاء جميعاً في ساعة واحدة، وبذلك دخلت كتيبة جديدة في دين الله، فاعتز بهم واعتزوا به، وكان ذلك في أول الدعوة، قبل أن يدخلِ النبي صلوات الله وسلامه عليه دارَ الأرقم بن ابي الأرقم، وقبل أن يتخذها مكاناً لدعوته وتبليغه.

* * *

ونحن نلاحظ أن أبا عبيدة قد دخلَ الإسلامَ وعمرُه يزيد على الخامسة والعشرين ، ومعنى هذا أنه دخله وهو في وسط عمره وزهوةِ شبابه ، فليسَ حَدَثاً صغيرَ السن ، حتى يقال إنه كان مسيَّراً مأخوذاً أو مخدوعاً مبهوراً بإنسان أو بيان ، ولم يكن طاعناً في السن ، حتى يقال إنه قد وهنت عزيمته ، وقارب الوقتَ الذي يفيء فيه المرءُ بعدَ ضلال ، ويهتدي بعد جموح ، بل أسلم وهو شاب مكتمل الجسم والعزم والتفكير ، لو وجد قوةً لدافعَها وقاومها ، ولو وجد إغراءً غيرَ شريف أو غير نظيف ، لنبت أمامَه ، واستعصى عليه ، ولتولدت فيه روحُ العناد والثورة ، ضدَّ هذه الطريقة الملتوية التي تريد أن تلفته عن رجوليته وكرامته .

ولو وجد أبو عبيدة حين دُعي إلى الإسلام باطلاً في ذلك الدين الحنيف ، أو منكراً في تلك الدعوة السمحة لما ارتضى ذلك لنفسه ، ولا قَبِلَ الباطلَ لعقله ، بل لجاهدَ جهادَ الأحرار .

ولكن أبا عبيدة استعرض الإسلام وفيه مقوِّماتُ التفكير ، والتقدير ، والتمييز ، والاختيار ، فما وجد هناك خديعةً ولا تغريراً ، وما وجد باطلاً أو منكراً ، بل وجد نوراً وضياء ، ووجد حقاً وبرهاناً ، ووجد قانوناً دقيقاً تتمثل فيه العدالةُ بأكمل صورها ومظاهرها : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيراً يَرَهُ ، ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شرّاً يَرَهُ » .

فأسلمَ أبو عبيدة لذلك إسلامَ الأقوياء الأصحاء العقلاء الذين لم يداخل إيمانهم جهلٌ أو تغرير أو خشية .

ونستفيد من الموقف فائدتين ، أو نصل فيه إلى نتيجتين منطقيتين ، الأولى هي معرفة ما يشتمل عليه هذا الدين الإلهي العظيم من حق باهر ، وحجةٍ بالغة ، وشواهدَ ساطعة قاطعة بأنه دين الحقِّ ودين العقل « وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ » ، « قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيْناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهيمَ حَنيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكينَ » .

« الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ ».

والفائدة الثانية هي أن البطل العظيم أبا عبيدة — وقد كانت تلك ظروف إسلامه، واستجابته لربه — سيخلص لهذه الدعوة الإلهية الكريمة التي ارتضاها مؤمناً، واعتنقها مختاراً، وأقبل عليها موقناً.

وسيكون الجنديَّ المتفتح القلبِ لها، المكينَ الصلة بها، البعيدَ الأثر فيها، لأنه لم يغرَّر به فيها، ولم يدلس عليه في أمر من أمورها، بل تلقاها تلقيَ الرجلِ الرشيد، الذي يعرف ما يضره وما ينفعه، ويزن الأمور فيعتدل ميزانه.

وكذلك العهد بدين الله: ما تلقاه صحيح رشيد إلا آمن به، واستجاب له، ولا عجب فهو الهدى وهو النور:

« قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ».

أبو عبيدة من أهل الهجرتين

أسلم أبو عبيدة كما ذكرنا، وكان من أهل السبق في الإسلام، ولم يكتفِ بإسلامه وعكوفِه على عبادة ربه، بل أحسن صحبتَه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، واحتمل في سبيل تلك الصحبة ما احتمل الكرامُ الأولون في صدر الإسلام: من عَنَتٍ واضطهاد، وعذاب وإرهاق، حتى رأى نفسه مضطراً للهجرة إلى الحبشة، ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة، فصار بذلك من أهل الهجرتين.

وهذا شرفٌ لم ينله الكثيرون، لأن الجمعَ بين الهجرتين في صدر الإسلام وسامٌ عظيم من أوسمة الشرف والمجد، إذ في الهجرة إلى الحبشة تعرَّضَ القومُ لفراق الموطن والأهل والمال، وتعرضوا لمشقات الرحلة والسفر، وتعرضوا لركوب البحر الذي لم يعتادوا ركوبه، ولا أهواله، وتعرضوا للقدوم على بيئة جديدة، وقوم غرباء لم يروهم من قبل، فإما أن يحسنوا لقاءهم، وإما أن يسيئوا إليهم، فهو على كلّ حال بلاءٌ واختبار، وعند الامتحان يُكرَمُ المرء أو يهان... ومن الامتحان نفهم معنى المحنة.

وفي الهجرة إلى المدينة وسامٌ آخر من أغلى أوسمة الفخار بنعمة الله الكبرى، إذ فيها أيضاً ارتحالٌ وغربة، وفراقٌ لأوطان وأموال واستقرار، وفيها إيثارٌ لما عند الله على ما عند الناس، وفيها تهيؤ لجهاد طويل في سبيل الدعوة، وفيها بيعٌ للنفوس والأرواح إلى الله العلي الشكور الذي اشترى من المؤمنين أنفسَهم وأموالهم بأن لهم الجنة...

ولذلك نرى القرآن الكريم يحتفل بشأن المهاجرين، ويعطِّر ذكرَهم فيه، ويسجّل لهم بإخلاصهم أعظمَ المكانة والثواب، فنراه يقول:

«إِنَّ ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ ٱللهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللهِ وٱللهُ غَفُورٌ رَحيمٌ».

(سورة البقرة ٢١٨)

ويقول: «فَالَّذِيْنَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأُوذُوا في سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ، وٱللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوابِ»

(سورة آل عمران ١٩٥)

ويقول: «إِنَّ ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِيْنَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وٱلَّذِيْنَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا، وَإِنْ ٱسْتَنْصَرُوكُمْ في ٱلدِّيْنِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيْثَاقٌ وٱللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

(سورة الأنفال ٧٢)

ثم يعود فيقول: «وَٱلَّذِيْنَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيْمٌ».

(سورة الأنفال ٧٤)

ويقول: «ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيْلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ».

(سورة التوبة ٢٠)

ويقول : «وَٱلَّذِيْنَ هَاجَرُوا فِي ٱللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ، ٱلَّذِيْنَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»

(سورة النحل ٤١ ، ٤٢)

ويقول : «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِيْنَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ، ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ، إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُوْرٌ رَحِيمٌ» .

(سورة النحل ١١٠)

ويقول : «وَٱلَّذِيْنَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللهُ رِزْقاً حَسَناً ، وَإِنَّ ٱللهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّازِقِينَ ، لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ ، وإِنَّ ٱللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ» .

(سورة الحج ٥٨ ، ٥٩)

ويقول : «لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَاجِرِيْنَ ٱلَّذِيْنَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً ، وَيَنْصُرُوْنَ ٱللهَ وَرَسُولَهُ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» .

(سورة الحشر آية ٨)

ولقد هاجر أبو عبيدة فأحسنَ الهجرةَ : هاجر إلى الحبشة أولاً وهاجر إلى المدينة ثانياً ، وجاهدَ أحسنَ الجهاد ، فلينتظر أجْزَلَ الثواب...

أمين هذه الأمة

كان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقِّبَ صحابَتَه الأكرمين بألقابٍ تصوِّر فضائلهم، وتزكي نفوسهم، وتقدِّر جهودهم، ولم تك هذه الألقاب هينة رخيصة الثمن، ولم يكن السبيل إليها مالاً أو جاهاً أو نسباً، بل كان طريقُ الوصول إليها إيماناً صادقاً، ويقيناً بليغاً، وعملاً موصولاً، وتعباً مرهقاً في سبيل الله والدعوة.

ولقد أقبل أبو عبيدة رضي الله عنه على الإسلام راضياً مقتنعاً، مخلصاً متثبِّتاً. فكان لذلك شديداً في دينه، عميقاً في عقيدته، مخلصاً في صحبته، متفانياً في خدمة الرسول وخدمةِ الدعوة، متمسكاً بعروة الله الوُثقى التي لا انفصام لها، فأنعم عليه الرسول بلقب كريم، كان يغبطه عليه كثيرٌ من الصحابة، وهو لقب: «أمين الأمة». ويا له من نعت نبوي عظيم الدلالة، يصوِّر ما استبان للرسول في أبي عبيدة من إيمان وإخلاص وأمانة.

أخرج الحافظ الجزري في «أُسْد الغابة» عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل أمة أمين، وإن أميننا — أيتها الأمة — أبو عبيدة بن الجراح[1]».

---

(١) ورد هذا الحديث بروايات مختلفة في صحيح البخاري ومسند أحمد، وتاريخ الخطيب (الجامع الصغير للسيوطي). فرواية أحمد في مسنده عن عمر هي: «ان لكل نبي أمينا، وأميني ابو عبيدة بن الجراح». ورواية البخاري عن أنس: «ان لكل أمة أمينا، وان أمين هذه الأمة ابو عبيدة بن الجراح». ورواية الخطيب عن ابن عمر: «ان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، وان حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس». وفي كتاب «النهاية» لابن الأثير جاءت رواية هي: «لابعثن اليكم رجلا أمينا حق أمين» أي صدقا، وقيل واجبا ثابتا له الأمانة، النهاية لابن الأثير، ج ١ ص ٢٤٣.

وأخرج ابن عساكر عن حُذيفة قال : جاء أهل نجران[1] إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : ابعث لنا رجلاً أميناً ، فقال : «لأبعثن إليكم أميناً حقَّ أمين» ، فاستشرف لها الناس — أي تطلع لها الصحابة ، وطمع كلٌّ في أن يكون صاحبَ هذا النعت ، والفائزَ بتلك البشرى — فبعث النبي صلى الله عليه وسلم معهم أبا عبيدة بن الجراح .

وفي رواية : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا : يا رسول الله، إبعث معنا أميناً حقَّ أمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «نبعث معكما رجلاً أميناً حقّ أمين» ، فاستشرف لها أصحابُ محمد ، فقال النبي : «قم يا أبا عبيدة» !.

ويروي ابن هشام الموقف في سيرته بالعبارة التالية :

«... فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألّا نلاعنَك ، وأن نتركك على دينك ، ونرجعَ على ديننا ، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا ، فإنك عندنا رِضاً» .

قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ائتوني العشيّةَ أبعثْ معكم القويَّ الأمين». فقال : فكان عمر بن الخطاب يقول : ما أحببت الإمارةَ قَطُّ حبّي إياها يومئذ ، رجاءَ أن أكونَ صاحبَها ، فرحت إلى الظهر مهجِّراً (مبكراً) ، فلما صلى بنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الظهرَ سلّم ، ثم نظر عن يمينه وعن يساره ، فجعلت أتطاول له ليراني ، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة ابن الجراح ، فدعاه فقال : «أخرج معهم ، فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه» .

---

(١) نجران : بلدة بين هجر واليمن ، انتشرت فيها المسيحية في العصر الجاهلي ، وقد فتحها المسلمون سنة عشر من الهجرة ، ولم يرض وفد نجران بالاسلام ، بل امتنعوا عن قبوله ، ورضوا باعطاء الجزية ، فكانت ألف حلة في صفر ، وألف حلة في رجب ، ومع كل حلة أوقية من الذهب .

قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة ! !...

وروى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن أهل اليمن قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله، ابعث معنا رجلاً يعلِّمنا السنة والإسلام، فأخذ النبي بيد أبي عبيدة فقال: «هذا أمينُ هذه الأمة».

ونوفِّق بين هذه الرواية ورواية وفد نجران بأن نقول: إن كان المراد من أهل اليمن في الحديث الأخير هم وفد نجران فالقصة واحدة، وإن كانوا غيرَهم فتكون هذه قصةً أخرى[1].

ولعلك تستطيع أن تلمح فيما تستقبل من مواقف أبي عبيدة ومظاهر إخلاصه وإيمانه مسوِّغات ذلك التكريم الجليل.

---

(١) التاج الجامع للأصول، ج ٣ ص ٣٤١.

الله خير وَأبقى

لقد كان أبو عبيدة عربيّاً خالصاً ، وفي بيئته احترامٌ شديدٌ للآباء ، وخضوع مطلق أمامَ سلطانهم ، ولقد ظل أبو عبيدة على هذا الوضع سنواتٍ طوالاً استمرت حتى زادت على خمس وعشرين ، ولكن الإسلام جاء فجذب عامراً إليه ، وعَلمه أن هناك ما هو خير من الآباء وأبقى من الأبوة...

هناك العقيدةُ التي يفتديها صاحبُها بالأب والأم والولد والنفس ، وهناك الله ربُّ الأرباب ، وسيد الآباء والأبناء ، وواهب الحياة وموجد الأحياء ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجد حلاوةَ الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يُقْذف في النار» . وقال : من أحبَّ لله ، وأبغضَ لله ، وأعطى لله ، ومنع لله ، فقد استكمل الإيمان» .

ها هو ذا الرسول صلوات الله وسلامه عليه يهاجر ، ويتخذ من المدينة داراً للنصرة ، ومركزاً للقيادة ، ويؤخي بين المهاجرين والأنصار ، ويُعدهم خيرَ إعداد للانتصاف من الكافرين الذين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربُّنا الله ، واختار الرسول لأبي عبيدة المهاجر أخاً كريماً عظيماً من بين الأنصار ، هو سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه .

وبدأ الجهاد بين الكتيبة المؤمنة الناشئة ، وبين كتائب الطغيان والكفران العاتية ، وحرص أبو عبيدة على أن يشهد المشاهدَ كلَّها مع الرسول ، وكانت غزوةُ بدر أولى هذه الغزوات ، وكان المسلمون يومها قلةً في عددهم وعدتهم ، حتى طمأن الله

خواطرَهم وجنوبَهم بنصرة الملائكة تأتيهم من السماء: «وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

(سورة آل عمران ١٢٣)

وكان أبو عبيدة رضي الله عنه من السابقين المقدَّمين الثابتين يوم بدر، ومن سوء حظه — أو من حسن حظه — أن والده عبد الله كان يومئذ في صفوف المشركين، وخرج يقاتل المسلمين في بدر، ورأى أبو عبيدة أباه في صفوف الكافرين، وإنه لولدٌ يحترم والدَه، وابن لا يستطيع أن يجحد معانيَ الأبوة في قلبه، ولكنه فوق هذا مؤمن قد أسلم وجهه لله، والله أعلى وأكبر.

وكأنما أراد أبو عبيدة أن يوفِّق ما استطاع بين حقِّ أبيه وحقِّ دعوته، فجعل يَحْذَر لقاء أبيه في المعركة، وينأى بعيداً عنه، يجاهد في جهات غير الجهة التي فيها أبوه، راجياً أن يكفيه غيرُه شأنَ أبيه، ولكن الوالد الكافر المُدِلَّ بأبوته، المتكبِّر بعنجهيته، جعل يتصدى لابنه ويتعرض. والابنُ يحاذرُه ويُعرض عنه، ولكن الوالد أكثرَ من التصدي والقصد. فما كان من أبي عبيدة رضوان الله عليه في الخالصين المخلصين، إلا أن نسيَ الأبوةَ والبنوة. ولم يذكر إلا ربه ودعوته، فأقدم على أبيه فقتله إزهاقاً لروح الباطل الطاغي، وإحقاقاً لكلمة الحق المستضعفة بين الباغين، وكان ذلك العمل شاهداً جديداً من أبي عبيدة على يقينه وإخلاصه وأمانته، وكان ذلك الإقدام نهايةَ الإيمان عند المؤمنين...

ويُروى أنه قد نزل في ذلك قولُ الله تبارك وتعالى في سورة المجادلة:

«لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ والْيَوْمِ ٱلآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَإِنْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ، وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ، ويُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِيْنَ فِيْها، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، أُوْلَئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ».

(سورة المجادلة ٢٢)

وصدق الله العظيم حيث يقول في سورة التوبة : «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ، وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» .

(سورة التوبة ٢٤)

وصدق الشاعر المسلم يوم ترجم عن هذا المعنى السامي بشعره فقال :

أبى الإسلامُ لا أبَ لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أَو تميم !

* * *

وفي رواية ذكرها النووي في «تهذيب الأسماء[1]» أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين أبي عبيدة وبين بلال بن أبي رباح الحبشي مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام...

وبلال هو ابن حمامة مولاة لبني جمح ، وأبوه هو رباح الحبشي ، كان عبداً لأمية بن خلف ، وبلالٌ نفسه كان عبداً لأمية ، واشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه..

وأبو عبيدة هو الحر ابن الحر ، وهو الحر ابن الحرة ، وهو العربي ابن العربي ، ولكن الإسلام جاء فسوّى بين الناس...

فانظر إلى المؤاخاة في الله كيف جمعت وألّفتْ ، وانظر إلى الإسلام ماذا صنع بهذه النفوس ، وكيف صاغها من جديد صياغة الصفاء والنقاء؟!...

(١) كتاب تهذيب الأسماء ج ١ ص ١٣٦ .

أبو عبيدة يوم أُحد

نُكبت قريشٌ يوم بدر نكبةً كبرى ، واستطاع ثلثمائة مسلم أن يدحروا قرابةَ ألفٍ من المشركين ، فيقتلوا منهم ، ويجرحوا ، ويأسروا ، ثم يغنموا .

فاغتاظت قريش وجمعت جموعَها ، وخرجت بأشرافها ونسائها وقيانها ومعازفها وخمورها ، تريد لقاءَ المسلمين مرة ثانية في أحد ، ليأخذُوا بثارات بدر ، وخرج الرسول بالمسلمين لقتال المشركين بعد أن خطب قومَه وقال لهم :

«لكم النصر ما صبرتم» .

وأعجب بعضُ المسلمين بكثرتهم وقوتهم ، ولكن الله أراد غير ذلك .. أراد أن يذكرهم ويحذرهم ، فعصى الرماةُ أمرَ الرسول فاضطرب أمر الجميع ، وأقبلت الهزيمة بشدائدها ، وتقهقر بعضٌ وفرَّ بعض ، وثبت قليلٌ بجوار الرسول .

ولقد كان أبو عبيدة رضي الله عنه أحدَ أولئك الذين ثبتوا ورابطوا وأحاطوا بالرسول يدافعون عنه ويفدونه بأنفسهم ، ولما جُرح الرسول ودخلت حلقتان من المغفر في وجنته الشريفة أقبل عليه أبو عبيدة ، وأخذ يعالج نزعَهما بأسنانه ..

وأبو عبيدة صحابي محب للرسول ، فهو إذ يحاول نزعَ الحلقتين يحاول ذلك بلين ورفق ، حتى لا يؤذي الرسولَ ولا يؤلمه ، ولكن الحلقتين غائرتان ، فلا بد لهما من شدةٍ ما في النزع حتى يخرجا ، وإن أبا عبيدة ليترفق تارة ، فيرى ألم الرسول ، فيريد أن يقطع هذا الألم بسرعة فيشتد في النزع ، فيخشى على الرسول عاقبةَ ذلك ..

وهكذا تتعرض نفسه في أثناء ذلك لمختلف الأحاسيس ومتناقض العواطف ، ولكنه يتجلد ، ويستعين ربه وينزع الحلقتين من الوجنة الطاهرة الشريفة ، ولكنهما

تنزعان في مقابل ذلك ثنيتين من أسنان أبي عبيدة رضي الله عنه ، فأصيب بالهتم ، وهو عيب في غيره ، ولكنه صار جمالاً عنده ، إذ حسن فمه بعد نزع الثنيتين «فما رؤي قط أحسن منه هتماً» كما يقول التاريخ ، وذلك بفضل البركة النبوية ، والإخلاص في العمل ، والتوفيق أولاً وأخيراً من الله تبارك وتعالى الذي لا يضيع أجرَ من أحسن عملاً .

ولقد قص سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه هذا الموقفَ بأسلوب واضح بليغ فقال :

«لما كان يوم أحد ، ورمى الرسول — صلى الله عليه وسلم — في وجهه ، حتى دخلت في وجنتيه حلقتا المغفر[1] أقبلت أسعى نحو الرسول ، وأقبل إنسان من المشرق يطير طيراناً ، فلما توافينا عند الرسول وجدته أبا عبيدة ، وقد سبقني فقال : أسألك بالله ، «يا أبا بكر» أن تتركني لأنزع من وجهه — عليه السلام — الحلقتين ، فنزعها حلقة حلقة ، وسقط مرتين على ظهره ، وسقطت له ثنيتان[2] ، فكان أثرم[3] بعد هذا» !.

أنظر — يا رعاك الله — إلى تعبير أبي بكر : «وأقبل إنسان يطير طيراناً» ألست تجد في ذلك عمقَ الحبِّ من أبي عبيدة للرسول، وصدقَ وفائه له؟. ثم انظر الى قول أبي بكر أيضاً : «وقد سبقني فقال : أسألك بالله يا أبا بكر أن تتركني لأنزع من وجهه عليه السلام الحلقتين» !. أرأيت كيف تعجل الخيرَ فحرص على أن يسبق فيه؟. أرأيت كيف سأل أبا بكر ، وأقسم عليه أن يترك له شرفَ القيام بهذا الواجب ، ولذةَ المحاولة لدفع الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم !؟.

أرضاك الله أيها الأمين ، بقدر ما أرضيتَ رسوله ، وحرصتَ على خدمته وحفظتَ الوفاءَ له .

---

(١) المغفر : زرد من الدرع يحفظ الرأس والوجه وهو الخوذة.

(٢) الثنيات من الاضراس الأربع التي في مقدم الفم.

(٣) الثرم : انكسار السن من أصلها.

نجدة

في ربيع الآخر من سنة ست بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة إلى بني ثعلبة وبني عوال، وهم بذي القصة، وبينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، طريقَ الربذة، في عشرةِ نفرٍ، فوردوا عليهم ليلاً، فأحدق بهم القومُ وهم مائة رجل، فتراموا ساعة من الليل، ثم حملت الأعرابُ عليهم بالرماح فقتلوهم، ووقع محمد بن مسلمة جريحاً فَضُرِبَ كعبُه فلا يتحرك، وجرَّدوه من الثياب.

ومرّ بمحمد بن مسلمة رجلٌ من المسلمين فحمله حتى ورد به المدينة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح في أربعين رجلاً إلى مصارعهم، فلم يجدوا أحداً، ووجدوا نَعَماً وشاء، فساق أبو عبيدة ذلك ورجع به إلى النبي.

نعوذ بالله

كانت الشروط التي قبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين في صلح الحديبية شديدةً في ظاهرها على المسلمين، ولكن الرسول قبلها لما أراه اللهُ من الفوائد العظمى التي سيحصل عليها المسلمون من وراء ذلك الصلح.

وغضب عمر من هذه الشروط، فذهب إلى أبي بكر يقول له: أليس برسول الله؟.

قال أبو بكر: بلى.

قال عمر: أولسنا بالمسلمين؟.

قال أبو بكر: بلى.

قال عمر: أوليسوا بالمشركين؟.

قال أبو بكر: بلى.

قال عمر: فعلام نعطى الدنيةَ في ديننا؟.

قال أبو بكر: يا عمر، الزم غَرْزَة، فإني أشهد أنه رسول الله.

قال عمر: وإني أشهد أنه رسول الله.

وذهب عمر إلى النبي يحاوره في ذلك، فقال الرسول: أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني!.

وجعل عمر يحاور الرسول، وسمعه أبو عبيدة بن الجراح، فقال له: «ألا تسمع يا ابن الخطاب رسولَ الله يقول ما يقول؟ نعوذ بالله من الشيطان الرجيم»؟!.

فجعل عمر يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ثم قال الرسول: «يا عمر، إني رضيتُ وتأبى»؟!

وكان عمر بعد ذلك يقول:

ما زلتُ أصوم وأتصدق وأصلي وأعتق، مخافةَ كلامي الذي تكلمت به حتى رجوتُ أن يكونَ خيراً...

وهذه الجملة التي قالها أبو عبيدة لعمر تدل على قوة إيمانه، وشدة تسليمه لله ولرسوله، وهي تصور نفسية أبي عبيدة، وترينا كيف استقام على طريق الهدى، فلم يتلجلج ولم يتردد...

تواضعه ورغبته عن التفاخر

قد يكون المرء قليلاً في حياته ، تافهاً في أمره ، حقيراً في مرتبته ، ثم يتعالى ويتفاخر ، ويدعي لنفسه ما ليس لها ، وذلك شرُّ الناس ، وأضلهم طريقة ...

وقد يبنى المرءُ نفسَه بنفسه ، ويحقق لشخصه ما يطمح إليه من المجد ، وما تتعلق به عينه من السمو والعظمة ، ثم يفتخر ذلك المرءُ بما صنع ، أو يحب أن يعرف الناسُ ما بنى ، وذلك محدودُ الشر ، محتمل السوء ...

وقد يصل المرء بجده واجتهاده ذروةَ المجد ، وغاية العظمة ، ثم يتواضع ولا يتباهى ، ويحب أن يظل مجهولا أو شبه مجهول ، وذلك هو الإنسان الرفيع الكامل ...

وأبو عبيدة رجل قد شيد حياته بيديه ، وكسب المجدَ بنضاله وكفاحه ، وبلغ المنزلة المرموقة والقمة السامقة ، ومع ذلك ظلَّ حافظاً لخلق التواضع ، متحلياً بشيمة اللين والزهد ، مُعرضاً عن مواطن التباهي والفخار ، مستخفاً برعونة المنافسَة الباطلة ، أو التسابق الفارغ ، وبقي يرى نفسَه رجلٍ همُّه أن ينال كلَّ يوم من الله أجرا . وإن لم ينل في دنيا الناس ذكراً ...

وقف أبو عبيدة ذات يوم بين جنوده ، وهو أمير على الشام ، فقال :

«أيها الناس ، إني امرؤ من قريش ، وما منكم من أحمرَ ولا أسودَ يفضلني بتقوى إلا وددت أني في مسلاخه» . أي في جلده ...

وفي هذه الجملة القصيرة البليغة أبان أبو عبيدة أنه لا يرى لنفسه على أحد من جنوده فضلا يتباهى به أو يتعالى ، وانه يتمنى أن يرى واحداً من أولئك الجنود أكثرَ

منه تقوى ، فيغبطه على ذلك ، ويود لو جعله الله في جلد ذلك الجندي التقي ، إعجاباً من أبي عبيدة به ، وحرصاً على أن يكون مثله في التقوى...

وهذا الكلام حينما يصدر من رجل عظيم إلى الناس عامة يكون جليلا ونبيلا ، فكيف وهو يصدر من أمير عظيم إلى جنود مرءوسين له ، يسمعون منه ويطيعون ، ويرون فيه قدوتهم العالية ، ومثلهم الرفيع ؟.

لا جرم أن هذا القول يكشف عما انطبعت عليه نفس أبي عبيدة من تواضع وزهد.

* * *

وثمّة شاهدٌ آخر على عزوف أبي عبيدة عن الإمارة ، وعلى عدم حبه لما تواضع الناسُ على حبه من مظاهر السيطرة ، ومواقف التحكم والسيادة...

رُوي أن عمرو بن العاص لما كان في غزوة « ذات السلاسل» على مشارف الشام ، لتأديب جموع من قضاعة ، وخاف أن يؤخذ من جهته التي هو فيها ، وأن تصيبه الهزيمة ، بعث الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستنجده ، ويطلب منه المددَ والمعونة ، فندب الرسول صلوات الله وسلامه عليه المهاجرين والأنصار للخروج إلى تلك النجدة ، فانتدب[1] أبو بكر وعمر ، مع طائفة من كرام المهاجرين ، وجعل الرسول أبا عبيدة عليهم أميرا...

فلما قدم أبو عبيدة بمن معه على عمرو بن العاص — وكان عمرو رجلا مقداماً طموحا ، يحب أن يكون جامعاً بين ذكر الدنيا وأجر الآخرة — قال عمرو لأبي عبيدة وجنوده : أنا أميركم ، وأنا أرسلت إلى رسول الله أستمده بكم.. فقال المهاجرون الذين كانوا مع أبي عبيدة : بل أنت أميرُ أصحابك ، وأبو عبيدة أميرُ المهاجرين. فعاد عمرو يُظهر حرصَه على الإمارة قائلا : إنما أنتم مدد أمددتُ بكم...

---

(١) أي استجاب.

وهنا أراد الرجل المتواضع أبو عبيدة أن يحل المشكلة وينهي المسألة ، فقال : أعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : «إذا قدمتَ على صاحبك فتطاوعا» وإنك إن عصيتني لأطيعنك.

فقال عمرو : فإني الأمير عليك.

فقال أبو عبيدة : دونَك فصلِّ بالناس.

وسلّم إليه الإمارةَ ، واستمع له واطاع...

ليس الأمر هنا مقصوراً على تنازل أبي عبيدة لعمرو عن الإمارة ، بل تبدو هنا شدةُ الحرص من عمرو على المطالبة بالإمارة ، وهذا قد يثير في نفس أبي عبيدة — وهو بَشَرٌ — الرغبةَ في الدفاع عن شخصه ، والطلب لحقه ، والتنائي عن مظنة الاستخفاف به ، أو عدم جدارته بالإمارة.

ثم تبدو مطالبةُ الجنود القادمين مع أبي عبيدة بأن يكون هو الأميرَ عليهم ، وهذه المطالبة قد تنبِّه غافلا من أبي عبيدة ، وقد تلفته إلى شيءٌ لم تتجه إليه همته أو رغبته من قبل ، وقد تثير فيه معنى الزهو والخيلاء والاعتزاز برأي المطالبين بإمارته...

ولكن أبا عبيدة الأصيلَ في تواضعه ، الصادقَ في عزوفه عن مواطن التفاخر ، لم يُثِرْ في نفسه شيءٌ من ذلك ، ولم يراجع عمراً فيما قال ، ولم يستجب لأتباعه فيما حرضوه عليه ، بل قدَّم عَمْراً إلى الإمارة ، لأن أبا عبيدة يجاهد لله ، لا لعرض من أعراض هذه الحياة...

* * *

وهناك موقف يقابل هذا الموقف ، مع اتفاق الموضوع ، فقد كان أبو عبيدة رضي الله عنه يحاصر أهلَ الشام ، وجاءه مَدَدٌ يعينه ويساعده في مهمة الفتح ، وكان على راس هذا المدد خالدُ بن الوليد ، فرحَّب به أبو عبيدة ، وأجلَّ مقامه ومنزلته ، وكان يرى لخالد فضلَ الإعانة والنجدة ، حتى إنه لما حان وقتُ الصلاة قال لخالد : تقدَّمْ فصلِّ بالناس (إماما) ، فأنت أحق ، أتيتني تُمدُّني...

لكن خالداً لم ينس فضلَ أبي عبيدة ولا مكانته ، فرفض ذلك وقال : ما كنت لأصلي قُدَّامَ رجل سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيه : «لكل أمة أمين... وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»...

تستطيع أن تقارن بين هذا الموقف وموقف عمرو مع أبي عبيدة ، لتظهر لك صفةُ التواضع كاملة في نفس أبي عبيدة.

* * *

ويقتضينا واجبُ الإنصاف ألا نترك هذا الجزءَ من الحديث دون أن نعرِّج فيه على مكرمة لخالد رضي الله عنه في موقف المدد السابق ، فقد أمر الخليفة أبو بكر خالداً أن يذهب لينجد أبا عبيدة ومن معه ، وقال الخليفة لخالد في كتابه : «فإذا التقيتم فأنت أميرُ الجماعة».

وكتب الخليفة أبو بكر كتاباً ثانياً إلى أبي عبيدة يقول فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإني قد وَلّيْتُ خالداً قتالَ الروم بالشام ، فلا تخالفْه ، واسمع له واطع امره ، فإني وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبلَ الرشاد ، والسلام عليك ورحمة الله».

يا لروعة البيان !... ويا لسمو الأخلاق !... ويا لصراحة الرجال !... الخليفة يصارح فيقول لأبي عبيدة إنك قد صرت مرءوساً بعد أن كنت رئيساً ، ورئيسك هو خالد ، فاسمع وأطع ولا تخالف ، وهو أمير عليك ، ولكن... لا تحسبن أنك عندي مهين أو ظنين ، فأنت عندي خير منهُ في أمور... ولكني من جهة أخرى لم أعزلك افتئاتاً عليك ، ولم أعينِّ خالداً ميلاً معه أو هوى له ، ولكن لأني ظننت — ويا لروعة التعبير بقوله ظننت ! — ظننت أن له خبرةً بالحرب قد لا تكون لك كما هي له !. ظننتُ والله عنده علم اليقين ، ولذلك أسأل الله أن يريد «بنا وبك سبل الرشاد» ! !..

ونعود إلى موضوعنا...

لقد تسلم خالدٌ كتابَ التعيين، وتسلم أبو عبيدة كتاب العزل، فماذا يبقى إلا التنفيذ؟...

ماذا يبقى؟! بقي الكثير، والكثير جداً..

بقيت أخلاق الرجال، وماذا تكون الرجال بدون أخلاق؟...

لقد سارع خالد فأرسل إلى أبي عبيدة كتاباً يبلغه فيه الخبر بألطف أسلوب، ثم يهوِّن عليه أمرَ العزل أكرمَ تهوينٍ، ثم يسجل اعترافه بفضل أبي عبيدة، ويُثني عليه بالخير والإحسان، وما أجملَ التقدير إذا جاء وافياً كريماً من الأمير المقبل إلى الأمير المنصرف عن عريش القيادة إلى صفوف الجنود...

كتب خالد يقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم: لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد... سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله الا هو.. أما بعد، فإني أسأل الله لنا ولك الأمنَ يوم الخوف، والعصمةَ في دار الدنيا، فقد أتاني كتابُ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأمرني بالسير إلى الشام، وبالمقام على جندها، والتولّي لأمرها.. والله ما طلبتُ ذلك ولا أردته، ولا كتبت إليه فيه، وأنت — رحمك الله — على حالك التي كنت عليها، لا يُعْصى أمرُك، ولا يخالفُ رأيك، ولا يُقطع أمر دونَك، فإنك سيدٌ من سادات المسلمين، لا يُنْكر فضلك، ولا يُستغنى عن رأيك، تمَّمَ الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان، ورحمنا وإياك من عذاب النار، والسلام عليك ورحمة الله»...

أرأيتَ كيف قدَّمَ خالدٌ ذكرَ أبي عبيدة على نفسه؟.. وكيف دعا بدعواتٍ فيها تذكيرٌ بخوف الآخرة، وذمّ لأعراض الدنيا؟... وكيف ذكر التولية في تلميح، ولم يذكر العزلَ بتلميح أو تصريح؟... وكيف قطع على نفسه العهدَ الا يفعل شيئاً دون أبي عبيدة؟.. وكيف أثنى على أبي عبيدة الثناءَ العاطر الجميل؟

ذلك موقف حميدٌ لخالد بن الوليد ، ومن يدري فقد نشهد فيما نستقبل موقفاً لأبي عبيدة يقابل فيه الجميلَ بالجميل ، لا على سبيل المقارضة ، ولكنها طبائع الفحول من الرجال تستقى من ينبوع واحد كريم !...

زهد أبي عبيدة

ويتصل بالناحية السابقة ناحية قريبة منها في حياة أبي عبيدة ، وهي ناحية الزهد والورع .

وبعض الناس يزهدون زهدا كاذبا ، لأنهم لا يجدون ما يطمعون فيه ، فيزهدون فيما لا ينالون ، ويعفون عما لا يقدرون عليه .

وبعض الناس يزهدون زهدا لئيما خبيثا .. يزهدون في القليل التافه ، نفاقاً ورياء ، وترتع أيديهم في الكثير الحرام عليهم من وراء ستار .

ونتذكر في هذا المقام قصة ذلك الشاب الذي كان على عهد عمر رضي الله عنه ، وعثر على تمرة ، فرفعها بين أصابعه ، وجعل يسير بين الناس قائلا : يا من ضاعت له تمرة ؟...

ورآه عمر فغضب منه وثار عليه وقال له : «كُلْهَا يا صاحبَ الورع البارد» !...

أما الزهد الحقُّ والورع الصادق فهو أن يزهد المرء وهو قادر مستطيعٌ سليمٌ مالك ، ولقد كان أبو عبيدة رضي الله عنه قادرا على أن يكسب متاع الحياة خيرَ الكسب ، فقد كان ظاهرا ، وكان قوياً ، وكان موهوباً في عقله وحيلته .

ولقد هُيِّئت له في الفتوح والمغانم فرصٌ كثيرة لكي يَعُبَّ ويمتلئ ولكي يجمع ويشيِّد ، ولكنه تعفف وتورع وزهد ، وعاش فقيرا ، ومات فقيرا ، ولم يخلِّف وراءه ما يجعلنا نظن أن الدنيا كانت همَّه في يوم من الأيام .

أرسل عمر بن الخطاب يوما إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم ، وقال لحاملها : انظر ما يصنعه فيها .. فقسمها أبو عبيدة وهو في مجلسه .. ثم بعث عمر بمثلها إلى معاذ ، فقسمها أيضا إلا شيئا قليلا قالت له امرأته : نحن نحتاج إليه ..

فلما أخبر الرسولُ عمرَ بذلك قال : «الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا» .

* * *

ولقد روى هشام بن عروة عن أبيه قال : «قدم عمر بن الخطاب الشام فتلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر : أين أخي ؟.

قالوا : من ؟.

قال : أبو عبيدة ... قالوا : يأتيك الآن .

قال : فجاء على ناقة مخطومة بحبل ، فسلم عليه وسأله ، ثم قال للناس : انصرفوا عنا ...

فسار معه حتى أتى منزله فنزل عليه ، فلم يرَ في بيته الا سيفه وترسه ، فقال عمر : لو اتخذت متاعا ؟— أو قال : شيئا .

قال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين ، إن هذا سيبلغنا المقيل ...

وفي رواية عن ابن عمر أن عمر حين قدم الشام قال لأبي عبيدة : اذهب بنا إلى منزلك .

قال : وما تصنع عندي ؟ ما تريد إلا أن تعصر عينيك علي !.

قال : فدخل منزله فلم ير شيئاً .

قال : أين متاعك ؟ لا أرى إلا لبدا وصحفة وشنا (قربة) وأنت أمير ، أعندك طعام ؟، فقام أبو عبيدة إلى جَوْنه (سلته) فأخذ منه كسيرات فبكى عمر ...

فقال له أبو عبيدة . قد قلت لك إنك ستعصر عينيك علي ، يا أمير المؤمنين يكفيك ما بلغك المقيل ...

فقال عمر : غيرتنا الدنيا كلّنا غيرك . يا أبا عبيدة !...

بين عمر وأبي عبيدَة

في العام السابع عشر، أو الثامن عشر — على خلاف بين المؤرخين — ظهر الطاعون في العراق ومصر، ثم استقر بالشام، وكان في الخلافة عمر بن الخطاب، وحدث أن خرج عمر في تلك السنة غازياً، ومعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار، فلما كان على مسافة من أرض الشام، خرج إليه أمراء الأجناد وأخبروه بخبر الطاعون، وخوَّفوه منه، وأنبئوه أنه قد أهلك خلقاً كثيرا، وأشاروا عليه بالرجوع.

فأراد عمر قبل أن قطع بأمر أن يستشير القوم، فجمعهم وعرض الأمر عليهم، فاختلفت آراؤهم، فمنهم المشير بمواصلة التقدم، ومنهم المشير بالعودة، وكان من بين القائلين بالرجوع «مهاجرة الفتح»...

فأصبح عمر عازماً على الرجوع، فقال له أبو عبيدة: أفِرَارا من قَدَر الله يا عمر؟. فأجابه عمر: «لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟ نعم نفرُّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيتَ لو أن رجلا هبط وادياً له عُدْوَتان (ضفتان)، إحداهما خِصْبَةٌ والأخرى جَدْبة، أليس يرعى مَنْ رعى الجدبةَ بقدر الله، ويرعى مَنْ رعَى الخصبةَ بقدر الله؟».

ثم أراد عمر أن يستطلع رأي أبي عبيدة على جليته، وأن يعرف برهانه في قوله، أو يقنعه بحجته. فاختلى به ناحيةً دون الناس، وبينما الناس كذلك إذ أقبل عبد الرحمن بن عوف، وكان غائباً عن القوم، لم يشهد خلافَهم بالأمس، فسأل عبد الرحمن: ما شأن الناس؟ فأخبروه الخبر.

فقال: عندي في هذا علم.

قال عمر: فأنت عندنا الأمين المصدق، فماذا عندك؟.

قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه[1]».

فقال عمر: فلله الحمد؛ انصرفوا أيها الناس...

وعاد بهم إلى الحجاز...

* * *

هذه قصة التاريخ، ونلاحظ فيها أولاً أن عمر قد أظهر في ردِّه على أبي عبيدة احترامَه له، وتوقيره لشخصه، فقوله: «لو غيرك قالها يا ابا عبيدة!» ينطوي من غير شك على إجلال واركبار.

ثم نلاحظ ثانياً أن كلا من أبي عبيدة وعمر لم يخطئ فيما ذهب إليه، لأن كلا منهما نظر إلى الموضوع من جانب، وحكم عليه حكماً صحيحاً صادقاً، ومن الممكن الجمعُ بينهما والاتفاق على رأي في الموضوع يشملهما ويكونان لذلك الرأي دعامتين ينهض عليهما:

أما أبو عبيدة رضي الله عنه فكان يريد أن يقرِّر كلمةَ الرجل المؤمن الموقن، الذي أسلمَ وجهه لله، والذي اعتقد أن الأسباب كلَّها بيد الله، وأن المؤثر الحقيقي في الأشياء هو الله، وأن الذي يستطيع أن يسلب المؤثرات تأثيراتها هو الله، وما تلك الأسباب الظاهرية إلا مظاهر أجراها الله، وأجرى فيها ما أجرى ليظهر قدرتَه وسنته، وهو المسيطر عليها أولا وأخيراً، سبحانه هو الله الواحد القهار.

(١) في الجامع الصغير للسيوطي، ج ١ ص ٩٢ جاء نص الحديث: «اذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوا عليه، واذا وقع وأنتم بأرض فلا تخرجوا منها فرارا منه» رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي عن عبد الرحمن، ورواه النسائي عن أسامة بن زيد، وهو حديث صحيح.

وأما عمر رضي الله عنه فكان يريد أن يقرر كلمة الرجل الذي يُحسن التصرفَ والاختيار مع تأكد الإيمان بالأقدار ، والذي يفهم أن الكونَ كله لله ، وأن الأمور جميعها بيد الله ، وأن اليمين واليسار ، والشمال والجنوب ، كلها من قَدَر الله ، وتحت قدر الله. والله قد أعطى المرءَ عقلا وتمييزاً وكسبا ، فإذا أحسن التصرفَ والتمييز فتجنب الشر وصَاحَبَ الخير ، فلا يقال إنه قد فرَّ من قدر الله ، ولكن يقال إنه انتقل من قدر لله إلى قدر آخر لله ، ونحن حيثما ذهبنا وأنّى حللنا في قدر الله ، وتحت سلطان الله ، «ألا إلى الله تصير الأمور».

وبهذا التفسير نستطيع في يسر وسهولة أن نوفق بين الآثار التي جاءت بشأن العدوى ، وظاهرها الاختلاف أو التناقض ، وليس ثَمَّةَ في الحقيقة خلافٌ أو تناقض ، وإنما هو الفهم السريع العاجل ، أو النظر السطحي الجزئي ، وعدم التدبر في معاني النصوص وأهدافها ومناسباتها هو الذي يوحي بذلك الحكم الخاطئ...

فقد جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لا عَدْوَى ولا هامَةَ ولا صَفَر» :

فقال أعرابي : يا رسول الله ، فما بالُ الإبل تكون في الرمل كأنها الظِّباء ، فيخالطها البعيرُ الأجرب فيجربها؟.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فمن أعْدَى الأول»؟...

ومراده أن الأول لم يجرب بالعدوى ، وإلا للزم الدور والتسلسل ، بل بقضاء الله وقدرته ، فكذلك الثاني وما بعده ، وإن يكن الأثرُ الظاهر يرجع إلى العدوى ، والخالق للجميع هو الله ، والحكمة موجودة : سواء ألاحت لنا أم دَقّت علينا ، والله هو اللطيف الخبير.

وفي حديث ابن مسعود الذي خرَّجه الإمام أحمد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا يعدى شيءٌ شيئاً» قالها ثلاثا.

فقال أعرابي . يا رسول الله ، النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « فما أجرب الأول؟ ، لا عدوى ولا هامة ولا صفر ، خلق الله كلَّ نفس ، وكتب حياتها ، ومصابها ، ورزقها » .

ومراده أيضاً أنه لا يعدى شيءٌ شيئاً بقوة ذاتية فيه ، بل بقدرة الله وتأثيره .

* * *

هذه بعض النصوص في توجيه النظر إلى العقيدة الصحيحة في أن المؤثر الأول هو الله ، وهناك نصوص مقابلة تدعو إلى الحيطة والحذر ، وعدم التعرض للأمراض المعدية ، في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يورد ممرض على مصح » . والممرض صاحب الإبل المريضة ، والمصح صاحب الإبل الصحيحة .

وكذلك قال النبي صلوات الله وسلامه عليه : « فِرَّ من المجذوم فرارَك من الأسد » . وقد تقدم كذلك أنه قال عن الطاعون : « إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه[1] » .

وقد استنبط الباحثون المحدثون من هذا الحديث الأخير الإشارةَ النبوية إلى نظام « الحجر الصحي » الذي يزعم بعض الناس أنه مفخرة من مفاخر العصر الحديث . مع أنه من تعاليم رسول الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ...

---

(١) في سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي: « وروى عن عامر بن سعد بن أبي وقاص حدثنا محمد بن المنذري عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذكر الطاعون عنده ، فقال أنه رجس أو رجز ، عذبت به أمة من الأمم ، وقد بقيت منه بقايا ، فاذا سمعتهم به بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع وأنتم بأرض فلا تهربوا منها قال محمد بن المنذري : فحدثت بهذا الحديث عمر بن عبد العزيز ، فقال : هكذا حدثني عامر بن سعد بن أبي وقاص » .

ومن الممكن أن نخلص من هذا الاستعراض بخلاصة ، هي أن نعتقد اعتقاداً قوياً وجازماً أن الأمور كلها بيد الله ، وأن التأثير أولا منه ، وأن الأسباب الظاهرية عوارض وضع الله فيها ما شاء من التأثيرات ، ويستطيع أن يسلبها هذه التأثيرات عندما يشاء.

فلنؤمن بالله أولاً ، ولنملأ قلوبنا بجلاله ورهبته ، ولننتصح بأمره ، فلا نلقي بأيدينا إلى التهلكة ، بل نتذكر أن الذي خلق الداء خلق الدواء ، وان كل علة لها علاجها عدا الموت ، وشعارنا في ذلك قول الرسول : «اعقلها وتوكل» !.

حفظه لحقوق سواه

لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وزُلزلت الأرض بالمسلمين زلزالَها لذلك الهول الشديد الذي لم يتوقعوه ، ولتلك النكبة الكبرى التي لم يرتقبوها ، مع أن الرسول بشر ، ومع أن القرآن الكريم قد قال عنه من قبل :

وَمَا مُحَمَّدٌ إلاّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ »[1] ؟ . وقال : « وَمَا جَعَلْنَا لِبشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ، أَفَإِنْ مِت فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ؟ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوتِ ، ونَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ وٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وإلَيْنَا تُرجَعُونَ[2] . » وقال : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُون[3] » .

ونزل المصاب على أكثرهم نزولَ الصاعقة التي أفزعتهم وأذهلتهم ، واضطرب حبلُ الأمة اضطراباً مخيفاً ، وكان لا بد للأمة من راعٍ يرعاها بعد موت نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا بد لها من خليفة يخلف الرسول في تسيير الأمور وضبط النظام » ومواصلة الدعوة الى الله ، ونشر الإسلام بين الناس .

ولقد كان أصحاب محمد رضوان الله عليهم مشغولين بالدين والجهاد أكثرَ من اشتغالهم بالرياسة والإمارة ، ولكن منصب الخلافة بعد رسول الله تطمح إليه عيونُ الماجدين من المؤمنين ، فليس منصباً دنيوياً فقط ، ولكنه — أولا وقبل كل شيْ —

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٣٤ و٣٥ .

(٣) سورة الزمر آية ٣٠ .

منصب دين ودعوة وجهاد ، وفيه يتهيأ للخليفة نهوضٌ بتبعات وأعمال تزيده عند الله جلالة ومثوبة.

فلا عيب ولا عجب أن تطمح إلى هذا المنصب الإسلامي الكبير الكريم عينُ هذا أو ذاك من عيونِ الصحابة العظماء ، فلا يأبى الكرامة إلا لئيم ، ولا يعافُ المجدَ إلا حقير ، ولا يفرّ من تبعات الجهاد والدعوة إلا صغير أو ضئيل.

وهؤلاء أتباع محمد عليه الصلاة والسلام كانوا في الدنيا عمالقةً بمجدهم وعزائمهم ، وكانوا في سبيل مبادئهم يستهينون بكل خطير ، ولا يبالون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم !...

وكان الجلال المحيط بمنصب الخلافة لرسول الله يجعل عيونَ الأمة تتطلع أول ما تتطلع في هذا الشأن إلى القلة المصطفاة من أوائل السابقين إلى الإسلام ، البارزين في دعوته ، الظاهرين في ميادينه ، من أمثال أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، فأين كان أبو عبيدة حين ذاك..؟! وهل تطلعت عيون المتطلعين طامعين أو طالبين أن يكون أبو عبيدة أحدَ المرشحين لمنصب الخلافة؟.

لعل أنظار العامة يومئذ لم تكن تستقر طويلاً على أبي عبيدة — بخصوص هذا الشأن — كما تستقر على غيره ، ولكن الواقع أن كبار الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا يرون أبا عبيدة من طليعة الصالحين لتولي هذا المنصب الخطير ، فهذا عمر الفاروق يقوم بجولة استطلاعية في محيط الصحابة ، ليرى كيف يختارون الخليفة ، وكيف يقضون على الفتنة في مهدها ، ويلقي عمر أبا عبيدة ، فيَعْرِض عليه أمرَ الخلافة قائلاً : هَلمَّ يا أبا عبيدة أبايعك ، فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنك أمين هذه الأمة !..

وهنا يظهر أدبُ أبي عبيدة وذوقُه وحفظه حقوقَ سواه ، ويظهر حرصه على مكارم الأخلاق أكثرَ من حرصه على أسباب المجد ، وتظهر رعايته لحرمة أصحاب الفضل والحرم أكثرَ من رغبته في المنصب أو المغنم ، حتى ولو كان مغنماً روحياً معنوياً ...

لقد تذكر أبو عبيدة هنا أبا بكر رضي الله عنه ، وتذكر سبقَه إلى الإسلام ، وتصديقَه للرسول ، وبذله للمال في سبيل الله ، وصحبته الطويلة الجميلة لمحمد ، وثناء محمد عليه في مواطن كثيرة ، واستخلافَه له وهو مريض في الصلاة بالناس.

تذكر أبو عبيدة كلَّ هذا ، فأجاب عمر قائلاً : كيف أصلي — يا عمر — بين يدي رجل أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤمَّنا حين مرض[1] .

هذا موقف سريع نفهم منه أن رجلاً كعمر ، وهو البصير بالأمور الخبير بالرجال ، كان يرى أن أبا عبيدة أهلٌ للخلافة ، وكان يرى أنه إن لم يكن الشخص الذي يجب أن يختار لها ، فهو على أقل تقدير من طليعة المرشَّحين لها ، الجديرين بحمل تبعاتها...

ونحن نرى القوم في يوم « السقيفة » ، ونرى أبا بكر يتحدث مجمِّعاً وموحداً ، وفي آخر حديثه يقول : « وأنا أرضى لكم أحدَ هذين الرجلين : عمر بن الخطاب ، وأبا عبيدة بن الجراح »...

فتلك شهادة أخرى من الرجل الذي أجمعت عليه الأمة ، واختارته خليفة لها بعد قليل من ذلك الحديث.. إنه يسوي بين عمر وأبي عبيدة في ترشيحها للأمر ، وفي ذلك عرفان لقدر أبي عبيدة ، وفيه أيضاً مبلغ أدب أبي عبيدة ، حينما لم تحدثه نفسه بأن يطمع في أمر ، بينما يوجد له من ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمامةَ الناس من قبل..

ولو أسرعنا النُّقْلَة إلى آخر العهد بعمر في هذه الدنيا ، لرأيناه صريعاً مُثْخَناً بجراح

(١) أي كيف أكون اماما للمسلمين في الصلاة وفيهم أبو بكر ، لأن الخليفة كان يؤم المسلمين. وفي رواية أخرى : أتى عمر أبا عبيدة ، وذلك بعد وفاة النبي ، فقال : ابسط يدك لأبايعك ، فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله. فقال أبو عبيدة لعمر : ما رأيت لك فهة (سقطة) قبلها منذ اسلمت ، أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين؟ ».

الاعتداء عليه ، وهو في الحالة التي يؤمن فيها الكافر ، ويتقي الفاجر ، فكيف بالمؤمن الموقن البار ؟...

ولرأيناه يقول وهو يتحدث عمن يستخلفه : «ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفتُه ، فإن سألني ربي : لم أستخلفتَه ؟ قلت : إي ربي ... سمعت عبدَك ونبيك محمداً يقول : لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» !...

أبو عبيدة في الميدان

لا يستطيع مطالعٌ لصفحات الجهاد الأولى في صدر الإسلام ، أن ينكرَ مقامَ أبي عبيدة المشهود المذكور في ساحة الجهاد والفتح ، ولقد كان أبو عبيدة حُساماً في يد أبي بكر وعمر ، وجَّهاه يميناً وشمالاً ، فصدَّ غارات ، وقهر جيوشاً ، وفتح بلاداً ، ونشر دعوة . وعاش ما عاش في الميدان ، وجاهد ما جاهد ، وغنم ما غنم ، ورأس ما رأس ، وقاد ما قاد ، وظلّ على الرغم من كل ذلك يعيش جندياً متخففاً من أثقال الفخر ، وأعراض الحياة ، وزينة الدنيا ، فلا عُجْبَ ، ولا تمتع ، ولا تملك ، بل عاش فقيراً ، وجاهد طويلاً ، وكسب للمسلمين كثيراً ، ومات فقيراً !...

لقد كان أبو عبيدة يلي في أول الأمر شئونَ المال في خلافة أبي بكر ، فهو له كوزير المالية اليوم ، ولما بدأ أبو بكر في قتال الروم ، عقد لواء لأبي عبيدة ، وأمره بالتوجه نحو البلقاء فحمص ، وكانت هناك ألوية أخرى في هذه الحرب ، ولكن أبا بكر قال لأصحاب الألوية : إذا اجتمعتم على قتال فأميركم أبو عبيدة عامر بن الجراح .

وذهب جيش أبي عبيدة إلى «معان» ثم إلى «مواب» ثم «الجابية» ثم «حمص» . ولما اقتضى نظام الحرب اجتماعَ القواد كتب عمرو بن العاص — أحد القواد — إلى زملائه يقول : «إن الرأي الاجتماع ، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لم يَغْلُب عن قلة ، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا وأعدَّ لنا» .

فجلا أبو عبيدة عن حمص ، وردَّ إلى أهلها الجزيةَ التي أخذها منهم قائلاً : «قد شُغلنا عن نُصرتكم ، فأنتم على أمركم» . وهذه الكلمة من أبي عبيدة تبين لك

بوضوح عدالةَ الإسلام ، وتفهمك أن فتوح المسلمين لم تكن للبغي والطغيان ، وإنما كانت للهدى ونشر الإيمان ، كما تفهمك أن هذه الروح الطيبة لا.بد أنها تدفع إلى أحسن معاملة وألطف سياسة مع الأقربين والأبعدين ، ولذلك كان جواب أهل حمص أن قالوا : «ولايتُكم وَعدالتُكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم ودخلوا في الإسلام» .

ثم صار أبو عبيدة بعد ذلك قائداً عاماً للجيش الإسلامي في سورية ، وزحف مع خالد إلى دمشق ، وحاول خالد أن يفتحها عنوة...

ولكن أهل دمشق طلبوا الصلحَ على يد أبي عبيدة الهادىء الوقور. وعُقِدت معاهدةُ صلح تم بها فتح دمشق على المقاسمة بالشطر في الدينار والعقار ، وكان ذلك في العام الرابع عشر من الهجرة.

* * *

وفي موقعة «اليرموك» كان أبو عبيدة يقود فرقة القلب فيها ، وكان يمشي بين الجنود موجّهاً ومنبهاً ومشجعاً ومدافعاً ، ويقول : «عباد الله... انصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، ولا تتركوا صفوفكم ، ولا تخطوا إليهم خطوة ، ولا تبدءوهم بالقتال ، وأشرعوا الرماح ، واستتروا بالدرق (الترس) والزموا الصمت ، إلا من ذكر الله عز وجل في أنفسكم» .

وفي هذه الكلمات القصار نلمح من أبي عبيدة حسن الجمع بين إحكام العدة ، وإتقان المقاتلة ، وإيقاظ الإيمان ، والاعتماد على الله ، وقد اشترك بعض نساء المسلمين في هذه الغزوة ، خرجن مع أزواجهن ، أو أبنائهن ، ووقفن في الصفوف الخلفية ، ومعهن الحجارة والعمد ، والرماح والسيوف.

وتقدم أبو سفيان إليهن — وكانت امرأته هند فيهن — فقال : لا يرجع إليكنَّ أحدٌ من المسلمين إلا رميته بهذه الحجارة.

وقال لهن خالد : يا نساء المسلمين.. أيما رجل أقبل إليكن منهزماً فاقتلنه.

وكان النساء يومئذ يقلن لرجالهن : لستم بعولتنا إن لم تمنعونا (أي إن لم تدافعوا عنا) !.. ويا لها من وخزة تحريض مزلزلة مثيرة !..

وفي هذه الغزوة خرج معاذ وجعل يقول : يأهل القرآن ومتحفظي الكتاب ، وأنصارَ الهدى والحق. إن رحمة الله لا تنال ، وجنته لا تُدخل بالأماني ، ولا يؤتى الله المغفرة والرحمة الواسعة إلا الصادق المصدِّق ، ألم تسمعوا لقول الله.

«وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئاً ، وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُوْلئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ»

(سورة النور آية ٥٥)

فاستحيوا رحمكم الله من ربكم أن يراكم فراراً من عدوكم ، وأنتم في قبضته ، وليس لكم مُلْتَحَدٌ من دونه ، ولا عزٌّ بغيره».

ومما قاله عمرو بن العاص يوم ذاك : «يأيها المسلمون .. غضوا الأبصار ، واجثوا على الركب ، واشرعوا الرماح ، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم ، حتى إذا ركبوا أطرافَ الأسنة ، فثبوا إليهم وثبَةَ الأسد ، فوالذي يرضى الصدقَ ويثيب عليه ، ويمقت الكذبَ ، ويجزى بالإحسان إحساناً ، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كَفْراً كفراً ، ومِصراً مصراً ، فلا يهولنكم جموعُهم ولا عددهم ، فإنكم لو صدقتموهم الشدّ تطايروا تطايرَ أولادِ الحجل» «والحجل طير صغير».

ومما قاله أبو هريرة. «سارعوا إلى الحور العين ، وجوار ربكم عزّ وجلّ في جنات النعيم ، ما أنتم إلى ربكم في موطن بأحبَّ إليه منكم في هذا الموطن ، ألا وإن للصابرين فضلهم».

وعاد أبو سفيان يقول فيما يقول : «يا معشر المسلمين.. أنتم العرب ، وقد

أصبحتم في دار العجم، منقطعين عن الأهل، نائين عن أمير المؤمنين وإمداد المسلمين، وقد والله أصبحتم بإزاء عدو كثير عددُه، شديد عليكم حنقُه، وقد وترتموهم في أنفسهم وبلادهم ونسائهم، والله لا ينجيكم من هؤلاء القوم، ولا يبلغ بكم رضوانَ الله غداً إلا صدقُ اللقاء، والصبر في المواطن المكروهة، ألا وإنها سنة لازمة، وإن الأرض وراءكم، وبينكم وبين أمير المؤمنين وجماعة المسلمين صحارى وبراري، ليس لأحد فيها معقل ولا معدل إلا الصبر، ورجاء ما وعد الله، فهو خيرُ معوَّل، فامتنعوا بسيوفكم وتعاونوا، ولتكن هي الحصون.. يا معشر أهل الإسلام، حضر ما ترون، فهذا رسول الله، والجنة أمامكم، وهذا الشيطان والنار من خلفكم.. الله الله.. إنكم دارة الإسلام وأنصار الإسلام، وإنهم دارة الروم وأنصار الشرك، اللهم إن هذا يومٌ من أيامك، اللهم انزل نصرَك على عبادك»...

وفي أثناء القتال كان معاذ كلما سمع أصوات الروم قال: «اللهم زلزل أقدامَهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السكينة، وألزمنا كلمة التقوى، وحبّب إلينا اللقاء، وأرضنا بالقضاء».

ولقد تقدم رجل يوم ذاك إلى خالد وقال له مشفقاً: ما أكثرَ الرومَ وما أقل المسلمين!. فقال خالد: ويلك، أتخوفني بالروم؟ إنما تكثر الجنود بالنصر، وتقل بالخذلان، لا بعدد الرجال، والله لوددتُ أن الأشقر (فرسه) بَرَأ من توجعه، وأنهم أضعفوا العدد.

وتقدم رجل عزم على الشهادة إلى أبي عبيدة وقال له: إني قد تهيأت لأمري، فهل لك من حاجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟..

قال أبو عبيدة: نعم، تقرئه عني السلام، وتقول له: يا رسول الله، إنا قد وجدنا ما وَعَدَنا ربُّنا حقاً..

وتقدم هذا الرجل فقاتل حتى استشهد!

وبعد فتح أبي عبيدة لدمشق مرة ثانية أمره عمر بالتوجه شمالاً لتتبع فلول الروم ، فاستولى على «حماة» و«شيزر» ، وعاد فافتتح «المعرة» ، وتوجه إلى «قنسرين» فصالحه أهلها ، وكذلك فتح «حلب» «وأنطاكية» وغيرها من البلدان[1] .

* * *

ويجب أن نلاحظ هنا أن الأخبار والروايات عن هذه الحروب والفتوح قد حدث فيها اضطراب واختلاف من ناحية التواريخ والأمكنة والمناسبات وبعض الأشخاص ، ويرجع ذلك إلى عدم العناية في ذلك الوقت بالتسجيل المضبوط أو الوصف الدقيق ، أو التعيين الزمني أو المكاني المحدد ، وإلى تعدد الوقائع وكثرة الفتوح ، وإلى أن البلد من البلاد كان يُفتح ، ثم يتركه الجيش لسبب من الأسباب ، ثم يعود إليه فيفتحه مرة أخرى..

وهكذا تكررت الحوادث فاشتبه بعضها ببعض.. ومن الواجب على المؤرخين المتفرغين ، والباحثين المختصين بأمثال هذه الأمور أن يعكفوا عليها بحثاً وتنقيباً ، وتصحيحاً وسلسلة ، حتى لا يقع المطالعُ في الحيرة والاضطراب حينما تتشابه أمامه الحوادث ، أو تتعارض ظاهرياً.

وليس من غرضنا في هذا البحث — بطبيعة الحال — أن نفرغ لمثل هذه البحوث ، فإنما نكتب صورة لحياة أبي عبيدة تتجلى فيها طبائعه وأخلاقه وأعماله أكثر من أي شيء آخر.

* * *

ويحلو لنا قبل أن نترك هذا الجانب من أحاديث الميدان أن نمتع قارئنا بطرْفة من

(١) روى أبو عساكر أن أبا عبيدة هو أول من سمي «أمير الأمراء» في الشام. وفي كتاب «الباعث الحثيث» لابن كثير عن ابي عبيدة أنه «أحد العشرة ، وأول من لقب بأمير الامراء بالشام ، وكانت ولايته بعد خالد بن الوليد رضي الله عنهما» ص ٢٨٩ .

طرف أبي عبيدة في باب الديمقراطية الصحيحة، والأخوة الإسلامية الصادقة. لتكون زهرةً يفرح بها عشاقُ مكارم الأخلاق، ويضيق بها أهلُ الجبروت والنفاق.

لما تم الصلح بين أمير جيوش المسلمين في الشام أبي عبيدة وبين أحد قواد الروم، جاءوه بطعام فاخر وقالوا له: هذا طعام الأمير.

فقال أبو عبيدة: وأطعمتم الجند مثل هذا الطعام؟..

قالوا: لم يتيسر لنا ذلك:

فقال أبو عبيدة: فلا حاجة لنا فيما يقتصر علينا وحدَنا من ألوان الطعام، وبئس المرءُ أبو عبيدة إن صحب جنداً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهرقوا، فاستأثر عليهم بشيء يصيبه، لا والله، لا نأكل إلا ما يأكلون!..

تقديره لجهود العاملين

روي أن رجالاً من أهل البادية سألوا أبا عبيدة أن يرزقهم من مال الأمة الذي تحت يديه ، فقال : لا والله حتى أرزقَ أهلَ الحاضرة ، فمن أراد بحبوحةَ الجنة فعليه بالجماعة .

وكأنه يريد بهذا أن يفرق بين العاملين والفارغين . . .

وبمثل هذا كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن الحسين يقول : «مر للجند بالفريضة ، وعليك بأهل الحاضرة ، وإياك والأعراب ، فإنهم لا يحضرون محاضر المسلمين ، ولا يشهدون مشاهدهم» .

ويعلق أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال (صفحة ٢٢٧) على هذين الخبرين بأنه ليس معنى هذا أنهم لم يكونوا يرون لأهل البادية حقاً في الفيء ، ولكنهم أرادوا أنه لا فريضة لهم راتبة تجري عليهم من المال كأهل الحاضرة الذين يجامعون المسلمين على أمورهم ، ويعينونهم على إقامة الحدود وحضور الأعياد والجمع وتعليم الخير ، أما أهل البادية فلهم على الأمة المعونة في أوقات الشدة ، كما إذا أصابتهم جائحة في أرزاقهم أو دهمهم عدو .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نبل ومروءة

حب الرياسة طبيعة في الإنسان ، وقد يطمع في الرياسة من ليس أهلاً لها ، وكثيراً ما يتطاول الأقزام يريدون أن يكونوا عمالقة ، ومتى وصل الواحد منهم إلى منصب اغترَّ به واستمسك ، فلو فرض وعزل منه ، أو حيل بينه وبينه ، ملأ الدنيا صراخاً وعويلاً ..

وإذا كان هذا شأن المُبطّل المدَّعي ، فإنه لعزيز على نفس الكريم كلَّ العزة أن يهون ، وصعبٌ على القائد بجدارة كل الصعوبة أن يعزّل ، وشديد على الرفيع المجيد أن يهبط من عليائه على غير توقع أو انتظار .

وحين يقع ذلك لسبب من الأسباب ، أو حكمة من الحكم ، يحتاج الموقف العصيب إلى ألمعي أريب يعالجه بالنظر البعيد ، والرأي السديد ، والنفس السامية ، والهمة العالية .

هذا موقف خالد حينما عزله عمر رضي الله عنهما ..

لقد كان «خالد» سيفَ الله المسلول ، وبطل الإسلام المظفر ، وغضنفر الجهاد في الجزيرة والشام ، وهو القائد الذي لم يغلب قط في حياته ..

ولقد كان خالد زعيماً للجيش المجاهد في الشام على آخر عهد أبي بكر ، ثم لحق أبو بكر بربه والجيشُ الإسلامي بقيادة خالد يجاهد في اليرموك أو نحوها ، وتولى الخلافة عمر ، وجاء بنظامه الصارم في حساب الولاة والقواد .

ولعله وجد في نفسه شيئاً أو أشياء على خالد ، بسبب قتل خالد امرأة في فتح مكة مع نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن القتال .

وبسبب موقف خالد من بني جذيمة ، حين قتل منهم مَنْ قتل ، مع أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهاه ألا يقاتل أحداً إن رأى مسجداً ، أو سمع أذاناً .

وبسبب موقف خالد من مالك بن نويرة حين قبض عليه خالد وقال له مالك : إبعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا . فلم يطعه خالد ، وقال : لا أقالني الله إن أقلتك . وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه .

وبسبب أن الأشعث بن قيس أنشد خالداً قصيدة ، فأنعم عليه خالد بعشرة آلاف درهم ، فاعتبرها عمر خيانةً إن كان المال من مال المسلمين ، وإسرافاً إن كان المال من مال خالد .

لعل هذه أشياء مرت بذهن الخليفة عمر ... ثم كانت هناك عظمة خالد التي تبدت حتى افتتن بها الناس ، وصاروا يرددون : خالد لا يُقهر .. خالد لا تهزمه معركة ! ..

فخشي عمر أن يزيد الناس في افتتانهم به فيكون من وراء ذلك ما لا تحمد عقباه ، ودليل ذلك أن خالداً بعد أن عُزل قال لعمر : لمَ عزلتني يا أمير المؤمنين؟ ألعجز أم لخيانة ؟

فأجاب عمر : لم أعزلك لواحدة منهما ، ولكني كرهت أن أحمل فضلَ عقلك على الناس ..

ويؤكد هذا أن عمر قال فيه من قبل : لو كان قرشياً لساقَ العربَ بعصاه[1] .

وعلى كل حال ، فقد عزل عمر خالداً ، وله في ذلك اجتهاده وحكمته وإخلاصه ، ولا ينال من عبقرية خالد ولا من عظمته أن يعزل ، وإن يكن شديداً على النفس كلَّ الشدة أن تنزل بعد ارتفاع ، وأن يرأسها من كان له بالأمس مرءوساً .

---

(١) وكتب عمر الى الأمصار في هذا الشأن يقول : «اني لم أعزل خالدا عن صخطة ولا خيانة ، ولكن الناس افتتنوا به ، فخشيت أن يوكلوا به ويبتلوا ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة . ولما التقى خالد بعمر قال له : يا خالد ، والله انك علي لكريم ، وانك الي لحبيب ، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيْ .

بينما خالد يقود المعركة ويتصرف فيها ، وأبو عبيدة يسمع منه ويطيع ، جاء كتاب الخليفة الجديد عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة يأمره أن يتسلم قيادة الجيش من خالد ، وفيه يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة عامر بن الجراح ، سلام عليك ... فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأصلي وأسلم على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد وليتك أمور المؤمنين ، فلا تستحي فإن الله لا يستحي من الحق ، وإنني أوصيك بتقوى الله العظيم ، الذي لا يفنى ويفني سواه ، الذي استخرجك من الكفر إلى الإيمان ، ومن الضلالة إلى الهدى ، وقد وليتك على جند خالد ، فاقبض الجيشَ منه ، ولا تنفذ المسلمين إلى الهلاك رجاءَ غنيمة ، ولا تبعث سريةً إلى جمع كثير ، ولا تقل : إني أرجو لكم النصر ، وإياكم والتغرير وإلقاء المسلمين في الهلكة ، وأغمض عن الدنيا عينك » .

وفي رواية أخرى أنه كتب يقول :

« أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه ، الذي هدانا من الضلالة ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد ، فقم بأمرهم الذي يحق عليك ، لا تُقدم المسلمين إلى هلكة رجاءَ غنيمة ، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم (تختبره) وتعلم كيف مأتاه ، ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس ، وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة ، وقد أبلاك الله بي ، وأبلاني بك ، فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها ، وإياك أن تهلكك كما أهلكتْ من كان قبلك ، فقد رأيت مصارعهم » .

وجاء مع الكتاب كتاب آخر من الخليفة لخالد ، بأن يسمع من أبي عبيدة ويطيع .

إنه لموقفٌ عصيب .. الحرب دائرة ، والنضال محتدم ، والمسلمون مع أعدائهم في ساعة فاصلة ، وموتُ الخليفة السابق يحدث رجة ، وخلافة الخليفة الجديد تولد أطماعاً وتخيب آمالاً ، وعزلُ القائد المتصرف يغير الوضع ، ويؤثر في سير القتال أبلغَ

التأثير، وتنصيبُ قائد جديد يتبعه ما يتبعه من إقبال وإدبار، وتقديم وتأخير، فماذا يكون العلاج؟..

لو كان أبو عبيدة رجلاً صغيرَ النفس، أو لئيم الطبع، أو من رعاع الناس، أو من ضعاف الإيمان، لانتهز الفرصة وعزل خالداً، ونصب نفسه أميراً، ليكون الفتح باسمه، ولينسب الفخارَ إليه، وليدير المعركة حسب رأيه، ولكن الذي كان هو أن أبا عبيدة كتم الخطاب حتى تمت المعركة، وكمل النصر للمسلمين، وهدأت الأمور، ثم أفضى بحقيقة الأمر إلى خالد، فكان ذلك من أبي عبيدة نبلاً ومروءة.

وزاد أبو عبيدة في مروءته حين صارح خالداً بأن هذا التغيير يتناول الشكل ولا يتناول الجوهر، وأنه لن يقضي أمراً من الأمور ذوات البال دون أن يرجع إلى رأيه ومشورته، وبذلك هوّن وقع العزل في نفس خالد، وأخفى أثرَ التولية في نفسه، وذلك أسلوب النبلاء.

* * *

وقبل أن نترك هذا الموطن نذكر أن الإمام ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية» قد علل إيثارَ أبي بكر لخالد في الولاية، وإيثار عمر لأبي عبيدة فيها تعليلاً لطيفاً، فقال:

«... لأن المتوليَ الكبير إذا كان خُلقه يميل إلى اللين، فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة، وإذا كان خُلقه يميل إلى الشدة، فينبغي أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين، ليعتدل الأمر.

ولهذا كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يؤثر استنابة خالد، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ يؤثر عزل خالد واستنابة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، لأن خالداً كان شديداً كعمر بن الخطاب، وأبا عبيدة كان ليناً كأبي بكر، وكان الأصلح لكل منهما أن يوليَ من ولاه ليكون أمرُه معتدلاً، وبذلك يكون من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو معتدل، حتى قال النبي صلى الله عليه

وسلم : (أنا نبي الرحمة ، أنا نبي الملحمة[1]) وقال : (أنا الضحوك القتال) وأمته وسط ، قال الله : تعالى فيهم : (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْواناً)

(سورة الفتح — ٢٩)

وقال تعالى : (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِيْنَ)[2] » .

(سورة المائدة — ٥٤)

(١) الملحمة : الموقعة العظيمة القتل.

(٢) كتاب السياسة الشرعية ص ١٦ و١٧.

نفوس الكبار تتبادل الاحترام

سبق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في أبي عبيدة رضوان الله عليه : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » ويروى كذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم طعن في خاصرة أبي عبيدة وقال : « إن ههنا خُوَيصِرَة مؤمنة » .

ويروى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبي عبيدة ثلاث كلمات لأن يكون قالها لي أحب إليَّ من حمر النعم » .

قالوا : وما هن يا خليفة رسول الله؟.

قل : « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو عبيدة فتطلع إليه الرسول ببصره ، ثم أقبل علينا فقال : « إن ههنا لكتفين مؤمنتين» وخرج علينا الرسول ونحن نتحدث فسكتنا ، فظن أننا كنا في شيء كرهنا أن يسمعه ، فسكت ساعة لا يتكلم ثم قال : « ما من أصحابي إلا كنت قائلا فيه لا بُدّ إلا أبا عبيدة » ! .

وقدم علينا وفد نجران فقالوا : يا محمد ، ابعث لنا من يأخذ لك الحقّ ويعطيناه .

فقال « والذي بعثني بالحق لأرسلن معكم القويّ الأمين» .

قال أبو بكر : فما تعرضتُ للإمارة غير هذه المرة ، فرفعت رأسي لأريه نفسي ، فقال : قم يا ابا عبيدة .

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال يوما لجلسائه : « تمنوا » فتمنوا ، فقال عمر : لكني أتمنى بيتاً ممتلئا رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح .

فقال له رجل : ما أَلَوْتَ الإسلام (أي ما نقصته حقه) .

فقال عمر : ذاك الذي أردت ! .

وسئلت عائشة رضي الله عنها : من كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم أبو عبيدة بن الجراح.

وقال عبد الله بن عمر : ثلاثة من قريش ، أصبح الناس وجوها ، وأحسنها أحلاماً (عقولا) وأثبتها جنانا (قلوبا) إن حدّثوك لم يكذبوك ، وإن حدثتهم لم يكذّبوك : أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح !.

هذه شهادات لها أمثالها تشيد بفضل أبي عبيدة ، وترفع من قدره . وليس ذلك غريبا ، فالدر يجد من يقدّره ، ولكن الذي يحسن بنا أن نلاحظه هو تبادل الاحترام والإكبار بين هؤلاء الكبار ، فالأقران في العادة يتنافسون ، والأمثال يتزاحمون ، والنظراء يتباغضون ويتحاسدون ، ولكن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم قد تربوا في مدرسته الإسلامية المصلحة ، فعرفوا أن أهل الفضل هم الذين يعرفون الفضل لأهله ، ولذلك رأينا أولئك الأئمة الأعلام يتبادلون المحبة والاحترام.

وهذه أخرى

نضيف إلى ما سبق من شهادات ما جاء في صدر الرسالة المنسوبة إلى سيدنا أبي بكر ، والتي ذكر كثيرٌ من المؤرخين والأدباء أن أبا بكر أرسلها إلى علي بشأن البيعة عقب أن تولى أبو بكر الخلافة .

وقد اختلف الناس قديماً وحديثاً في أمر هذه الرسالة ، فمنهم من أكّد نسبتها الى أبي بكر ، وأفرد لها المؤلفات ، ومنهم من زعم أن فضلاء الشيعة وضعوها ، ومنهم من زعم أن فضلاء السنة وضعوها ، حتى يقول شهاب الدين النويري في « نهاية الأرب » :

« وهذه الرسالة قد اعتنى الناس بها ، ووردوها في المجاميع ، ومنهم من أفردها في جزء ، وقطع بأنها من كلامهم رضي الله عنهم ، ومنهم من أنكرها ونفاها عنهم ، وقال : إنها موضوعة ، واختلف القائلون بوضعها ، فمنهم من زعم أن فضلاء الشيعة وضعوها ، وأرادوا بذلك الاستناد إلى أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إنما بايع أبا بكر الصديق بسبب ما تضمنته .

وهذا الاستناد ضعيف و[illegible] والصحيح أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بايع بيعة رضا ، باطنه فيها كظاهره ، والدليل على ذلك أنه وطئ من السبي الذي سبي في خلافة أبي بكر ، واستولد منه محمد بن الحنفية ، ولا جواب لهم عن هذا ، ومنهم من زعم أن فضلاء السنة وضعوها ، والله أعلم[1] » .

---

(١) كتاب نهاية الأدب ج ٧ ص ٢١٣ .

ولتحقيق هذا الموضوع مكان آخر، وليس ذلك من مهمتنا الآن، وإنما يهمنا الجزء الخاص بأبي عبيدة في صدر الرسالة، وهذا الجزء يبين عن مكانة أبي عبيدة أفضل إبانة، حتى لو لم تصح نسبة الرسالة كلها إلى أبي بكر، فالرسالة قد وُضعت بلا شك منذ قرون، إذا سلمنا بوضعها؛ وكاتبها — إن لم يكن قائلها أبا بكر — قد وصف أبا عبيدة فأجاد الوصف، وأشاد به فأحسن الإشادة.

تقول الرسالة إن أبا بكر أرسل أبا عبيدة إلى علي رضي الله عنه، حينما تأخر في مبايعة أبي بكر، ليحادثه في هذا الأمر، وقال أبو بكر لأبي عبيدة أول ما قال:

«يا أبا عبيدة.. ما أيمن ناصيتك، وأبين الخيرَ بين عينيك، وطالما أعزّ الله بك الإسلام، وأصلح شأنه على يديك، ولقد كنتَ من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحل المغبوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: «لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة» ولم تزل للدين ملتجا، وللمؤمنين مرتجى، ولأهلك ركنا، ولإخوانك ردءا..

قد أردتك لأمر له خطرٌ مخوف، وإصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لن يندمل جرحُه بيسارك[1] ورفقك، ولم تُجَبَّ[2] حيَّته برُقْيتك فقد وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمرُّ منه وأعلق، وأعسر منه وأغلق، والله أسأل تمامهُ بك، ونظامه على يديك فتأتَّ له يا أبا عبيدة، وتلطف فيه، وانصح لله عز وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذه العصابة، غير آلٍ جهداً، ولا قالٍ حمداً، والله كالئُك وناصرك، وهاديك ومبصِّرك إن شاء الله».

وأملى أبو بكر على أبي عبيدة ما أملى، ثم مشى أبو عبيدة السفير الحكيم المخلص بما حمل. وهنا يقول أبو عبيدة ما يكشف عن نفسه المشفقة، وروحه المؤمنة،

---

(١) في رواية بمسبارك، والمسبار: فتيل يدخل في الجرح ليعرف كم عمقه، يقال: سبرت الجرح اذا اختبرته بالمسبارة، وقوله: بيسارك هنا معناه بيسرك ولينك..

(٢) تقطع.

الحريصة على الوحدة والالتئام : « فمشيتُ متزملا[1] كأنما أخطو على أمٍّ رأسي ، فَرَقاً من الفُرقة ، وشفقا على الأمة ، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خَلاء ، فأبثثته[2] بثّي كله ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به » .

وهذا القول يدل على حكمة أبي عبيدة ، وتقديره للأمور ، ويصور نفسه الطاهرة ، ومقصده النبيل .

---

(١) المتزمل : المتلفف ، يريد أنه خرج مستخفيا .

(٢) يقال : أبثثته السر ، اذا أطلعته عليه .

حيطة أبي عبيدة

كتب أبو عبيدة — وهو أمير على الشام — إلى الخليفة عمر بن الخطاب يذكر له أن نفراً من المسلمين عنده أصابوا الشرابَ وهو الخمر ، ومنهم أبو جندل بن سهل ، ويقول لعمر : إننا سألناهم فقالوا : خُيِّرنا فاخترنا ، يقصدون قول الله تعالى في سورة المائدة بشأن الخمر : « فهل أنتم منتهون »؟.. فإنه — كما زعموا — لم يعزم ، ولم يوجب الانتهاء .

فجمع عمر الناس واستشارهم ، فأجمعوا على خلافهم ، وقالوا إن المعنى : « فهل أنتم منتهون » أي انتهوا ، وأجمعوا على جلدهم ثمانين ثمانين ، وأن من تأوَّلَ هذا التأويل وأصر عليه يُقْتَل .

فكتب عمر إلى أبي عبيدة أن أدعهم فسلهم عن الخمر ، فإن قالوا : هي حلال ، فاقتلهم ، وإن قالوا هي حرام فاجلدهم .

فاعترف القوم حين سألهم أبو عبيدة بتحريمها ، فجُلدوا الحدَّ ، وندموا على ما كان منهم من اللجاجة فيما تأولوه ، حتى وسوسَ أبو جندل في نفسه — لأنه كبر عليه إثمه — فكتب أبو عبيدة في ذلك إلى عمر ، وسأله أن يكتب إلى أبي جندل يذكِّره ، فكتب إليه عمر في ذلك يقول : « من عمر إلى أبي جندل

(إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) .

فتب ، وارفع رأسك ، وابرز ولا تقنط ، فإن الله تعالى يقول :

« قُلْ يا عِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ » .

وكتب عمر إلى الناس يقول : « إن عليكم أنفسكم ، ومن غيَّر فغيِّروا عليه ، ولا تعيِّروا أحداً فيفشوا البلاء » !.

* * *

لقد أحسن عمر التصرف في هذا الموقف من غير شك ، لأن الآية الكريمة تقول : « إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنْصَابُ وَٱلْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ » ، والرجس هو القذر والنتن ، وعمل الشيطان ضلال بلا جدال ، ثم تقول بعد ذلك : « فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، فأمرت بالابتعاد ، وعلقت الفلاحَ على ذلك الابتعاد.

ثم يقول القرآن بعد ذلك :

« إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ».

فأبان أن الشيطان يريد من إتيان هذه الأمور إيقاع العداوة والبغضاء والصد عن ذكر الله والصلاة ، فكيف يكون الانتهاء بعد هذا اختيارياً أو مندوبا؟.

كيف والقرآن يقول عقيب ذلك :

« وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ » ...

فهل بعد قوله : « وَٱحْذَرُوا » وقوله : « فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ » يكون هناك مجال لذلك التأويل المحال؟

وأحسن عمر لأنه كتب إلى أبي جندل يذكِّره برحمة الله ، ويفتح أمامه أبوابَ الأمل والرجاء ، وحسن الظن بالله ، لأنه « لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ».

وأحسن عمر حين أمر الناس بالانصراف إلى إصلاح نفوسهم ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وحين نهاهم عن التعبير بالمعصية ، فإن ذلك من أوسع أبواب البلاء !.

ولكننا بعد ملاحظتنا لإحسان عمر في هذا كله يجب علينا أيضاً أن نلاحظ ما أحسن فيه أبو عبيدة ، فأبو عبيدة هنا والٍ وحاكم وأمير ، وقد أتِيَ إليه بقوم ارتكبوا كبيرة من الكبائر ، وهي شرب الخمر ، وهذه الكبيرة تحتاج إلى حد مؤدب ومهذب ، فلما همَّ به تأول مرتكبو الجريمة ، فماذا كان من أبي عبيدة؟..

توقف وتلبث ، شأنَ الحاكم العادل الذي يريد أن يسير في أحكامه على بصيرة ويقين ، ويتذكر أن الحدود تُدْرَأ بالشبهات — إن صحت الشبهة هنا — وكتب إلى الخليفة يستفتيه في الأمر ، فهو صاحب الأمر الأول في الأمة ، ومن حوله أهل المشورة والفتيا.

وهذا من غير شك احتياط محمود من أبي عبيدة ، لا يعيبه إلا عَجُول مسرف ، أو جاهل متعسف ، وهو أيضاً تقدير جميل من أبي عبيدة لمكانة عمر الخليفة ، وهو ثالثاً احترام من أبي عبيدة لحرية الرأي والتفكير ، فالظاهر أن أبا عبيدة لم يكن على رأي الذين شربوا وتأولوا ، وإلا لقبل منهم وأطلق سراحهم ، ومع هذا لم يأخذ برأيه متسرعاً حينما وجد رأياً لغيره ... ومن ذلك الغير؟.. إنه متهَم يجب أن يظل بمنجاة من العقاب حتى ينهض عليه الدليل بدون التباس.

وقد رد عمر ، وأزال الشبهة ، فلم يبق إلا إقامة الحد الذي فرضه الله ، وقد كان ، وانقطع التأويل والجدال.

وأحسن أبو عبيدة غاية الإحسان حينما ثارت في صدره تلك العاطفة النبيلة بشأن أبي جندل .. لقد آلمه أن يحزن أبو جندل ذلك الحزن ، وأن تثور في أفقه غيوم اليأس والقنوط ، وعز على أبي عبيدة أن ينأى مُسْلِم عن حمى الرحمة والاهتداء ، فإذا به يحرص على هدايته وراحته ، وإذا به يكتب إلى الخليفة يرجوه أن يعجل بنصيحة لأبي جندل تعيده إلى صوابه ، وتضيءُ أمامه الطريق ، وقد كان.

وهذه غاية ما يلتمسه منصف من راع يحرص على خير رعيته، ويحب النعمة لإخوته في الإسلام.

ولم لا نقول: «وأحسن أبو جندل أيضاً»؟.. وإن يكن قد أسرف على نفسه قليلاً.. لقد أخطأ متأولاً فشرب الخمر، ثم أقيم عليه الحد فطهَّره، ولكن الذنب تعاظمه وأحاط به، بعد أن سمع من حكم الإسلام وتفسير الآية ما سمع.

ولذلك استشعر المزيد من الخوف، فتزلزل واضطرب، واشتد به الحزن فلزم بيته، وغالى حين وسوس، واحتاج إلى من يذكره بعفو الله ورحمته، وقد كان.

جاء كتاب عمر، فقرأه أبو عبيدة على أبي جندل، فتطلق وأسفر وجهه، وكأنما نشط من عقال، فبرز من بيته، وعاد إلى سابق عهده، واستقام على الطريق، وكتب ابو عبيدة صوراً من كتاب الخليفة إلى الآخرين شركاء أبي جندل، فبرزوا مثله.

سلام على عمر.. وسلام على أبي عبيدة.. وسلام أيضاً على أبي جندل.. وسلام على من اتبع الهدى.

أبو عبيدة في كلامه

الكلام سواء أكان حديثا أم كتابة صورة من نفس صاحبه ، ولقد تقدم من أنباء أبي عبيدة ما فيه مقنع وبرهان أي برهان على أنه كان بطلا عظيما ، ومؤمناً صادقا ، ومتمسكا بمكارم الأخلاق.

وقد يكون من الخير أن نرى أبا عبيدة من خلال كلامه ، لنشهد من هذا الكلام صورةً أخرى لنفسه الصافية ، وإيمانه الصادق ، وبلائه المتين.. وسنذكر كل كلمة أو رسالة كتبها أبو عبيدة مع مناسبتها في إيجاز ، فيكون ذلك استكمالاً للترجمة ، ومتابعة لصحبة الرجل العظيم ، وتأكيداً لما سبق من تحليل أو.تصوير.

في قتال الروم

سار أبو عبيدة بجيشه إلى الشام ، فلما قرب من « الجابية » جاءه مَنْ أنبأه أن « هرقل » ملك الروم موجود في « أنطاكية » ، وأنه قد جمع لحرب المسلمين جموعاً هائلة لم يجمعها أحد من آبائه قبله لأحد من الأمم السابقة ، فرأى أبو عبيدة — مع أنه قائد وأمير للجيش وقريب من الميدان — أن يكتب إلى أمير المؤمنين أبي بكر يستشيره ، ويطلب منه رأيه ، ولعل ذلك لم يكن عن عجز من أبي عبيدة ، أو قصور عن التدبير ، وإنما هو يريد أن يحفظ لأب بكر حقه ، وأن يستعين برأيه ، وما ندم من استشار ، فأرسل أبو عبيدة إلى أبي بكر الرسالة التالية :

«بسم الله الرحمن الرحيم .. لعبد الله أبي بكر ، خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أبي عبيدة بن الجراح .. سلام عليك .. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ... فإنا نسأل الله أن يعز الإسلامَ وأهلَه عزّاً متينا ، وأن يفتح لهم فتحاً يسيرا .. فإنه بلغني أن « هرقل » ملك الروم ، نزل قرية من قرى الشام تدعى « أنطاكية » ، وأنه بعث إلى أهل مملكته فحشرهم إليه ، وأنهم نفروا إليه على الصَّعْب والذلول[1] ، وقد رأيت أن اعلمك ذلك ، فترى فيه رأيك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

* * *

---

(١) في أساس البلاغة للزمخشري : « ومن المجاز : ركبوا كل صعب وذلول في أمرهم اذا بذلوا فيه الطاقة » .

الرسالة كما ترى وجيزة ، لا تتجاوز السطورَ المعدودة ، وهي واضحة لا تكلف فيها ولا تعمل ، ولا صنعة بها ولا إغراب ، وكذلك شأن أبي عبيدة فيما نقرأ من كتبه ورسائله ، وهي تهدف إلى المقصود من أقرب طريق ، فتخبر بالخبر ، دون خلل أو تطويل ، ثم تطلب الرأي !.

وفي الرسالة أدب نفس.. فأبو عبيدة يقدِّم ذكرَ أبي بكر في الرسالة على ذكر نفسه ، مع جريان العادة بغير هذا عند الكثيرين يومئذ ، وهذا توقير منه لأبي بكر ، ولكنه في الوقت نفسه لا يتملق أبا بكر ، ولا يسبغ عليه حللَ المديح والثناء فضفاضة ، وإن استحقها أبو بكر بلا جدال ، ويكتفي أبو عبيدة في وصف أبي بكر بقوله : «عبد الله» وقوله : «خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم».

* * *

وقد بلغت الرسالة أبا بكر ، وأجاب عليها بوضوح وجلاء ونصيحة بالغة ، قال :

«بسم الله الرحمن الرحيم.. أما بعد.. فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه من أمر (هرقل) ملك الروم ، فأما منزله بأنطاكية فهزيمةٌ له ولأصحابه ، وفتح من الله عليك وعلى المسلمين ، وأما ما ذكرتَ من حشره لكم أهلَ مملكته ، وجمعه لكم الجموع ، فإن ذلك ما قد كنا وكنتم تعلمون أنه سيكون منهم ، وما كان لقوم ليدعوا سلطانهم ، أو يخرجوا من ملكهم بغير قتال «وقد علمت — والحمد لله — أن قد غزاهم رجال كثير من المسلمين يحبون الموتَ حبَّ عدوهم الحياة ، ويجزون من الله في قتالهم الأجر العظيم ، ويحبون الجهاد في سبيل الله أشدّ من حبهم أبكارَ نسائهم وعقائل أموالهم[1] ، الرجل منهم عند الفتح خيرٌ من ألف رجل من المشركين ،

---

(١) أي خيارها ، المفرد عقيلة ، وهي من كل شيءٌ أكرمه ، ويقال فلانة عقيلة قومها ، أي سيدتهم وذات المكانة فيهم ، ويقال للدرة : عقيلة البحر ، قال ابن الرقيات :

درة من عقائل البحر بكر ... لم تخنها مثاقب اللآل

ويقال أيضا للرجل هو عقيلة قومه ، أي سيدهم والشريف بينهم.

فالقهم بجندي ، ولا تستوحش لمن غاب عنك من المسلمين ، فإن الله معك ، وأنا مع ذلك مُمِدُّك بالرجال حتى تكتني ولا تريد أن تزداد إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله».

* * *

وتجمع أهل مدائن الشام بعد أن تراسلوا ، وكذلك أرسلوا إلى كل من كان على دينهم من العرب ليقاتلوا معهم فأجابوا ، وخرج الجميع الى قتال المسلمين بعد أن قال لهم ملك الروم : إن أهل مدينة واحدة من مدائنكم أكثر مما جاءكم من العرب أضعافا مضاعفة.

فكتب أبو عبيدة رسالة ثانية إلى أبي بكر يقول فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد.. فالحمد لله الذي أعزنا بالإسلام وأكرمنا بالإيمان ، وهدانا لما اختلف المختلفون فيه بإذنه ، إنه يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وإن عيوني من أنباط[1] أهل الشام أخبروني أن أوائل أمداد ملك الروم قد وقعوا إليه ، وان أهل مدائن الشام بعثوا رسلهم إليه يستمدونه ، وأنه كتب إليهم : (إن أهل مدينة من مدائنكم أكثر ممن قدم عليكم من العرب ، فانهضوا إليهم فقاتلوهم ، فإن مددي يأتيكم من ورائكم) ، فهذا ما بلغنا عنهم ، وأنفس المسلمين لينة بقتالهم[2] وقد أخبرونا أنهم تهيئوا لقتالنا ، فأنزل الله على المؤمنين نصره ، وعلى المشركين رجزَه ، إنه بما يعملون عليم ، والسلام».

* * *

وقد رد عليه أبو بكر بخطاب يستنهضه فيه إلى حصاز الأعداء ، وبث الخيل في القرى والسواد[3] ، وقطع الميرة[4] والماء عن أهل المدائن.

---

(١) في القاموس أن النبط جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين كالنبيط والأنباط.

(٢) أي يحب المسلمون قتالهم.

(٣) سواد البلدة قراها ، والسواد أيضا رستاق العراق ، وموضع قرب البلقاء.

(٤) الميرة جلب الطعام ، والميار جالب الميرة.

وروى كذلك أن أبا عبيدة كتب إليه يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد .. فإن الروم وأهل البلد ومن كان على دينهم من العرب ، قد اجتمعوا على حرب المسلمين ، ونحن نرجو النصر ، وإنجاز موعود الرب وعادته الحسنى ، أحببت إعلامك ذلك لترى فيه رأيك إن شاء الله ، والسلام » .

وَعظة للخليفة عمر

لقد عزل عمر — بمجرد توليه الخلافة — خالداً ، وولى أبا عبيدة ، وكان المنتظر في شرعة العامة من الناس أن يسارع أبو عبيدة فيكتب إلى عمر شاكراً حامداً ، وأن يطيل فيه الثناء ، وأن يُظهر بما استطاع من وسائل أن هذه التولية مِنَّةٌ من عمر عليه ، ولكن ما حدث كان غير هذا ، وكان الواجب كل الوجوب في شرعة المؤمنين أن يحدث غير هذا ، إذ ليست هنا منة أو صنيعة ، وليس هنا استثناء أو محاباة ، وليست هذه التولية غنْماً ، وإنما هي غُرم ، وليست شهوات ، ولكنها تبعات.

ولذلك نرى أبا عبيدة يكتب عقيب تولي عمر للخلافة رسالةً يشترك معه فيها معاذ بن جبل رضي الله عنه — وكان مع أبي عبيدة في الشام — ينصحان فيها عمر الخليفة الجديد بأسلوب واضح ، وتحذير جلي[1] ، فيقولان له :

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، إلى عمر بن الخطاب ، سلام عليك.. فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنا عهدناك وأمرُ نفسك لك مهم ، وإنك يا عمر أصبحت وقد وليت أمرَ أمة محمد : أحمرها واسودها ، يقعد بين يديك الصديقُ والعدو ، والشريف والوضيع ، والشديد والضعيف ، ولكل عليك حقٌ وحصة من العدل ، فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، وإنا نذكِّرك يوما تُبلى فيه السرائر ، وتَجِب[2] فيه القلوب ، وتُكشف

(١) وبرغم هذا كان أبو عبيدة يجل عمر ، جاء في العقد الفريد : «ومن حديث وكيع عن سفيان قال : قبل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب» ج ٢ ص ٦.

(٢) تضطرب.

فيه العورات، وتظهر فيه المخبآت، وتعنو[1] فيه الوجوه لملك قاهر، قهرهم بجبروته، والناس له داخرون، ينتظرون قضاءه، ويخافون عقابه، ويرجون رحمته.

وإنه بلغنا أنه يكون في هذه الأمة رجال يكونون إخوانَ العلانية أعداءَ السريرة، وإنا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا من قلبك سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا؛ فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته».

* * *

فماذا كان جواب عمر؟.

إن هذا كتاب من جنديين من جنود الإسلام، وهما من الرعية مهما علا قدرهما، وقد وجهاه الى الرجل الأول في الأمة الإسلامية، وهو خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمير المؤمنين، وعمر الفاروق، الذي أعز الله به الإسلام، والذي شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الحق معه، وبأن الشيطان يفر منه، وبأنه ملهَم في أمته، فهل تكبّر أو غضب، حينما جاءه الكتابُ من أبي عبيدة ومعاذ؟.

كلا لم يفعل، وغير عمر هو الذي يتكبر أو يأنف من النصيحة تأتيه من أي إنسان، فكيف بها من علمين من أعلام الإسلام؟.

لقد كان جواب عمر أن كتب إليهما يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل. سلام عليكما. فإني أحمد إليكما الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد،

---

(١) تعنو: تذل وتخضع، وفي التنزيل المجيد: «وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما».

فإني أوصيكما بتقوى الله ، فإنه رضا ربكما ، وحظ أنفسكما ، وغنيمة الأكياس[1] لأنفسهم عند تفريط العجزة.

وقد بلغني كتابكما تذكران أنكما عهدتماني وأمر نفسي لي مهم ، فما يدريكما؟ وهذه تزكية منكما لي ، وتذكران أني وليت أمر هذه الأمة ، يقعد بين يدي الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ، والقوي والضعيف ، ولكل حصته من العدل ، وكتبتما أن أنظر كيف أنت يا عمر عند ذلك ، وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله ، وكتبتما تخوفاني يوما هو آت ، وذلك باختلاف الليل والنهار ، فإنهما يُبْليان كل جديد ، ويقرِّبان كلّ بعيد ، ويأتيان بكل موعود ، حتى يأتيا بيوم القيامة ، يوم تبلى فيه السرائر ، وتكشف العورات ، وتعنو فيه الوجوه لعزة ملك قهرهم بجبروته ، فالناس له داخرون[2] يخافون عقابه ، وينتظرون قضاءه ، ويرجون رحمته.

وذكرتما أنه بلغكما أنه يكون في هذه الأمة رجال ، يكونون إخوان العلانية ، أعداء السريرة ، فليس هذا بزمان ذلك ، إنما ذلك في آخر الزمان إذا كانت الرغبة والرهبة ، فتكون رغبة بعض الناس إلى بعض إصلاح دينهم ورهبة بعض الناس إصلاح دنياهم ، وما سلطان الدنيا وإمارتها؟ فإن كل ما تريان يصير إلى زوال ، وإنما نحن اخوان ، فأينا أمّ أخاه أو كان أميراً عليه لم يضره ذلك في دينه ولا دنياه ، بل لعل الوالي يكون أقربهما إلى الفتنة ، وأوقعهما بالخطيئة ، لأنه بعَرَض هلكة ، إلا من عصم الله عز وجل ، وقليل ما هم ، وكتبتما تعوذانني بالله أن أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل من قلوبكما ، وإنما كتبتما نصيحة لي ، وقد صدقتما ، فتعهداني منكما بكتاب ، ولا غنى بي عنكما».

---

(١) الكيس العقل وخلاف الحمق ، والرجل أكيس ، والجمع أكياس وكيسي ، قال الشاعر:

فكن أكيس الكيسي اذا كنت فيهم وان كنت في الحمقى فكن مثل أحمقا

(٢) دخر دخورا : صغر وذل ، وفي القرآن المجيد : «ان الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين».

في موقعة «فحل»

وتجمع الروم في بلدة «فحل»، وتعاهدوا على طرد المسلمين مهما كلفهم ذلك من تضحيات، وكتب الروم إلى المسلمين يطلبون منهم الرحيلَ عن بلادهم المثمرة، إلى صحرائهم المقفرة، فكتب أبو عبيدة في ذلك الأمر كتاباً إلى الخليفة عمر.

وفي هذا الكتاب ترى أبا عبيدة صريحاً واضحاً كعادته، ولكنه قوي صارم كذلك، فهو يستعرض دعاوى القوم، ويرد عليها، وهو يبدي رأيه في الموقف واضحاً جلياً، ثم يرجو أن يؤيده الخليفةُ أو يوافقه عليه، يقول أبو عبيدة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح. سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد.. فإن الروم قد أقبلت، فنزلت «فحل» طائفةٌ منهم مع أهلها، وقد سارع إليهم أهل البلد، ومن كان على دينهم من العرب، وقد أرسلوا إليَّ أن (أخرج من بلادنا التي تنبت الحنطة والشعير والفواكه والأعناب، وإنكم لستم لها بأهل، والحقوا ببلادكم، بلاد الشقاء والبؤس، فإن أنتم لم تفعلوا سرنا إليكم بما لا قبل لكم به، ثم أعطينا الله عهداً ألا ننصرف عنكم، ومنكم عين تطرف)..

فأرسلت إليهم: أما قولكم: «اخرجوا من بلادنا فلستم لها بأهل».. فلعمري ما كنا لنخرج منها وقد دخلناها وورَّثناها الله منكم، ونزعناها من أيديكم، وإنما البلاد بلاد الله، والعباد عباده، وهو ملك الملوك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذلّ من يشاء.

وأما ما ذكرتم من بلادنا ، وزعمتم أنها بلاد البؤس والشقاء ، فقد صدقتم وقد أبدلنا الله بها بلادكم بلاد العيش الرفيغ[1] ، والسعر الرخيص ، والفواكه الكثيرة ، فلا تحسبونا بتاركيها ، ولا منصرفين عنها ، ولكن أقيموا لنا ، فوالله لا نجشمكم إتياناً ، ولنأتينكم إن أقمتم لنا .

فكتبتُ اليك حسن نهضت إليهم ، متوكلاً على الله ، راضياً بقضاء الله ، واثقاً بنصر الله ، كفانا الله وإياك والمؤمنين مكيدةَ كلِّ كائد وحسد كل حاسد ، ونصر الله أهلَ دينه نصراً عزيزاً ، وفتح لهم فتحاً يسيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً » .

وقد ردّ عليه عمر ، يصفه بالسداد والرشاد ، ويوصيه بالثبات والصبر ، ويبشره بالفتح والنصر .

* * *

ونهض المسلمون لقتال الروم ، فهزموهم شرّ هزيمة ، وقتلوا منهم مقتلةً عظيمة ، وتغلبوا على سواد « الأردن » ، وعلى أرضها ، وكتب أبو عبيدة إلى عمر كتاباً يفيض تحدثاً بنعمة الله سبحانه ، واعترافاً بفضله ، وإسناداً للفوز الى عنايته ورعايته ، ويخبر أبو عبيدة الخليفةَ بالانتصار ، فلا ينسب من ذلك شيئاً إلى نفسه أو إلى جيشه ، ولكن إلى الله وحده .

ثم يشير إلى الشهداء الذين « أهدى » الله إليهم نعمةَ الشهادة . . ! وما أجمل التعبير هنا عن الشهادة بكلمتي « أهدى » و« نعمة » . . ! ثم يصف اندحارَ المشركين وانكسارهم ، ويحسن الاقتباس من القرآن الكريم في هذا الموطن ، ويجري في الكتاب على مألوف عادته من السهولة ، والوضوح ، والسلاسة ، والاختصار ، فيقول في الكتاب :

---

(١) الرفيغ : الواسع الطيب .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد .. فالحمد لله الذي أنزل على المسلمين المؤمنين نصرَه ، وعلى الكافرين رجزه .

أخبر أميرَ المؤمنين ـــ أصلحه الله ـــ أنا التقينا نحن والروم ، وقد جمعوا لنا الجموعَ العظام ، فجاءونا من رءوس الجبال ، وأسياف[1] البحار ، وظنوا أنه لا غالبَ لهم من الناس ، فبرزوا ، وبَغوا علينا ، وتوكلنا على الله ، ورفعنا رغبتنا إليه ، وقلنا ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ونهضنا إليهم بخيلنا ورجلينا ، وكان القتال بين الفريقين ملياً[2] من النهار ، أهدى الله فيه نعمةَ الشهادة لرجال من المسلمين ، منهم عمرو بن سعيد بن العاص .

وضرب الله وجوهَ المشركين ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم حتى اعتصموا بحصونهم ، فأصاب المسلمون عسكرهم ، وغلبوا على بلدهم وأنزلهم الله من صَياصِيهم[3] . وقذف في قلوبهم الرعبَ ، فأحمد الله يا أميرَ المؤمنين أنت ومن قبلك من المسلمين على إعزاز دينه ، وإظهار الفلج[4] على المشركين ، وادعوا الله لنا بتمام النعمة ، والسلام عليك » .

* * *

ولما رأى الكافرون المهزومون من أهل « فحل » أن المسلمين قد غلبوا كذلك على أرض الأردن سألوهم الصلحَ ، فصالحهم المسلمون بلا خلاف ، وأما أهل الأردن وأهل القرى الأخرى فلم يستجب لهم المسلمون بمثل ما استجابوا لأهل « فحل » ، لأن هذه البلاد قد أخذها المسلمون عنوة بغير صلح ، ولذلك اختلف المسلمون فيما

---

(١) أسياف : سواحل .

(٢) مليا : زمنا طويلا .

(٣) صياصيهم : حصونهم .

(٤) الفلج : الانتصار .

بينهم حول مصير هذه البلاد ، فقالت طائفة منهم : نقتسمهم ، وقالت طائفة أخرى : نتركهم ، وأراد أبو عبيدة — كعادته السمحة المحتاطة — أن يستشير عمر قبل الإقدام على تنفيذ أحد الرأيين ، فكتب إليه الكتابَ الوجيز التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد .. فإن الله ذا المنِّ والفضل والنِّعَم العظام ، فتح على المسلمين من أرض الروم ، فرأت طائفة من المسلمين أن يقرُّوا أهلها ، على أن يؤدوا الجزية إليهم ، ويكونوا عمارَ الأرض ، ورأت طائفة منهم أن يقتسموهم ، فليكتب إلينا أمير المؤمنين برأيه في ذلك ، أدام الله لك التوفيق في جميع الأمور » .

فردّ عليه عمر يهنئه بالنصر ، ويذكر الشهداء بالخير ، ويطلب إلى أبي عبيدة أن يقر أهل الأرض ، وأن يجعل الجزية عليهم ، ويقسمها بين المسلمين ، ويكون هؤلاء عمارَ الأرض ، فهم أعلم بها ، وأقوى عليها من غيرهم ...

فلما جاء أبا عبيدة هذا الرأي من عمر عمل به .

عهد أبي عبيدة لأهل بعلبك

بعد أن انتهى أبو عبيدة من أمر «فحل» وسواد الأردن والقرى المجاورة ، اتجه نحو «حمص» ، ومرّ بمدينة «بعلبك» ، فطلب أهلها منه الأمانَ والصلح ، فاستجاب لهم ، وكتب عهداً يُعتبر نموذجاً من نماذج العدالة الإسلامية ، والسماحة التي ظهر بها المسلمون في فتوحهم وحروبهم .

فهذا أبو عبيدة يمرّ ظافراً منتصراً ، وللظفر نشوةٌ ، وللانتصار سكرة ، وهذه «بعلبك» تطلب إليه الأمان والصلح ، وهو قادر على فتحها عنوةً والبطش بها ، ولكنه يستجيب لدعوة السلام ، وطلب الأمان ، ويكتب لأهل «بعلبك» عهداً قصير السطور ، ولكنه جليل التأثير ، ففيه التعهد بإعطاء الحرية في العبادة والتنقل ، وفيه ترغيب في الإسلام ، فإن أسلم القوم فالإسلام يقطع ما قبله ، والمسلمون سواء ، وها هو ذا العهد :

«بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك ، رومها وفرسها وعربها ، على أنفسهم ، وأموالهم ، وكنائسهم ، ودورهم ، داخلَ المدينة وخارجها ، وعلى أرجائهم ، وللروم أن يرعوا سَرْحَهم ، ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً ، ولا ينزلوا قرية عامرة ، فإذا مضى شهر ربيع وجمادي الأولى ، ساروا إلى حيث شاءوا ، ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا ، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها ، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج ، شهد الله ، وكفى بالله شهيداً» .

مع أهل حمص

ودخل أبو عبيدة بلدة «حمص» ، وطلب أهلها كذلك الصلح ، فصالحهم المسلمون ، وكتبوا لهم كتاباً كالكتاب السابق بالأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ، وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر يخبره بذلك ، ويهنئه بما ساق الله في فتح حمص وصلحها من الخيرات والخراج ، وهو كدأبه سهل التعبير ، واضح التراكيب ، مكشوف القصد ، متحوِّط من التهجم على شيء قبل الاستشارة فيه ، ناسبٌ الفضلَ في القوة والغلبة إلى الله ، وفي ذلك الكتاب يقول :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد.. فالحمد لله الذي أفاء علينا وعليك يا أمير المؤمنين أفضلَ كور في الشام أهلاً وقلاعاً ، وأكثرهم عدداً وجمعاً وخراجاً ، وأكتبهم للمشركين كتْباً[1] ، وأيسره على المسلمين فتحاً ، أخبرك يا أمير المؤمنين— أصلحك الله— أنا قدمنا بلاد «حمص» ، وبها من المشركين عدد كثير ، والمسلمون يزفونهم[2] ببأس شديد ، فلما دخلنا بلادهم ألقى الله الرعبَ في قلوبهم ، ووهَّن كيدهم ، وقلَّم أظفارهم ، وسألوا الصلح ، وأذعنوا بأداء الجزية ، فقبلنا ، وكففنا عنهم ، وفتحوا لنا الحصون ، واكتتبوا منا الأمان ، وقد وجهنا الخيول إلى الناحية التي فيها ملكهم وجنوده ، فنسأل الله ملك الملوك ، وناصر الجنود ، أن يعز المسلمين بنصره ؛ وأن يأخذ المشرك الخاطىء بذنبه ، والسلام عليك» .

---

(١) الكتب كشمس : الجمع ، أي أكثرهم جمعا.

(٢) يزفوهم : يطردونهم ويدفعونهم .

وقد سر عمر بهذا التوفيق ، ولكن يظهر أنه خشي من توسع المسلمين السريع في الفتح ، وتعجّل أبي عبيدة في بثّ الجنود في الجهات المختلفة ، فكتب عمر ينصح أبا عبيدة بجمع الجيش والإقامة به مضموماً حتى يمضي هذا الحَوْل ، ويكتب له بعد ذلك بما يرى...

وكان أبو عبيدة رضي الله عنه قد بعث ميسرة بن مسروق في جماعة من الجند إلى ناحية «حلب» ، فلما جاءه خطاب الخليفة أسرع باستدعاء ميسرة. إذ بعث إليه خطاباً كأنه برقية من إيجازه وبلاغته ، وفيه يقول :

«أما بعد.. فإذا لقيك رسولي فاقبل معه ، ودع ما كنت وجهتك فيه ، حتى نرى من رأينا ، وننظر ما يأمر به خليفتنا ، والسلام عليك».

فلم يتعصب أبو عبيدة هنا لرأيه ، ولم يقل : تصرُّفٌ قد أبرمته فكيف أنقضه؟ وأمر بدىء بتنفيذه فكيف أعطله؟.. بل سمع وأطاع لأنه لا ينظر إلى شخصه ، ولكنه ينظر إلى اجتماع الكلمة ، وطاعة الخليفة ، ومصلحة الدعوة..

فأقبل ميسرة في أصحابه حتى انتهى إلى أبي عبيدة في حمص فنزل معه.

بين حمص ودمشق

يظهر أن الروم عند دمشق عادوا فتجمعوا مرة أخرى لحرب المسلمين ، وخرجوا على النظام الذي استقرّ منذ حين ، ويظهر أن أبا عبيدة رضي الله عنه كان بارعاً في بثِّ العيون والأرصاد ، والتقاط الأنباء والأخبار في مواقيتها ، فلما علم بما كان ، بعث ليلةَ غدا من حمص إلى دمشق سفيان بن عوف بن معقل رسولاً إلى عمر رضي الله عنه ، وكتب معه الكتاب التالي :

«أما بعد فإن عيوني قدمت عليَّ من أرض عدونا ، من القرية التي فيها ملك الروم ، فحدثوني بأن الروم قد توجهوا إلينا ، وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأمة قط كانت قبلنا ، وقد دعوتُ المسلمين وأخبرتهم الخبر واستشرتهم في الرأي ، فأجمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم حتى يأتينا رأيك ، وقد بعثت إليك رجلاً عنده علم ما قبلنا ، فسله عما بدا لك ، فإنه بذلك عليم ، وهو عندنا أمين ، ونستعين بالله العزيز العليم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، والسلام عليك» .

وقد أحسن أبو عبيدة في إرسال الكتاب مع رجل خبير بصير ثقة ، يستطيع أن يشرح ويوضح ، ويمكن الاعتماد عليه ، لأن الكتاب مهما طال لن يصور ما يريده أبو عبيدة ، ولأن الكتاب عرضة للضياع ، أو الوقوع في أيدي الأعداء ، فلو ذكر أبو عبيدة جميعَ التفصيلات والاحتمالات ووجوه الرأي لاستفاد بها أعداؤه ، وأما الرسول الثقة ، فإنه سيصمت إلى أن يلقى الخليفة فيفضي إليه بكل ما هناك في حكمة وإخلاص .

* * *

وجاء ردّ عمر على الكتاب السابق يلوم أبا عبيدة لأنه ترك «حمص» المفتوحة المطمئنة إلى «دمشق»، فتصبح حمص عرضة للأعاصير، ولكن عمر حينما يعلم أن القوم اتفقوا على ذلك يرضى به احتراماً لرأي الجماعة، ويقول في رده: «فعلمت أن الله عز وجل لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب ورشد في العاجلة والعاقبة، فهوَّن ذلك عليَّ ما كان دخلني من الكراهية قبل ذلك لتحولكم».

وهذا غاية ما يُعرف عن الخلفاء والأمراء من احترام لرأي الجماعة، وحسن ظن به..

وكان عمرو بن العاص حينئذ على «إيلياء»، فأرسل ابنه عبد الله بكتاب إلى أبي عبيدة يخبره فيه أن أهل إيلياء وكثيراً ممن كان المسلمون صالحوهم من أهل الأردن قد نقضوا العهد، وتجرءوا على جماعة المسلمين بعد انسحاب الجيش الإسلامي من المواطن التي كان فيها سابقاً، وطلب عمرو من أبي عبيدة أن يكتب إليه بالرأي: أينتظر أبا عبيدة حتى يقدم عليه، أم يسير عمرو إلى أبي عبيدة؟... وطلب عمرو المدد ليقوي ويضبط ما عنده، فكتب إليه أبو عبيدة كتاباً تظهر فيه المهارةُ الحربية، والمكيدة الفنية التي دبرتها كتائب الجيش الإسلامي لأعدائهم، فهو يبين أن الجيش قد انسحب عما انسحب عنه للاستدراج فحسب، وليبرز المشركون من مكانهم، فتتحدد مواطنهم، ومن جهة أخرى يتجمع المجاهدون المسلمون ويتوحدون، وأبو عبيدة في الوقت نفسه على يقين من النصر، لأنه ذو ثقة بالله، ولأنه يعرف سنة الله، وهي أن ينصر المؤمنين، وأن يخذل المبطلين.. ثم يدخل الطمأنينة على قلب عمرو بن العاص، ويخبره أنه قادم إليه بالجموع فلا يخش شيئاً...

يقول أبو عبيدة في كتابه هذا:

«أما بعد.. فقد قدم على عبد الله بن عمرو بكتابك، تذكر فيه إرجاف المرجفين، واستعدادهم لك، وجرأتهم عليك، للذي بلغهم من انصرافنا عن الروم، وما خلينا لهم من الأرض، وإن ذلك — والحمد لله — لم يكن من المسلمين عن ضعف من بصائرهم، ولا وهن من عدوهم، ولكنه كان رأياً من جماعتهم،

كادوا به عدوهم من المشركين، ليخرجوهم من مدائنهم وحصونهم وقلاعهم، وليجتمع بعض المسلمين إلى بعض، ويجتمعوا من أطرافهم، وينضم إليهم من كان قربهم، وينتظروا قدوم أمدادهم عليهم، ثم يناهضوهم إن شاء الله..

وقد اجتمعت خيلهم، وتنامت فرسانهم، ووثقنا بنصر الله أولياءه، وإنجاز موعده، وإعزاز دينه، وإذلال المشركين، حتى لا يمنع أحدُهم أمَّه ولا حليلَته ولا نفسه، حتى يتوقلوا[1] في رءوس الجبال، ويعجزوا عن منع الحصون، ويجنحوا للسلم، ويلتمسوا الصلح: «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً».

ثم اعلم من قبلك من المسلمين أني قادم عليهم بجماعة أهل الإسلام إن شاء الله، فليحسنوا بالله الظن، ولا يجدن أهلُ حربكم وعدوكم فيكم ضعفاً ولا وهناً ولا فشلاً، فيغتمزوا فيكم، ويتجرءوا عليكم، أعزنا الله وإياكم بنصره، وألبسنا وإياكم عافيته وعفوه، والسلام عليك».

* * *

وقد بعث هذا الكتاب في نفس عمرو الثقةَ والقوة، فوجَّه إلى أهل «إيلياء» (بيت المقدس) وبطارقتها كتاباً شديداً عنيفاً، وفيه يقول:

«فأقبلوا إلينا حتى أكتب لكم كتاباً أماناً على دمائكم وأموالكم، وأعقد لكم عقداً تؤدون إليَّ به الجزيةَ عن يَدٍ وأنتم صاغرون، وإلا فوالله الذي لا إله إلا هو لأرمينكم بالخيل بعد الخيل، وبالرجال بعد الرجال، ثم لا أقلع عنكم حتى أقتل المقاتلةَ، وأسبي الذرية، وتكونوا كأمة كانت، فأصبحت كأنها لم تكن...

* * *

هكذا تكون القوة المؤمنة المقتدرة، التي تنصف أولاً من نفسها، وتعطي كلَّ

---

(١) يصعدوا.

ذي حقٍّ حقّه، وتدعو إلى صراط الحق والمعدلة، فإن أبى المدعون إلى هذا أن يستجيبوا لصوت الإنصاف والاعتدال، لم يبق إلا السيف، ولم يبق إلا الرمي بالخيل بعد الخيل، وبالرجال بعد الرجال..

ليت شعري: أين حاضرنا من ماضينا؟.. وأين ادعاء الحلم عند العجزة الضعفاء من اعتدال القدرة عند الكَمَلة الأقوياء؟..

عند اليرموك

خرج أبو عبيدة رضي الله عنه من دمشق بجيش المسلمين، إلى بلاد الأردن، وكان في مقدمة الجيش البطل المغوار، والسيف الإلهي المسلول خالد بن الوليد، وساروا حتى نزلوا وادي اليرموك، وجاء عمرو بن العاص بمن معه فانضم إلى الجماعة، وتحركت جموع الروم، واقتربت من حمى المسلمين، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه ورجال المسلمين لأبي عبيدة: ألا تكتب إلى أمير المؤمنين تعلمه علم هذه الجيوش التي جاءتنا وتسأله المدد؟.

فكتب أبو عبيدة إلى عمر كتاباً تلوح فيه الدقةُ الدقيقة، فهو يصوِّر الحال تصويراً بليغاً، وهو يخبر عمر عن رجال العدو في تفصيل وشمول، مع اختصار أيضاً، ويطلعه على الحقيقة القاسية، وهي الضيق المحيط بالجيش الإسلامي. ثم يذكر أنه لم يخدع جنودَ الجيش عن حقيقة الحال، بل أطلعهم عليها، ليكونوا على بينة منها، فلا يغتروا ولا يفرِّطُوا، ثم يطلب المدد من عمر، وإلا فقد ذهبت نفوس المسلمين إن أقاموا وثبتوا، أو ذهب دينهم عنهم إن أضلهم الشيطان ففرَّقهم...

وأرسل أبو عبيدة كتابه مع عبد الله بن قرط الثمالي. قال أبو عبيدة رضي الله عنه:

«أما بعد، أخبر أمير المؤمنين — أكرمه الله — أن الروم نفرت إلى المسلمين براً وبحراً، ولم يخلفوا وراءهم رجلاً يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به، وأخرجوا معهم القسيسين والأساقفة، ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع، واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة، وجاءونا وهم نحو من أربعمائة ألف رجل، وإنه لما بلغني ذلك من أمرهم، كرهت أن أغر المسلمين من أنفسهم، أو أكتمهم ما بلغني عنهم،

فكشفت لهم عن الخبر ، وشرحت لهم الأمر ، وسألتهم عن الرأي ، فرأى المسلمون أن يتنحوا إلى أرض الشام ، ثم يضم إلينا أطرافنا وقواصينا ، وتكون بذلك المكان جماعتنا ، حتى يقدم علينا من قِبَل أمير المؤمنين المددُ لنا ، فالعجلَ العجلَ يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال ، وإلا فاحتسب أنفسَ المؤمنين إن هم أقاموا ، ودينهم منهم إن هم تفرقوا ، فقد جاءهم ما لا قبل لهم به ، إلا أن يمدهم الله بملائكته ، أو يأتيهم بغياثٍ من قبله ، والسلام عليك».

* * *

وأحب أن ألاحظ معك ملاحظةً من ناحية الصيغة في كتب أبي عبيدة غالباً — ولعلها أيضاً توجد في كتب غيره — هي أنه إذا كتب في نصر أو فتح أو أمر عادي أو محتمل بسط في المقدمة ، فاستفتح بالبسملة ثم ثنى باسم المرسل إليه وباسمه ، ثم ثلث بالسلام ، ثم انتقل إلى حمد الله الذي لا إله إلا هو ، ثم انتقل إلى الموضوع بقوله (أما بعد) ، فتأتي الصيغة هكذا تقريباً : «بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من أبي عبيدة بن الجراح : سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد... فالحمد لله الذي أفاه علينا وعليك يا أمير المؤمنين... إلخ... وذلك كما جاء في صدر كتاب أبي عبيدة إلى عمر بشأن الصلح مع أهل حمص ، وقد تقدم.

ولا عجب في هذا البسط المناسب ، فالمقام مقام تهنئة ، أو مشورة معتادة ، والفكر متهيء ، والنفس هادئة ، فتستطيع أن تأتي بالكلام على وجهه ، مستوفياً أركانَ الرسالة المعتادة.

وأما حين يكتب في شدة طارئة ، أو نازلة محيطة ، أو موقف عصيب ، فإنه يختصر الكلام اختصاراً ، ويختزله اختزالاً ، فيدير في نفسه الاستعانةَ باسم الله وقدرته ، وحمده والثناء عليه ، لكي لا تفوت الفرصة ، ولا يتأخر الكتاب ، ولكي يكون صريح التأثير وعاجله في نفس المرسل إليه ، ولذلك نراه في رسالته هذه يبتدئها مباشرة بقوله :

«أما بعد.. فأخبر أمير المؤمنين — أكرمه الله — أن الروم نفرت إلى المسلمين براً وبحراً»... الخ.

* * *

وقد ردّ عليه عمر رضي الله عنه بخطاب طويل، يثبته فيه ويطمئنه، وينفي عنه الخوفَ والفزع، ويذكره بالذين استشهدوا في سبيل الله، فأثنى عليهم خيراً ويذكره بقوة الله وحوله وقدرته، ويقول له فيما يقول: «واقرأ كتابي هذا على الناس، ومُرهم فليقاتلوا في سبيل الله، وليصبروا كيما يؤتيهم الله ثوابَ الدنيا وحسنَ ثواب الآخرة».

وبعث عمر إلى أبي عبيدة سعيد بن عامر بن جذيم في جيش مدداً له.

وبدأت بين المسلمين والمشركين موقعة اليرموك في سنة خمس عشرة، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً رائعاً، وانهزم المشركون، ولما وصل خبر الهزيمة إلى «ملك الروم» وهو بأنطاكية أمر أصحابه بالاستعداد للرحيل إلى القسطنطينية، فلما خرج من أرض الشام، وأشرف على أرض الروم استقبل الشام بوجهه وقال: «السلام عليك يا سورية، سلامَ مودِّع لا يرى أنه يرجع إليك أبداً».

ثم أرسل أبو عبيدة ميسرة بن مسروق مع ألفين من الفرسان ليتبعوا آثار القوم، ويقطعوا عليهم كلَّ مدخل يدخلون منه، ثم عاد فأدركه الخوف على ميسرة ومن معه، وخاصة حينما بلغه أنهم دخلوا في دروب الروم. فجزع جزعاً شديداً، وندم على إرسالهم في طلب الروم، وعجل فأرسل إلى ابن مسروق الكتاب التالي:

«أما بعد.. فإذا أتاك رسولي هذا فأقبل إليَّ حين تنظر في كتابي هذا، ولا تعرجن على شيء، فإن سلامة رجل واحد من المسلمين أحبُّ إليَّ من جميع أموال المشركين، والسلام عليك».

وأرجو أن تعود مرة أخرى فتلاحظ إيجازَ الكتاب ، وكيف بدأ بلا تطويل : «أما بعد ، فإذا أتاك رسولي هذا فأقبل إليَّ حين تنظر في كتابي هذا» .

كما يجب أن نلاحظ هذا الحرص النبيل على حياة الجنود ، والعجلة في إصلاح الخطأ ، والسرعة في توفير السلامة لمن تتعرض حياتهم للخطر ، وذلك ديدنُ القائد المخلص الأمين.

إلى أهل إيلياء

هذا كتاب كتبه أبو عبيدة الى أهل «إيلياء» ، وفيه نرى طرازاً آخر من كتابة أبي عبيدة . إنه هنا حازم صارم ، يحسن الدعوة إلى دينه أولاً ، ويبين ثمرات الاهتداء إليه والإذعان له ثانياً ، ويحدّد ما يجب على مخالفه ثالثاً : من إعطاء الجزية عن تسليم وخضوع .. ثم .. ثم تأتي الأخيرة التي لا خالفة لها ، وهي الجهاد الصادق ، فإما النصر المفضي إلى العزة في الحياة ، وإما الشهادة المؤدية إلى نعيم الخلود .

كتب أبو عبيدة إلى أهل إيلياء يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من أبي عبيدة بن الجراح إلى بطارقة أهل إيلياء وسكانها ، سلام على من اتبع الهدى . وآمن بالله العظيم ورسوله ، أما بعد .. فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن الساعة آتية لا ريبَ فيها ، وأن الله يبعث مَنْ في القبور ، فإذا شهدتم بذلك حُرِمتْ علينا دماؤكم وأموالكم ، وكنتم إخوانَنا في ديننا ، وإن أبيتم فأقِرُّوا لنا بإعطاء الجزية عن يَد وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشدُّ حبّاً للموت منكم للحياة ولشرب الخمر وأكلِ لحم الخنزير ، ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله حتى أقتل مقاتلكم ، وأسبي ذراريكم » .

وصف انتصار اليرموك

وكتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر خطاباً يصف له فيه معركةَ اليرموك بتحديد موضح ، وكيف قاتل المسلمون في هذه المعركة قتالَ الأبطال الصناديد ، ويصوّر له النصرَ المجيد ، ويذكر له ما كتب به أهل «إيلياء» ، وما عرضه عليهم من عروض .

ولا تنس أن الموقف هنا موقف نصر وبشر ، وهدوء واطمئنان ، وإذن فليكن هناك متسع للبسملة والتسمية ، والسلام والتهليل ، والحمد لله والثناء عليه ، فيقول :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأما بعد.. فالحمد لله الذي أهلك المشركين ، ونصر المسلمين ، وقديماً تولى الله أمرهم ، وأظهر فلجهم ، وأعز دعوتهم ، فتبارك الله رب العالمين.. أخبر أمير المؤمنين— أكرمه الله— أنا لقينا الروم ، وهم جموع لم تلق العرب مثلهم جموعاً قط ، فأتوا وهم يرون أن لا غالب لهم من الناس أحد ، فقاتلوا المسلمين قتالاً شديداً ما قوتل المسلمون مثله في موطن قط ، ورزق الله المسلمين الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، فقتلهم الله في كل قرية وكل شعب ، وكل واد وجبل وسهل ، وغنم المسلمون عسكرهم ، وما كان فيه من أموالهم ومتاعهم ، ثم إني أتبعتهم بالمسلمين ، حتى بلغت أقاصيَ بلاد الشام ، وقد بعثت إلى أهل الشام عُمّالي ، وقد بعثت إلى أهل إيلياء أدعوهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا ، وإلا فليؤدوا إلينا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإن أبوا سرت إليهم حتى أنزل بهم ، ثم لا أزايلهم حتى يفتح الله على المسلمين إن شاء الله ، والسلام عليك» .

وقد رد عليه عمر بخطاب يحمد الله فيه ، ويشكره على صنيعه ، ثم يقول لأبي عبيدة فيه : « ثم اعلموا أنكم لم تظهروا على عدوكم بعدد ولا عدة ، ولا حول ولا قوة ، ولكنه بعون الله ومنه وفضله ، فلله الطول والمنّ والفضل العظيم... » .

وليس ذلك من عمر تهويناً لشأن الاستعداد ، أو إلغاء لقيمة العتاد.. كيف والله يقول : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ » ، ولكنه تذكير من عمر بتوفيق الله ، ونصح باستصحاب الإيمان ، واليقين بقوة الله العلي القدير.

استسلام أهل إيلياء

انتظر أبو عبيدة أهل إيلياء ، فأبوا أن يأتوا ليصالحوه ، فحاصرهم وضيق عليهم ، ونشب القتال بين الفريقين حيناً ، وكان أبو عبيدة قد ولى سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل على دمشق ليرعاها ، فلما علم سعيد بأن القتال قد دار بين المسلمين والمشركين تحرق شوقاً إلى الجهاد في سبيل الله . وفضّل حياةَ الميدان على ولايته لدمشق ، فأسرع بإرسال الكتاب الآتي إلى أبي عبيدة :

« من سعيد بن زيد إلى أبي عبيدة بن الجراح .. سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد .. فإني لعمري ما كنت لأوثرك وأصحابك بالجهاد في سبيل الله على نفسي ، وعلى ما يقربني من مرضاة ربي عز وجل ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث إلي عملك من هو أرغب فيه مني ، فليعمل لك عليه من بدا لك ، فإني قادم عليك إن شاء الله ، والسلام » .

فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب قال : « أشهد ليفعلنها » ..

وأرسل يزيد بن أبي سفيان ليكون والياً على دمشق مكان سعيد بن زيد ! ! ..

وبمثل سعيد وروحه الجهادية انتصر المسلمون .

* * *

ولما رأى أهل « إيلياء » أن أبا عبيدة لن يقلع عنهم ، وأنهم لا طاقة لهم بحربه ، سألوه الصلح ، واشترطوا أن يكون عمر هو الذي يعطيهم العهد والأمان . فقبل ذلك أبو عبيدة وهم بالكتابة إلى عمر ، فنصحه معاذ بن جبل ألا يكتب حتى يستوثق منهم ، ويحلفوا على ذلك ، إذ ربما يحضر عمر وينقض القوم عهدهم ، فاستوثق منهم أبو عبيدة ، وكتب إلى أمير المؤمنين الكتاب التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عمر أمير المؤمنين من أبي عبيدة بن الجراح ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد.. فإنا أقمنا على «إيلياء» ، وظنوا أن لهم في المطاولة بهم فرجاً ورجاء ، فلم يزدهم الله بها إلا ضيقاً ونقصاً ، وهزلاً وأزلاً[1] ، فلما رأوا ذلك سألونا أن نعطيهم ما كانوا به ممتنعين قبل ذلك ، وله كارهين ، وأنهم سألوا الصلح ، على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين ، فيكون هو المؤمِّن لهم ، والكاتب لهم كتاباً ، وإنا خشينا أن يقدم أمير المؤمنين. ثم يغدر القوم فيرجعوا ، فيكون مسيرك — أصلحك الله — عناء وفضلاً (زيادة) ، فأخذنا عليهم المواثيق المغلظة بإيمانهم : لئن أنت قدمتَ عليهم فأمنتهم على أنفسهم وأموالهم ليقبلن ذلك ، وليؤدن الجزية ، وليدخلن فيما دخل فيه أهلُ الذمة ، ففعلوا وأخذنا عليهم المواثيقَ بذلك ، فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا فافعل ، فإن في مسيرك أجراً وصلاحاً وعافية للمسلمين ، أراكَ الله مرشدك ، ويسّر أمرك ، والسلام عليك ».

* * *

وقدم عمر بناءً على ذلك ، حتى بلغ أرض الشام ، ونزل «بالجابية» وأتاه أهل «إيلياء» فصالحهم ، وكتب لهم أماناً هو صورة من صور العدالة الإسلامية ، ومثل من أمثلة الحرية الدينية ، التي أتاحها المسلمون المنتصرون في عصورهم المزهرة لمخالفيهم في الدين ، ومن الخير أن نثبت هنا نصَّ ذلك العهد ، وإن يكن هذا استطراداً فأنعم به من استطراد..

وهذا نص الميثاق :

« بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل «إيلياء» من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمهم وبريئهم ، وسائر ملتهم ، أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا يُنتقص

---

(١) الأزل بوزن الفتح : الضيق والشدة.

منها ولا من حيِّزها ، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ، ولا يُكْرَهُون على دينهم ، ولا يُضَارّ أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل «إيلياء» أن يعطوا الجزية ، كما يعطى أهل المدائن (مدائن الشام) وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (اللصوص) ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله ، حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل «إيلياء» من الجزية.

ومن أحب من أهل «إيلياء» أن يسير بنفسه وماله مع الروم ، ويخلي بيعهم وصلبهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.

ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل «فلان» فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل «إيلياء» من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع مع أهله ، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله ، وذمة رسوله ، وذمة الخلفاء ، وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان.

«وكتب وحضر سنة خمس عشرة».

* * *

قل للجاهلين الذين يسيئون بالإسلام الظنون ، ويفترون عليه ما هو منه بريء ، قل لهؤلاء : هذا لون من ألوان العدالة الانسانية في الإسلام ، وهذا مظهر من مظاهر القسطاس الإسلامي في الوقت الذي يشعر فيه المسلمون بقوتهم وغلبتهم

وانتصارهم . وللقوة سورة ، وللغلبة نشوة ، وللانتصار سكرة ، ولكن أبناء الإسلام لا ينسون العدل أينما كانوا : والقرآن يقول : « ٱعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوَى » ، « إنَّ ٱللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إلى أَهلِهَا . وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة » .

كتاب قرآني

في فتوح الشام حاصر المشركون أبا عبيدة وجيشه ، وضيقوا عليهم ، فأصابهم جهد وتعب ، فكتب اليه عمر مهوِّناً ومشجعاً ، يقول :

« سلام عليك ، أما بعد ، فإنه لم تكن شدة إلا جعل الله بعدها فرجا ، ولن يغلب عسر يسرين : (يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) » .

هذا كتاب في غاية الإيجاز ، نحو نصفه من القرآن(١) ، وهو لا يزيد عن أربع جمل » وكأنما لاحظ أبو عبيدة هذا ، فأجاب بالطريقة نفسها ، فجعل ردَّه اقتباساً من القرآن ، وكان موفَّقاً في الاختيار ، إذ اختار آيتين ، أما الأولى منهما ففيها أبلغ تصوير للحياة الدنيا وسرعة زوالها ، وأما الثانية ففيها وصف للنعيم المقيم ، وفضل الله العظيم ، قال أبو عبيدة :

« سلام عليك ، أما بعد : فإن الله تبارك وتعالى قال :

« اعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ ولَهْوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بينَكُمْ وتَكَاثُرٌ في ٱلْأَمْوَالِ والْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي ٱلآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ومَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَانٌ ومَا ٱلْحَيَاةُ

---

(١) النصف الأخير من نص القرآن ، والنصف الأول فيه أيضا استمداد من القرآن ، فالجملة الثانية تذكر بقوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا » ، والجملة الثالثة تذكر بقوله تعالى : « فان مع العسر يسرا أن مع العسر يسرا » .

ٱلدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ، سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء والْأَرضِ أُعِدَّتْ لِلَّذينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » .

(سورة الحديد — ٢٠ و٢١)

عظة لأبي عبيدة

هذه عظة لأبي عبيدة رضي الله عنه ، وستراها قريبة في خصائصها من كتاباته ، فهي وجيزة وواضحة ، ومتسمة بسمة الإيمان بالله وحسن الظن فيه ، يقول :

«أيها الناس . رُبَّ مبيض لثيابه وهو مدنس لدينه ، رب مكرم لنفسه وهو لها مهين . أدركوا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات ، فلو أن شخصاً أذنب حتى بلغت ذنوبه السماء ثم أحسن جاءت حسنته فغلبت سيئاته» .

وهذه الغلبة طبعا تتحقق عند التوبة الصادقة ، والندم الصحيح ، والاستقامة على الطاعة .

خطبة تحريض

في واقعة «حمص» أراد أبو عبيدة أن يحرض الناس على الجهاد فخطب فيهم قائلا :

«أيها الناس ، إن هذا يوم له ما بعده ، أما من حيي منكم فإنه يصفو له ملكه وقراره ، وأما من مات منكم فإنها الشهادة ، فأحسنوا بالله الظن ، ولا يكرِّهن إليكم الموتَ أمرٌ قد اقترفه أحدكم دون الشرك ، توبوا الى الله ، وتعرضوا للشهادة ، فإني أشهد — وليس أوان الكذب — أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة» .

وخطبتهُ — كما ترى — مثل عظته وكتابته قصيرة واضحة ، شافية ، مؤمنة .

مسند أبي عبيدة

ذكر ياقوت الحموي في «معجم الأدباء» أن من مصنفات إبراهيم بن إسحاق الحربي كتابا اسمه «مسند ابي عبيدة بن الجراح[1]». وهذا يدل على أن أبا عبيدة قد اسهم بنصيبه الملحوظ في رواية الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

(١) معجم الأدباء لياقوت، ج ١ ص ١٢٨. طبعة رفاعي.

نهاية أبي عبيدة

لكل حياة نهاية مهما طالت : «كل من عليها فانٍ ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»... وأبو عبيدة أحد الناس ، ولا بد أن يجرى عليه ما جرى ويجري عليهم ، ولقد عظمت حياته ما عظمت ، وتعددت صفحات البطولة فيها ما تعددت ، ولكن لا بد للحياة من خاتمة ، ولا بد للكتاب من طي.. وقد كان..

ظهر الطاعون في أرض الشام وأبو عبيدة بها ، ويلوح أن ظهوره يرجع إلى آثار الدماء ، وكثرة جثث القتلى ، بسبب كثرة المعارك ، وتلوث المياه ، وعدم الالتفات إلى وسائل الوقاية والتطهير ، والتخلص من الجراثيم التي تتكاثر في تلك الحالة .

وقد بدأ الطاعون في بلدة «عمواس» وهي بين «الرملة» و«بيت المقدس» ، وعلى بعد أربعة فراسخ من «الرملة» . وكان ابتداؤه في السنة الثامنة عشرة للهجرة ، ومن عمواس انتشر في البلاد ، وفشا بين العباد ، حتى قضى على كثير منهم يُعدون بعشرات الألوف ، حتى قيل—كما في رواية ابن عساكر إن أبا عبيدة كان في ستةٍ وثلاثين ألفاً من المسلمين ، فلم يبق منهم إلا ستة آلاف رجل ! .

وكان أبو عبيدة أمير القوم ، وكان يرى أن الطاعون يشتعل في الناس ، ويودي بهم إلى الهلاك ، ولكن كيف يتركهم وهو قائدهم؟.. ثم هو يذكر قولَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها» .

ثم هو رجل مؤمن موقن زاهد ، لا يرغب في الدنيا ، ولا يحب طولَ البقاء فيها ، وما عند الله خير وأبقى ؛ فما حرصه على الحياة؟... وما تمسكه بأسبابها؟... لقد

عاش ما عاش ، وطعم ما طعم ، وبلغ من المجد ما بلغ ، وقيل له ما قيل ، وكل ذلك يبدو أمامه قليلا ضئيلا بجوار ما وعد الله به عباده المؤمنين من نعيم مقيم : «وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» .

وإذن فليبق أبو عبيدة بين القوم ، وليحتمل معهم ما يحتملون ، وليكن ما يكون .

رضينا بقضاء الله وقدره .

رضينا بالله قسما وحظاً ...

ولو جاء أحد في هذا الوقت يحدِّث أبا عبيدة عن العدوى ، وعن الحيطة والوقاية ،وعن النصوص التي جاءت في القرآن والسنة حول هذا الموضوع ،لما كذَّبه أبو عبيدة ، ولكن المتحدث لن يجد الأذنَ السميعة المستجيبة من أبي عبيدة ، فقد كان يهيم في وادٍ آخر من الإعراض عن الدنيا ، ومن الاستهانة بمتاعها ، والبقاء فيها .

وإذا كان هناك جاهلون أو مغرضون قد زعموا أن مؤامرة عُقدت بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ليتولوا الخلافة بالتتابع ، فهذا هو الرد المفحم المسكت لهؤلاء .

هذا أبو عبيدة في الشام ، وهذا هو الطاعون ينتشر ، وهذا هو عمر قد مضى عليه في الخلافة سنوات ، وهو إن عاش حينا فسيموت بعد حين ، بل هو عرضة للموت في كل حين : «وما تدري نفس بأي أرض تموت» !..

فلماذا لا يكون أبو عبيدة بجانب عمر في المدينة ، حتى إذا أصابته نازلةُ القدر تسلم منه أبو عبيدة مقاليدَ الخلافة ؟. أيعجزه السبب الذي يلتمسه للعودة إلى المدينة ؟ ... إنه ليستطيع أسباباً لا سبباً واحداً ، فقد انتهى الفتح ، وكمل دورُ أبي عبيدة في قيادة الجيش ، ويستطيع غيره من القواد المتعاونين معه أن يلي أمرَ الجيش ، ويعود هو إلى المدينة ترقبا لمقعد الخلافة المرموق منه كما يزعم أولئك المتخرصون !..

لكن أبا عبيدة لم يفعل ، لأنه لم يطمع ، ولأنه لم تكن هناك مؤامرة إلا في نفوس المفترين المغرضين ، الذين يتلمسون لأعلام الإسلام عيوبَ الافتراء والأوهام ، كما يتلمس أهلُ الحقد والبغضاء لجمال الحسناء عيبا من الهواء ، فيعييهم ذلك في الأرض أو في السماء ، فيقولون : وما ذلك البهاء في الضياء؟...

* * *

بل هناك «جهيزة» التي تقطع قولَ كلِّ خطيب...

هناك البرهان الذي ليس كمثله برهان . لقد بلغ خبرُ الطاعون أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، وهو يعرف من أبي عبيدة زهدَه وقلة حيطته في مثل هذه الأمور ، فأراد أن يستقدمه إليه ، ليبعد به عن موطن الوباء ، وحاول أن يستدرجه في هذا الاستقدام ، فلم يذكر له أنه خائف عليه ، أو أنه راغب في نجاته ، بل ذكر له أن هناك أمراً جليلا من أمور الرعية لا يتم بحثه إلا بمشافهة بين أبي عبيدة وأمير المؤمنين ، فكتب عمر إليه يقول :

«سلام عليك ، أما بعد... فإنه قد عرضت لي إليك حاجة ، أريد أن أشافهك فيها ، فعزمت عليك إذا نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إليَّ» .

الآمر هنا هو الخليفة أمير المؤمنين، راعي الأمة ، وأمينها الأول ، وقد اتخذ لكتابه صورة الكتاب الذي يكتب في الشدائد والأزمات فاختصر المقدمات ، وقلّل الكلمات ، وهو يُقسم على أبي عبيدة ، ويؤكد عليه أن يجيب نداءه ، فيقبل إليه بأسرع ما يستطيع ، إذ بمجرد أن ينظر في الكتاب يبدأ في الرحيل إلى أمير المؤمنين ، ولا ينتظر قليلا ولا كثيراً ، بل لا يضع الكتاب من يده حتى يبدأ في الإقبال على عمر.

ليس وراء ذلك في مثل هذه الحالة بقيةٌ للتأكيد وإظهار الاهتمام.. ولكن العجيب — واستمعوا أيها المرجفون إن كنتم تسمعون — أن أبا عبيدة لم يجب ، على

الرغم من كمال التهيؤ في الموقف لتسويغ الاستجابة مع عدم الظن بأن أبا عبيدة أراد الفرار من قدر الله وهو الطاعون ! !.

لم يجب أبو عبيدة ، لا عن جهل بالطاعون وعدواه ، فهو يرى ويسمع . إن لم يكن يعرف ويعلم ، ولا عن رغبة في إلقاء نفسه إلى التهلكة ، ولكنه الزهد في الحياة ، والخجل من ترك جنده يكتوون بالبلاء مهما كانت الأسباب التي تدعوه إلى الانتقال .

ولم يجب أبو عبيدة ، لأنه أدرك ما أراده عمر — رضي الله عن عمر — وعلم أنه إنما أراد أن يستخرجه من منطقة الوباء ، فقال : يغفر الله لأمير المؤمنين...

وكم تحمل هذه الدعوة من رموز وإشارات !.

ثم كتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين يقول :

« يا أمير المؤمنين ، إني قد عرفت حاجتَك إليَّ ، وإني في جند من المسلمين ، لا أجد بنفسي رغبةً عنهم ، فلست أريد فراقَهم حتى يقضي الله فيَّ وفيهم أمرَه وقضاءه ، فحللني من عزمتك يا أمير المؤمنين ، ودعني في جندي ».

والكتاب كما ترى فيه ذكاء وألمعية ، وفيه تسويغ للبقاء وعدم الاستجابة للرجاء ، وفيه إشارة إلى « جند من المسلمين » ولا يليق بقائدهم أن يتركهم في الوباء ، وينأى عنهم بنفسه وهو المسئول الأول عنهم ، وفيه رضاً نفسي من أبي عبيدة بالبقاء معهم ، فهو لا يجد بنفسه « رغبةً عنهم » ، وفيه تذكُّر لقضاء الله وقدره اللذين يغلبان الحيلةَ والوسيلة حينما يريد اللطيف الخبير ، وفيه حسنُ خطاب من أبي عبيدة حين يسأل عمر أن يجعله في حلٍّ من عزمه وتأكيده عليه بالمسير ، ثم يختم الكتاب بلب السبب ، وعماد الأمر هنا وهو : « ودعني في جندي » !.

* * *

وقد وصل الكتاب السابق إلى عمر ، فلما قرأه بكى ، وظن مَنْ حوله أن قضاء

الله قد نزل بأبي عبيدة ، فقد سمعوا بأخبار الطاعون وسعة فتكه بالمسلمين من قبل ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، أمات أبو عبيدة ؟.

فأجاب إجابة نافية مثبتة قال : « لا ، وكأن قد[1] » . أي لم يمت بعد ، ولكنه على أبواب الموت . وذلك موقفٌ من مواقف الإلهام العمري الذي أشار إليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ولما رأى عمر إصرار أبي عبيدة على البقاء ، ووقف على النكبات التي أصيب بها المسلمون من هذا الوباء ، كتب إلى أبي عبيدة كتابا ينصحه فيه بأن يتحول بالناس من الأرض الرطبة الوخمة التي كانوا فيها ، وهي أرض الأردن يومئذ ، إلى أرض جافة ، طيبة الهواء ، قليلة الهوام ، وهي « الجابية » ، فقال له في كتابه :

« سلام عليك ، أما بعد .. فإنك أنزلت الناسَ ارض الأردن ، وهي أرض غمقة[2] ، فارفعهم إلى أرض الجابية ، فإنها أرض مرتفعة نزهة[3] » .

ولما وصل كتاب عمر الى ابي عبيدة لم يجد غضاضةً فيما احتواه من مشورة ، فاستدعى أبا موسى الأشعري ، وطلب منه أن يبحث للجنود عن البقعة المرتفعة النزهة ، كما أشار أمير المؤمنين .

ولكن لم يُغن الحذرُ من القَدَر ، فقد أصيب القائد البطل بالطاعون ..

أصيب أبو عبيدة ! ..

لم تصبه رماح الأعداء ، ولا سيوف المشركين ، ولا سهام المعارك .

وأصابته جرثومة الطاعون .

ولله في خلقه شئون .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ، ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) غمقة : ذات ندى وثقل ووخامة ، أو قريبة من المياه

(٣) نزهة : بعيدة عن المياه والذباب والهواء الفاسد

وصية أبي عبيدة

ولما أحس أبو عبيدة بالموت أوصى قبل وفاته بقوله :

«أقرئوا أمير المؤمنين السلامَ ، وأعلموه أنه لم يبق من أمانتي شيء إلا وقد قمتُ به وأديتُه إليه ، إلا ابنة خارجة نُكحت في يوم بقي من عدتها لم أكن قضيتُ فيها بحكومة ، وقد كان بعث إليَّ بمائة دينار فردوها إليه»..

فقالوا له : إن في قومك حاجة ومسكنة.

فقال : ردوها إليه ، وادفنوني من غربيِّ نهرِ الأردن إلى الأرض المقدسة...

ثم قال : ادفنوني حيث قضيت ، فإني أتخوف أن يكون سنة (أي أن يعتاد الناس ذلك من بعده).

وكأنه أراد رضي الله عنه ألا يفتح باباً لتعيين القبور وإقامة الأنصاب حولها ، لأن الخلود في الإسلام ليس خلودَ قبور وأجداث ، ولكنه خلودُ الذكر الحميد بين الناس.

وفي رواية عن سعيد المقبري قال : لما طُعن[1] أبو عبيدة بن الجراح بالأردن ــ وبها قبره ــ دعَا مَن حضره من المسلمين فقال :

«إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير : أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصوموا شهر رمضان ، وتصدقوا ، وحجوا واعتمروا ، وتواصَوْا ، وانصحوا

(١) أي أصيب بالطاعون.

لأمرائكم ، ولا تغشوهم ، ولا تُلْهكم الدنيا ، فإن امرءاً لو عمِّر ألف حَوْل ، ما كان له بُدٌّ من أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون .. الله كتب الموت على بني آدم ، فهم ميِّتون ، وأكيسهم أطوعهم له ، وأعملهم ليوم معاده ، والسلام عليكم ورحمة الله ، يا معاذ بن جبل ، صلِّ بالناس » .

ومات أبو عبيدة ..

مات البطل العربي الإسلامي ، مات القائد الفاتح ، والأمير المؤمن العظيم ! .

رُوي أنه انطلق يريد الصلاةَ في بيت المقدس ، فأدركه أجله عند « فحل » ، فتُوفِّيَ بها .

وقيل إنه توفي في « بيسان » .

وقيل في « الأردن » كما سبق .

وقيل في « عمواس » .. ولا يضير ذلك كثيراً ، فالمواضع متشابهة ومتقاربة ، وقد يكون أصيب في موضع ، ورقد في موضع ، ولفظ نفسه الأخير في موضع . وعلى كل حال فلسنا عبادَ قبور وتراب ، ولكننا طلابُ مبادىء وأخلاق .

وكأن القضاء استجاب لرغبة أبي عبيدة ، فلم يتعين قبرُه بيقين ، حتى لا يكون ذلك سنةً من بعده ، وحتى تظل سيرةُ أبي عبيدة العاطرة شذاً يتردد معطِّراً للآفاق ، فيكون أليقَ بأبي عبيدة ، وأنفعَ لطلاب العظة والذكرى من ألف قبر وألف تمثال [1] .

* * *

(١) يقال ان قبر أبي عبيدة موجود بجامع الجراح بدمشق .

رثاؤه

ولما مات أبو عبيدة وقف خَلْفَهُ معاذ بن جبل في الناس يخطبهم راثياً بصدق فقال : «أيها الناس .. توبوا إلى الله من ذنوبكم توبةً نصوحاً ، فإن عبداً لا يلقى الله إلا تائباً من ذنبه كان حقاً على الله أن يغفر له .. من كان عليه دَين فليقضه ، فإن العبد مرتَهن بدينه ، ومن أصبح منكم مهاجراً[1] أخاه فليأته فليصالحه ، ولا ينبغي لمسلم أن يهجر أخاه أكثر من ثلاث.

والدين العظيم إنكم أيها المسلمون فجعتم برجل ما أزعم أنني رأيت عبداً أبرّ صدراً ، ولا أبعد من الغائلة ، ولا أشد حباً للعامة ، ولا أنصح للأمة منه ، فترحموا عليه ، رحمة الله ، واحضروا الصلاة».

فلنلاحظ هنا أن الموقف موقفُ رثاء ومشاهدة للموت ، وتذكر للدار الآخرة ، وهو موقف يستيقظ فيه الضمير ويرتعش الفؤاد ، ويستهين المرء عنده بما في الدنيا ، ويأنس بما عند الله ، ويستكثر ذنوبه ، ويستقل طاعته ، ويهم بإصلاح شأنه استعداداً للقاء الموت الذي يراه نازلاً بسواه ، ولا يبعد أبداً أن ينزل به بعد قليل.

ولذلك نرى معاذ بن جبل لا يدخل في ذكر أبي عبيدة — رحمه الله — مباشرة ، بل يقدِّم بين يدي ذلك نصحاً بتعجيل التوبة الصادقة ، وحثاً على قضاء الديون والأمانات ، والودائع والحقوق ، وتحريضاً على إزالة العداوات ، وإحياء المحبات ، وهو يستوحي كل هذه العظات الأخروية من موقف الموت الرهيب ، ثم يَخلصُ بعد ذلك إلى رثاء أبي عبيدة ، فيقتصر على كلمات قصار ، ولكنها كبار.

---

(١) أي مخاصما ومقاطعا.

نعي أبي عبيدة إلى الخليفة

ثم أرسل معاذ بن جبل كتاباً إلى أمير المؤمنين عمر ينعي فيه أبا عبيدة، ويصفه بما هو أهله، وهو من خير الكتب في النعي والعزاء المقترنين بالاسترجاع، وحسن الاستسلام.. قال:

«لعبد الله عمر أمير المؤمنين من معاذ بن جبل، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد... فاحتسبْ امْرأً كان لله أميراً وكان الله في عينه عظيماً، وكان علينا وعليك يا أمير المؤمنين عزيزاً: أبا عبيدة بن الجراح: غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. إنا لله وإنا إليه راجعون، وعند الله نحتسبه، وبالله نثق له.. كتبت لك وقد فشا الموت وهذا الوباء في الناس، ولن يخطيء أحداً أجله من الموت، ومن لم يمت فسيموت.. جعل الله ما عنده خيراً لنا من الدنيا، إن أبقانا أو أهلكنا، فجزاك الله عن جماعة المسلمين، وعن خاصتنا وعامتنا، رحمته ومغفرته، ورضوانه وجنته: والسلام عليك ورحمته وبركاته».

* * *

ولقد حزن عمر على موت أبي عبيدة، وظل يكرم ذكراه، ولقد كان عياض بن غنم بالشام مع ابن عمه أبي عبيدة، فلما توفي أبو عبيدة استخلف عياضاً بالشام، فأقر ذلك الخليفة عمر قائلاً: «لا أغيِّر أميراً أمره أبو عبيدة»[1].

---

(١) كتاب خطط الشام، ج ٦ ص ٣٥٧.

صفة أبي عبيدة

كان أبو عبيدة رجلاً طويلاً ، نحيفاً ، معروق الوجه ، خفيف اللحية ، أهتم ، وكان يصبغ لحيته بالحناء والكتم.

وقد مات وهو ابن ثمان وخمسين سنة.

وروي أنه مات ولم يعقب ، وفي أخرى أنه أعقب ومات عقبه.

كلمات إنصاف

مرّ عمر بن الخطاب بقوم يتمنون، فلما رأوه سكتوا.

قال: فيم كنتم؟.

قالوا: كنا نتمنى.

قال: فتمنوا وأنا معكم.

قالوا: فتمن.

قال: أتمنى رجالاً ملء هذا البيت مثل أبي عبيدة بن الجراح، وسالم مولى أبي حذيفة: إن سالماً كان شديد الحب لله، لو لم يخف الله ما عصاه، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيده بن الجراح[1].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: ثلاثة من قريش: أحسنها أخلاقاً وأصبحها وجوها، وأشدها حياء، إن حدثوك لم يكذبوك، وإن حدثتهم لم يكذبوك: أبو بكر الصديق، وأبو عبيدة بن الجراح، وعثمان بن عفان رضي الله عنهم[2].

رضوان الله على أمين الأمة... أبي عبيدة عامر بن الجراح!.

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، ج ٣ ص ١٥٠.

(٢) عيون الأخبار لابن قتيبة، ج ٣ ص ٢٣.

سيف الله
خالد بن الوليد

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي

مطبعة الدار القومية

الطبعة الأولى : ٧ جمادي الآحرة ١٣٨٢
٤ نوفمبر ١٩٦٢



بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلي وأسلم على جميع أنبيائه ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه وأحبابه ، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين .

وأستفتح بالذي هو خير : «ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير» .



قبس من ذكر الله

«إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَى مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْراةِ وَٱلْإِنْجِيلِ وَٱلْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ ٱللَّهِ ؛ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ، وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ ٱلْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ٱلرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ٱلآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَٱلْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ»

(سورة التوبة : ١١١—١١٢)



تزكية الرسول

قال النبي صلى الله عليه وسلم في شأن خالد بن الوليد :

«نعم عبد الله ، وأخو العشيرة ، وسيف من سيوف الله ، سله الله على الكفار والمنافقين» !.



تصدير

إن سير الأبطال مدرسة جليلة الدروس عظيمة الثمرات. لأن حياة هؤلاء الأبطال بما فيها من كفاح ونضال ، وبما تضمنته من أحداث ومواقف ، تعتبر مشعلاً ساطعاً يضيء الطريق أمام كل فرد يريد أن يكون له رسالة وهدف وجهد في هذه الحياة.

ولذلك تعد دراسة الأبطال من أهم المقومات التي تبعث في الصدور العزيمة القوية والهمة العالية ،. وتدفع أصحابها إلى مواطن التشبه بهؤلاء الأبطال ، فيدوم السير نحو الرفعة والسمو ، ويتصل العمل من أجل الأهداف الكريمة والمثل العليا.

وإذا كان الاطلاع على حياة الأبطال وسير العظماء وتاريخ القواد أمراً مفيداً ومثمراً لكل دارس وكل مطالع ، فإنه أمر لازم ، ودرس لا بد منه للجندي الذي يرابط على حدود وطنه ، أو ثغور بلاده ، يدافع عنها ويصد عدوان الدخلاء عليها ، ويداوم التدرب والتعلم ، حتى يتقن إعداد نفسه لأداء الواجب المقدس عليه ، حينما يطالبه قومه ووطنه بأداء هذا الواجب.

إن تاريخ هؤلاء الأبطال يجب أن يكون سميراً يناجي الجندي وهو في خيمته. وهو في خندقه ، وهو مرابط في معسكره. وهو راحل إلى أداء مهمته ، ولا شك أن هذا السمير سيملأ أذني الجندي بحديث البطولة والإقدام ، وسيعمر صدره باليقين والإيمان ، وسيدفعه إلى أن يكون بطلاً كما كان أسلافه أبطالاً ، وإلى أن يكون له نصيب في التاريخ كما كان للسابقين أنصباء.

* * *

والأمة المجاهدة ليست بنت يومها فقط ، ولا بنت غدها فحسب ، إنها بنت

ماضيها ويومها وغدها... تتلفت إلى الماضي فتجد التاريخ العاطر بصفحات المجد، المحتشد بمواقف الجلال .والتضحية والإقدام المزدان بقصص الأبطال والقواد والعظماء. فتأخذ من هذا كله مدداً روحياً وزاداً معنوياً، ثم تلتفت إلى حاضرها فتبذل كل دقيقة من وقتها، وكل قطرة من عرقها، وكل قوة من قواها، لتبني نفسها، وتحصن ذاتها، وتدعم مجتمعها، وتسعد أفرادها.

ثم هي تتطلع إلى المستقبل بعين الأمل والرجاء، فتمهد له بحاضرها، وتعزم على أن يكون أكثر استقراراً وتعميراً من حاضرها، وهكذا تتصل خطواتها على الطريق بعد أن عرفته وحددته واستعدت له، فتنتقل من مجد إلى مجد، ومن نصر إلى نصر، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* * *

ومن فضل الله تبارك وتعالى على هذه الأمة العربية المؤمنة أن جعل لها من خلفها رصيداً زاخراً يتمثل في ماضيها المجيد وتاريخها العظيم، وهيأها في حاضرها لمهمة التجديد والتعمير، وهو سبحانه صاحب الفضل الذي يمن عليها في مستقبلها بما يحقق أهدافها ويبلغها آمالها.

وفيما يلي صفحات موجزة ميسرة، ركزت فيها سيرة بطل عربي مؤمن. هو سيف الله خالد بن الوليد، وفي هذه السيرة على اختصارها دروس للجندي، وأشعة تضيء أمامه طريقه وهو يقوم بواجبه الجليل النبيل.

ولعل هذه السيرة الموجزة تغري بعض الجنود على أن يتوسع في تتبع حياة البطل خالد، فيحيط بها في تفصيل وتحليل، فيزداد تأثراً واستفادة، وعلى الله قصد السبيل.

أحمد الشرباصي

أيها الأخ الجندي

اقترب مني أيها الجندي المجاهد في سبيل عقيدتك ووطنك، وكرامتك ومبادئك.

اقترب مني لنتحدث سوياً حديثاً تمليه الأخوة في الوطن، وتبعثه الغيرة على الحمى، وتزكيه روح الإسلام والعروبة...

إنك الآن تقوم بأشرف واجب في سبيل بلادك وأهدافك ومثلك العليا، لأنك ترابط في الثغور على الحدود، تؤدي واجب الجندية، وتنال شرف العسكرية، وتتدرب قدر استطاعتك، وتعمل بالليل والنهار، لتكون مع إخوتك الجنود والمجاهدين، على أهبة الاستعداد الدائم لحراسة الوطن من الداخل والخارج، ولصدّ عدوان المعتدين، ولحماية بلادك من الدخلاء والمفسدين.

وإنك تحمل روحك على يديك، تبذلها كريمة وعظيمة يوم يحتاج الوطن إلى أرواح المجاهدين وقلوب الشهداء؛ وإنك تسير بجنديتك المخلصة إلى خير على الدوام، لأنك إذا انتصرت في معركتك، ورجعت إلى قومك، فإنك تذوق لذة الفوز وتشهد فرحة النصر، وتحيا حياة العزة والكرامة؛ وإن قدر الله لك الاستشهاد، فإنك تصير إلى نعيم إلهي خالد، وتحيا عند الله حياة أعظم وأكرم، والقرآن الكريم يقول:

«وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ

مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ» .

(سورة آل عمران آية ١٧٠ ، ١٧١)

* * *

ولقد كان لك أيها الجندي آباء وأجداد وأسلاف ، جاهدوا خير الجهاد ، وأدوا واجب الخدمة للميدان أحسن الأداء ، وبذلوا من حياتهم وأجسامهم وهممهم ما صانوا به بلادهم ، وحفظوا عقيدتهم ، ونصروا مبادئهم ، وخلد التاريخ منهم أبطالاً كباراً ، من واجبك أن تعرف تاريخهم ، وأن تدرس أعمالهم ، لتتشبه بهم في شجاعتهم وإقدامهم وإيمانهم وحبهم لأوطانهم الذي اعتبره النبي عليه الصلاة والسلام قطعة من الإيمان !...

* * *

ومن هؤلاء القواد العظماء البطل العربي الإسلامي المشهور : خالد بن الوليد ، الذي أطلق عليه النبي لقب «سيف الله» بسبب ما قام به من بطولة وإقدام لنصرة دين الله الذي يدعو إلى الحرية والعزة والكرامة وسيادة العدل بين الناس..

فهل لك أيها الجندي أن تستمع إلى حديث مختصر عن حياة هذا البطل وأعماله ، والأسباب التي جعلته قائداً عظيماً في تاريخ العروبة والإسلام؟.

من هو خالد؟

هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومي ، يجتمع نسبه مع النبي صلى الله عليه وسلم في الأب السابع له وهو «مرة بن كعب».

وكان خالد متقارباً في العمر مع عمر بن الخطاب ، وقد ولد قبل بعثة النبي بنحو سبع وعشرين سنة تقريباً ؛ ونشأ في مكة المكرمة ، حيث نجد التجارة واسعة ، والرحلة مستمرة ، لأن مكة لا زراعة فيها ولا صناعة ، فهي تعتمد على التجارة في الغالب.

وقد اكتسب خالد من هذه البيئة وهذه الحياة التي تحيط به خفة الحركة ، ووفرة النشاط ، وعمق الذكاء.

* * *

وكان خالد من أسرة غنية لها منزلة كبيرة وسلطان واسع ، وأبوه الوليد بن المغيرة كان يعد من عظماء قبيلة قريش ، وكان أحد حكامها في عهد الجاهلية ، وكان يملك أكثر من اثني عشر ألف دينار ، وعنده بساتين كثيرة واسعة ، وكان يقرض أمواله للناس بالربا.

وكان قومه يسمونه «الوحيد» ، لأنه ينفرد عن غيره بأشياء كثيرة ، وقد مات بعد الهجرة النبوية إلى المدينة بثلاثة أشهر ، دون أن يسلم ، وبعد أن ظهر عناداً واضحاً في محاربة الإسلام والاعتداء على المسلمين.

وفيه يقول القرآن الكريم في سورة المدثر :

«ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدوداً ، وَبَنِينَ شُهُوداً ،

وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيْدَ ، كَلَّا ، إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً ، سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً »[1] .

(سورة المدثر : ١٠ — ١٧)

وأم خالد اسمها «عصماء بنت الحارث» ، وقد أسلمت في وقت متأخر.

وكان خالد رجلاً طويل القامة ، ممتليء الجسم ، كبير الرأس ، أبيض اللون ، عريض الصوت ، تبدو عليه صورة أحد الفرسان الأقوياء.

* * *

ويظهر أن خالداً لم يحترف حرفة في شبابه ، ولم يكن له عمل معين ، لأنه لم يكن محتاجاً إلى ذلك ، فثروة أبيه الكبيرة كانت تكفيه وتغنيه ؛ ولهذا كان يقضي وقته في ركوب الخيل والصيد وأعمال الفروسية ، والمسابقة بينه وبين أمثاله من شباب العرب الأغنياء.

ونشأ فيه من صغره ميل إلى أعمال الشجاعة والفروسية ، وكانت البيئة التي يعيش فيها تدفعه إلى اعتياد هذه الأعمال ، ولما طالت التجارب على خالد في ركوب الخيل والمبارزة والمسابقة والمطاردة اكتسب خبرة حربية ظاهرة ؛ وهذا يدلنا على أمر هام ، وهو إن الإنسان لا يليق به أن يكتفي بما في نفسه من مواهب أو طاقات ، بل عليه أن يزيد في هذه الطاقات ، وأن يوسع دائرة هذه المواهب.

ولو استعرضنا حياة خالد كلها لوحدناه قد تعلم فنون الحرب وزاولها ، وصبر على تعلمها ، ولم يضق من متاعبها ومصاعبها ، حتى صار ممتازاً فيها ، وأصبح يعد من أشهر قواد العالم ، وقال فيه القائد الألماني الماريشال «غولتس» :

«إنه أستاذي الأكبر في فن الحرب» !.

---

(١) سأذيقه عذاباً شديداً لا يطيقه.

موقف خالد من الاسلام

أرسل الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

ولم يسارع خالد بالدخول في الإسلام، ولعل ذلك كان لعدة أسباب، فهناك والده القوي الغني الطاغي الذي يعادي المسلمين، ويعتدي على المؤمنين. وهناك أموال أبيه الكثيرة التي سيحرم منها خالد لو خالف أباه وأسلم. ثم إن خالداً يعتز بفروسيته اعتزازاً كبيراً يبلغ به درجة الغرور. وهذا النبي الجديد ليس له من الأموال مثل ما لخالد ولأبيه، ولذلك تأخر إسلام خالد حيناً من الزمان، وإن كنا في الوقت نفسه نعجب بشجاعة أخيه «الوليد» الذي أسلم قبل خالد، وخاف على نفسه من المشركين في مكة، فهاجر إلى المدينة ليقيم مع إخوانه في الإسلام، وفي أثناء هجرته سال الدم من إصبعه بسبب كثرة المشي، فلم يهتم الوليد بذلك، بل قال:

هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت!

وكان النبي يحب «الوليد» ويدعو له!...

* * *

ونحن نعرف أن الغزوات بين المسلمين والمشركين بدأت عقب الهجرة، وكان المسلمون مضطرين إليها دفاعاً عن أنفسهم ومحافظة على حياتهم واسترداداً لحقوقهم، فقد أخرجهم المشركون من ديارهم وأموالهم وأراضيهم، واستولوا على أملاكهم، وفي الوقت نفسه عارضوا الإسلام وسدوا عليه الطريق...

ومرت قافلة تجارية للمشركين على المدينة في طريقها إلى مكة ، فأراد المسلمون الاستيلاء عليها نظير ما أخذه المشركون أو نظير بعضه ، فحدثت غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً ، بفضل الله ومعونته.

وأراد المشركون أن ينتقموا لأنفسهم فحدثت «غزوة أحد» عند جبل أحد ؛ وفي هذه الغزوة أمر النبي عليه الصلاة والسلام رماة السهام أن يقفوا صفاً واحداً فوق الجبل ، ليحموا ظهور المسلمين في أثناء المعركة ، وأمرهم ألا يتحركوا من أماكنهم مهما كانت النتيجة ، ومهما كان الوضع ، إلا إذا أمرهم بالتحرك.

وبدأت المعركة ، وانتصر المسلمون في أول الأمر ، وظن رماة السهام أن المعركة قد انتهت ، وأرادوا أن يأخذوا نصيباً من الغنائم ، فتركوا أماكنهم قبل أن يأمرهم النبي بذلك ، وكان هذا خطأ ، لأن الجندي يجب عليه أن يطيع أمر قائده ، وأن ينفذ الأمر كما صدر إليه ، وألا يجعل تفكيره الشخصي يتصرف في تكيف هذا الأمر.

* * *

كان خالد بن الوليد قائداً لفرسان المشركين في هذه المعركة ، وتطلع حينئذ فرأى الرماة قد تركوا أماكنهم فوق الجبل ، وأصبح الجبل خالياً ، فدار خالد حول الجبل واعتلاه مع زملائه الفرسان ، وجعل يضرب المسلمين من الخلف ، وهم يظنون أن المعركة انتهت بنصرهم ، واشتغلوا بجمع الغنائم ، ولهذا دارت الدائرة على المسلمين ، وانقلب الانتصار إلى هزيمة بسبب عصيان الرماة لأمر الرسول ، وبانتباه خالد إلى استغلال الفرصة ببديهته الحاضرة وعينه اليقظة !.

ضلال العناد

حينما يثور العناد في نفس الإنسان يضله عن الحق، ويبعده عن الطريق المستقيم، ويجعله يكابر ويحاور ويداور، ويسرف في انحرافه عن الصواب وعن الإقرار به.

وهذا خالد تمر عليه الأيام بعد ذلك وهو ما زال مشركاً كافراً، برغم عقله وذكائه وقوة شخصيته، ولكنه العناد قاتله الله!.

وهذا العناد الخبيث الذي سيطر عليه وتحكم فيه هو الذي جعله يخرج من مكة حين جاءها المسلمون ليطوفوا بالكعبة، بناء على الاتفاق الذي تم بين المسلمين والمشركين في «صلح الحديبية». وكان هذا الصلح يقضي بأن يدخل المسلمون مكة ليقوموا بهذا الطواف وبأعمال العمرة، ثم يخرجوا من مكة ويعودوا إلى المدينة.

لم يطق خالد البقاء في مكة حين دخول المسلمين إليها، مع أن بينهم أخاه «الوليد»، بل تركها وفرّ هارباً من رؤية أنوار الإيمان تنتشر في ربوع مكة، وكأنه كان يخاف أن تجذبه هذه الأنوار، فتهديه سواء السبيل، فهو يهابها ويفر منها؛ ولكن المعاند سيخضع بعد قليل...

إسلام خالد

آن للضال أن يهتدي ، وللحائر أن يستقر ، وللفار من نور الحق أن يقبل عليه ويستضيءُ به... آن لخالد بن الوليد أن يسلم ويؤمن بالله...

لقد أطال التفكير خلال الفترة الأخيرة من حياته.. إنه يفكر في الإسلام ، ونبي الإسلام ، وأتباع الإسلام...

إلى أي شيءٍ يدعو هذا الدين؟. إنه يدعو إلى كلمة التوحيد ، وتوحيد الكلمة ، والعدل بين الناس ، والتكافل بين الأغنياء والفقراء ، والتعاون بين الأقوياء والضعفاء ، ويحث على مكارم الأخلاق ، فهل ينكر ذلك عاقل؟...

ونبي الإسلام محمد... إنه الأمين منذ صباه ، الصادق في قوله ، المتواضع في نفسه ، الذي أعرض عن المال والجمال والجاه ، وشغل كل حياته بالدعوة إلى الله ، فمن ذا الذي يعيب ذلك الداعية الذي يقول إنه يتمم مكارم الأخلاق؟.

وأتباع الإسلام هؤلاء... إنهم قلة ، ولكنهم غلبوا الكثرة ، إن سلاحهم ضئيل ، ولكنهم من إيمانهم في حصن حصين... إنهم فقراء ولكنهم صابرون ؛ وإنهم مستضعفون في الأرض ، ولكنهم في كل يوم ينتصرون...

أفيكون هذا الإسلام مع كل هذه الظواهر والشواهد من عند محمد؟...

إن هذا لبعيد ، وإن خالداً لجدير بأن يدرك هذه الحقيقة...

وآن لخالد أن يعلن إسلامه.

* * *

ومن الخير أن نترك الحديث لخالد نفسه حتى يحدثنا بلغته واسلوبه وكلماته عن إسلامه، كما روى ذلك المؤرخ ابن سعد في كتاب «الطبقات».

قال خالد بن الوليد:

«لما أراد الله بي من الخير ما أراد، قذف في قلبي حب الإسلام، وحضر في رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن[1] كلها على محمد صلى الله عليه وسلم، فليس موطن أشهده إلا وأنصرف وإني أرى في نفسي أني موضع[2] في غير شيء، وأن محمداً سيظهر (سيغلب وينتصر).

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى «الحديبية» خرجت في خيل قريش، فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه بعسفان فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر إماما، فهممنا بأن تغير عليه فلم يعزم[1] لنا. وكان فيه خيرة، فاطلع على ما في أنفسنا من الهجوم به، فصلى بأصحابه صلاة الخوف، فوقع ذلك مني موقعا وقلت: الرجل ممنوع (محفوظ ومصون) وافترقنا، وعدل عن سنن (طريق) خيلنا، وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشا بالحديبية، ودافعته قريش بالراح (بالأيدي) قلت لنفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب؟.

أإلى النجاشي؟.. فقد اتبع محمداً وأصحابه آمنون عنده!.

أفأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية؟.

أأقيم في عجم؟... أو أقيم في داري فيمن بقي؟..

---

(١) يقصد المعارك.

(٢) أسعى بلا نتيجة.

(١) لم نقدر على ذلك لسبب نجهله.

وبينما أنا على ذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عله وسلم (مكة) في عمرة القضية، وتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخي «الوليد» مع النبي صلى الله عليه وسلم في تلك العمرة، فطلبني فلم يجدني، فكتب إلي كتاباً فإذا فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك ! ! أو مثل الإسلام يجهله أحد؟! وقد سألني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد؟ فقلت يأتي الله به فقال : ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجده (أي خبرته وجهده) مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة».

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الاسلام، وسرتني مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم : ورأيت في النوم كأني في بلاد ضيقة جدبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت : إن هذه الرؤيا حق؛ فلما قدمت المدينة قلت : لأذكرنها لأبي بكر، فذكرتها فقال : هو مخرجك الذي هداك للإسلام، والضيق الذي كنت فيه الشرك.

فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : من أصاحب إلى محمد؟. فلقيت صفوان بن أمية؛ فقلت : أما ترى يا أبا وهب ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا عليه فأتبعناه فإن شرف محمد شرف لنا.

فأبى علي أشد الإباء وقال : لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبدا.

فافترقنا فقلت : هذا رجل موتور يطلب وتراً (ثأراً) قتل أبوه وأخوه ببدر.

فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، فقلت له : فاطو ما ذكرت لك قال : لا أذكره.

وخرجت إلى منزلي فأمرت براحلتي[1] تخرج إلي ، الى أن ألقى عثمان بن طلحة ابن أبي طلحة ، فقلت : إن هذا لي لصديق ، فلو ذكرت له ما أريد؟.

ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره ، ثم قلت : وما علي وأنا راحل من ساعتي؟ فذكرت له ما صار الأمر اليه ، وقلت : إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر ، لو صب عليه ذنوب (جردل) من ماء لخرج !.

وقلت له نحواً مما قلت لصاحبيه ، فأسرع الإجابة وقال : لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو (أي لقد أصبحت وفي نيتي أن أذهب إلى النبي) وهذه راحلتي بـ «فج»[2] مناخة ، واتعدت أنا وهو «يأجج»[3] : إن سبقني أقام ، وإن سبقت أقمت عليه ، وخرجنا جميعاً ، فأدلجنا سحرا[4] ، فلما كنا بالهدة[5] إذا عمرو بن العاص فقال : مرحباً بالقوم. قلنا : وبك. قال : أين مسيركم؟

فأخبرناه ، وأخبرنا أنه يريد النبي صلى الله عليه وسلم ، فاصطحبنا حتى قدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول يوم من صفر سنة ثمان ، فأنخنا بظاهر «الحرة»[6] ركائبنا ، وأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر بنا.

ثم لبست من صالح ثيابي ، وعمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقيني أخي فقال : أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بقدومك فسر به ، وهو ينتظر.

---

(١) يقصد الحصان الذي يرحل عليه.

(٢) اسم مكان.

(٣) اسم مكان.

(٤) سرنا في الفجر.

(٥) اسم مكان.

(٦) حجارة سود في مدخل المدينة.

فأسرعت المشي ، فلما طلعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه بالنبوة ، فرد علي السلام بوجه طلق . فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير» !

وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلت : استغفر لي من كل ما أوضعت فيه[1] من صد عن سبيل الله. فقال : إن الإسلام يجب (يقطع ويمحو) ما كان قبله .

قلت : يا رسول الله ، على ذلك؟. فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك !...

وهكذا دخل خالد في الإسلام.

(٢) أي من كل ما سعيت فيه وبذلت فيه جهداً للصد عن الإسلام.

في غزوة مؤتة

«مؤتة» قرية على حدود الشام ، كانت فيها إحدى المعارك بين المسلمين والروم المحتلين لبلاد العرب على عهد الرسول. وكانت هذه الغزوة في شهر جمادي الأولى من السنة الثانية للهجرة.

وقد عين الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الغزوة ثلاثة قواد بالتتابع. جعل الأول زيد بن حارثة ، فإن أصيب أو جاءته الشهادة فجعفر بن ابي طالب بعده ، فإن أصيب أو استشهد فعبد الله بن أبي رواحة ، فإن أصيب الثالث أو استشهد فقد أمر النبي بأن يتفق الجنود على اختيار رجل منهم ليجعلوه قائدا عليهم.

وأوصاهم النبي عليه الصلاة والسلام وصيته الرحيمة العادلة وهي: «لا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تخونوا ، ولا تقتلوا وليدا (طفلا) ولا امرأة ولا كبيرا ، ولا فانيا (شيخا ضعيفا) ولا منعزلا في صومعته ، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجرا ولا تهدموا بناء».

* * *

ومضى الجيش إلى مهمته باسم الله وبدأت المعركة لتحرير عرب الشام من المحتلين الدخلاء ، واشتد القتال على المسلمين ، فقد كان الروم كثيرين ومعهم سلاح ضخم ، والمسلمون في عددهم قليل وسلاحهم ضئيل.

وحمل الراية أول الأمر زيد بن حارثة وجاهد ، ولكنه أصيب ورزقه الله الشهادة في سبيله ، فحمل الراية جعفر وجاهد ، ولكنه أصيب ونال الشهادة أيضا ، فحمل الراية عبد الله بن رواحة ، ولكنه أصيب ونال الشهادة كذلك.

أصبح الموقف عسيرا ، ولكن المسلمين اتفقوا على خالد بن الوليد ليكون القائد ، وكان الجيش قليل العدد منهوك القوة ، ومع ذلك حاول خالد بعبقريته وموهبته أن يبعث الثقة في نفوس الجنود ، فحمل اللواء ، وأقبل على المعركة ، وقاتل قتالا عنيفا مجيدا حتى تكسرت في يده تسعة أسياف ، وظل يقاتل حتى جاء الليل وتحاجز الفريقان بسبب الظلام .

وفي ستار الليل غير خالد مواضع الجيش ، بحيث يبدو فيظن الأعداء أن مددا جديدا قد وصل المسلمين ، وجعل خالد كل همه أن ينقذ ما يمكن إنقاذه فيحفظ حياة البقية الباقية من الجيش ، حتى لا تكون هناك حركة إفناء كاملة له ، فيكون لذلك أسوأ العواقب والنتائج .

* * *

وكان هذا عملا عظيما من خالد ، ولذلك قدر النبي صلى الله عليه وسلم عمله وأثنى عليه ، فقال عنه : « اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره » .

ومنذ ذلك اليوم صار لقب خالد بن الوليد هو « سيف الله » !

وحين خيل إلى بعض الذين لا يعرفون حقائق الأمور أن خالدا قد فر بالجيش من المعركة ، فقابلوا الجيش مقابلة فيها جفوة عند وصوله المدينة ، وقالوا لهم : يا فرار ، فررتم في سبيل الله . أنكر النبي عليهم قولهم وصححه لهم قائلا : « ليسوا بالفرار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله » . أي هم الذين يتأخرون في المعركة ليتمكنوا بعد ذلك من معاودة القتال والنضال .

فتح مكة

في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة توجه النبي صلوات الله وسلامه عليه إلى فتح مكة باسم الله واسم الإسلام ، وكان الجيش الإسلامي في ذلك الفتح عشرة آلاف مجاهد ؛ وقد جعل النبي خالداً قائداً وأميراً على ميمنة الجيش.

وكانت هذه أول مرة ينال فيها خالد شرف القيادة والإمارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة ؛ وكان النبي حريصاً على أن يدخل مكة فاتحا دون أن تسيل أية قطرة من الدماء ؛ ولكن بعض المشركين تصدوا لخالد ، واعتدوا عليه وعلى من معه من الجنود ، فجاوبهم بالمثل ، وكانت هناك مناوشة قصيرة الزمن ، ثم دخل المسلمون مكة ، وتحققت الرؤيا التي رأى فيها الرسول أنه يدخل بفضل الله مكة ومعه صحابته.

ونزل قول الله تعالى في القرآن الكريم :

« لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ».

وبعد خمسة أيام من فتح مكة كلف النبي صلى الله عليه وسلم البطل خالداً أن يتوجه ومعه ثلاثون من الفرسان إلى مكان يسمى « بطن نخلة » — وهو قريب من مكة — ليهدم صنم « العزي » الذي كان أكبر الأصنام عند العرب ، وكانت جموعهم تقصد هذا الصنم في الجاهلية للزيارة والعبادة وتقديم القرابين ، وقد هدم خالد « العزي » وهو يردد :

يا عز، كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

* * *

وهكذا اشترك خالد اشتراكاً فعليا في تطهير الجزيرة من أصنام الشرك وأوثان الضلال، حتى تسود عقيدة التوحيد ودعوة الإيمان.

وبهذه المناسبة نذكر أنه بعد غزوة «تبوك» التي كانت في السنة التاسعة عاد النبي عليه الصلاة والسلام وأرسل خالداً إلى «وادي القرى» ليهدم صنم «وُدَّ». وكان تمثالا على هيئة رجل كبير الجثة، قد زينوه وزخرفوه، وفي جاهليتهم عبدوه، فهدمه خالد وجعله قطعاً على التراب.

هفوة البطل

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم في شهر شوال من السنة الثامنة للهجرة خالد بن الوليد ، ومعه ثلاثمائة وخمسون جنديا أو أكثر ، من المهاجرين والأنصار ، الى قبيلة « بني جذيمة » ، ليبشر بينهم بالإسلام . وكانوا على مسافة ليلة من مكة ، وكان أفراد هذه القبيلة قد أسلموا قبيل وصول خالد إليهم ، وهو لا يعلم ذلك .

فلما بلغهم خالد وجدهم يصلون ، فتعجب من ذلك ، وظن أنهم يخادعونه ، فقال لهم : ما أنتم ؟ . قالوا : نحن مسلمون ، نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فقال خالد : ومتى أسلمتم ؟ . قالوا : أسلمنا الليلة حين بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كفَّ يده عمن ألقى السلاح وقال : لا إله إلا الله . فقلناها وصلينا .

ويظهر أن خالدا لم يصدق كلامهم ، وليته تريث وتأنى ، فقال لهم : ضعوا السلاح . فوضعوه فأسرهم وقتل بعضهم .

* * *

ويروى أنه لما سألهم عن إسلامهم أجابوا : « صبأنا ، صبأنا » . وكلمة « صبأنا » هذه معناها خرجنا من دين إلى دين ، وكان المشركون يقولون عن الشخص الذي يدخل في الإسلام : لقد صبأ . أي ترك دين الآباء والأجداد ، وكانوا يسمون المسلمين بالصابئين .

وكأن خالداً لم يسترح إلى هذا الرد ، وكان يود أن يصرحوا بكلمة الاسلام بأن يقولوا : أسلمنا ، بدل قولهم : صبأنا ، فعرضت له شبهة ما ، ففعل ما فعل .

وكان هذا تسرعاً وهفوة من خالد المحارب المتحمس الفارس ، ولذلك لما بلغ الخبر النبي تألم كثيراً لهذه العملية وقال : «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» !.

وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب ، وبعث معه بأموال كثيرة ليصلح ما حدث في القوم بسبب التسرع وعدم التثبت ، فدفع على ديات القتلى إلى أهليهم ، ورد عليهم الأموال والأشياء التي أخذت منهم.

وبقيت مع علي بقية من المال ففرقها على القبيلة جبراً لخواطرها وتطييباً لنفوسها .

* * *

قد تقول : إن خالداً أخطأ.

ولكنه لا يصعب عليك أن تقول إن هذا الخطأ كان عن غير قصد ولا عمد ، وإنه فعله باجتهاد أو تأويل لم يصاحبه فيه التوفيق ، والمهم هو أن يكفِّر خالد بأعماله العظيمة المقبلة عن هذه الهفوة التي عرضت له في طريق كفاحه الطويل.

* * *

ولقد جاء موقف التكفير بسرعة ، فبعد حين من هذه الحادثة أرسل النبي الوليدبن عقبة إلى قبيلة «بني المصطلق» ليجمع منهم الزكاة في أول السنة التاسعة للهجرة ، فلما رأوه مقبلا من بعيد خرجوا إليه متجمهرين لتحيته ، فتوهم خطأ أنهم قد خرجوا لمقاتلته ، وكان بينه وبينهم عداوة قديمة من عهد الجاهلية ، فتعجل بالعودة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وتسرع فأخبره بأن القوم قد ارتدوا عن الإسلام .

ولم يتسرع الرسول الحكيم في الحكم عليهم ، بل استدعى سيف الله خالد بن الوليد الذي أخذ درساً من قبل في مثل هذا الموضوع ، وأمره بالتوجه إلى بني المصطلق ، وأن يفحص أمرهم ، دون أن يتعجل أو يتسرع.

ولا شك أن خالداً قد استفاد من درس «بني جذيمة» ، فكان هذه المرة متثبتا

متمهلا، فدرس حالة بني المصطلق عن قرب، فوجدهم مسلمين، يصلون ويؤدون فروض الإسلام، فرجع إلى النبي وأخبره بحقيقة الأمر.

وهنا نزل قول الله تبارك وتعالى مؤدباً ومعلماً:

«يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ». **سورة الحجرات — ٦**

وكان الرسول يقول بعد هذا: «التبين من الله، والعجلة من الشيطان»!.

وكان موقف خالد هنا تكفيراً عن موقفه هناك مع «بني جذيمة»!.

داعية يهدي

ولم يقتصر نشاط خالد على الميدان والنضال ، بل قام بواجب الداعية إلى الله في بعض الأحيان ، ففي وسط السنة العاشرة للهجرة أرسله النبي إلى بني الحارث بن كعب في «نجران» وهو موضع بين الحجاز والشام واليمن.

وأمره النبي ألا يحارب القوم أو يقاتلهم إلا بعد أن يدعوهم إلى الإسلام بالحسنى والحكمة والموعظة الحسنة ثلاثا ، فإن استجابوا للهدى فعليه أن يقبل ذلك منهم ، وأن يقيم فيهم يعلمهم القرآن الكريم وحديث الرسول وتعاليم الإسلام.

وأطاع خالد الأمر ، وسار حتى بلغ «نجران» ، وجعل يبشر بالإسلام بين القوم ويقول : «يا أيها الناس ، أسلموا تسلموا» أي ادخلوا في الإسلام تنالوا الأمن والسلام.

* * *

واستجاب القوم لدعوة الله ، ودخلوا في الإسلام ، وكتب خالد كتاباً بذلك إلى النبي يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد ، السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد يا رسول الله ، صلى الله عليك ، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم.

وإني قدمت عليهم فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركباناً يقولون : يا بني الحارث ، أسلموا تسلموا ؛ فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، وآمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام ، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب إليَّ رسول الله ، والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » .

فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد ، سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن كتابك جاءني مع رسلك تخبر أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم بهداه ؛ فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وقد أقبل خالد إلى النبي ومعه وفد بني الحارث ! .

إعزاز الرسول لخالد

بعد إسلام خالد اعتز به الرسول اعتزازاً واضحا، فجعله من كتبة القرآن الكريم، وجعله من أبرز القواد في الجيش، وكان خالد يتنقل من جهاد مع الرسول، إلى إمارة على سرية، إلى إيفاد في مهمة، إلى تبليغ دعوة، إلى مكافحة لأعداء الله؛ ولم ينقطع خالد منذ أسلم عن غزوة غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان خالد يعتز بهذا التقدير من الرسول، ويقول: «لم يعدل بي رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من اصحابه فيما حزبه» أي فيما شغله.

ومعنى هذا أن الرسول كان كلما آلمه شيئ أو ضايقه أمر كلّف خالداً بمعالجته.

وكان خالد يعتز بأثر من آثار الرسول ويستبشر به... فقد حدث أن حلق النبي شعره، فجمع خالد من هذا الشعر ما أمكنه، ثم جعله في قلنسوة يلبسها على رأسه، وكان يحس بأنها سبب فأل حسن له... ولكن هذا التيمن لم يكن يجعله ينسى الإعداد والاستعداد وأخذ الأسباب الممكنة كلها.

خالد وحروب الردة

كان هناك بعض ضعاف النفوس ، أو الذين تظاهروا بالدخول في الدين من غير يقين أو إخلاص ، وما كاد هؤلاء يسمعون بوفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويرون انشغال المسلمين بهذا الحادث الذي زلزل كيانهم ، حتى سارع هؤلاء المنافقون بالارتداد عن الدين ، والتمرد على الأمة ، ومنعوا الزكاة ، وأعلن النفاق عن نفسه ، وأصبحت الجزيرة العربية في زلزلة واضطراب.

وكان أبو بكر قد تولى الخلافة ، ورأى أنه لو ترك الأمر على عواهنه لزاد البلاء وتضاعف الشر ، ولذلك أصر على محاربة المرتدين وتأديب المنافقين، وصيانة هيبة الدين ، والإبقاء على وحدة المسلمين، وقال كلمته المشهورة في حق الزكاة :

« والله لو منعوني عقال بعير (أي حبلاً) كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه حتى يؤدوه ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ».

* * *

وبدأ أبو بكر في تجهيز الجيش ، وعقد أحد عشر لواءً لأحد عشر قائداً ، في طليعتهم خالد بن الوليد الذي كلفه أبو بكر بمحاربة طليحة بن خويلد الأسدي وجماعته ، ومالك بن نويرة وجماعته ، ومسيلمة الكذاب وجماعته.

وإذا راجعنا أسماء القواد الآخرين والجهات التي كلفوا بالتوجه إليها ، نجد أن أبا بكر رضي الله عنه لم يجمع لقائد منهم بين جهتين يحاربهما إلا لخالد ، فقد ولاه محاربة ثلاث جهات ، وذلك لإيمان أبي بكر بعبقرية خالد ومهارته.

وأوصى أبو بكر خالداً وصية جليلة قال له فيها :

«يا خالد ، عليك بتقوى الله تعالى ، وإيثاره على من سواه ، والجهاد في سبيله ، والرفق بمن معك من رعيتك ، فإن معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل السابقة من المهاجرين والأنصار ، فشاورهم فيما نزل بك ، ثم لا تخالفهم ، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة ، فإني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء (جمع دليل) وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة ، واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات (الليل) ، فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام ، واقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله في سريرتهم ، وإذا أتيت داراً فأقحم ، فإن سمعت أذاناً أو رأيت مصلياً فأمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة ، فإن لم تسمع أذاناً ولم تر مصلياً فشنّ الغارة فاقتل واحرق كل من ترك واحدة من الخمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، وحج البيت ، حتى إذا أسلموا وأعطوا الصدقة ، فمن شاء منكم أن يرجع فليرجع .

وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك ، وبعضهم لا لك ولا عليك ، متربص دائرة السوء ، ينظر لمن تكون الدبرة (النهاية) ، فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فإنه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة ، سر على بركة الله» .

* * *

وسار خالد على بركة الله ، وانتصر على قوم طليحة انتصاراً مبيناً ، وفرّ طليحة من أمامه هارباً ، وبعث خالد بانتصاره الرعب في نفوس بني عامر ، فارتدعوا وقالوا لخالد خاضعين. ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله .

وبايعوا خالداً على هذا العهد : «عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنن بالله ورسوله ، ولتقيمن الصلاة ، ولتؤتن الزكاة ، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم» .

* * *

وأسر خالد «قرة بن هبيرة» الذي خرج على المسلمين، وبعث به إلى الخليفة أبي بكر، ومعه كتاب يقول فيه:

«إن بني عامر أقبلت بعد إعراض، ودخلت في الإسلام بعد تربص، وإني لم أقبل من أحد قاتلني أو سالمني شيئاً حتى يجيئوني بمن عدا على المسلمين، فقتلتهم كل قتلة، وبعثت إليك بقرة وأصحابه».

ورد أبو بكر على خالد يقول:

«ليزدك ما أنعم الله به عليك خيراً، واتق الله في أمرك، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. جد في أمر الله، ولا تنين[1]، ولا تظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتلته ونكلت به غيره».

* * *

وانتقل خالد إلى قوم مالك بن نويرة، وحاربهم وأسر منهم جمعاً فيهم مالك بن نويرة نفسه، وأقبلت ليلة شديدة البرد، فأمر خالد بتدفئة الأسرى؛ ويبدو أن القوم فهموا هذا الأمر خطأ، فحسبوا أنه يريد قتلهم فقتلوا منهم عدداً، وكان فيه مالك ابن نويرة وتأسف خالد لذلك وتألم منه، وأراد أن يطيب خاطر زوجة مالك فتزوجها.

وبلغ الأمر أبا بكر فتألم له، وثار منه عمر وانتقد خالداً انتقاداً شديداً، فردّ عليه أبو بكر قائلاً: «هيه يا عمر، تأول فأخطأ، فارفع لسانك عن خالد، فإني لا أشيم (لا أغمد) سيفاً سلّه الله على الكافرين».

* * *

(١) أي لا تتوان ولا تكسل.

وكتب أبو بكر إلى خالد ليحضر، فحضر وعليه ملابس الميدان فقابله عمر بنقده، ولكن خالداً شرح الأمر فقبل أبو بكر عذره، وإن يكن قد لامه على زواجه من امرأة مالك بن نويرة، وأرسل أبو بكر دية لمالك إلى قومه.

ثم انتقل خالد إلى حرب مسيلمة الكذاب في اليمامة، واشتد القتال، وأبلى المسلمون بلاء حسناً، وتجلت عبقرية خالد وشجاعته وتضحيته، وانتهت المعركة بقتل مسيلمة وأعوانه، وانتصر المسلمون انتصاراً مبيناً بفضل الله، ثم بقيادة خالد.

ومن هنا حق لخالد أن يقال عنه إنه «فاقىء عين الردة»!.

في فتوح العراق

انتهت فتنة الردة ، وكان للبطل خالد النصيب العظيم في القضاء عليها ، وتمهيد الأمر أمام الخليفة ، وحينئذ تطلعت عيون المسلمين إلى تحرير الجزيرة من ظلم الأكاسرة والقياصرة ، فاتجهوا إلى تحرير العراق ، فأرسل أبو بكر خالداً على رأس جيش يقوم بذلك ، وكان خالد حينئذ باليمامة ، فكتب إليه أبو بكر الكتاب التالي :

« بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد ومن معه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد :

فالحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر دينه ، وأعز وليه ، وأذل عدوه ، وغلب الأحزاب فرداً (وحده) فإنه الله الذي لا إله إلا هو.

«وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ» .

وعداً لا خلف له ، ومقالاً لا ريب فيه.

وفرض على المؤمنين الجهاد فقال عز من قائل :

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » .

فاستتموا وعد الله إياكم ، وأطيعوه فيما فرض عليكم ، وإن عظمت فيه المئونة ، واشتدت فيه الرزية ، وبعدت فيه الشقة (المسافة) ، وفجعتم في ذلك بالأموال والأنفس ، فإن ذلك يسير في عظيم ثواب الله.

ولقد ذكر لنا الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم أن الله يبعث الشهداء يوم القيامة شاهرين سيوفهم ، لا يتمنون على الله شيئاً إلا آتاهموه ، حتى أعطوا أمانيهم ، وما لم يخطر على قلوبهم ، فما شيء يتمناه الشهيد بعد دخوله الجنة . إلا أن يردهم الله إلى الدنيا فيقرضون بالمقاريض في الله لعظيم ثواب الله[1] .

« انفروا رحمكم الله في سبيل الله « خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

فقد أمرت خالد بن الوليد بالمسير إلى العراق لا يبرحه حتى يأتيه أمري ، فسيروا معه ، ولا تثاقلوا عنه ، فإنه سبيل يعظم الله فيه الأجر لمن حسنت فيه نيته ، وعظمت

---

(١) أي إن الشهداء لا يتمنون في الآخرة إلا أنهم يعودون إلى الدنيا ، لتقطعهم المقصات وأدوات القتال جهاداً في سبيل الله ، وذلك لما رأوه من المكانة العظيمة للشهداء والمجاهدين عند الله. وهذا تحريض على التسجاعة وعلى الشهادة.

في الخير رغبته ؛ فإذا قدمتم العراق فكونوا بها حتى يأتيكم أمري ، كفانا الله وإياكم مهم أمور الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله».

* * *

ونفذ خالد أمر الخليفة ، وكتب إلى «هرمز» الذي كان والياً على بلدة «الأبلة» على شاطىء «دجلة» يقول له : «أما بعد فأسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة[1] ، وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة» !.

وسارع هرمز فكتب إلى «أردشير» ملك الفرس يطلب منه النجدة ، وتلاقى الفريقان ، وانتصر خالد وفاز المسلمون ، واندحر الفرس المحتلون ، وأرسل خالد بأخبار الفتح وبالغنائم إلى أبي بكر وكان بينها قلنسوة[1] هرمز المطرزة بالفصوص والجواهر ، فأعطاها أبو بكر لخالد تقديراً له.

وكان ثمنها مائة ألف ، لأن أهل فارس كانوا يجعلون قلانسهم على قدر منازلهم ودرجاتهم في عشائرهم ، فمن تم شرفه فقيمة قلنسوته مائة ألف ، وهرمز كان ممن تم شرفه بين قومه.

* * *

وتكررت الموقعة ، ودارت الدائرة مرة أخرى على الفرس ، برغم مجيء المدد إليهم من ملك الفرس الذي لم يرتدع حتى بعد أن سقط من قومه ثلاثون ألف قتيل ، فعاد يعبيء الجيش من جديد ، وحدثت معركة عند موضعي «الولجة» و«أليس» كما حدثت معركة «الحيرة» وهي بلدة على بعد ثلاثة أميال من مدينة الكوفة بالعراق ، وكان النصر حليف المسلمين دائماً..

---

(١) أي أقبل أن تكون معنا من أهل الذمة والعهد ، الذين نرعى حقوقهم وندافع عنهم.

(١) القلنسوة : عطاء يوضع فوق الرأس.

وأعجب أبو بكر بعبقرية خالد وشجاعته حتى قال للمسلمين في شأنه إنه أسد المسلمين الذي تغلب على أسد الفرس ، وإن النساء عجزت عن أن تلد شخصاً مثل خالد ! . .

وتقابل خالد مع أهل الحصون من غير المسلمين الذين لم يتعاونوا مع المسلمين ، وقال لهم متعجباً : ويحكم ، ما أنتم ؟ أعرب ؟ فما تنقمون (تكرهون) من العرب ؟ أو عجم ؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل ؟.

وهذا الكلام يدل على حب العدالة وحب الخير للناس جميعاً .

وعرض خالد عليهم أن يقبلوا واحداً من ثلاثة أمور : إما الدخول في الإسلام ، ليتساووا مع المسلمين في الحقوق والواجبات ، وإما أن يدفعوا الجزية في مقابل المحافظة عليهم والدفاع عنهم ، فإن أبوا إلا التمرد فالحرب والقتال .

فاختاروا الجزية ، وصالحوا خالداً ، وأهدوا إليه هدايا بعثها إلى أبي بكر ، فلم يقبلها الخليفة إلا بشرط أن تكون من قيمة الجزية وتخصم منها ، وهذا تعفف وعدل .

* * *

وكتب خالد لهؤلاء من غير المسلمين كتاب صلح جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي ، وعمرو بن عبد المسيح ، وإياس بن قبيصة ، وحيرى بن أكال ، وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به .

عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا ورهبانهم وقسيسهم ، إلا من كان منهم على غير ذي يد (لا قدرة له) حبيساً عن الدنيا تاركاً لها ، وعلى المنعة (الصيانة والحفظ) ، فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم[1] ، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة .

(١) أي أن الجزية يأخذها المسلمون في مقابل قيامهم بالدفاع عمن يدفعونها فإذا عجزوا عن حفظهم ومنعهم من عدوان الغير عليهم فإنهم لا يأخذون الجزية.

وكتب في شهر ربيع الأول من سنة ١٢هـ».

* * *

وكذلك كتب خالد كتاب صلح لأهل «بانقيا» و«باروسما» وهما ناحيتان من نواحي العراق، وقال في هذا الكتاب:

«بسم الله الرحمن هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه. إني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد: (بانقيا وباروسما جميعاً) على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة: القوي على قدر قوته، والمقل (الفقير) على قدر إقلاله في كل سنة، وإنك قد نقبت (صرت نقيباً) على قومك، وإن قومك قد رضوا بك.

وقد قبلت ومن معي من المسلمين، ورضيت ورضي قومك فلك الذمة والمنعة، فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا حتى نمنعكم.

شهد هشام بن الوليد، والقعقاع بن عمرو، وجرير بن عبد الله الحميري، وحنظلة بن الربيع. وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر».

* * *

وأرسل خالد كتباً إلى الفرس يدعوهم فيها إلى خطة الإنصاف والعدل، وتركهم العدوان والظلم، فأبوا فواصل قتالهم لتحرير البلاد من شرورهم، وهددهم وتوعدهم، ومن أمثلة وعيده قوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم: من خالد بن الوليد إلى ملوك فارس. أما بعد.. فالحمد لله الذي حل نظامكم (رابطتكم، ووهن كيدكم، وفرق كلمتكم، ولو لم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم، ونجوزكم إلى غيركم، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب، على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

* * *

ومن لطيف ما تعهد به خالد لأهل الحيرة، ومما يدل على اشتراكية الإسلام الإنسانية أنه تعهد لأهل الذمة من غير المسلمين بأن من عجز منهم عن دفع الجزية لشيخوخة أو مرض أو فقر، فإنه يعفيه من الجزية ويسقطها عنه:

وليس هذا فقط، بل ويكفله من بيت مال المسلمين ما دام مقيماً بدار الإسلام. يقول خالد في هذا العهد.

«وجعلت لهم: أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنياً فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته، وعيل[1] من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام».

---

(١) أي تكون نفقته ونفقة أولاده من بيت مال المسلمين ما دام عاجزاً.

الى الشام

كان الخليفة أبو بكر قد وجه إلى الشام جيشاً إسلامياً لتحرير هذه البلاد من احتلال الروم وطغيانهم ، وعين أبو بكر أربعة قواد للجيش : هم زيد بن ابي سفيان ، وشرحبيل بن حسنة ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، ويظهر أن أبا عبيدة كان أمير هذا الجيش كله .

ولكن الروم كانوا أضعاف المسلمين ، وكان السلاح عندهم كثيراً وفيراً ، ولذلك احتاج المسلمون إلى المدد والمعونة ، فكتبوا لأبي بكر بذلك ، فقال : « خالد لها ، والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وكتب أبو بكر خطاباً أرسله إلى خالد في العراق يأمره فيه أن يتجه فورا إلى الشام لنجدة الجيش ، واستجاب خالد لأمر الخليفة . وأرسل إلى الجيش الاسلامي بالشام الخطاب التالي تمهيداً لقدومه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من خالد بن الوليد إلى من بأرض العرب من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو .

أما بعد ، فإني أسأل الله الذي أعزنا بالإسلام وشرفنا بدينه ، وأكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وفضلنا بالإيمان ، رحمة من ربنا لنا واسعة ، ونعمة منه علينا سابغة (كاملة) أن يتم ما بنا وبكم من نعمته ، واحمدوا الله عباد الله يزدكم ، وارغبوا إليه في تمام العافية يدمها لكم ، وكونوا له على نعمه من الشاكرين .

وإن كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني يأمرني بالمسير اليكم ، وقد شمرت وانكمشت (أسرعت) وكأن خيلي قد أطلت عليكم في رجال ، فأبشروا

بإنجاز موعود الله وحسن ثوابه ، عصمنا الله وإياكم بالايمان ، وثبتنا وإياكم على الإسلام ، ورزقنا وإياكم حسن ثواب المجاهدين ، والسلام عليكم »...

* * *

ثم كتب خالد كتاباً خاصاً إلى أبي عبيدة الذي كان أميراً حينئذ على جيش الشام ، قال فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لأبي عبيدة بن الجراح من خالد بن الوليد : سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإني أسأل الله لنا ولك الأمن يوم الخوف ، والعصمة في دار الدنيا .

فقد أتاني كتاب خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرني بالمسير إلى الشام ، وبالمقام على جندها ، والتولي لأمرها . والله ما طلبت ذلك ولا أردته ، ولا كتبت إليه فيه . وأنت رحمك الله على حالك التي كنت بها ، لا يعصي أمرك ، ولا يخالف رأيك ، ولا يقطع أمر دونك ، فإنك سيد من سادات المسلمين ، لا ينكر فضلك ، ولا يستغنى عن رأيك ؛ تمم الله ما بنا وبك من نعمة الإحسان ، ورحمنا وإياك من عذاب النار ، والسلام عليك ورحمة الله » .

وكان أبو بكر قد أرسل إلى أبي عبيدة يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فإني قد وليت خالداً قتال الروم بالشام ، فلا تخالفه ، واسمع له وأطع أمره ، فإني وليته عليك ، وأنا أعلم أنك خير منه ، ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك ، أراد الله بنا وبك سبل الرشاد والسلام عليك ورحمة الله » .

* * *

واخترق خالد الصحراء بين العراق والشام اختصاراً للطريق من جهة ، وكسبا للوقت من جهة ثانية ، وتخفيا عن الروم من جهة ثالثة ، وسترا لحركاته من جهة رابعة .

وكان هذا الاختراق مغامرة بطولية رائعة ، لأن الصحراء شاسعة وقاسية ، والماء بها نادر ، والحر شديد ، ولذلك أحضر خالد عشرين جملا ضخما ، ومنعها من الماء حتى عطشت عطشاً شديداً ، ثم وضع أمامها ماء كثيراً ، والجمل مشهور بشرب أكبر قدر ممكن من الماء ، فامتلأت أسنمة الجمال من الماء ، فكأنها خزانات له .

فكان القوم كلما احتاجوا إلى الماء وسط الصحراء ذبحوا بعض هذه الجمال ، وأخذوا منها الماء لينتفعوا به ويسقوا منه الخيل التي لا تصبر على العطش ، وطبخوا لحم الجمال وأكلوه .

وفي أواخر الرحلة اشتد عليهم الظمأ ، ونفد الماء ، ولكنهم وجدوا شجرة فقال أحد الخبراء بالصحراء ، وهو رافع بن عميرة احفروا بجانبها ، فحفروا فظهر ماء شربوا منه وسقوا...

* * *

ووصل خالد ومن معه ، ونصح القواد والجنود بالتكتل والاتحاد وحدثت معركة أجنادين» وانتصر فيها المسلمون ، وكتب خالد إلى أبي بكر يهنئه بذلك فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لعبد الله أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد سيف الله المصبوب على المشركين. سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد فإني أخبرك أيها الصديق[1] أنا التقينا نحن والمشركون وقد جمعوا لنا جموعا جمة (كبيرة) كثيرة بأجنادين ، وقد رفعوا صلبهم ، ونشروا كتبهم ، وتقاسموا بالله لا يفرون حتى يفنونا ، أو يخرجونا من بلادهم ، فخرجنا إليهم واثقين بالله ، متكلين على الله ، فطاعناهم بالرماح ، ثم صرنا إلى السيوف فقارعناهم بها .

---

(١) بتشديد الدال المكسورة.

ثم إن الله أنزل نصره، وأنجز وعده، وهزم الكافرين، فقاتلناهم في كل فج وشعب وغائط[1] فاحمد الله على إعزاز دينه، وإذلال عدوه، وحسن الصنع لأوليائه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وكانت معركة أجنادين في جمادي الأولى من السنة الثالثة عشرة للهجرة.

* * *

ثم حدثت معركة «اليرموك». واليرموك نهر ينبع من سورية ويصب في الأردن، وكانت جيوش الشام أكثر من مائتي ألف وجيوش المسلمين أقل من أربعين ألفاً.

وتولى خالد الإمارة أولا، وقال لأصحابه فيما قال: إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده».

وعبأ خالد الجيش، ووزع مجموعاته توزيعاً جديداً غير مألوف ولا معروف لأعدائه، فجعله نحو أربعين «كردوساً». و«الكردوس» مجموعة من الجنود فيها نحو ألف فارس.

وعين على قلب الجيش أبا عبيدة وعلى الميمنة عمرو بن العاص وعلى الميسرة يزيد ابن أبي سفيان، وجعل طليعة أمام الجيش تمهد وتتعرف الأحوال، كما جعل للجيش قارئا يقرأ القرآن ويتلو عليه الطريق آيات الجهاد والقتال» خصوصا سورة «الأنفال» التي تسمى «سورة الجهاد» لما فيها من تحريض على الشجاعة والإقدام والصبر في ميدان القتال[2].

---

(١) الفج: الطريق الواسع بين الجبلين. والشعب: الطريق في الجبل. والغائط: الواسع المطمئن من الأرض

(٢) حبذا لو حاول كل جندي أن يحفظ هذه السورة.

وجعل أبا سفيان واعظاً للجيش ، فكان يمر بين الجنود ويقول فيما يقول :

« الله الله !.. إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام ، وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك ؛ اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك » .

* * *

ودارت رحى الحرب ، وبعد قليل خرج قائد القلب في جيش الروم واسمه « جرجة » واقترب من حمى المسلمين ، ونادى : أين خالد؟.

فدنا منه ، فقال له جرجة :

« يا خالد ، أصدقني ولا تكذبني ، فإن الحر لا يكذب ، ولا تخادعني ، فإن الكريم لا يخادع . بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء ، فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ .

أجاب خالد : لا .

قال جرجة : فبم سميت سيف الله؟.

قال خالد : إن الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فدعانا فنفرنا عنه ، ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به وتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين ، ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

قال جرجة : صدقتني .

ثم قال جرجة : يا خالد ، أخبرني الى ماذا تدعوني؟! .

قال خالد : إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمد عبده ورسوله . والإقرار بما جاء به من عند الله .

قال جرجة : فمن لم يجبكم؟

أجاب خالد : فالجزية ، ونمنعهم .

قال جرجة : فإن لم يعطها؟.

أجاب خالد : نؤذنه (نعلمه) بحرب ثم نقاتله .

قال جرجة : فما منزلة الذي يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟.

أجاب خالد : منزلتنا واحدة فيم افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا .

قال جرجة : هل لمن دخل فيكم اليوم يا خالد مثل ما لكم من الأجر والذخر؟[1] .

أجاب خالد : نعم وأفضل .

قال جرجة : وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟

أجاب خالد : إنا دخلنا في هذا الأمر ، وبايعنا نبينا صلى الله عليه وسلم وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ، ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا ، أن يسلم ويبايع ، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا .

قال جرجة : بالله لقد صدقتني ولم تخادعني ولم تألفني[1] ؟ .

أجاب خالد : بالله لقد صدقتك ، وما بي إليك ولا إلى أحد منكم وحشة (شوق) ، وإن الله لولي ما سألت عنه .

---

(١) الذخر : الثواب .

(١) أي لم تحاول جذب قلبي إلى الإسلام ليألفه بكلامك هذا .

قال جرجة : صدقتني ! ...

وترك «جرجة» جانب الروم وأعلن الإسلام بعد أن قلب ترسه ، وانضم الى صف خالد وقال له :

علمني الإسلام ! .

وأخذه خالد إلى خيمته ، وصب عليه قربة ماء يتطهر بها ، ثم صلى «جرجة» ركعتين ! ! .

* * *

وعاود المسلمون القتال ، وما هو إلا يوم وليلة حتى انتصروا واندحر الروم . ولا ننسى نصيب النساء من الجهاد في هذه المعركة فقد قمن بسقي الماء وإصلاح القرب ، وتضميد الجرحى ، وتمريض المرضى ، وإعداد الطعام ، وحراسة الخيام ، واستنهاض الهمم ، وبعث الحماس في صدور الرجال ، ومنهن من قاتلن بالفعل ، ويروي التاريخ أن أسماء بنت يزيد الأشهلية قتلت عدداً من الأعداء بعمود خيمتها .

ومن المواقف الرائعة في هذه المعركة أن ثلاثة من الابطال المسلمين أصيبوا ، وهم الحارث بن هشام ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعياش بن أبي ربيعة .

وبينما هم بين الحياة والموت عطشوا عطشاً شديدا ، فطلب الحارث ماء ، ولما جاءه رأى أن عكرمة يتطلع اليه ويريده ، فقال للساقي :

اذهب بالماء إلى عكرمة !

فلما ذهب بالماء إلى عكرمة رأى عكرمة عياشا يتطلع اليه ويريده فقال للساقي : اذهب بالماء إلى عياش :

فلما وصل الساقي بالماء إلى عياش وجده قد أسلم الروح ، فعاد بالماء إلى عكرمة فوجده قد مات ، فعاد به إلى الحارث فوجده قد مات ! ! ..

وهكذا تكون التضحية والإيثار ! ! ..

* * *

ولما بلغ خبر الهزيمة مسامع «هرقل» الطاغية المحتل للشام تأسف وتألم ، وقال يودع سورية الوداع الأخير : سلام عليك يا سورية سلاماً لا لقاء بعده ! .

وقبيل انتهاء المعركة جاء رسول من المدينة يحمل رسالة تنبئ أن الخليفة أبا بكر قد مات ، وأن عمر بن الخطاب قد تولى الخلافة ، وأنه قد عزل خالداً من قيادة الجيش ، وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح .

وتسلم خالد الخطاب ورأى أن المعركة في نهايتها ، فأخفى ما في الخطاب حتى انتهت المعركة بالنصر ، وذهب فدفع الخطاب إلى أبي عبيدة ، وسمع له وأطاع ..

ولم يتكبر خالد عن أن يعود إلى صفوف الجنود مجاهداً ، دون أن يحقد أو يثور ، لأن المصلحة العامة أهم في نظره من مصالح الافراد .

ولم يجد خالد غضاضة في أن يصبح مرءوساً لأبي عبيدة الذي كان تحت رياسته بالأمس ، وفي هذا يقول حافظ شاعر النيل :

أتاه أمر أبي حفص فقبّله كما يقبِّل آي الله تاليها
واستقبل العزل في إبان سطوته ومجده مستريح النفس هاديها
ألقى القياد إلى الجراح ممتثلا وعزة النفس لم تجرح حواشيها
وانضم للجند يمشي تحت رايته وبالحياة إذا مالت يفديها
وما عرته شكوك في خليفته ولا ارتضى إمرة الجراح تمويها

* * *

ومما ينبغي أن يذكر في فتوح الشام أن خالد بن الوليد لما تم فتح دمشق أراد أن يطبق عدالة الإسلام وسماحته ، فكتب لأهل دمشق الكتاب التالي :

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق يوم فتحها: أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيء من دورهم، لهم على ذلك عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء المؤمنين لا يُعرض لهم إلا بخير إذا اعطوا الجزية.

وكتب في رجب من سنة أربع عشرة».

الخلاف بين عمر وخالد

كان لعمر طبيعة تخالف طبيعة خالد، وكانا يختلفان في كثير من وجهات النظر، وكان عمر يرى أن الناس يفتتنون بخالد وبعبقريته حتى كادوا يظنون أن المسلمين ينتصرون بخالد وحده، لا بمعونة الله وإيمانهم وجهادهم.

ولذلك يقول عمر لما عزل خالد: «إني لم أعزل خالداً عن سخط ولا عن خيانة. ولكن الناس فتنوا به، فخفت أن يتكلوا ويبتلوا به، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع. وألا يكونوا بعرض فتنة».

وفي السنة السابعة عشرة للهجرة طلب الخليفة عمر إلى القائد أبي عبيدة أن يحاسب خالداً على بعض تصرفاته، كإعطائه عشرة آلاف لأحد الشعراء، وأحصى عمر ثروة خالد وأبقى له ستين ألفا وأخذ منه عشرين ألفا ضمها إلى بيت مال المسلمين، وقال له: «يا خالد، والله إنك عليّ لكريم، وإنك إليّ لحبيب، ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء».

ولما غضب أحد أقرباء خالد لعزله وقال لعمر غاضبا: «والله ما عدلت عمر، لقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وأغمدت سيفاً سله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد قطعت الرحم، وجفوت ابن العم».

واحتمله عمر وأجابه قائلا: «إنك قريب القرابة، حدث السن غضبت لابن عمك».

* * *

ولم يؤثر هذا الخلاف بين عمر وخالد في تقدير كل منهما للآخر فقد كان عمر بعد هذا يصف خالداً بأنه مذل الشرك، وأنه عاش حميداً، واعتبره مستحقاً للخلافة، وكذلك كان خالد يقول إن عمر أراد وجه الله فيما فعل.. الخ.

صفات القائد

كان خالد بن الوليد سيفاً مسلولاً سله الله على الباغين ، وكان بطلاً مشهوداً له بالنبوغ والعبقرية ، وكان قائداً عظيماً ناجحاً يقتدى به في المعارك ، وقد أهله لذلك صفات جليلة منها :

١ ـــ الشجاعة والاحترام وقلة المبالاة بالأخطار.

٢ ـــ الفروسية ، وخفة الحركة ، وإجادة الرمي والطعن والمبارزة.

٣ ـــ دراسة ما يتعلق بالمعركة قبل بدئها دراسة كاملة شاملة.

٤ ـــ الانتفاع بكل القوى والجنود الموجودين معه . ووضع كل فرد في المكان المناسب له.

٥ ـــ استخدام عنصر المفاجأة والمخادعة ، والحرب خدعة.

٦ ـــ إذا فتح بلداً وانتقل إلى ما بعدها جعل على الأولى أميراً يسوسها ويضبط أمورها ، وبذلك يأمن النكسة فيها.

٧ ـــ يحسن معاملة أعدائه ، ويترفق بمن يتغلب عليه منهم ، وكان يعطف كثيراً على الفلاحين.

٨ ـــ كان يشتد في موقف الشدة ، وكان صارما حينما تستلزم الأمور الصرامة.

٩ ـــ كان يحسن انتهاز الفرصة المواتية قبل أن تضيع أو تتغير.

١٠ ـــ كان يدرس نفسية الجنود ويحسن علاجها بما يرضيها ويسيطر عليها.

١١ ـــ كان يحرص في محاربة أعدائه على تحطيم قائدهم لتنهار معنوياتهم فيسهل التغلب عليهم.

١٢ ـــ كان يبعث الرهبة في صدور الأعداء عن طريق الإنذار والتخويف، فيمهد ذلك طريق النصر أمامه.

١٣ ـــ تتجلى فيه الثقة بالله والتوكل عليه، مما يزيد في قوته المعنوية.

١٤ ـــ عدم الخوف من الموت مع الحرص على الشهادة في موطنها، وكان في هذا يهتدي بنصيحة أبي بكر الذي قال لخالد: «احرص على الموت توهب لك الحياة».

وكان خالد يقول: «ما أدري من أي يومي أفر؟ من يوم أراد الله عز وجل أن يهدي لي فيه شهادة، أو من يوم أراد الله عز وجل أن يهدي لي فيه كرامة»؟..

الفقه في الدين

كان خالد يحرص على التفقه في الدين قدر طاقته، وإذا كانت الحروب والمعارك قد شغلته واستبدت بأكثر جهده، فإن ذلك لم يمنعه أن ينتهز الفرص ليستفيد جديدا في تعلم الدين.

وكان خالد يكتب القرآن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان، وكذلك روى خالد جملة من الأحاديث النبوية.

من كلمات خالد

لقد شغلت الحرب خالداً عن تشقيق الكلام ، وكان سيفه يقوم مقام لسانه ، ومع ذلك نجد لخالد طائفة من الكلمات البليغة ، وهذا جانب منها :

١ — يا أهل الإسلام ، إن الصبر عز ، وإن الفشل عجز ، وإن النصر مع الصبر.

٢ — ما كان في الأرض من ليلة أحب إلي من ليلة شديدة الجليد ، في سرية من المجاهدين ، أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد.

٣ — لقد طلبت القتل في مظانه (مواطنه) ، فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي ، وما من عملي شيئ أرجى عندي بعد لا إله إلا الله من ليلة بتها وأنا متترس ، والسماء تنهل ، تمطر إلى صبح ، حتى نغير على الكفار.

٤ — لقد شهدت مئة زحف أو زهاءها ، وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو رمية بسهم ، أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين الجبناء.

كلمات في خالد

١ — قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لا تؤذوا خالداً ، فإنه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار».

٢ — وقال فيه أبو بكر : «أعجزت النساء أن يلدن مثل خالد».

٣ — وقال عمر : «أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال مني».

٤ — وقال عمر أيضا : «كان والله سدادا لنحور العدو ، ميمون النقيبة»[١] .

٥ — وقال فيه عمرو بن العاص : «يسوس الحرب ، نصير الموت ، له أناة القطاة[٣] ، ووثوب الأسد».

٦ — وقال أكيدر ملك دومة : «لا أحد أيمن طائرا ، ولا أجد في حرب منه ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا».

٧ — وقال الماريشال غولتس الألماني : «إن خالداً هو أستاذي الأكبر في فن الحرب».

---

(١) النقيبة : العقل ونفاذ الرأي.

(٢) القطاة : طائر مشهور بالحذر ، والأناة : التريث والحذر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وفاة خالد

في السنوات الأخيرة من حياة خالد اعتزل الناس ، وأقام في مدينة «حمص» بالشام ، وظل فيها حتى مات سنة إحدى وعشرين للهجرة (٦٤٢م) وهو في الستين من عمره ، ودفن بحمص ، وقبره بها ما زال موجودا بجانب مسجده المنسوب إليه هناك.

مات خالد بعد أن أدى واجبه ، ودافع عن دينه وعقيدته ووطنه وقومه ، وبعد أن ابلى البلاء الحسن في المعارك والغزوات التي قادها ، وأعطى دروساً بليغة في الجهاد والقيادة وإمارة الجيوش.

فسلام على سيف الله المسلول ، وبطل العروبة المظفر ، والقائد الإسلامي العظيم ، سلام عليه في الخالدين.

أحمد الشرباصي

أحاديث
الجهاد والفروسية

تأليف

الدكتور أحمد الشرباصي

الطبعة الأولى

الدار القومية للطباعة والنشر

سنة ١٩٦٤



بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله تبارك وتعالى، وأصلي وأسلم على أنبيائه ورسله، وعلى خاتمهم محمد وآله، وصحبه وأتباعه، ومن دعا بدعوته بإحسان إلى يوم الدين.

وأستفتح بالذي هو خير: «ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير».



قبس من كتاب الله

«يأَيُّهَا ٱلَّذينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى تِجَارَةٍ تُنْجيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَليمٍ ، تُؤْمِنُونَ باللهِ وَرَسُولِهِ ، وَتُجَاهِدونَ في سَبيلِ ٱللهِ بِأَمْوالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ويُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْري مِنْ تَحْتِها الأَنْهَارُ ، وَمَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظيمُ ، وَأُخْرى تُحِبُّونَهَا : نَصْرٌ مِنَ ٱللهِ وَفَتْحٌ قَرِيْبٌ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنينَ»

«سورة الصف»



الإهداء

إلى جنودنا الأبطال الذين يؤدون الواجب لله والوطن.

إلى الأسود الرابضة على الحدود لحراسة الحمى، وردّ كيد العدا.

إلى المرابطين على الثغور يرتقبون يوم الجهاد لتحقيق الأمجاد.

إلى حراس الديار، وحماة الشرف.

إلى كل جندي منهم أهدي هذه الأحاديث من أحاديث الجهاد والفتوة والفروسية.

أحمد الشرباصي



ألوان الجهاد

الجهاد والكفاح كلمتان متقاربتان في المعنى ، ففي الجهاد معنى المجاهدة ، وهي المقاومة وبذل الوسع والطاقة والجهد في سبيل ما تعتقد أنه يستحق هذا العناء ، والكفاح هو المدافعة والمقاومة في سبيل الإبقاء على شيء ، أو لتحقيق أمر ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت رضي الله عنه : « لا تزال مؤيداً بروح القدس ما كافحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقد غلب استعمال كلمة « الجهاد » في مقاتلة الأعداء ومدافعتهم ، ولذلك جاء في القاموس : « الجهاد القتال مع العدو كالمجاهدة » . وجاء في النهاية لابن الأثير : « الجهاد محاربة الكفار ، وهو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل ، يقال : « جهد الرجل في الشيء أي جدَّ فيه وبالغ » ، وجاء في « المفردات » للراغب الأصفهاني : « والجهاد والمجاهدة استفراغ الوسع في مدافعة العدو » .

ولكن هذا الاستعمال الغالب لا يتعارض مع اتساع معنى الجهاد ، حتى يشمل نواحي أخرى غير ناحية قتال الأعداء ، وخصوصاً إذا لاحظنا أن كلمة « العدو » التي وردت في كلام اللغويين قد يتسع معناها حتى يشمل العدو الحسي والعدو المعنوي ، ومن هنا قال الأصفهاني بعد عبارته السابقة :

« والجهاد ثلاثة أضرب : مجاهدة العدوِّ الظاهر ، ومجاهدة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، وتدخل ثلاثتها في قوله تعالى :

«وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ» [1] ، «وَجَاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ» [2] ، «إِنَّ ٱلَّذِيْنَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ» [3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : «جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم» ، والمجاهدة تكون باليد واللسان ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم» .

* * *

والواقع أن ألوان الجهاد كثيرة متعددة ، وميادينه فسيحة واسعة ، فهناك الجهاد لتربية النفس والحس ، وهناك جهاد لتكوين المجموعة الصغيرة كالأسرة ، أو الكبيرة كالأمة ، وهناك جهاد لمحق الباطل وإحقاق الحق ، وهناك جهاد لنصرة المظلوم وَرَدْع الظالم ، وهناك جهاد للتخلص من المواريث الكاذبة الباطلة التي يرثها المرء عن الآباء والأجداد في العرف أو الاعتقاد ، مما يخالف الإيمان واليقين ؛ وهناك جهاد الشهوات والأهواء ، وجهاد المرض والعلة ، وجهاد الأعداء والمعتدين ؛ إلى آخر ما هناك من ألوان.

وقد عني الإسلام الحنيف عناية كبرى بالجهاد وأمره ، فالقرآن المجيد والسنة المطهرة يحتفلان بهذا الباب احتفالاً جليلاً ، حتى كان ما جاء فيهما بشأن الجهاد أساساً كريماً لبحوث ومؤلفات في الجهاد وأنواعه ، وميادينه وآدابه ، وسائر ما يتعلق به . . .

---

(١) سورة الحج .

(٢) سورة البقرة

(٣) سورة الأنفال .

وقد وردت مادة «الجهاد» في عشرات من آيات القرآن الكريم، كقول الله تبارك وتعالى:

«يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ، وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»[1].

وقوله: «انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً، وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»[2].

وقوله: «لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً، دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً[3]».

وقوله: «وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ، وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ[4]».

---

(١) سورة الصف.

(٢) سورة التوبة.

(٣) سورة النساء.

(٤) سورة محمد.

— وقوله : « والَّذينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِين[1] » .

* * *

ونلاحظ أن الجهاد يُذكر غالباً في القرآن الكريم ويراد به ما هو أوسع من الجهاد الحسي ، أو جهاد الأعداء في الميدان ، لأنه يوصف غالباً بأنه جهاد بالأموال والأنفس ، وهذان الركنان الأساسيان في الجهاد — وهما الأموال والأنفس — صالحان لتحقيق ألوان كثيرة من الجهاد والكفاح .

وقد تكرر ذكر « الجهاد في سبيل الله » نحو اثنتي عشرة مرة في القرآن المجيد ، في سورة البقرة ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والممتحنة ، والصف ، و « سبيل الله » كلمة جامعة واسعة ، تصلح لضم ألوان من الكفاح والجهاد ، فالجهاد من أجل العقيدة جهاد في سبيل الله ، والغيرة على الحرمات جهاد في سبيل الله ، ومدافعة أعداء الأمة جهاد في سبيل الله ، والانتصاف للمهضوم جهاد في سبيل الله ، وإذاعة الفضائل ومناهضة الرذائل جهاد في سبيل الله .

ولو راجعنا التفاسير لوجدنا لكلمة « سبيل الله » هذا المعنى الواسع ، فالطبري يقول : « السبيل الطريق ، وسبيل الله مرضاته ، وإنما قيل للجهاد — يعني جهاد الغزو — سبيل الله لأنه طريق إلى ثواب الله عز وجل » .

وفي تفسير المنار أن « سبيل الله كتابه » ، وفيه أن سبيل الله — وهو سبيل الحق — هو صراط الفطرة ، وفيه أن سبيل الله هو الطريق الذي يرضيه ويقيم دينه ... الخ .

وسنة الرسول المطهرة تفيض أيضاً بالحديث عن الجهاد ، والحث عليه ، والدعوة إليه ، ويتسع التصوير النبوي للجهاد حتى يشمل الجهاد الحسي في الميدان ، والجهاد المعنوي في الميادين الأخرى ، سواء أكان بالقول أم بالعمل ، بالقلب أم

---

(١) سورة العنكبوت .

باللسان، باليد أم بالسنان، وقد مضى أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد جعل قول حسان في الدفاع عنه كفاحاً، كما أمرنا الرسول أن نجاهد الأهواء، كما نجاهد الأعداء، وقال: «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم»...

وقد استفاض بين الناس الحديث المشهور: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»..

وقال عليه الصلاة والسلام: «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر».

* * *

والمشاهد أن الجهاد الحسي للأعداء في ساحة الميدان لا يتخذ صفة الاستمرار والدوام، فهو يأتي في ظروفه وأحيانه، ومن الواجب أن نحسن الاستعداد له بكل قوة، وأن نحسن أداءه حينما يدعو الداعي إليه؛ وبجوار ذلك يجب علينا أن نحسن الالتفات إلى وجوه الكفاح والنضال الأخرى، وبخاصة ما يحتاج منها إلى صراع نفسي، وجهاد قلبي، وكفاح روحي؛ والجسد بأعضائه وأطرافه متأثر بالنفس والروح، خاضع لهما، فإذا تحققت مجاهدة النفس على وجهها القويم السليم سهلت المجاهدة الحسية، وتهيأت دوافعها؛ ومن هنا قيل إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قال وهو راجع من إحدى الغزوات: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». وهو يعني — لو صحت النسبة إليه — بالجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى !.

ومن هنا حق لحاتم الأصم الصوفي أن يقول:

«الجهاد ثلاثة: جهاد في سرك مع الشيطان حتى تكسره، وجهاد في العلانية في أداء الفرائض، حتى تؤديها كما أمر الله، وجهاد مع أعداء الله في غزو الإسلام».

وهذا ترتيب للجهاد منطقي متدرج دقيق، فالإنسان يبدأ بإصلاح نفسه من الداخل أولاً، ويكون ذلك بمقاومته الهوى والشهوة، والوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس؛ وهذا الإصلاح الداخلي إذا قاده الإخلاص، وصدقت

معه المراقبة ، هو الذي يؤدي الى اللون الثاني من ألوان الكفاح ، أو يفتح الباب للمرحلة الثانية من مراحل الجهاد ، وهي المرحلة العلنية الظاهرية في محيط الفرد ، ولذلك يقول المحاسبي الصوفي : «من صحح باطنه بالمراقبة والإخلاص زين الله ظاهره ، بالمجاهدة واتباع السنة».

وما أحوج المرء إلى أن يعرف نفسه أولاً ، وأن تشغله عيوبها ، فطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، كما يقول الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ، وحينما يتعرف المرء ما في نفسه من خلل يقبل على إصلاحه بالمجاهدة والرياضة ، ليصلح لمعرفة ربه التي تطالبه بعبادته ، والتماس أسباب مرضاته ، ولذلك يقول منصور بن عمار الصوفي :

«الناس رجلان : عارف بنفسه ، فشغله في المجاهدة والرياضة ، وعارف بربه ، فشغله بخدمته وعبادته ومرضاته».

وبعد أن يتم الإنسان إصلاح نفسه الداخلي الذي أشار إليه حاتم الأصم بقوله : «جهاد في سرك مع الشيطان حتى تكسره» ينتقل إلى الدرجة الثانية من درجات الجهاد ، وهو الجهاد العلني العملي ؛ أو قل : إن تحقيق الإصلاح الداخلي يتجلى أثره في عمل الإنسان وعبادته ، فإذا هو يجاهد نفسه عملياً ليحملها على أداء الواجبات والفرائض ، وإطاعة الأوامر واجتناب النواهي ، والاستجابة لما كتبه الله على العباد ، حتى يؤديه كما أمر الله ، وعلى الوجه الصحيح الذي شرعه ، وهذا هو الذي أشار إليه «الأصم» بقوله : «وجهاد في العلانية في أداء الفرائض ، حتى تؤديها كما أمر الله».

وإذا ما أتم الإنسان إصلاح نفسه داخلياً حتى صلحت وطهرت ، وحتى ظهر أثر ذلك الإصلاح في عمله وقوله ، بلغ المرتبة الثالثة من مراتب الجهاد والكفاح ، وهي مرتبة الإصلاح للغير بعد إصلاح الذات ، وهذا الإصلاح للغير قد يكون بالنصيحة والإرشاد لمن يصغي ويستجيب ، وقد يكون بالزجر والتأديب لمن يتجبر ويطغى ، وهذه المرتبة الأخيرة هي التي أشار إليها حاتم بقوله : «وجهاد مع أعداء

الله في غزو الإسلام » .. وكأنما حاتماً قد أراد بهذا أن يرتب درجات الجهاد ، وإن لم ينص على ذلك الترتيب ، لأن « الواو » كما يقولون لا تفيد ترتيباً ولا تعقيباً ، بل هي المطلق الجمع !.

* * *

ولا بد لكي يكون الجهاد جهاداً بمعناه الصحيح من أن تكون هناك عقيدة يجاهد من أجلها المرء ، لأن هذه العقيدة هي التي ستطالبه بذلك الجهاد ، وهي التي ستجعله يؤمن بوجوب هذا الجهاد ، من أجل تلك العقيدة التي آمن بها وأخلص لها ، ولذلك كان الشاعر موفقاً حين قال :

قف دون رأيك في الحياة مجاهداً   إن الحيـاة عـقـيـدة وجـهـاد

لأن الذي يرى الرأي ويعتقده ويؤمن به ثم لا يجاهد من أجله ، ولا يتعب في سبيله ، جبان رعديد ، أو هو رجل ضعيف الإيمان مزعزع الاعتقاد ؛ والذي يجاهد بلا هدف وبلا عقيدة تسيره هو أحمق لا يستبين وجوه الرشاد :

والواقع أن العقيدة الصحيحة الوطيدة الأركان في نفس صاحبها الصادق الرشيد ، هي التي تبعث فيه دوافع الجهاد بأساليب مختلفة ، فهي تدعوه أولاً إلى أن يجاهد نفسه حتى يكفيها على حسب هذه العقيدة ، وحتى يطبقها على ذاته أولاً ، ثم هي تدعوه إلى الجهاد من أجل حمايتها والذود عنها ، وهي تدعوه أيضاً إلى الجهاد من أجل بثها وتوضيحها ، ثم هي تدعوه أخيراً إلى الجهاد في ميدان الدعوة إليها وحمل الغير عليها ، والوقوف في وجوه الذين يريدون بها السوء .

وأنت ترى مما تقدم أن الجهاد العقلي أو النفسي يسبق ويغلب الميدان الحسي ، وكثيراً ما نرى الجهاد في الفرد تتلاقى فيه ألوان شتى من ألوان الكفاح ، فهذا مثلاً داعي السماء ، ومؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم : بلال بن رباح الحبشي بن حمامه مولاة بني جمح .. إنه يجاهد فتتجمع في جهاده ألوان كثيرة من ألوان الكفاح ، فنرى فيه جهاد العقيدة والرأي ، وجهاد البدن والحس ، وجهاده للهوى والنفس ، وجهاده للطغيان والجبروت ، وجهاده في الغزو والقتال .

لقد كان بلال عبداً حبشياً أسود ، وكان يملكه أمية بن خلف الجمحي ، ولقد نشأ بلال صدوقاً ميالاً إلى الحق ، صبوراً على العمل ، أميناً في المعاملة ، عزوفاً عن عبادة الأصنام ، بعكس سيده وبيئته ، وتجاوز بلال الأربعين ، ثم سمع بدعوة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، واستبان له صدقها ، وأنها من عند الله ، فآمن بها ودخل فيها ، وأنكر عليه سيده ذلك ، ولكنه لم يبال بهذا الإنكار ، بل لم يبال بما ينتظره من تعذيب وتنكيل..

وفي مجلس من مجالس سيده مع أصحابه جاهر بلال بإسلامه ، فقام إليه « أمية » الجبار يوسعه ضرباً ولطماً وركلاً ووكزاً ، وسجنه في سرداب مهجور في منزله.

وحاول أمية أن يرد بلالاً عن إسلامه ، فما ازداد إلا استمساكاً بدينه وعقيدته ، وبدأت سلسلة التعذيب لبلال ، وهو يحتملها مجاهداً مكافحاً صابراً مردداً : أحد.. أحد.. أحد !.

لقد جروه من حبل في رقبته ، ورشقوه بالحصى ، وأضجعوه في الرمال الملتهبة ، وتركوه يكتوي بوهج الشمس المحرقة ، وبلال لا يزداد إلا ثباتاً وإيماناً.

وجاء أبو بكر بتوجيه من الرسول صلى الله عليه وسلم فاشترى بلالاً من سيده ، وأعتقه لوجه الله عز وجل ، وبعد ذلك اختاره النبي عليه الصلاة والسلام خازناً لأمواله ، فكان الأمين المخلص ، وجاهد في ذلك جهاداً كريماً ، ثم لازم النبي في غزواته ، وبذل في ميدان الجهاد ما بذل...

وجاهد بلال حتى بصوته ، فقد كان داعي السماء ومؤذن الرسول ، ولقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤذن فوق الكعبة يوم فتح مكة ففعل ، وكان صوته مشجياً ومؤثراً ، ومرت الأيام ولحق الرسول بالرفيق الأعلى ، فامتنع بلال عن الأذان حزناً عليه ، وتتابعت الأيام ، وجاء عمر خليفة ، وزار دمشق وبلال فيها ، فطلب إليه أن يؤذن ، فاستجاب بلال للفاروق ، وكان أذانه باكياً مشجياً..

ثم مات بلال بعد أنْ أحسن الجهاد وهو عبد ، وأحسن الجهاد وهو حرّ ، وأحسن الجهاد بنفسه وحسه ، وجسمه وصوته ، وعقله وقلبه ، فرضوان الله عليه .

ما أجدرنا بأن نتخذ أمثال بلال أئمة لنا في جهادنا ، حتى نكون ممن قال الله فيهم : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ؛ وإن الله لمع المحسنين»..

النصر بين الله والعباد

يقول الله عز وجل :

«يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا ٱللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ، وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ[1] » !...

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق (أي لأجله) ظاهرين إلى يوم القيامة». وفي رواية : «لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله» !...

* * *

من سمات الإيمان حب الأوطان ، ومن طبائع الأحرار الغيرة على الحمى وصيانة الذمار ، ومن خلائق الكرام إباء الضيم ودفع الهوان...

ومن سنن الله في كونه أن الأمة الحية من الأمم إذا بغى أعداؤها عليها ، فوطئوا أرضها ، أو انتهكوا حرمتها ، أو هضموا حقوقها ، تنبهت مشاعرها ، وثارت عواطفها ، واندفعت كالطوفان العارم ، أو البركان الحاطم ، تثأر لكرامتها ، وتغضب لعزتها ، فلا تنام ولا تهدأ حتى تطهر أرضها من معرة البغي عليها ، بالزكي الغالي من دماء أبنائها ، لا تدخر في ذلك وسعاً ، ولا تستعظم فيه تضحية ! !...

---

(١) سورة محمد (القتال) ، آية ٧ .

وإذا كانت هذه الأمة المظلومة المكافحة أمة مؤمنة بربها مقبلة عليه، لا تريد علواً في الأرض ولا فساداً، فإن الله واهب القُوى والقُدَر يسندها ويؤيدها، ويعينها ويمدها ويكون لها ومعها عند الملمات وإبان الأزمات. وصدق الله العلي الكبير إذ يقول:

«إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ، أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا: رَبُّنَا ٱللَّهُ، وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ ٱللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، ٱلَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وَآتَوُا الزَّكَاةَ، وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَوْا عَنِ ٱلْمُنْكَرِ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ ٱلْأُمُورِ[1]».

ومن شأن الأمة المؤمنة أن تتحمل في حياتها — راضية صابرة ثابتة — مواقف البأس والشدة، ودروس الابتلاء والتمحيص، وتبعات الكفاح والجهاد، لأن الثبات في الشدائد، والصبر على المكاره، هما طريق النصر وثمن الفوز، وهما أيضاً صراط الله الحكيم الذي شرعه لعزة عباده:

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ، مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ، وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ: مَتَى نَصْرُ ٱللَّهِ؟ أَلَا إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ[2]».

---

(١) سورة الحج. الآيات ٣٨—٤١

(٢) سورة البقرة. آية ٢١٤.

«حَتَّى إِذَا ٱسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِين[1]» .

ويقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه من وصيته لعبد الله بن عباس رضوان الله عليهما : «واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً» . وفي أول غزوة بدر وقف النبي عليه الصلاة والسلام يخطب في صحابته مشجعاً لهم ومحرضاً ، فكان مما قاله : «وإن الصبر في مواطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجي به مِن الغم» ! !

والله يطالب عباده — لينصرهم — بأن ينصروا دينه ودعوته ، وأن يخلصوا توحيده وعبادته ، وأن يحسنوا الرجوع إليه ، والإيمان به ، والاعتصام بحبله المتين :

«وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِين[2]» .

يقول الراغب الأصفهاني : «ونصرة الله للعبد ظاهرة ، ونصرة العبد لله هي نصرته لعباده ، والقيام بحفظ حدوده ، ورعاية عهوده ، واعتناق أحكامه ، واجتناب نهيه»[3] .

وإذا ما أراد الله النصر لقوم فقد ذلت لهم الصعاب ، واندكت أمامهم الجبال ، لأن الله خير الناصرين :

«إِنْ يَنْصُرْكُمُ ٱللهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ؟ وَعَلَى ٱللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ»[4] .

---

(١) سورة يوسف ، آية ١١٠ .

(٢) سورة الروم ، آية ٤٧ .

(٣) مفردات القرآن للأصفهاني ، ص ٥١٤ .

(٤) سورة آل عمران ، آية ١٦ .

أي إن يعاونكم ربكم على أعدائكم بسبب طاعتكم له ، فلن يقدروا على هزيمتكم ، ولو كثر عددهم ، وتضخمت عُددهم :

«كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ[1] » .

وإن يخذلكم الله ، ويمنعكم معونته ورعايته ، بسبب معصيتكم له وإعراضكم عنه ، فلن تجدوا بعده ولياً ولا نصيراً .

«وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ[2] » .

وهذا نوح عليه السلام ، يكذبه قومه ، ويتطاولون عليه ، مع أنه رسول ربهم إليهم ليهديهم ويسعدهم ، ويلجأ نوح المؤمن الموقن إلى ربه يستعينه ويستنصره ، فيستجيب الله له ، ويجعل قلته كثرة ، وضعفه قوة ، ويذيق الذين طغوا الوبال والنكال :

«كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا : مَجْنُونٌ وازْدُجِرَ ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنْتَصِرْ ، فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّمَاءِ بماءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ، وَلَقَدْ تَرَكْنَاها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ[3] » .

والمهم في الاستعانة بالله هو أن يتحقق شرطها ، وهو طاعة المستعان ، والإيمان بالديان ، والاهتداء بهديه ، ولقد كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص — رضي الله عنهما — يوصيه هو ومن معه من الجنود ، فقال له :

---

(١) سورة البقرة ، آية ٢٤٩ .

(٢) سورة آل عمران ، آية ١٢٦ .

(٣) سورة القمر ، الآيات ٩ — ١٦ .

«أما بعد ، فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددَنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله ، وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا : إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا .. فرب قوم سلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بني إسرائيل — لما عملوا بمساخط الله — كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ، واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم» !...

وقد نسب ابن الجوزي وابن عبد الحكم إلى خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خطاباً مشابهاً لخطاب جده الفاروق السابق ، وقد كتبه عمر بن عبد العزيز إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب[1] . ولا عجب فالخلف الصالح يقتدى بالسلف الصالح :

«ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ[2]» .

* * *

وقد شاءت إرادة الحكيم العليم أن تتعرض بلادنا العزيزة الغالية يوماً لاعتداء ظالم غاشم ، تولت إثمه مجموعة مغترة من الأعداء ، فوقفنا لهم ، وصبرنا أمامهم ،

---

(١) انظر كتاب جمهرة رسائل العرب ج ١ ص ٢٣٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٧١ . ولابن الجوزي ص ٢٠٤ . والعقد الفريد ج ١ ص ٤٠ .

(٢) سورة آل عمران آية ٣٤.

وغضبنا من أجل بلادنا وكرامتنا ومعتقداتنا ، وسألنا الله عز وجل أن ينصرنا ، وأن يثبت في سبيل الحق والصدق أقداما ، ذاكرين في أنفسنا وعلى ألسنتنا أننا أبناء كنانة الله في أرضه ، ومن أرادها بسوء قصمه العزيز الجبار ، لأنه المنتقم العادل . وقد تلطف الله بنا وتفضل علينا ، فلم يكتب علينا الاندحار أو الفناء . بل دفع عنا الكثير من البأساء والضراء ، وتكشفت سحب البغي والعدوان عن غد مشرق . فيه — بمشيئة الله تعالى — عزة وكرامة ، وفيه تماسك وقوة ، ولقد كان أعداؤنا يريدون لنا الفناء العاجل أو الذل الدائم ، ولكن الله الغلاب القهار أراد غير ما أراده المعتدون .

وإذا أراد الله أمراً قضاه :

«وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ[1] » .

والنصر نوعان : نصر بالغلبة والقهر ، ونصر بالحجة والبرهان ، ولقد مرت علينا خلال المحنة لحظات شدة ، وأوقات بأس ، سالت خلالها منا دماء ، وسقط لنا شهداء ، وأصابتنا ألوان من البأساء ، ولكننا في الوقت نفسه صبرنا وصابرنا ، وكنا نتسمع إلى دول العالم الرشيدة وهي تُجمع كلمتها — إلا ما شذ منها — على وصف أعدائنا بالطغيان والإجرام ، كما تجمع على وصف وطننا المكافح الصابر بالتضحية والثبات والإقدام . . .

ولعل هذا يفسر قول أبي القاسم البلخي : «المؤمنون منصورون أبداً ، إن علبوا (بفتح الغين) فهم المنصورون بالغلبة ، وإن غلبوا (بضم الغين) فهم المنصورون بالحجة ، ولا يجوز أن ينصر الله الكافر على وجه» وصدق العلي الكبير حيث يقول :

---

(١) سورة يوسغ آية ، ٢١ .

«وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورونَ ، وإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ[1] » !

* * *

ولقد يقبل جنود البغي وجيوش الطغيان عن يمين وشمال ، وهم يباهون بعددهم وعدتهم ، ويغترون بآلاتهم وأسلحتهم ، ويعتدون على الآمنين والمسالمين ، وهم يحسبون أن الأمر أمر كثرة وقلة في السلاح والجنود ، ولكن القهار الجبار جل جلاله يقف بحوله وطوله إلى جانب القلة المؤمنة في وجه الكثرة الكافرة الباغية ، وينتصف بقهره وجبروته للضعفاء من الطغاة الأقوياء ، وهو القائل لعباده :

«وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ، فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ[2] » .

وهؤلاء هم المسلمون الأوائل يوم «الخندق» ... لقد أحاطت بهم جموع الشرك وأحزاب الكفران من كل جانب ، وكان التفاوت في العدد والسلاح كبيراً خطيراً ... ويصف القرآن الصدوق هول هذا الموقف فيقول :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، إِذ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً ، وجُنوداً لَمْ تَرَوْها وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصيراً ، إِذْ جَاؤُكُمْ مِن فَوْقِكُمْ ، وَمِنْ أَسْفَلِ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصارُ ، وَبَلَغَت

---

(١) سورة الصافات ، الآيات ١٧١ — ١٧٣ .

(٢) سورة الأنفال ، آية ٢٦ .

ٱلْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا ، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً[1] » .

وليس وراء ذلك الهول من هول...

فماذا كانت النتيجة؟... كانت كما أخبر عنها القرآن الكريم :

« وَرَدَّ اللهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ ، لَمْ يَنَالُوا خَيْراً ، وَكَفَى ٱللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ، وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً ، وَأَنْزَلَ ٱلَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ ، وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ، وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ، وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُوها ، وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً[2] » .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه من رسالة إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : « واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نهزم الجمع الكثير ، ولا بالجمع الكثير كان الله ينزل النصر عليهم ، ولربما خذل الله الجموع الكثيرة . فوهنت وفلت ، وفشلت ، ولم تغن عنهم فئتهم شيئاً ، ولربما نصر الله العصابة القليل عددها على الكثير عددها من أعداء الله ، فأنزل الله عليكم نصره ، وعلى المشركين من أعداء الله وأعداء المسلمين بأسه ورجزه[3] » ؟

وجاء في تفسير « المنار » منسوباً إلى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، « سنة الله تعالى قد مضت بأن ينصر الحق وحزبه على الباطل وأحزابه ، ما استمسك حزب

---

(١) سورة الأحزاب ، الآيات ٩ — ١١ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيات ٢٥ — ٢٧ ، والصياصي : هي الحصون .

(٣) فتوح الشام ص ١٤١ . والرجز : هو العذاب .

الله بحقهم فأقاموه ، ودعوا إليه ، ودافعوا عنه ، وإن القعود عن المدافعة ضعف في الحق يغري به أعداءه ، ويطمعهم بالتنكيل بحزبه ، حتى يتألبوا عليهم ، ويوقعوا بهم ، وإنه قد سبق في علم الله تعالى أن الله لا بد أن يظهر دينه ، وينصر أهله على قلتهم ، ويخذل أهل الباطل على كثرتهم[1] » !...

حتى غير رجال الدين والعقيدة ... نراهم يقررون أن العاقبة للحق مهما طال بغي الباطل ، فها هو ذا الكاتب الغربي المشهور « توم بين » .. كان في أول أمره إنجليزياً ، ولكنه ضاق بمكر انجلترا وغدرها ، فتركها إلى أمريكا ، وخاض معركة التحرير الأمريكية ضد الاستعمار الإنجليزي ، وكافح طغيان انجلترا وبغيها ، وقال فيما قال منذ أكثر من مائة وثمانين سنة : « إنني من أقل الناس إيماناً بالغيبيات ، ولكن نجواي كانت وما زالت على الدوام أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يترك شعباً يواجه الفناء بالحرب ، إذ يتخلى عنه حتى يهلك ، وما دام هذا الشعب قد حاول في جد وعزم ، وفي إصرار وإلحاح ، أن يتجنب ويلات الحرب بكل وسيلة مقبولة يمكن أن توحي بها الحكمة ؛ ولست كذلك من الكفر والجحود بحيث أعتقد أنه سبحانه وتعالى قد تخلى عن حكم العالم ، وأسلمنا إلى عناية الشياطين ، ولهذا لا أفهم على أي أساس تستطيع بريطانيا أن تتطلع إلى السماء ، وتستعين بها علينا ، فإن حقها في طلب هذا العون لا يزيد عن حق القاتل العادي ، أو قاطع الطرق ، أو سارق البيوت[2] .

* * *

إن عدالة الله تأبى — مهما طال الأجل ، وامتدت فترة الابتلاء والإمهال — إلا أن ينصر الحق وأتباعه ، ويخذل الباطل وأشياعه ، فإذا أهل الحق مهما قلوا في عزة ورشاد ، وإذا أهل الباطل مهما استطالوا في ذلة وكساد ، وإن الحق لن ينقلب باطلاً مهما قل متبعوه ، وإن الباطل لن ينقلب حقاً مهما كثر مشايعوه :

---

(١) تفسير المنار ، ج ٢ ص ٣١٤ .

(٢) جريدة الجمهورية عدد ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٦ .

«وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ[1]».

ووعْد الله بنصر الحق وأهله باق موصول :

«إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ، يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ، وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ[2]».

فلنستدم نصر الله بالإقبال عليه، والاعتزاز به، والاستمساك بحبله، وأخذ الأهبة لكل طارىء، وإعداد العدة لكل احتمال :

«رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً، وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[3]».

---

(١) سورة يونس، آية ٨٢.

(٢) سورة غافر، آيتا ٥١ و٥٢.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٥٠.

الحياة مدافعة

سأل سائل عن معنى قول الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم:

«وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ، وَلَكِنَّ ٱللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ».

وهذه الآية الكريمة مذكورة في «سورة البقرة»، بعد قصة انتصار النبي «داود» عليه السلام ومعه أهل الحق، على «جالوت» أكبر الطغاة المشركين في «فلسطين» يومئذ، ومعنى الآية السريع هو أنه لولا أن الله تبارك وتعالى يحرض أهل الحق والعدل على مقاومة أهل الباطل والظلم، لتغلب المبطلون الظالمون، وملئوا الأرض فساداً، وضاع الحق ببغيهم وطغيانهم، ولكن الله عز وجل من فضله ورحمته بالناس سخر للظالمين من يقاومهم، ويردهم على أعقابهم مدحورين.

وقد عاد القرآن المجيد ليؤكد هذا المعنى، ويبين أنه لولا هذه المدافعة بين أهل الحق وأهل الباطل، لتهدمت بيوت العبادة على اختلاف أنواعها، ولشاع ذكر الشيطان مكان ذكر الرحمن، فقال تعالى في سورة الحج:

«وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهَ مَنْ يَنْصُرُهُ، إِنَّ ٱللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ».

ولو دققنا التأمل والنظر لأدركنا أن لله تعالى سنناً مطردة باقية، تعد أسساً وأصولاً للحياة في هذا الكون، ومن هذه السنن أن الخير والشر في صراع موصول

ونزاع مستمر، ليميز الله الخبيث من الطيب، ولتستقيم شرعة الحساب والجزاء، فيكون الثواب لمن أطاع، والعقاب لمن أساء، ولو كان الناس كلهم شياطين لما استقامت حياة، ولا عمر كون، ولو كانوا كلهم ملائكة لما كان للحياة مذاق، ولا للسعي موجب، ولا للتنافس مجال.

وإنما تظهر قوة الحياة وفاعليتها حين يكون فيها حركة وتسابق وتنافس:
«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ».

* * *

والإنسان في هذه الحياة لا يستطيع أن يحيا وحده أو يستقل بنفسه، بل لا بد له من الجماعة. ولا بد له من الاتصال بغيره، وهذا الاجتماع يؤدي — مع هذا الاتصال — إلى الاحتكاك فالتنازع، فهذا قوي يريد أن يبغي على ضعيف، وهذا قادر يريد أن يهضم حق عاجز، فلو لم تكن في الإنسان حوافز المدافعة، وعوامل المغالبة، لصارت الأرض مسبعة أو مذأبة، يأكل فيها الذئب المفترس الحمل الضعيف، ولكن روح المدافعة والمغالبة هي التي توجد الهيبة في نفوس من يفكرون في العدوان، وهي أيضاً التي تردع من يقدمون على البغي والعدوان والظلم، ومن هنا جاءت شرعة القصاص الإلهية العادلة، التي نص عليها القرآن الكريم، حيث يقول:

«وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[1]».

والواقع أن نطاق المدافعة في الحياة أوسع بكثير مما يظنه بعض من الناس، فالإنسان يدفع عن نفسه الجوع بالطعام، ويدفع البرد والحر بالثياب، ويدفع التقلص والجمود بالحركة، ويدفع الملل والسأم بالتنقل والعمل، ويدفع المرض بالوقاية والعلاج.

---

(١) سورة البقرة.

والأمم تدفع هجوم الأعداء بتكوين الجيوش وإعداد السلاح ، والصالحون يدفعون الرذائل والفواحش بقوى الفضائل والأخلاق ، فالحياة إذن صراع موصول ، ومدافعة مستمرة في مختلف الأرجاء والأنحاء.

وهذه المدافعة تبدأ من أعلى درجة ، وتنزل إلى أقل مستوى ممكن ، فالله جل جلاله يدافع عن عباده الأخيار ، ويصد عنهم أذى المبطلين والفجار :

« إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ[1] ».

والدفاع صفة المؤمنين الصالحين المصلحين :

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ». والمدافعة ظاهرة مبثوثة بين الناس :

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ[2] ».

وفي دنيا الحيوان الأعجم دفاع ، فهناك تجمع النمل للدفاع عن حوزته وذخيرته ، وهناك تجمع النحل لدفع الخطر المهاجم ، وهناك تجمع الطيور لصد العدوان الطارئ ، وهكذا...

وليس بشرط أبداً أن يكون في المدافعة إيذاء أو قتال أو صراع حسي ، فهناك ألوان من المدافعة تتم بغير هذا ، فالدعوة إلى الخير فيها مدافعة سلمية للشر... والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإزالة الباطل ، وإحقاق الحق ؛ ألوان من المدافعة العادلة غير الباغية ، والقرآن الكريم يقول :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[3] ».

---

(١) سورة الحج.

(٢) سورة البقرة.

(٣) سورة آل عمران.

والحديث النبوي الشريف يقول : «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان».

وما أرق الدفع الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله :

«ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ[١] ».

فإن دفع السيئة بالحسنة نوع جميل رقيق من الجهاد ، فأنت حين تقابل السيئة بالحسنة إنما تريد أن تقضي على هذه السيئة وعلى أثرها بطريق سهل لطيف ، إذ تحرج فاعل السيئة ، وتقول له : إنني على الرغم من إساءتك لي ألقاك بالحسنة ، فلا تعد إلى سيئتك ، وإلا كنت فاسد الذوق عديم الأخلاق.

ولكن دفع السيئة بالحسنة مقصور على المواطن التي تصلح لهذا التقويم الأخلاقي الرقيق ، وأما حين يتوقع صاحب السيئة ، ويتجرد من حيائه وإحساسه ، فلا تُدفع سيئته بالحسنة ، بل تكون الحسنة معه هي أن يؤخذ بالحزم والعزم ، فينال نصيبه من التأديب والتهذيب ، ولذلك قال القرآن المجيد في وصف المؤمنين من عباد الله :

«والَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ[٢] ».

أي ينتصفون لأنفسهم ، ويأخذون بحفهم.

ولقد دعا أعرابي ربه فقال : «اللهم من ظلمني مرة فاجزه ، ومن ظلمني مرتين فاجزني واجزه ، ومن ظلمني ثلاث مرات فاجزني ولا تجزه».

وكأن هذا الأعرابي يريد أن يقول : إن من ظلمني أول مرة ربما كان جاهلا أو غافلا ، أو لعل له بعض العذر ، أو لعل ظلمه الأول نبوة غير مقصودة ، أو هفوة

---

(١) سورة فصلت

(٢) سورة الشورى.

غير معتمدة ، ولذلك أكل إلى الله العليم الخبير أمر جزائه وعقابه ، فهو يتولى ذلك بعدله وعلمه ، ولكن إذا ظلمني الشخص مرتين كان ذلك مظنة للتطاول منه ، ومظنة للهوان.عندي ، ولذلك أطلب إلى الله أن يجزيه بجزاء تطاوله ، وأن يجزيني بجزاء سكوتي وإهمالي ، وأما إذا ظلمني الشخص ثلاث مرات فهنا تكون الطامة الكبرى ؛ فإن سكوتي عليه حتى يظلمني ثلاث مرات جريمة أستحق عليها العقاب دونه ، لأنني كنت السبب في تطاوله وتماديه.

ولقد علم الإسلام أبناءه هنا معنى الإباء للضيم ، والمقاومة للذل ، والثورة على الهوان ، فقال القرآن الكريم :

«وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ[1] ».

وحرض الرسول صلى الله عليه وسلم أتباعه على معنى المدافعة الكافلة للكرامة ، والمقاومة المحققة لصيانة ما تلزم صيانته ، فقال عليه الصلاة والسلام : «من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد». وقال القرآن المجيد : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير».

ولولا هذه المدافعة التي تذود عن الحقوق ، وتحفظ الحرمات ، لفسدت الأرض ، إذ أن هذه المدافعة الرشيدة العادلة هي التي تؤدي إلى إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل ، وبذلك يكون البقاء للأصلح :

« فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللهُ ٱلْأَمْثَالَ ».

* * *

(١) سورة آل عمران.

أما بعد ، فإن هناك كثيرين يظنون أن القرآن الكريم يحرض على الحرب والعدوان حين يقول :

« وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضِ »

ولعله قد تبين لنا من سابق الكلام أن هذا غير مراد ، ومع أن هناك كثيرين من الباحثين يقررون أن الحرب شيء في فطرة الناس ، وأنها من أسباب قيام الحضارات ، فإن الإسلام قد قصر الحرب على مجال الدفاع ونطاق الضرورة ، ثم قال بعد ذلك :

« وإِنْ جَنَحُوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّل علَى اللهِ ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم » .

وسبحان من شاء لهدى الناس جميعاً إلى سواء السبيل.

حديث عن الشهيد

لقد كرم الإسلام منزلة الشهداء بين المجاهدين والعاملين والمستجيبين لنداء رب العالمين ، ففتح أمامهم أبواب الجنة على سعتها ، ووعدهم على استشهادهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وزكى عملهم في مخبره ومظهره ، وفي معناه ومبناه ، حتى جعل الشهيد يكفن بثيابه ودمائه التي سالت منه حين استشهاده ، لتكون هذه القطرات من الدم خير وسام يحلي صدره يوم يلقى ربه ، فيبعث من قبره ودمه على جسمه ، لونه لون الدم ، ولكن ريحه ريح المسك ، كما قال الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ، تكريما من الخالق سبحانه لمن ضحى في سبيله بدمه .

ولقد زكت مكانة « الشهيد » حتى في لفظه وكلمته ، فلا نرى استعمال كلمة الشهيد غالبا إلا في مواطن الحمد والسمو ، فنرى الله تبارك وتعالى يسمي نفسه في القرآن شهيدا :

« إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً » .

ويسمي رسوله شهيداً :

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً[1] » .

ويسمي بعض الملائكة شهيدا :

---

(١) سورة النساء .

«وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ»(1).

ويسمي المعتبر المتذكر شهيدا:

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ(2)».

ويصف المؤمنين العادلين بأنهم شهداء:

«يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ(3)».

ثم هو بعد ذلك يقول عن الشهداء:

«والشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لهم أَجْرُهُمْ وَنُورُهُم(4)».

ويجمع ركبهم مع ركب الأنبياء فيقول:

«وجِيءَ بالنَّبِيِّينَ والشُّهَدَاءِ، وقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(5)».

ومن عجيب الاتفاق اللفظي الذي يشير إلى ارتباط معنوي يلحظه المدققون أن عندنا شهادتين: «الشهادة في ساحة الجهاد والميدان»، «والشهادة بأصل العقيدة وأس الإيمان»، عندنا الشهادة وهي الاستشهاد، وعندنا الشهادة الثانية وهي «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله»، ونحن نسمي هذه الشهادة الأخيرة كلمة الإيمان.

---

(1) سورة ق.

(2) سورة ق.

(3) سورة النساء.

(4) سورة الحديد.

(5) سورة الزمر.

وإذا أمعنا النظر في الشهادتين وجدنا بينهما ارتباطا وصلة، فشهادة الميدان تحتاج لكي تستوفي حظها من التكريم والثواب إلى أمرين هامين: الأول إيمان بالغرض الجوهري الذي يجاهد من أجله الإنسان، ويستشهد في سبيله، لأنه لا جهاد بلا اعتقاد، ولا استشهاد بلا إيمان، ولا تضحية بدون يقين، والثاني أن تكون هناك قيادة رشيدة سديدة، توجه هذا المجاهد الراغب في الاستشهاد، وتهديه سواء السبيل، وتفرق له بين الموت الرخيص وبين الاستشهاد الصحيح، وبدون هاتين القاعدتين لا ينهض الاستشهاد على قوائمه صحيحا سليما قويا..

وكلمة: «لا إله إلا الله» يتمثل فيها الاعتقاد بتمامه، لأنها تفيد الإيمان بإله واحد قادر قاهر جبار، ليس كمثله شيء، ولا يوجد غيره من إله أو متصرف: «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا». ومتى آمن الإنسان بالله، وأيقن أنه خالقه ورازقه، وصاحب الأمر كله استعذب في سبيله الاستشهاد، وضحى من أجل وجهه بكل شيء في الحياة.

وكلمة: «محمد رسول الله» تتمثل فيها القيادة الحكيمة العليمة التي لا تضل ولا تغوي، والتي لا تحيد عن صراط الحق، ولا تميل عن منهج الصدق، وكيف لا وهي القيادة التي لا تعتمد على الأهواء والشهوات أو الرغبات، بل تستمد سدادها ورشادها من الله الذي لا يضل ولا ينسى سبحانه: «وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي»... ذلك بعض الحديث عن مكانة الشهيد في الإسلام..

الحرية في الإسلام

يتغنى الكثيرون من أبناء الغرب بأن ثوراتهم هي التي أوجدت بين الناس مبادئ الحرية والاستقلال، وعلمتهم كرامة النفس وإباء الاستعباد، ولكن هذا القول يجافي الحقيقة، فإن الاسلام الحنيف الذي شرعه الله للناس كافة رحمة ونوراً وضياء، قد سبق هذه الثورات بزمن طويل بعيد في تقرير مبادئ الحرية والكرامة البشرية، ومقاومة العبودية لغير الله تعالى في كل ميدان من الميادين.

لقد قرر الإسلام قبل هذه الثورات الجزئية المتأخرة مبدأ الحرية في النفس والمال والعرض، فنفس الإنسان في الإسلام معصومة، لا يجوز الاعتداء عليها أو النيل منها، وكذلك مال الإنسان معصوم، لا يؤخذ منه شيء إلا بحقه، وكذلك عرض الإنسان لا يهان ولا يخدش، والحديث يقول: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه».

وقرر الإسلام مبدأ الحرية في العبادة والاتصال بالله، فليست هناك وساطة بين الله وعباده، ولا يتوقف اتصال الله تعالى بعبد من عباده على وساطة أحد، بل الله سميع بصير، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ويعلم السر والنجوى، وبابه الكريم مفتوح لكل لاجئ ولكل طالب. يقول القرآن الكريم:

«وإِذَا سأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي، فإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، فلْيَسْتَجِيبُوا لِي، ولْيُؤْمِنُوا بِي، لَعَلَّهُمْ يرْشُدُونَ[1]».

---

(١) سورة البقرة.

والمسلم يستطيع أن يؤدي فروضه الدينية في حرية واستقلال ، فالصلاة مقبولة حيثما أداها صاحبها ، فقد جعلت الأرض للمسلمين مسجداً ، كما جعل ترابها طهورا ، وكذلك يستطيع المرء أن يصوم ، وأن يؤدي الزكاة دون احتياج إلى قائد يقيد خطواته ، أو يتعسف في توجيهاته .

وهؤلاء الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام ، وهم النماذج العليا للبشرية ، وهم الذين صنعهم الله تعالى على عينه ، واختارهم لرسالته ، وجعلهم أمناء على وحيه وشرائعه ، وعصمهم بعصمته .

هؤلاء الأنبياء ليس عليهم إلا التبليغ ، يقول القرآن المجيد :

«مَا عَلَى الرَّسُولِ إلاَّ الْبَلَاغُ [١]» .

فهم لا يتدخلون ولا يتحكمون في نفس الإنسان ، بل يؤدون إليه أمانة ربهم ، والله هو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء .

ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله الأعظم محمد صلوات الله وسلامه عليه : «ليس لك من الأمر شيئ» ، ويقول له :

«يأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلغْتَ رِسَالَتَهُ ، واللهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ ، إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الكَافِرينَ [٢]» .

ويقول له :

«وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ولَكِنَّ اللهَ رَمَى [٣]» .

---

(١) سورة المائدة .

(٢) سورة المائدة .

(٣) سورة الأنفال .

ويقول له :

« وإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فإِنْ حَسْبَكَ اللهُ ، هُوَ الّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ ، وأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بينَ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[1] » .

وقرر الإسلام مبدأ التحرر من زهو الأنساب والدماء ، فلا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ، والناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، ولذلك فهم في نظر الإسلام كأسنان المشط في الاستواء ، وإنما يتفاضلون بالعمل الصالح ، وليس هناك شعوب راقية في دمائها وأجناسها ، وأخرى منحطة في أصلها وأنسابها :

« فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ[2] » .

* * *

والإسلام قد قرر قبل ثورات الغرب التحرر من أسباب الخوف ، فالذين اتصلوا بربهم وراقبوه ، وأخلصوا له العبادة والطاعة لا ينالهم هم ولا حزن ؛ يقول القرآن :

« فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ[3] » .

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العظيمُ[4] » .

(١) سورة الأنفال.
(٢) سورة الطارق.
(٣) سورة البقرة.
(٤) سورة يونس.

بل يزيد القرآن الكريم هذا الأمر إيضاحا وإبرازا حين يقول :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ، نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ، نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (١) » .

فحسب المرء أن يخاف ربه وحده ، وإذا كل شيءٍ أمان واطمئنان :

« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٢) » .

ارفع رأسك أيها الإنسان ، فقد كرمك الله ، وكرم رأسك ، ولا تذل إلا لبارئك ، فإن الذل له غاية العز والكرامة ، إنه سبحانه مالك الملك ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء بيده الخير ، إنه على كل شيءٍ قدير .

---

(١) سورة فصلت .

(٢) سورة النازعات .

فروسية الشباب في الإسلام

لقد طبع الإسلام الشباب على حياة الفروسية وأخلاق الفتوة.. والفروسية في الأصل هي المهارة في ركوب الخيل، والخبرة بشئونها؛ ولكن معناها العرفي اتسع حتى صار يشمل طائفة من الصفات الحميدة في الجسم والعقل والنفس. ينقل ابن القيم في كتابه «الفروسية» عن أبي عمر في كتاب «التمهيد» أن ركوب الخيل «أصل الفروسية وقاعدتها»، ثم يقول في موضع آخر:

«والفروسية أربعة أنواع: أحدها ركوب الخيل والكر والفر بها، الثاني الرمي بالقوس، الثالث المطاعنة بالرماح، الرابع المداورة بالسيوف، فمن استكملها فقد استكمل الفروسية، ولم تجتمع هذه الأربعة على الكمال إلا لغزاة الإسلام وفوارس الدين، وهم الصحابة رضي الله عنهم، وانضاف إلى فروسيتهم الخيلية فروسية الإيمان واليقين، والتنافس في الشهادة، وبذل نفوسهم في محبة الله ومرضاته[1]».

ونرى أن الفروسية أو الفتوة تكمل ثمراتها بعدة أمور هي: القوة في الجسم، والصحة في العلم، والعمق في الفهم، والرقة في الحس، والطهر في النفس، والحذق في التصرف، والاطمئنان عند الغرم، والتواضع عند الغنم، والثقة بالخالق، والخدمة للمخلوق..

وقد رمز القرآن الكريم إلى أصول هذه الأمور حينما قال يصف رسوله والمؤمنين معه:

---

(١) كتاب الفروسية لابن القيم، ص ١٠٦، طبعة ١٩٤١م.

«مُحَمَّدٌ رَسُولُ ٱللهِ والّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ ٱللهِ وَرِضْوَاناً ، سِيماهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ، ذلِكَ مَثَلُهُمْ في التَّوْرَاةِ ، ومَثَلُهُمْ في ٱلْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ، فاسْتَغْلَظَ فاستَوَى على سُوقِهِ ، يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ، وَعَدَ ٱللهُ ٱلّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأَجْراً عَظِيماً[1] ».

فهم — كما تشير الآية — أقوياء اشداء بفتوتهم وفروسيتهم وعدتهم ، يصدون الكافرين الآثمين عن الضلال والطغيان ، وهم رحماء بينهم ، يعاملون بمكارم الأخلاق من يستحقها ؛ والرحمة صفة تقتضي رقة في الحس ، وأدبا في النفس ، وتراهم راكعين ساجدين متعبدين ، يصقلون أرواحهم بهذه الصلاة ، وتلك المناجاة مع الله ، وهم يرجون الرضى والثواب من الخالق الوهاب ، وترى ملامح التقوى على وجوههم ، لأن طهارة الداخل في الغالب تفيض أنوارها على الظاهر ، فيبدو حسنا رائعا ، وهم كالزرع إذا نما ، وقوي واستوى ، وأعجب الناس بكثرته وقوته وجمال منظره ، وهم مؤمنون محسنون ، يعملون الصالحات ، ويتجنبون السيئات ، فيحمد الناس لهم طباعهم وفعالهم ، ويجزيهم ربهم بالخير العميم والأجر العظيم...

فهذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم لمحمد وصحبه تتضمن تحريضاً على العناية بتربية النفس تربية قويمة ، فيها من مبادئ الفروسية : صفات القوة والتماسك ، والرحمة والتواضع ، والثقة والإيمان ، والتزام الطهر والعمل والخلق الكريم..

وحينما قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم :

«يأَيُّهَا النَّبيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى القِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ منكُمْ عِشْرُونَ

(١) سورة الفتح.

صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ منكم مائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ[1] » .

أراد الله من هؤلاء المؤمنين أن يحققوا في أنفسهم ما يجعلهم أهلا لتلك الغلبة الفذة والانتصار الفريد ؛ من التربية العسكرية ، والإقدام على التضحية ، وإتقان الجهاد ، والثبات في مواطن البأس ، والتمسك بمبادئ الفروسية الإسلامية التي لا يذل صاحبها ولا يخزى ، وهو في الوقت نفسه لا يضل ولا يطغى...

* * *

ولقد خص الإسلام تربية الشباب البدنية بمزيد من عنايته ، فحث الإسلام على تعلم السباحة ، والرماية ، وركوب الخيل ، وغير ذلك من ألوان الفتوة الرياضية ، وشرع السباق في الجري ، والمصارعة ، والنضال بالسهام ، والرماية بالقوس ، والرهان ، والطعن بالرمح والحربة ، وركوب الخيل مسرجة ومعراة ، والسباحة ، والضرب بالسيف ، ورفع الأثقال[2] ، والسباق بين الفرسان المتسابقين على الخيل أو الإبل ، واشترك النبي صلوات الله وسلامه عليه في هذا ، حين تكررت منه مسابقته لزوجته السيدة عائشة ، ووضع الرسول لهذه المسابقات نظما وتفاصيل ، وعود صحابته أن يتعلموا التواضع في ذلك ، مع الاستعداد للتحدي حينما لا يجدي التواضع ...

عودهم التواضع ، وضرب لهم المثل في ذلك من نفسه. فهذه ناقته « العضباء » ، يذاع عنها أنها سباقة لا يغلبها سابق ، فيأتي أعرابي على قعود[3] له ،

---

(١) سورة الأنفال

(٢) في كتاب الفروسية لابن القيم : « مر النبي بقوم يرفعون حجراً ليعرفوا الأشد منهم ، فلم ينكر عليهم » ص ٥٧.

(٣) القعود . الجمل الصغير السن.

ويسابق العضباء فيسبقها ، فيشتد ذلك على المسلمين ويقولون : سبقت العضباء !!.. سبقت العضباء !... فيقول الرسول في تواضع :

« إنَّ حقا على الله ألا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه » !...

وعودهم مع هذا أن يكونوا على استعداد لقبول التحدي.. فعن سلمة بن الأكوع الصحابي قال :

بينما نحن نسير ، وكان رجل من الأنصار لا يسبق أبدا ، فجعل يقول : ألا مسابق إلى المدينة ؟.. هل من مسابق ؟.. فقلت : أما تكرم كريما وتهاب شريفا ؟.. قال : لا ، إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : قلت : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ، ذرني أسابق الرجل. فقال : إن شئت .. فسبقته إلى المدينة !!...

وسلمة بن الأكوع هذا هو الذي شهد بيعة الرضوان ، وبايع النبي يومئذ ثلاث مرات : في أول الناس ، ووسطهم ، وآخرهم ، وكان — كما يروي النووي — شجاعا راميا ، محسنا خيراً فاضلا ، غزا مع رسول الله عليه صلوات الله وسلامه سبع غزوات ، ويقال شهد غزوة « مؤتة » ، وثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خير رجالنا سلمة بن الأكوع ». وقد قال الرسول هذه العبارة في غزوة « ذي قرد » لما أنقذ سلمة إبل الرسول من الأعداء الذين أغاروا عليها وهزمهم وحده ، وقد توفي رضي الله عنه بالمدينة سنة اربع وسبعين.

* * *

ولقد ضرب رسول الله عليه الصلاة والسلام من نفسه القدوة العليا لكل فتى وفارس ، فقد كان سيد الفتيان وإمام الفرسان..

كان قوي البدن ، مفتول العضل ، نشيط الحركة .. يقول أبو هريرة : « ما رأيت أحدا أسرع من رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيه ، كأنما الأرض تطوى له ، إنا لنجهد أنفسنا وهو غير مكترث » !!..

وكان جريئاً مقداما... فزع أهل المدينة ليلة من صياح سمعوه، فخرجوا يستطلعون النبأ، فإذا هم يجدون رسول الله راكباً جوادا عاريا لأبي طلحة، وقد سبقهم إلى الصوت، وعرف جلية الأمر، وجعل يطمئنهم قائلا: لن تراعوا...

وقال عن الفرس الذي كان يركبه النبي: «وجدناه بحرا»، وكان هذا الجواد بطيئا من قبل، فلم يسبقه سابق بعد ذلك!!..

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم محبا للخيل، شغوفا بها، خبيرا بأمورها، ولقد روى النسائي في «السنن» أن الخيل كانت أحب الأشياء إلى رسول الله بعد عطفه على النساء، ونقل ابن القيم ذلك عن النسائي!..

وكان على خير استعداد لقبول التحدي والفوز في مجاله دون مباهاة أو ازدهاء... فقد صارع ركانة بن عبد يزيد، وكان من أشد قريش، ولا يغلبه أحد، فلقي الرسول يوما في بعض شعاب مكة، فقال له النبي: «يا ركانة، ألا تتقي الله وتقبل ما أدعوك إليه»؟... قال: إني لو أعلم أن الذي تقول حق لا تبعتك. فقال الرسول: (أفرأيت إن صرعتك أتفهم أن ما أقوله حق)؟. قال: نعم. فقم حتى أصارعك، فقام إليه ركانة يصارعه، فصرعه النبي، فلما بطش به الرسول أضجعه، وهو لا يملك من نفسه شيئاً... ثم قال ركانة للنبي: عد يا محمد.. فعاد النبي إلى مصارعته فصرعه!!.. ثم اسلم ركانة بعد ذلك.

* * *

(وركانة) هذا هو ابن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب، أسلم يوم فتح مكة، ومن حديثه عن النبي أنه قال: (إن لكل دين خلقا، وخلق هذا الدين الحياء).

وكان ركانة مخيفا مرعبا في قوته وشدته، وكان له حفيد، اسمه علي بن يزيد بن ركانة، وقد أوتي من القوة والشدة ما لم يكن لأحد في عصره، أشبه في ذلك جده ركانة، وله في ذلك أخبار رواها الفاكهي المؤرخ، منها خبره مع يزيد بن معاوية،

وكان يزيد بن معاوية من اشد العرب ، فصارعه يوما فصرعه علي بن يزيد صرعة لم يُسمع بمثلها ؛ ثم حمله بعد ذلك على فرس جموح لا يطاق ، فعلم (علي) ما يراد به ، فلما جمح به الفرس ضم عليه فخذيه ضمة نفق منها الفرس ، أي مات...

وذكر عنه أيضا أنه تأبط رجلين أيدين (قويين) شديدين. ثم جرى بهما وهما تحت إبطيه حتى صاحا : الموت!... الموت!!... فأطلقهما!.

وهناك اختلاف في اسم ركانة ؛ فبعضهم يرويه (ركانة) ، وبعضهم يذكره (ابو ركانة). وبعضهم يذكره (ابن ركانة)...

ويروى الإمام ابن القيم في كتابه (الفروسية) هذه المصارعة بالعبارة التالية :

«عن عبد الله بن الحارث قال : صارع النبي صلى الله عليه وسلم أبا ركانة في الجاهلية وكان شديدا. فقال : شاة بشاة. فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم. فقال ابو ركانة : عاودني في أخرى!... فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم. فقال : عاودني في أخرى ، فعاوده فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم. فقال أبو ركانة : ماذا أقول لأهلي؟... شاة أكلها الذئب ، وشاة نشزت (هربت) ، فما أقول للثالثة؟!. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما كنا لنجمع عليك أن نصرعك ونغرمك ، خذ غنمك!..

وقال أبو داود في كتاب (المراسيل) : حدثنا موسى بن إسماعيل ، عن حماد بن سلمة ، عن عمرو بن دينار ، عن سعيد بن جبير ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بالبطحاء ، فأتى عليه يزيد بن ركانة بن يزيد ، ومعه أعنز له. فقال : يا محمد ، هل لك أن تصارعني؟.. فقال : ما تسبقني. فقال : شاة من غنم[1]!. فصرعه فأخذ الشاة. قال ركانة : فهل لك في العودة؟. فقال : ما تسبقني. قال : أخرى.. ذكر ذلك مرارا ، فقال : ما محمد ، والله ما وضع أحد جنبي إلى الأرض ، وما أنت

---

(١) أي يكون لك شاة إن سبقتني.

بالذي تصرعني !. (أي أنت مؤيد من الله بقوة). فأسلم، ورد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم غنمه[1] !!...

وصارع النبي صلى الله عليه وسلم كذلك أبا الأشدين كليدة بن أسيد بن خلف الجمحي، فصرعه مرارا.. وكان أبو الأشدين هذا كافراً مستهزئا بالرسول الكريم وبالقرآن المجيد. ويروي أنه لما نزل قول الله عز وجل يصف النار وزبانيتها: (وما أدراك ما سقر؛ لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر) قال أبو الأشدين للكافرين: اكفوني منهم اثنين، وأنا أكفيكم سبعة عشر.. قال هذا إعجابا منه بنفسه واغترارا بقوته. وكان قد بلغ من الشدة فيما زعموا أنه كان يقف بمفرده على جلد البقرة، ويجاذبه عشرة رجال، فينتزعوا الجلد من تحت قدميه، فيتمزق الجلد، ولا يتزحزح كلدة عنه، وقد تحدى كلدة النبي صلى الله عليه وسلم، ودعاه إلى المصارعة، وقال للرسول: إن صرعتني آمنت بك!.. فصرعه الرسول مرارا، ولكنه لم يؤمن!!..

وبعض الرواة يذكر أن النبي صلوات الله وسلامه عليه صارع أبا جهل جاء في تفسير الفخر الرازي عند تفسير قوله تعالى: «إن شانئك هو الأبتر» ما يلي: «روى أن أبا جهل اتخذ ضيافة لقوم، ثم إنه وصف رسول الله بهذا الوصف (يعني وصف الأبتر) ثم قال: قوموا حتى نذهب إلى محمد وأصارعه، وأجعله ذليلا حقيراً، فلما وصلوا إلى دار خديجة وتوافقوا على ذلك أخرجت خديجة بساطاً، فلما تصارعا جعل أبو جهل يجتهد في أن يصرعه، وبقي النبي عليه الصلاة والسلام واقفا كالجبل، ثم بعد ذلك رماه النبي صلى الله عليه وسلم على أقبح وجه. فلما رجع أخذه باليد اليسرى، لأن اليسرى للاستنجاء، فكأنه نجا[2]، فصرعه على الأرض مرة واحدة، ووضع قدمه على صدره، فذكر بعض القصاص أن المراد من قوله: «إن شانئك هو الأبتر» هذه الواقعة[3].

---

(١) كتاب الفروسية لابن القيم، ص ٣٢ و٣٣.

(٢) النجا: الغائط، أي البراز. (٣) تفسير الفخر الرازي، ج٨ ص ٥٢٧.

ولكن جاء في كتاب «تهذيب الأسماء واللغات» للامام النووي ما نصه : فأما ما روى في مصارعته صلى الله عليه وسلم أبا جهل فلا أصل له !.

ولقد صارع رسول الله صلى الله عليه وسلم من صارع ، وتغلب عليهم مراراً ، دون مباهاة منه أو افتخار ، وهذا هو التواضع الكريم ، وهذا هو الاطمئنان النبيل عند الفوز والانتصار.

وكان إمام الفرسان صلوات الله وسلامه عليه مثلا في الثبات عند البأس ، والرسوخ في مواطن الزلزلة والابتلاء ، حتى يقول الإمام علي رضي الله عنه : «كنا إذا اشتد البأس ، واحمرت الحدق ، إتقينا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم. وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً».

ومع هذا البأس وتلك الشدة في المواطن الملائمة لها ، كان محمد مثال الرقة والرحمة وجمال الخلق ، وحسبه أن يقول فيه القرآن الكريم وهو أصدق واصف :

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ[(١)] ».

« فِيمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ[(٢)] ».

ولقد علم الرسول أتباعه العناية بالخيل ، والإتقان لأمورها جميعها ، لأنها من وسائل الفروسية وآلات الفتوة ، فقال : «الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة».

---

(١) سورة التوبة.

(٢) سورة آل عمران.

والقرآن الكريم يزكي هذه العناية حين يقسم في مطلع إحدى السور بالخيل الجارية المجاهدة ، المغيرة على باطل الكفر ، المثيرة تراب الهزيمة على الشرك ، فيقول :

« والْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ، فالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ، فالْمُغِيْرَاتِ صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ، إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ » .

والعاديات ضبحا : هي خيل المجاهدين التي تضبح ، أي يظهر صوت أنفاسها عند جريها .

والموريات قدحا : هي الخيل التي تظهر شرار النار من احتكاك أرجلها بالصخور عند الجري .

والمغيرات صبحا : هي التي يغير اصحابها على أعدائهم صباحا . وإثارة النقع : هو تهييج التراب والغبار بسبب الحركة السريعة .

وتوسط الجمع : هو أن يصير المجاهد شجاعا ، لا يخاف أن يتوسط أعداءه ليحاربهم .

والإنسانُ الكنود : هو العاصي الذي يكفر النعمة .

وعلمهم حياة الإعداد والاستعداد ، والتأهب للنوازل والملمات ، فقال : « تعرض أعمال بني آدم كل اثنين وكل خميس ، فمن زاد في سلاحه زيد في حسناته ، ومن نقص من سلاحه نقص من حسناته » . والقرآن الكريم يزكي هذا بقوله الجليل :

« وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

وإعداد المستطاع من القوة هو شعار الفرسان ، ومنهج الكملة من الفتيان .. ولذلك جاء منظمو «حركة الفتيان الكشافة» في العصور الأخيرة واستمدوا شعار الكشافة من هذا الهدى، فجعلوه : «كن مستعداً». أي صالحاً لأداء الواجب

عليك في كل الأحوال وجميع الظروف ، بكل ما تستطيع من قوة الجسم ، وقوة الفهم ، وقوة الخلق ؛ وهذا الاستعداد يستلزم اتباع منهج خاص في الحياة والمعيشة ، يؤهل صاحبه لاستطاعة القيام بالواجب ، وهذا المنهج ينبني على التقشف والرياضة والمجاهدة والاستعصام بحياة العزة والقوة والإباء .

وقد رسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبناء الإسلام دستور الحياة الخشنة القوية الفتية ، التي لا تعرف الذلة أو الترف أو الخنوع ؛ رسمه في وصيته الرائعة التي أوصى بها جنود المسلمين المجاهدين في أرض العجم ، حين خاف عليهم أن يصيبهم ما أصاب الأعاجم من حياة النعيم والرفاهية ، وأحب أن أنقل نص هذه الوصية ، وتعليق الإمام بن القيم عليها كما جاء في كتابه «الفروسية»[1] قال :

«قال علي بن الجعد : حدثنا شعبة قال : أخبرني قتادة قال : سمعت أبا عثمان النهدي قال : أتانا كتاب من عمر بن الخطاب ونحن بأذربيجان : «أما بعد ، فاتزروا ، وارتدوا ، وانتعلوا ، وألقوا الخفاف ، وألقوا السراويلات ، وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل ، وإياكم والتنعم ، وزي العجم ، وعليكم بالشمس فإنها حمام العرب ، وتمعددوا ، واخشوشنوا ، واخلولقوا ، واقطعوا الرُّكب ؛ وانزوا على الخيل نزوا ، وارتموا الأغراض» !...

قلت : هذا تعليم منه للفروسية ، وتمرين البدن على التبذل ، وعدم الرفاهية والتنعم ، ولزوم زي ولد إسماعيل بن إبراهيم ، فأمرهم بالاتزار ، والارتداء ، والانتعال ، وإلقاء الخفاف ، لتعتاد الأرجل الحر والبرد ، فتتصلب وتقوى على دفع أذاهما ...

وقوله : «وألقوا السراويلات» استغناء عنها بالأزر (جمع إزار) ، وهو زي العرب ، وبين منفعتي الإزار والسراويل تفاوت من وجه ، وهذا أنفع من وجه ،

---

(١) كتاب الفروسية ، ص ٩ و١٠ مطبعة الأنوار سنة ١٣٦٠ هـ.

فالإزار أفضل في الحر ، والسراويل أنفع في البرد ، والسراويل أنفع للراكب ، والإزار أنفع للماشي...

وقوله : «وعليكم بثياب أبيكم إسماعيل» يدل على أن لباسه كان الأزر والأردية .

وقوله : «وإياكم والتنعم وزي العجم» فإن التنعم يخنث النفس[1] ، ويكسبها الأنوثة والكسل ، وما آثره من أفلح (أي لم يفضله من كان عاقلا) .

وأما زي العجم فالمشابهة في الزي الظاهر تدعو إلى الموافقة في الهوى الباطن ، كما دل عليه الشرع والعقل والحس ، ولهذا جاءت الشريعة بالمنع من التشبيه بالكفار والحيوانات والشياطين والنساء والأعراب وكل ناقص .

ثم يقول ابن القيم : وقوله : «عليكم بالشمس فإنها حمام العرب» فإن العرب لم تكن تعرف الحمام ، ولا كان بأرضهم ، وكانوا يتعوضون عنه بالشمس ، فإنها تسخن وتحلل كما يفعل الحمام .

وقوله : «وتمعددوا» أي الزموا المعدية[2] ، وهي عادة معد بن عدنان في أخلاقه وزيه وفروسيته وأفعاله .

وقوله : «واخشوشنوا» أي تعاطوا ما يوجب الخشونة ، ويصلب الجسم ، ويصبره على الحر والبرد والتعب والمشاق ، فإن الرجل قد يحتاج إلى نفسه ، فيجد عنده خشونة وقوة وصبرا ما لا يجدها صاحب التنعم والترفه ، بل يكون العطب إليه أسرع .

وقوله : «واخلولقوا» هو من قوله : اخلولق السحاب بعد تفرقه ، أي اجتمع

---

(١) أي يكسبها تكسراً وتثنياً وليناً وضعفاً.

(٢) في رواية : والزموا العربية. انظر كتاب عيون الأخبار ، المجلد الأول ص ١٣٢ .

وتهيأ للمطر وصار خليقا له ، فعنى اخلولقوا : تهيئوا واستعدوا لما يراد منكم[1] وكونوا خلقاء به جديرين بفعله ، لا كمن ضيع أسباب فروسيته وقوته عند الحاجة .

وقوله : «واقطعوا الركب»[2] إنما أمرهم بذلك لئلا يعتادوا الركوب دائماً بالركاب ، فأحب أن يعودهم الركوب بلا ركب ، وأن ينزوا على الخيل نزوا . أي يقفزوا فوقها قفزاً .

وقوله : «وارتموا الأغراض» . أمرهم بأن يكون قصدهم في الرمي الإصابة لا البعد ، وهذا مقصود الرمي ؛ ولهذا إنما تكون المناضلة على الإصابة لا على البعد» ! . . .

وقد روى ابن قتيبة الدينوري هذه الوصية العمرية الجليلة بنحو العبارة السابقة ، ومن الزائد فيها أن عمر ينهي عن لبس الحرير للرجال ، إلا قدر إصبعين ، وهو ينهي عن الحرير اتباعاً للسنة التي تباعد بين أهلها وبين ثياب الترف والنعيم ، وروى أيضاً عن عمر ما يلي :

«وقال أيضاً : لن تخور قوة ما كان صاحبها ينزع وينزو ، يعني ينزع في القوس ، وينزو على الخيل من غير استعانة بالركب ، وقال العمري : كان عمر بن الخطاب يأخذ بيده اليمنى أذن فرسه المنى ، وبيده اليسرى أذن فرسه اليسرى ، ثم يجمع جراميزه (أي أعضائه) ويثب ، فكأنما خلق على ظهر فرسه[3] » .

والنزع في القوس : هو الرمي بها ، والنزو على الخيل هو الوثوب فوقها ، وجمع جراميزه أي جمع بعضه إلى بعض تهيئا للوثوب ثم وثب ! ولا شك أن الصورة التي

---

(١) انظر الشبه القوي بين هذا الهدى السابق وبين شعار الكشافة الحديث : «كن مستعداً» .

(٢) الركب : بضمتين ، جمع ركاب ، وهو ما يضع فيه الفارس رجله .

(٣) عيون الأخبار ، المجلد الأول ، ١٣٢ .

رسمها العمري لوثوب عمر الفاروق رضي الله عنه فوق فرسه تدل على رياضة قوية وفروسية واضحة !...

* * *

ومما يتصل بمنهج الفروسية في الإسلام التقليل من الطعام ، لأن التخمة تؤدي إلى ضيق الهمة ، وقلة الحركة ، وضعف العزيمة ، وبلادة الطبع ؛ والإمام ابن رجب الحنبلي يقول : «قلة الغذاء توجب رقة القلب ، وقوة الفهم ، وانكسار النفس ، وضعف الهوى والغضب ، وكثرة الغذاء توجب ضد ذلك» . وعن عمرو بن قيس : «إياكم والبطنة فإنها تقسي القلّب» !.

ولذلك نرى الفرسان دائما في خفة من أجسامهم ، ودقة من أطرافهم ، ونراهم يحذرون البطنة حتى يظلوا شباباً في أبدانهم ، شباباً في حركاتهم ، شباباً في عزائمهم ؛ والإسلام قد عنى كثيراً بمحاربة البطنة وكثرة الأكل ، ودعا طويلا إلى التخفيف من الطعام ، حتى لا نفتح على البدن أبواب السقام ، ففي الحديث : «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع» . وفيه : «المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء» ، وفيه : «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه» .

ولقد تمدح العرب بخفة أجسامهم وقلة لحمهم ، وعدوا ذلك مفخرة من مفاخرهم ، كما عدوا امتلاء البدن وترهل الجسم مسبة ومشتمة ، فهذا هو الحسين بن مطير يقول مفتخرا :

رأت رجلا أودى بوافر لحمه طلاب المعالي واكتساب المكارم[1]

(١) أي أنها رأتني رجلاً نحيل الجسم ، لأنني جاهدت لتحقيق المكارم والمعالي فخف جسمي ونحل.

خفيف الحشا، ضربا، كأن ثيابه على قاطع من جوهر الهند صارم(١)
فقلت لها: لا تعجبن، فإنني أرى سمن الفتيان إحدى المشاتم(٢)

والواقع أن ترك الباب مفتوحا أمام المعدة، تتناول من الطعام ما تشاء عندما تشاء بلا حساب، هو بلية البلايا وخطر الأخطار في حياة الإنسان، وكم من شباب لم يعالجوا هذا البلاء فأتخموا، وتكرشت بطونهم، وترهلت أبدانهم، فشاخوا قبل الأوان، وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا سمينا، فجعل يشير بيده إلى بطنه، ويقول: «لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك!!»..

وكم من عقلاء التفتوا في دقة وعناية إلى هذه الناحية فظلوا بشبابهم في الحياة، على الرغم من مضي عقود من الأعوام عليهم وهم في هذه الحياة. والمرء يستطيع أن يظل شابا أمدا طويلا إذا لم يدخل على جسمه إلا ما يحتاج إليه...

* * *

ويرسم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم طريق الفروسية القوية وسبيل الفتوة الشريفة المؤمنة، التي لا تضعف، ولا تتخاذل، ولا تعجز ولا تتعلل عند العثرات بالأماني والتشكي، بل تقبل وتجاهد وتواصل، وتستعين بالله مصدر القوى والقدر، فيقول:

«المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء الله فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان!!»...

---

(١) الضرب: الرجل الخفيف اللحم، وجوهر الهند: أي حديد الهند. ويريد أن عوده خفيف مستقيم صلب كالسيف القاطع...

(٢) أي فقلت لها: لا داعي لتعجبك، فإن ضخامة البدن يعاب بها الإنسان.

والقوة هنا معنى عام يشمل قوة الجسم ، وقوة العقل ، وقوة الروح ، وإذا صار المسلم قويا في جسمه وعقله وروحه ، فقد استقام على صراط الفروسية الحقة التي يزكيها الإسلام !!.

والله يهدي العاملين.



فهرس

ان الله اشترى

الموضوع	الصفحة
المجاهد ضجيج الرملة عبادة بن الصامت الخزرجي	٨١
المجاهد حامل التراب عاصم بن عمرو التميمي	٩٤
المجاهد باللسان والسنان القعقاع بن عمرو التيمي	١٠٠
المجاهد القائد الشهيد عقبة بن عامر الجهني	١٠٦
شهيد من الخليج الجارود بشر بن عمرو العبدي	١١٣
المجاهد المعطاء عدي بن حاتم الطائي	١٢١
الشهيد الزاهد زهير بن قيس البلوي	١٣٢
المجاهد المخلص قيس بن المكشوح المرادي	١٣٦
المجاهد بقية أهل بدر جابر بن عتيك الأنصاري	١٤١
فدائي من أبطال الهجرة عبد الله بن أبي بكر الصديق	١٤٦
المجاهد الصادع بالقرآن عبد الله بن مسعود	١٥١
المجاهد طويل العمر أبو امامة صدي بن عجلان الباهلي	١٥٩
امام الفدائيين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم	١٦٤

موسوعة الفداء

عرض للكتب الستة	١٨٠
— الكتاب الأول : «الفداء في الإسلام	
— الكتاب الثاني : فدائيون في تاريخ الإسلام	١٨٧
— الكتاب الثالث : أبطال عقيدة وجهاد	٢٠٢
— الكتاب الرابع : بين الوفاء والفداء لفضيلة الدكتور أحمد الشرباصي	٢١٣
— الكتاب الخامس : رجال صدقوا لفضيلة الدكتور أحمد الشرباصي	٢٢١
— المتاب السادس : «إن الله اشترى» للدكتور أحمد الشرباصي	٢٢٦

الموضوع	الصفحة

أمين الأمة أبو عبيدة

سيف الله خالد بن الوليد



مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار الدورة - البوشرية
تلفون ٨٣٧١ ٨٩٤







